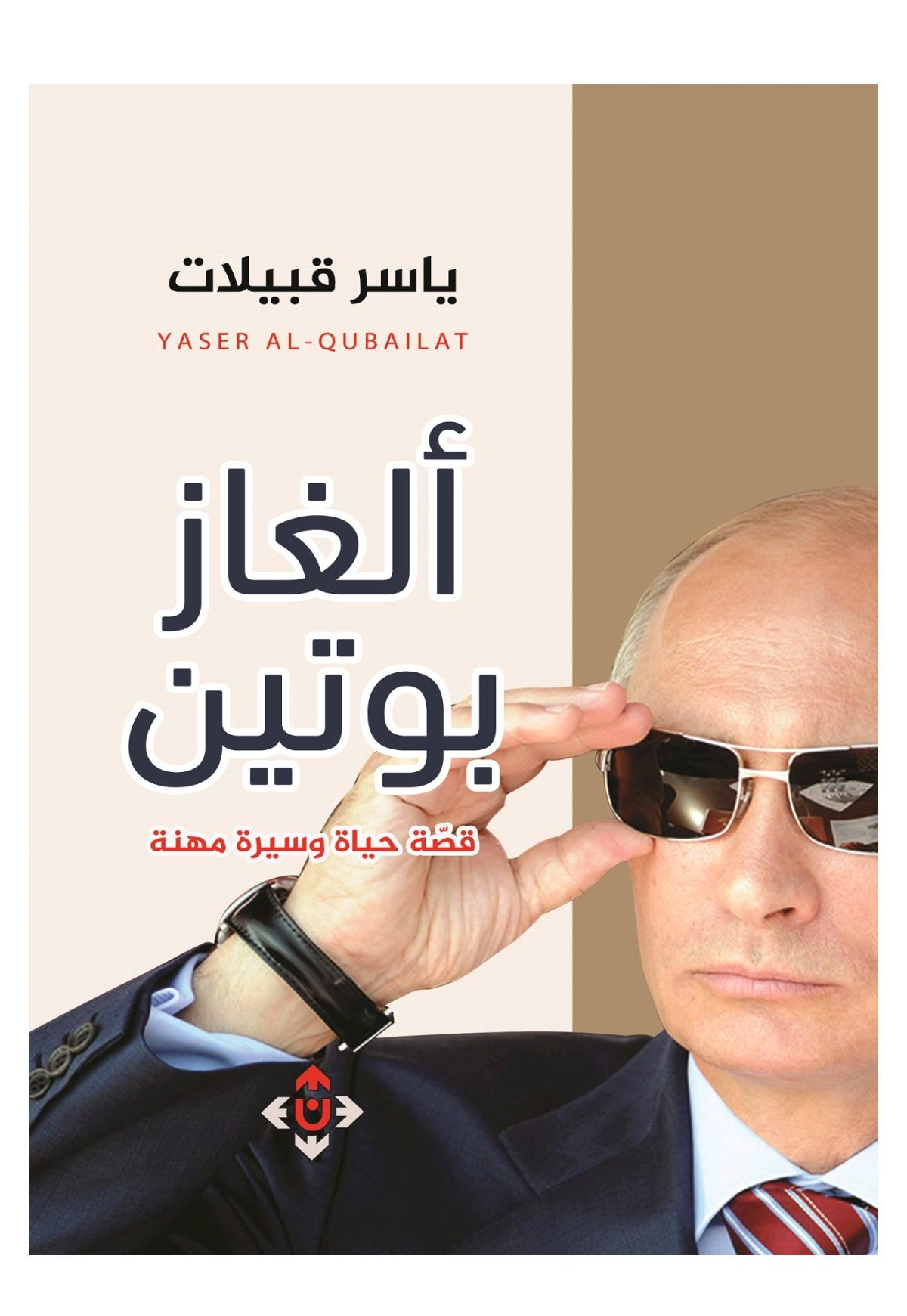


ياسر قبيلات
YASER AL-QUBAILAT
ألغاز
بوتين
قصّة حياة وسيرة مهنة

ألغاز بوتين (قصة حياة وسيرة ومهنة)

ياسر قبيلات (كاتب أردني)

الطبعة الأولى 2018.



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: جعفر العقيلي.

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، عمارة البيجاوي (69)، ط3.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

التنسيق الداخلي: **م.سجود العناسوة.**

تصميم الغلاف: محمد خضير

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية: (124/1/2018)

ISBN: 978-9957-698-79-9

ياسر قبيلات

ألغاز بوتين

قصة حياة وسيرة مهنة



مقدمة مشغولة بالنهاية

هناك ألغاز كثيرة تحيط بفلاديمير بوتين الحالي. بوتين الرئيس الذي يدير الأمور. ولكن هناك الكثير من الألغاز الأخرى حول بوتين المسؤول في الإدارة الذي كان يُدار، ويطلب الإذن، ويستمزج، وينال التفويض من غيره.

في الواقع، فإن سيرة بوتين في مراتب السلطة العليا تثير العجب، تماماً كما سيرته المهنية في الظل، مثلما أيضاً ظهوره «المفاجئ» في مراتب السلطة الأولى؛ لقد كان دائماً يبدأ كل وظيفة يشغلها، وكل منصب يتسلمه، بداية صحيحة مدهشة، تتواصل في مسيرة نجاح، لا تنتهي إلا بانتقاله إلى موقع أعلى.

وكأن الرجل يأتي إلى كل منصب، ليجد أمامه على طاولة مكتبه الجديد خطة عمل محكمة وجاهزة، يباشر بتنفيذها منذ الدقيقة الأولى، دون الحاجة للتعرف على العمل الموكل إليه حديثاً، ومسؤولياته، وصلاحياته.. ودون أن يضطر لإضاعة الوقت بالتفكير بما يتوجب عليه فعله!

والأكثر إدهاشاً وعجباً، أن سلوكه، بمجمله، يتجاوب مع أفكار محددة وواضحة يتداولها العقل العلمي في المؤسسات البحثية والعلمية في روسيا، وأن نهجه السياسي يعتمد على مشاريع كبرى، متداخلة كحلقات الدوائر، التي تتقاطع أطرافها؛ وكل واحد من هذه المشاريع يوحي بأن الارتجال والأفكار الطارئة العشوائية لا مكان لها في سيرته، ولا دور لها في سياسته؛ ما يثير السؤال والتعجب حول سر جهوزيته المسبقة لتنفيذ سياسات محددة، واضحة، دون ارتباك أو تردد..

هل كان، فعلاً، يتم تدويره من مكان إلى مكان، ومن وظيفة إلى أخرى، لتنفيذ خطط جاهزة، أُعِدَّت له مسبقاً..!؟

ليس هذا هو اللغز الوحيد، ولا الأول، ولا الأهم، في حياة الرجل، الذي يبدو

كأنه، على نحو ما، مجرد مهنة لها حياة شخصية، وليس العكس. انكشاري من نوع معاصر. يمنح شخصيته وإرادته لهيكل مؤسسي ما، سواء أداره هذا الهيكل، أم كان هو من يديره. وأفضل مثال لتوضيح ذلك أن ملفات الفساد التي أُتهم بها، لا تبدو شخصية رغم أنه أفاد منها شخصياً على الأغلب..

كان يبدو دائماً أنها تصب في جيب ذلك الهيكل المؤسسي، الخفي!

بدأ بوتين مع تقدمه في السلم السياسي يهتم بتقديم معلومات عن نفسه، وكان
قبل ذلك يجتهد في فعل العكس؛ أي، تجنب خلق أي فضول تجاه شخصه، وعمله، وحياته الخاصة. ومن الواضح أن هذا الاهتمام المتأخر بتقديم معلومات عن نفسه جاء استجابة لضرورة سياسية (انتخابات العام **2000**). ولكن السيرة التي قدمها هو بنفسه، من خلال حوارات مع صحافيين، والأخرى التي قدمها مؤرخون وصحافيون وكتّاب سيرة، تُقدِّم تسلسلاً معيناً لوقائع مختارة بعناية من حياته، يوهم القارئ أنه عرف الرجل من الألف إلى الياء، ولكنها في الحقيقة تبدو مجرد قصة تُحذف فعلياً، وتُضيف ضمنياً، ما يريد بطلها الأول.

ليست سيرة وافية، ولا تروي كل الحكاية..

وبهذا، فإن عدد الألغاز والمساحات البيضاء الفارغة تزداد بمقدار ما يتراكم من كتب وأعمال سيرة تحاول أن تقدّم سيرة واضحة للرجل؛ بل أنها لا تجيب على الأسئلة، ولا تبدد الغموض.

لا يزعم هذا الكتاب النجاح في هذا المجال..

ويبرر نفسه، بأن البديهيات المعروفة عن بوتين لدى قراء اللغات الأخرى، لا تتوفر لدى المهتمين والخبراء بالشأن الروسي من بين الناطقين باللغة العربية، ناهيك عن القراء العرب العاديين؛ إضافة إلى أنه يقدم على أساس المعلومات والسير المتوافرة بالروسية، تحليلات خاصة تمثل فرضيات إضافية إلى جانب

تلك الفرضيات والسيناريوهات، التي يؤمن المؤلف بجديتها، دون أن تتوفر لديه القناعة الكافية بمطابقتها للواقع..

يعتمد هذا الكتاب، في تتبع سيرة بوتين الخاصة والمهنية على سير شبه رسمية، نشرها باللغة الروسية صحافيون وكتاب سيرة ومشتغلون بالتاريخ السياسي ومؤرخون. والنزر القليل من المصادر الأجنبية (غير الروسية) اطُّلِع عليها منشورةً باللغة الروسية.

ولكن هذه السير والمصادر، التي استعنا بها، تنطلق في الغالب من قناعات معينة، لصالح الرجل وضده!

لذا، تطلّب الأمر جهداً مضنياً من البحث والتنبيش في مصادر أخرى، ومقارنة المعلومات والاستدلال على النواقص والفجوات، والتحقق والتدقيق في المرويات، والانتباه إلى الثغرات، وإسناد الروايات المرضي عنها بأخرى جدية يرفضها صاحب السيرة نفسه.. وهذا حال يُصعّب انتاج نص متوازن أو متماسك، بلا ثغرات!

ولكن هذا الكتاب، بالمقابل، يفرد مساحة وافية لرواية الرجل الخاصة لسيرة حياته، التي جاءت في حوارات مع صحافيي صحيفة «كوميرسانت» ونشرت على أبواب انتخابات عام **2000** في كتاب جاء بعنوان: «من المصدر الأول: أحاديث مع فلاديمير بوتين»، أو بترجمة أدق: «بضمير المتكلم: أحاديث مع فلاديمير بوتين»..

وهذا، بظني، أكثر من عادل بحق الرجل..!

ما أغفله الرجل نفسه من سيرة حياته، وما أهملته وتجاوزت عنه السير الرسمية وشبه الرسمية، جرى التقصي والبحث عنه بمراجعة أحاديث الرجل المنشورة والمصورة، وفي شهادات ومذكرات عارفيه وزملائه السابقين ومتتبعي سيرته الآخرين، وكذلك في مذكرات معاصريه، بدءاً من أصدقاء

طفولته، مروراً بزملاء مهنته الاستخباراتية، وصولاً إلى أركان النخبة السياسية الروسية في ذلك الوقت، مثل الرئيس الروسي السابق بوريس يلتسين والسياسي المخضرم يفغيني بريماكوف وبعض بطانة العهد الروسي في التسعينات مثل بوريس نيمتسوف وألكسندر كورجاكوف وغيرهم.. وهذا شيء يلقي الضوء على الجانب الآخر من الصورة وإن كان لا يجعلها وافية!

وبالمقابل، فإن شهادات وآراء المناوئين والمعارضين لبوتين، على تنوعهم واختلافهم واختلاف انتماءاتهم ومواضيع خلافهم مع الرجل، ليست قليلة الحضور في هذا الكتاب.

قد تبدو كلها أو بعضها متعسفة، ولكنها في الواقع متداولة بجدية ولا يتم الرد عليها من صاحب الشأن، أو هو يتجنب الخوض فيها أصلاً. وهناك من جهة أخرى، في هذا الكتاب، ما يماثل ذلك من روايات رسمية براقة، هي مرفوضة وغير مقبولة من بعض متتبعي سيرة الرجل من مؤرخين وإعلاميين وغيرهم من معاصريه وعارفيه ومناوئيه.

وذلك كله، في خطة هذا الكتاب مقصود، فهو يهدف بالأساس إلى أن يقدم للقارئ العربي ذلك القدر من المعلومات التي تتوفر للمواطن والإعلام الروسييَن حول بوتين.

عموماً، هذه مجرد مقدمة مشغولة بالنهاية، وقد لا يكون لها أي داع!

مفاجأة رئاسية

تعيين وريث

قبل ثلاثة أسابيع من العام الجديد، وحلول الألفية، دعا الرئيس الروسي السابق بوريس يلتسين رئيس وزرائه الجديد فلاديمير بوتين إلى مكتبه؛ في ذلك الوقت، كانت الحرب الشيشانية الثانية ما تزال حديث موسكو، المأخوذة بالطريقة الحازمة والصارمة التي أدار بها رئيس الوزراء الجديد، القادم من ظلال الـ«كي. جي. بي» القاتمة، تلك العملية العسكرية. ولكن العملية الخاطفة، التي فاجأت الغرب بإعلانها عن الوجه القوي للجندية والآلة العسكرية الروسية، مشحونة بهذا القدر غير المسبوق من الإرادة، نزلت كالصاعقة على رؤوس بعض من قادة مراكز القوى في النخبة الحاكمة بموسكو، وأثارت العالم وملأته ضجيجاً وانتقادات ساخطة. وكان نظام يلتسين المتداعي والمغلوب على أمره، يميل في ذلك الوقت إلى سماع ما يقوله العالم الغربي، وينزل عند قوله، نزوله عند الأوامر الملزمة.

كان بوتين يتوقع أن يدفع غالياً ثمن حزمه ونصره الساحق.

لذا، توقع، في ما يتوقع، أن يكون سبب استدعاء الرئيس له هو تلك العملية، ولم يستبعد أن يكون الضغط الخارجي، والشغب الداخلي، قد أتى ثماره مع الرئيس، وأن لحظة دفع الثمن قد حانت.

لدى وصوله، استقبله الرئيس باسماً، وبدا معنياً بالظهور بحالة نفسية جيدة، منشرحاً، وهادئ البال. وما أن انتهيا من تبادل التحية وجلسا في مكانيهما، حتى راح يلتسين يتحدث مع ميل إلى التفصيل عن تجربته مع السياسة والرئاسة. وبدا في الأثناء كمتقاعد قديم يتذكر الأيام الخوالي؛ تثير بعض الذكريات انفعاله فيبتسم بينما يشد قبضته ويرتفع صوته، ثم يخبو عند الوصول للحديث عن أخرى، فيبدو مرهقاً يجاهد لإنهاء الكلمات التي بدأ بقولها.

وفي لحظةٍ، صمت هنيهة، ثم قال:

- لقد قرّرت أن أتنحى. وأنت، فلاديمير فلاديميروفيتش، بحكم أنك رئيس الحكومة، سيتعين عليك أن تتولى رئاسة البلاد بالوكالة. إلى حين الانتخابات، التي آمل أن تدفع بترشيحك فيها.

ونظر في وجه رئيس وزرائه الجامد، وانتظر ما سيقول؛ إلا أن بوتين بقي ينظر إلى رئيسه، صامتاً، كأنما لم يقل شيئاً!

لم يكن النصف الثاني من عقد تسعينات القرن الماضي سهلاً على روسيا، ولا كان كذلك على رئيس البلاد، آنذاك، بوريس يلتسين؛ فقد انتقل عهده من راحة الحكم بأسلوب إغداق الوعود الوردية، إلى الحكم المثقل بالنتائج الكارثية لسياساته، التي أفقرت الشعب، وحطمت الدولة، وأهانت موظفي أجهزتها وقادة جيشها..

وكان يلتسين، الذي تحول من معبود الطبقة الوسطى إلى مجرد مندوب أمريكي في رئاسة روسيا، يحيط به الفساد، ويثقله سجله السياسي المليء بالآثام، يبدي عجزاً متزايداً في إدارته للبلاد، وفشلاً ذريعاً في الحفاظ على وحدتها، بينما سلطته تتقلص إلى حدود ضيقة، وشعبيته تتوالى بالانحدار.

وزيادة على ذلك، بات عزله ومحاكمته، مطلباً شعبياً، وشعاراً يوحد أقطاباً متناقضين، وقوى متنافرة، ويحشد تظاهرات صاخبة؛ وأضحى ملاحقاً من جانب معارضيه الشيوعيين والقوميين، الذين أصبحت دعوتهم لعزله ومحاكمته تجمع حولهم الحشود وتأييد عامة الناس، وقطاعات واسعة من النخب، بينما لم يكن بوسعه أن يُركِن إلى الدولة أو أجهزتها، التي هي إما غارقة في الفساد الذي يحيط به، أو غاضبة تضمر له السوء.

أما رئيس وزرائه الجديد، فكان يعرف أن الأمر وصل بالرئيس إلى لحظته الحرجة: البحث عن مخرج آمن!

مخرج آمن يتيح له تسليم السلطة، ويوفر له ملاذاً آمناً، وحصانة قانونية تمنع محاكمته، وتحميه من معارضيه المتزايدين، الذين أضحوا يشكلون أغلبية في مجلس الدوما.

قال يلتسين، الذي يراقب ردة فعل رئيس وزرائه الخالية من الانفعال:

- لم أسمعك تعلق؟

اعتدل بوتين في جلسته، ولم يبد أنه سيتحدث كثيراً، أو يعبر عن أي انفعال، ولكنه قال:

- أتعرف، بوريس نيكولايفتش، لنكن صادقين، إنني لا أعرف ما إذا كنت مستعداً لهذا، أو إن كنت أريد ذلك أم لا، لأن هذا قرار صعب بما يكفي.

كانت الصورة قاتمة في مرآة الرئيس المتداعي..

من جهة، كان مجلس الدوما مشغولاً بمناقشة تنحيته ومحاكمته، فيما يضيق عليه المعارضون الخناق. بينما كان هو نفسه غارقاً لا يجد حلاً لمعضلات الدولة. لا في الإدارة، ولا في الاقتصاد. وقبل أن يدخل بوتين المشهد، كان يعجز عن وضع نهاية لمأزق الدولة في الشيشان.

وبالمقابل، كانت جهوده لإيجاد حل ينجيه من مأزقه متعثرة؛ لم يكن يجد وريثاً له، مناسباً، يضمن أمنه وسلامته وعدم المساس به، فمال أكثر إلى الاحتماء بسطوة الطغمة المالية.

ونفسياً، كان هناك شبح غورباتشوف الذي يكرهه، ويكره التماثل معه في أي شيء، فما بالك بالخاتمة التي تنذر بها التطورات المتسارعة، ويهدده بها معارضوه، وتتيح لخصمه اللدود، آخر رئيس للاتحاد السوفيتي، أن يشمت به..!؟

لقد كانت حياة يلتسين وسيرته المهنية سلسلة من عمليات تحطيم

غورباتشوف وكل ما يمثّل؛ وقامت حياته السياسية على توجيه الضربات للأمين العام وللحزب الشيوعي والدولة السوفيتية. وها قد انهارت الدولة السوفيتية، وغاب الحزب، وانتهى غورباتشوف؛ غير أنه يعيش اليوم لحظة مشابهة لما عاشه غورباتشوف في نهاية حياته السياسية.

ويتهدده خطر أن ينتهي النهاية ذاتها، بل وأسوأ منها..!

بات يلتسين وقتها يتذكر بقلق أنه، عقب إجبار غورباتشوف على التنحي، رفض استقبال رئيس الاتحاد السوفيتي المستقيل في مكتبه؛ وكان من المتفق أن يلتقيه لاتمام إجراءات تسليم الحقيبة النووية، وتعمد تركه ينتظر بمكتبه الذي يبعد خطوات معدودة. ثم في النهاية قال، بتعال وعجرفة لم يخفهما، أنه لا يستقبل رؤساء سابقين!

ولم يشف ذلك غليله..

انتظر إلى أن يئس الرجل وغادر بعد أن سلم «الحقيبة» عبر أيد وسيطة، فانتقل مع عدد من رفاقه إلى مكتب غورباتشوف، ونظّم هناك جلسة شراب استمرت حتى الصباح التالي.

ولم يكفه ذلك..

في نهاية السهرة، وبينما هو يغادر، أصدر أوامره بـ«تشميع» مكتب رئيس الاتحاد السوفيتي المستقيل كيلا يستطيع غورباتشوف العودة إليه لجمع بقية حاجياته الشخصية دون إذن ورجاء.

ولم يتوقف عند هذا الحد..

أتبع ذلك، بإبلاغ قرينة غورباتشوف بضرورة الإخلاء الفوري للمسكن الحكومي المخصص للعائلة، دون أن يعرض بديلاً له، ثم سحب السيارة الحكومية المخصصة للرئيس السابق دون إخطار.

كانت هذه الانتقامية، هاجساً مقيماً لدى الرئيس المتداعي، وتختزل أشد مخاوفه سوداوية، خصوصاً مع علمه أن لا أحد معه؛ لا الشارع، ولا القوى السياسية، ولا الطغمة المالية التي يعرف أنها ستتخلى عنه لدى أول تحد تواجهه.

وكان الوضع يزداد خطورة؛ والأحداث تتسارع، وتلزمه بمعاجلة العثور على وريث مناسب، يكون ضامناً، وحامياً، وحارساً لحصانته القضائية.

في العام 1998، في سياق البحث عن ذلك «الوريث»، استقدم يلتسين شاباً مغموراً (سيرغي كيرينكو) من عالم الطاقة، وعينه رئيساً للوزراء. غير أن الأحداث تداعت على نحو كارثي؛ إذ انهار الروبل ودهمت البلاد أزمة مالية استدعت إقالة حكومة كيرينكو.

أضطر على إثر ذلك للإذعان لضغوط مجلس الدوما، فعين يغفيني بريماكوف، الذي يملك سمعة حسنة ومواقع راسخة بين أوساط المعارضة اليسارية واليمين الروسي. غير أنه لم يستقر طويلاً على بريماكوف، وأقاله بعد ثمانية أشهر، بحجة عدم وضعه رسم ستراتيجية اقتصادية واضحة، وبسبب ما قال أنه انتهاج لأساليب «الحزب» والدولة السوفيتية في إدارة البلاد. وفي الحقيقة كان بريماكوف أغضب الطغمة المالية وحاشية الرئيس بمهاجمته قلاعها الحصينة، التي تحمي الفساد.

تالياً، عين وزير الداخلية سيرغي ستيباشين رئيساً للوزراء رغم معارضة الدوما، الذي عاد ووافق خوفاً من لجوء الرئيس إلى حلّه. ولكن الرئيس المتداعي عاد بعد ثلاثة أشهر، وأقال ستيباشين ليعيّن فلاديمير بوتين خلفاً له. وهكذا أصبح بوتين خامس رئيس وزراء يعينه يلتسين خلال ثمانية عشر شهراً.

لقد قضى يلتسين وقتاً طويلاً يرتب لخروجه من الرئاسة، واختار موعداً يرضي أناه المتضخمة؛ فقرر أن يغادر مع القرن العشرين. رتب لذلك، وبعد عدة

محاولات وقع اختياره على بوتين.

والآن، مع اقتراب الموعد الحرج، يفاجأ ببوتين يلعب دور الزاهد في السلطة!

ولكن لم يكن أمامه سوى قبول اللعبة بالشروط المفروضة عليه: يزهد بوتين بالسلطة، بينما يلعب هو دور طالب الخدمة الممتن؛ إذ لا وقت كاف لتدبير خيار آخر، إضافة إلى أن ذلك غير ممكن، فإرادته تقابلها إرادات. وإرادة المنسحبين أضعف من إرادة المتشبثين بالسلطة.

لم يكن من خيار سوى استخدام اللغة الأبوية.

قال يلتسين:

- أنا نفسي، عندما جئت إلى هنا، كانت لدي أيضاً خطط أخرى. ولكن الحياة سارت بهذا الاتجاه. لم أكن أريد ذلك، ولكني وجدت نفسي فيما بعد أقاتل من أجل الرئاسة. وأعتقد أن الأمر كذلك بالنسبة لك، الحياة تدفع بهذا الاتجاه، وسيتوجب عليك اتخاذ قرار.

لبث يلتسين لحظة صامتاً، ولكن كان من الواضح أن بوتين الذي يصرّ على لعب دور المنصت المطيع والغافل عن أهمية ما يُعرض عليه، لا ينوي قول شيء في التعليق على تلك الكلمات، التي قالها الرئيس بينما كان يحاول أن يجعل من مناسبته الحزينة شيئاً مفرحاً، فقال كأنما يقرّر عن بوتين:

- إن بلدنا ضخم جداً، ولكن مع ذلك سوف تنجح!

وصولاً إلى ظهيرة ذلك اليوم الأخير من العام 1999، أذيع خبر تنحي يلتسين وتعيين فلاديمير بوتين رئيساً لروسيا بالوكالة؛ فكان للخبر وقع المفاجأة لدى الكثيرين داخل روسيا وفي العالم، وشكّل صدمة لكثيرين آخرين في السلطة وخارجها، وراحوا جميعهم يتساءلون: من يكون هذا الـ«بوتين»، ومن أين جاء، ومن جاء به، وفي أي ظروف، ولماذا..!؟

اللغز الأول

أسرار السلالة

«جذوري العائلية تعود إلى القرن السابع عشر. حينها لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية قد وجدت بعد. وربما في هذا يكمن الفارق ما بيننا وبينكم» .

بوتين في حديث مع مجموعة من الصحفييّن الأمريكيين.

أقنان وعمال وفلاحون

يبدو أن حال بوتين نفسه مع تاريخ عائلته ليس أفضل حالاً من المهتمين به، وبسيرة حياته؛ فما ينقله عنه كتاب سيرته، وما يرد ذكره على لسانه في بعض المقابلات المصورة، لا يشبع الفضول، ولا يسعف الباحث.

في الواقع، فإن قلة المعلومات عن عائلة بوتين لها أسباب موضوعية؛ فهي عائلة صغيرة، لا تثير الاهتمام، وفي مستوى معين تكاد تكون مجهولة، وغير معروفة، ولم يكن لها أي حضور محسوس قبل أن يبزغ نجم الرئيس الروسي. وهي من جهة ثانية، لم تضم في أفرادها، قبله، أعلاماً بتلك الأهمية التي تجعلها ملحوظة.

حينما ظهر اسمه لأول مرة بالإعلام، بدا غير مألوف تماماً!

ويبدو أن هذا، بالذات، خدم على نحو ما فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين، رجل الاستخبارات، الذي كان عمله يفرض عليه التواري وعدم إثارة الانتباه. ناهيك عن أن ذلك أتاح له، نسبياً، أن يدخل الحياة السياسية متخففاً من أحمال الأفكار المسبقة، التي قد تتراكم بنتيجة أنشطة أسلافه وسير حياتهم.

ويمكن اعتباره من هذه الناحية محظوظاً، لقد تركزت الأفكار المسبقة، التي أحاطت به، على ماضيه وخلفيته المهنية، هو نفسه، كضابط في الإدارة الرئيسية الأولى في الـ«كي. جي. بي». وهي الإدارة التي تزاول أنشطة الاستخبارات الخارجية بمختلف أنواعها ومكافحة التجسس. لم يكن لديه أسلاف معروفين يمكن تتبعهم، والحكم عليه من خلال سيرتهم..

وبهذا كان هو، أو من يهمه الأمر، قادرين على كتابة سيرة حياة جديدة كاملة له، حسب الطلب!

هذه الميزة بالطبع خدمت بوتين إلى مرحلة معينة. لكنها تحولت لاحقاً بعد

وصوله للرئاسة إلى فجوات بيضاء لم يتورع بعض من الخصوم والمناوئين عن ملئها على هواهم، وبما يتناسب وتسويد صفحة الرجل بقصص لا أصل لها، ولا تمت للحقيقة بصلة؛ فابتدعت الحكايات التقليدية المجرّبة والمعهودة، التي يتم اللجوء إلى اختلاقها لدى الرغبة في التشويش على سياسي روسي وضرب أسباب شعبيته..

بدءاً من التشكيك بأصوله، وصولاً للتحذير من خطورة «دوره الغامض»!

لقد برز بوتين كزعيم روسي بالمعنى التاريخي، الذي يؤثر بوجدان العامة، فكان لازماً التشكيك بروسيته؛ فنسجت الحكايات عن أصوله اليهودية.. مرّة بزعم أن والدته يهودية، وأخرى تؤكد يهوديته هو شخصياً من حيث الانتماء العرقي..

ثم من حيث الارتباطات والولاء، والميول، والأداء..!

وبرز كشخصية تتمثل الدولة ومنعتها، معنياً بقوتها، فكان لزاماً زرع بذور الشك في انتمائه لوطنه، وولائه لدولته؛ فنسجت القصص عن والده، تقول أنه كان عميلاً لألمانيا النازية، قاتل معها ضد وطنه، خلال الحرب العالمية الثانية، التي يسمّيها الروس بـ«الحرب الوطنية العظمى»..!

والمقصود بالطبع أن يقال: «الرئيس نجل لخائن»!

ومثلت خدمته في ألمانيا، بصفوف الـ«كي. جي. بي»، الرصيد الأكثر تدليلاً على علاقته بالإرث السوفيتي، يطمئن العامة من الشعب إلى نواياه، وانتسابه إلى مشروع يشملهم، لا إلى مشروع يقصيهم؛ فكان لزاماً تحطيم هذه الصورة، وإلغاء أثرها؛ فانتشرت الروايات تتحدث عن «ألماني في الكريملين».

والمقصود بالطبع أن يقال أنه هو نفسه خائن!

ولحسن الحظ، أن ذلك القليل المعروف عن عائلة بوتين، وعنه شخصياً، وعن والديه، موثق بما يكفي، وينسف كل هذه الروايات من أساسها، ويحيلها إلى

مجرد حبر أسود على ورق متآكل.

وهذا «الحبر الأسود على الورق»، الذي يتناول سيرة حياة بوتين، بالذات، يجعل من الأهمية بمكان البدء من عائلته وطفولته لدى الشروع بالحديث عنه، والتعريف به.

وهذه السيرة تبدأ حكماً بما يعرفه، أو بالأحرى بما يرويه هو..

يقول بوتين، نفسه، إنه يعرف عن عائلته من جهة والده أكثر مما يعرف عن أقربائه من جهة أمه. ولكن هذه المعرفة تبقى محدودة، لا سيما وأن صاحبها كتوم بطبعه، ولم يعتد أن يقول «أكثر مما يجب». مع ملاحظة أن «ما يجب» هو بالضرورة أقل مما يعرف بكثير.

ولنبدأ مع «ما يجب»..

تنتسب عائلة بوتين إلى محافظة «تْفير» الواقعة في المسافة بين موسكو وسانت بطرسبورغ، وكانت تعيش في الأصل، هناك، في قرية فومينوفا بمنطقة تورغينوفو، التي لا يزال منزل العائلة قائماً فيها لليوم. ومن المؤكد أن العائلة، ولمدة تصل إلى نحو ثلاثمائة عام، كانت تنتمي إلى الأقنان العاملين في الأرض، الذين تحولوا لاحقاً إلى مجموعات من العمال والفلاحين.

بوتين، نفسه، نشأ في عائلة عمالية معدمة.. وهذا الأصل البسيط، استدعاه بوتين أكثر من مرة. ولا تُنسى هبته الغاضبة بوجه زعيم الحزب الليبرالي الديمقراطي فلاديمير جرينوفسكي، الذي وصف الشعب الروسي على نحو مقذع مستهيناً بالنوازع العمالية والفلاحية، خلال اجتماع لرؤساء الكتل البرلمانية مع بوتين. حينها اندفع بوتين بشعور من الاستفزاز المستحكم يقول: «أنا بالمطلق لا أوافقكم، فلاديمير لفوفيتش. أنا نفسي من عائلة عمّالية!».

هذه الوثبة الغاضبة موثقة على «اليوتيوب» بتسجيل يحظى رواجاً..!

في وقت مبكر انتقل عدد من أفراد عائلة بوتين إلى سانت بطرسبورغ. ولكن علاقتهم بمسقط رأسهم لم تنقطع. كانوا يعودون إلى هناك في الإجازات، أو في الظروف القسرية، كما خلال الحربين العالميتين: الأولى والثانية.

من المؤكد أن والد بوتين، فلاديمير سبيريدونوفيتش، ينتسب إلى ذلك الجيل من العائلة الذي ولد في سانت بطرسبورغ. هناك حيث ولد كذلك فلاديمير بوتين نفسه، وحيث عمل في وقت باكر جده لأبيه.

ومن المفهوم أن هذه الهجرة من «تْفير» إلى سانت بطرسبورغ قد عنت حدوث تحول في أحوال بعض أفراد العائلة، أتاح لهم (أو اضطرهم) لترك العمل في الأرض، وشق طريقهم في الحياة من خلال المهن التي تتيحها الحياة في المدن.

هذه المعلومات الأولية، يؤكدها ويوثقها بحث عائلي..

في أواسط الثمانينات اهتم أحد أبناء عمومة بوتين بتقصي تاريخ العائلة، وبالنتيجة تمكن من الوصول إلى إثني عشر جيلاً منها، يمتدون إلى بداية القرن السابع عشر تقريباً. لم يكن من الممكن تقصي أبعد من ذلك لغياب الوثائق.

وبحسب بحوث هذا القريب، واسمه ألكسندر ميخائيلوفتش بوتين، فإن العائلة تنتسب إلى سلالة الفلاحين من منطقة «تْفير»، الذين عاشوا تقريباً في نفس المكان لمدة أربعة قرون على الأقل، جيلاً بعد جيل. وبوتين هنا محظوظ: ذلك أن نسبه معروف وموصول حتى أوائل القرن السابع عشر.

وهذا بالنسبة لسليل عائلة من الفلاحين العاديين شيء نادر ويصعب توقعه!

كان الناس، في ذلك الوقت، يتنقلون من طرف البلاد الشاسعة إلى طرفها الآخر. ولهذا، كان الكثير منهم يفقدون الصلة بجذورهم، بينما كانت الحروب والحرائق تدمر الوثائق الارشيفية المتعلقة بهم، فتضيع أصولهم وأسماء جدودهم وكل تاريخهم العائلي.

ولكن في حالة بوتين ثمة عوامل ساعدت على حفظ بعض تاريخ عائلته..

أولها، التاريخ المشترك لوالديه، اللذين ينتسبان لقريتين متجاورتين، حيث عاش أسلافهما لأجيال عديدة. وثانيهما، أن قرية بومينوفو التي ينتمي إليها بوتين، لم تتعرض للحرق، ولم تُدمّر، ولم تتلاش وتختفي، كما حصل مع عشرات الآلاف من القرى الروسية في السنوات المائة الأخيرة.

وما تزال بومينوفو قائمة ومأهولة حتى هذا اليوم..

يعيش في بومينوفو اليوم، بحسب ما يذكر ألكسندر ميخائيلوفتش بوتين في كتابه «سلالة آل بوتين»، خلال فصل الشتاء 19 فرداً فقط، ولكن في الصيف يأتي المصطافون من أبنائها ونسلهم، ومعظمهم يأتون من موسكو، التي تبعد حوالي 120 كيلو مترا، ومن سانت بطرسبورغ، وكذلك من مدينة «تْفير» نفسها.

معلومات إضافية تكشفت حول هذه البلدة وحول العائلة بعد صعود بوتين. إضافة إلى أن المعلومات العائلية الموثقة التي بدأ بجمعها ألكسندر ميخائيلوفتش منذ الثمانينات ونشرت في السنوات الأولى من العقد الجديد في كتاب، أضحت مهمة بشكل استثنائي، على خلفية الاهتمام الإعلامي المحلي والعالمي بشخصية الرئيس الروسي، الذي بدا أنه قفز إلى سدة الحكم فجأة، وفي غفلة تامة من توقعات مراكز الدراسات والاستخبارات!

وتحرك هذا الاهتمام حتى في بوتين نفسه؛ إذ يقول الأب أندريه (ميلياييف)، الذي يخدم في كنيسة البلدة، في بومينوفو، أنه اتُّصِل به عام 2004 من الإدارة الرئاسية، يسألون عما إذا كان يستطيع أن يؤكد أن والديّ الرئيس عُمِّدا في كنيسته.

ولنلاحظ، هنا، تاريخ هذا الاهتمام المفاجئ من الرئاسة بـ«تعميد» والديّ الرئيس..

إنه ببساطة يتزامن مع الاتهامات حول أصول بوتين اليهودية المزعومة. والأهم أن هذه الاتهامات تزامنت مع الاستعدادات للانتخابات الرئاسية لولاية بوتين الثانية، التي يواجه فيها بوتين في العادة منافسين شرعيين داخليين، ولاعبين ومتدخلين خارجيين.

أي، ببساطة لا يمكن فصل هذا الحديث التشكيكي المحموم عن الحملة الانتخابية..

الروايات التي تتحدث عن يهودية بوتين، تستند إلى اسم عائلة والدته ماريا إيفانوفا (شيلوموفا)، وتعتبر أنه يهودي عن طريق الأم باعتبار اسم عائلتها المقتبس من مفردة عبرية. غير أن مجموعة متاحة من الحقائق تدحض ذلك. أولها أن ليس في كل الشهادات التي كتبت عن العائلة ما يشير إلى اختلاف ديني أو عرقي. لا بما يتعلق بوالدة بوتين ولا بالنسبة لحملة هذا الاسم العائلي البعيدين، ومقطوعي الصلة بالرئيس الروسي.

من جهة أخرى، الأصل الفلاحي للعائلة يشير إلى عائلة روسية؛ فالمعروف أن اليهود لم يكونوا بالأساس فلاحين وأقنان. كانوا أصحاب حرف ومهن على مر التاريخ. ولو كانت لهم أصول يهودية، لكانت المعاناة العرقية واحدة من الفصول الأساسية في سيرة العائلة، ولا شيء من هذا في سيرة عائلة والدة بوتين، ولا في عائلة بوتين نفسه.

ثمة شواهد أخرى عفوية، يمكن رصدها في سيرة بوتين..

حينما يلاحظ بوتين الصغير أثناء طفولته، وإقامته في لينينغراد، جاراً يهودياً، فإنه يلاحظه ويثير انتباهه بالذات لاختلافه عن المألوف، ولأنه كان بسلوكه الاعتيادي غريب عليه. ومن الواضح في ذكرياته حول هذا الجار وهذه الجيرة أنه كان يصطدم لأول مرة بفكرة وجود اليهود المختلفين عن الروس. وعلاوة على ذلك يبدو أن والدي بوتين لم يكونا يكنان الود لجارهم العجوز اليهودي، كما هو متوقع من مواطنين روس عاديين، لديهم أفكارهم التقليدية حول هذه

المجموعة من الناس.

الأمر الآخر، وهو متعلق باسم عائلة والدة بوتين؛ إذ يبدو أنه من التعسف الجزم أن اسم العائلة مستدعى من مفردة عبرية. ليس فقط لعدم المطابقة التامة مع المفردة المقصودة وهي «شالوم»، بل لأن «شيلوم» ومنها «شيلوموفو» مفردة شائعة في الجغرافيا الروسية، فلا تكاد تخلو منطقة أو محافظة روسية من بلدة أو مدينة تحمل هذا الاسم. وعلى الأغلب أن العائلة أخذت اسمها من واحدة من هذه المناطق، كما هو الحال مع العديد من العائلات الروسية.

وفي الأصل، لا يجوز تجاهل السجلات الرسمية المتعلقة بأفراد هذه العائلة، التي تؤكد انتماءهم القومي الروسي.

أصول ونتف روايات

ما تجدر الإشارة إليه هو أن أول الاتهامات حول أصول بوتين اليهودية صدرت من رجل الأعمال اليهودي المهاجر من لينينغراد (بطرسبورغ حالياً) يتسحاق رادوشكيفيتش، الذي قال للكاتب إدوارد خودوس سنة 1997، شيئاً من قبيل: «قريبي فلاديمير بوتين لديه فرص كبيرة للصعود في سلم السياسة الروسية».

ولكن من هو إدوارد خودوس هذا..؟

إنه كاتب وجامع تحف من أوكرانيا، يهودي له كتابات تعادي مجموعة «حباد» وغيرها من المجموعات اليهودية المتشددة العاملة في روسيا، على خلفية صراع داخلي؛ ولكنه هو نفسه دائم التردد على إسرائيل، بل وكان يترأس الجالية اليهودية في مدينة خاركوف. بل، ليس لديه كتاب واحد لا يتضمن عنوانه كلمة «اليهود»!

وأكثر من هذا، يفترض أن رجل الأعمال يتسحاق رادوشكيفيتش قال له ذلك خلال تجاورهما في مقعد طائرة متجهة من تل أبيب إلى كييف، بينما كان عائداً من زيارة جاءت تلبية لوزارة الخارجية الإسرائيلية، ولكنه لم يذكر هذه الواقعة إلا في الجزء الثالث من كتابه «المتلازمة اليهودية» الصادر عام 2003. أي، على أبواب الحملة الانتخابية الرئاسية الروسية التي جرت مطلع العام التالي، واستبقت بحملات دعاية شرسة..

وعنه، أخذت كل المصادر موحية أن هذه الإشارة نُشرت في حينه؛ أي في عام 1997. ولم تكن ذكرت في الواقع، من قبل صاحبها أو من الشخص الذي نسبت إليه، قبل عام 2003 مطلقاً!

وتنقل المصادر كذلك عن الأوليغارش اليهودي بيريزوفسكي، قوله لصحيفة «كوميرسانت» (15 يوليو 2005): «يمكن لبوتين الحصول على الجنسية الإسرائيلية، باعتباره من الناحية العرقية يهودياً من جهة الأم. هذا لعب دوراً

هاماً في وصوله إلى السلطة».

ولكن بيرزوفسكي قال هذا بعد عام من الانتخابات وبالتزامن مع ظهور الاتهامات!

والأهم، أنه كان حينها سنة (2005) من ألد أعداء بوتين، الذي كان سجنه واضطره لمغادرة روسيا والهرب إلى لندن، بعد أن جرّده من ممتلكات وأصول كبيرة كان استولى عليها من الدولة في فترتي حكم غورباتشوف ويلتسين..

أليس من الظريف رؤية يهودي يحاول تشويه سمعة شخص آخر باتهامه باليهودية!

وعلى أي حال، ليست هذه الرواية الوحيدة. هناك روايات تختلق خطاً عائلياً جورجياً لبوتين، بل وتورد له سيرة حياة تتضمن طفولة مختلفة تماماً، وتتناقض مع الوقائع المؤكدة والمثبتة بالوثائق وبشهادات العارفين. ومن الطريف أن بوتين في هذه الرواية ليس ابن والديه المعروفين. بل هو ابن متبنى من قبلهما.. وهذه رواية تستحق أن تروى..

لا يفوتنا هنا الانتباه أن مثل هذه المرويات والمزاعم لم تطل سيرة حياة بوتين فقط، بل طالت من قبله حياة الزعماء السوفييت والكثير من السياسيين الروس. وهي معتادة، ولها توظيفاتها المعروفة مسبقاً.

ولكنها ليست عديمة الفائدة تماماً، فهي تدفع لإلقاء الضوء على التفاصيل المهملة!

ومثل ذلك فإن الاهتمام المتزايد بمنطقة تورغينوفو في «تْفير»، بعد أن زارها الرئيس الروسي عام 2011 لحضور خدمة عيد الميلاد في كنيسة الشفاعة فيها، قد ساعد على إلقاء الضوء على التاريخ العائلي لبوتين، لا سيما أن تلك الزيارة حظيت باهتمام خاص، فقد ارتبطت بإشاعة سرت مثل النار بالهشيم تقول إن الرئيس عدّل خططه ولجأ إلى مسقط رأس عائلته، على خلفية ورود معلومات

بوجود مخطط لاغتياله أثناء حضوره المناسبة في موسكو.

ولكن قبل ذلك كان الاهتمام ببوتين قد أنتج نتفاً من قصص حول تاريخ العائلة! الموثوق من هذه النتف والقصص قليل، ولكنه على أي حال متكرر بين أغلب الروايات والشهادات، سواء تلك التي تسردها السير شبه الرسمية، أو تلك المستقلة، أو الكارهة للرجل، كما يتكرر لدى بوتين نفسه. وبالتالي يمكن الاطمئنان إلى صحتها باعتبار أن ما يتفق عليه المختلفون هو على الأغلب مؤكد!

تبدأ هذه النتف من جد بوتين قبل أن تذهب إلى تاريخ العائلة..

جد الرئيس بوتين، سبيريدون إيفانوفيتش، كان طاهياً. عمل حتى قيام الثورة البلشفية في بيتروغراد (سانت بطرسبورغ) بمطعم «أستوريا» المرموق في بداية شارع «غاروخوفايا»، على مقربة من مبنى الأدميرالية.

ومن المفترض أن هذا المطعم -ويالسخرية القدر!- يقع في الفندق الذي يحمل نفس الاسم، وأصبح اسمه في بداية تسعينات القرن المنصرم عنواناً لفضيحة فساد صاخبة أثارها خصوم ضد الحفيد الرئيس!

ولنعد إلى جد بوتين، سبيريدون إيفانوفيتش..

في بداية القرن العشرين، بدا أن الحياة تسير على نحو جيد مع بوتين الجد، فمكان عمله كان يُعدّ وقتها أكثر الأماكن رقياً في العاصمة القيصرية، يؤمّه المشاهير من الكتّاب والسياسيين والنخبة الحاكمة. بل إن سبيريدون إيفانوفيتش بوتين وبحسب الكاتب ألكسندر ناؤوموف قد سجل في سيرته واقعة لقاءه بغريغوري راسبوتين الأسطوري..

يكتب ناؤوموف حول واقعة لقاء جد بوتين براسبوتين: «كان سبيريدون إيفانوفيتش بوتين يعمل طاه في مطاعم سانت بطرسبورغ، بما في ذلك في مطعم أستوريا في شارع غاروخوفايا، الذي كان غريغوري راسبوتين يحب

التردد عليه. ووفقاً للأسطورة العائلية، فإن راسبوتين طلب ذات مرّة استدعاء الطاهي، فخرج إليه. فشكره راسبوتين على الطعام اللذيذ الذي أعده، وسأله عن اسمه. ولما علم أن اسم عائلته هو بوتين، ابتسم ابتسامة عريضة، وقال:

- لدينا نفس اسم العائلة تقريباً..!

ثم وضع في يده قطعة ذهب».

بالطبع، فات الكاتب ألكسندر ناؤوموف أن حادثة اللقاء مع راسبوتين هي افتراضية، وردت أول مرة في كتاب «تقاطع» (1995) للكاتبة أنستاسيا نوفيخ، وهو كتاب من أدب الخيال السياسي، أو بالأحرى أدب الافتراض السياسي الذي يستخدم وقائع وشخصيات حقيقية في سياق افتراضي، يتطابق مع الواقع، أو قد لا يتطابق..

ظهرت هذه الواقعة الافتراضية بعد ذلك في كتاب «موسوعة بوتين: العائلة، الفريق، المنافسون، والخلفاء»..

الكتاب، الذي ينقل عنه ناؤوموف هذه الواقعة الافتراضية، من إعداد نيكولاي زينكوفتش، ومن إصدار عام 1998، لا يمكن اعتباره سيرة ذاتية رسميّة أو رصينة. بل هو بمثابة قاموس يقدّم تعريفات موجزة بما لا يزيد عن فقرة أو اثنتين، ويوفر المعلومات الأهم المتاحة بصرف النظر عن صدقيتها.

ومع ذلك، من المحتمل جداً أن يكون بوتين الجد قد التقى راسبوتين؛ فقد عاش راسبوتين لفترة على نفس الشارع، في البناية رقم 64. ومن شقته فيها، الواقعة في الطابق الثاني، خرج في مشواره الأخير، ليلاقي حتفه قتلاً بالطريقة العجيبة المعروفة.

تجدر الإشارة إلى أن توقف بعض كتاب سيرة بوتين عند راسبوتين ليس صدفة!

الأمر بالعادة يبدأ من الإشارة إلى التطابق اللفظي العجيب بين اسمي الشهرة العائليين: «بوتين» غير المألوف، و«راسبوتين» الاسم المستعار. ومن التذكير الذي توحي به مهنة بوتين الصاروخية مع ظهور شخصه على نحو مفاجيء في مسرح الأحداث بالدور العجيب الذي لعبه راسبوتين.

مقروناً بذلك، بالطبع، رغبة البعض في تمرير فكرة أن بوتين هو راس«بوتين» العصر!

بعض الرغبات المتعسفة ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك، فحاولت إيجاد منطق يؤسس لفرضية أن يكون بوتين حفيداً لراسبوتين. على أساس أنه شاع في روسيا خلال تلك الفترة إعطاء أسماء شهرة للمواليد غير الشرعيين مجتزأة من اسم شهرة الأب، على مثال أن الابن غير الشرعي لرجل اسم شهرته ناؤوموف يمكن أن يحظى باسم شهرة يكون «أوموف».

وبالتالي، فإن «بوتين» الأب يمكن أن يكون ابناً غير شرعي لوالد يحمل اسم شهرة هو «راسبوتين»..!

في الواقع، ليس الحقد السياسي فقط ما يشجع على اختلاق القصص والروايات المختلفة، بل أن ما في سيرة بوتين وعائلته من فجوات ومساحات بيضاء يغري بالبحث عن مختلف الفرضيات التي يمكن أن تسد هذه الفجوات. ولكن المعيار الحقيقي يبقى في صمود أو عدم صمود تلك الفرضيات إلى جانب الوقائع الأخرى المؤكدة من سيرة آل بوتين، وسيرة بوتين نفسه.

من هذه مثلاً عدم وجود اسم شهرة بوتين في السجلات الرسمية حتى بدايات القرن الماضي!

إن أول مرة يذكر فيها اسم عائلة بوتين في الوثائق الرسمية كان عام 1905، وذلك في سجل كنيسة الشفاعة في مقاطعة تورغينيفو في سجل الأحوال المدنية، حيث ثُبِّتت واقعة زواج ألكسندر بوتين وناتاليا روجكوفا. وهذا للوهلة

الأولى يبدو مريباً بما يكفي، لمن تغيب عنهم مفارقات الواقع الروسي، أو لا يعرفونها.

في الواقع، سبب الغياب عن السجلات والوثائق الرسمية بسيط ومؤكد؛ ذلك لأنه قبل إصلاحات عام 1861 في روسيا لم يكن هناك تسجيل لأسماء عائلات الأقنان في الوثائق، وكانوا يذكرون بشكل عام: «أنا نيكولاي، ابن ايفانوف، من بومينوفا»، دون ذكر للعائلة. وبطبيعة الحال لم يكن من حقهم امتلاك اسم عائلة. وهذا الحال كان ينطبق على عائلة بوتين وغيرها من عوائل الأقنان!

لقد شهدت روسيا في عهد القيصر ألكسندر الثاني أول وأهم الإصلاحات الليبرالية، التي أنهت سنة 1861 القنانة التي عانى منها الفلاحون الروس؛ فأقر مرسوم الإصلاح حرية الأقنان في امتلاك الأراضي والمنازل. وبهذا القرار تحرّر ما يزيد عن 23 مليون روسي، وحصلوا لأول مرة على حريتهم ومواطنتهم الكاملتين، فأصبح بإمكانهم الزواج دون موافقة ملّاكيهم وامتلاك الأراضي والأعمال التجارية الخاصة. وتم منحهم حق شراء الأراضي التي كانوا يعملون بها من الملاكين القدامى، وكذلك الحق باسم الشهرة العائلي.

ومن المستفيدين من هذه الإصلاحات كانت عائلة بوتين!

وكان الأقنان والفلاحون في تلك الفترة يلجأون للهجرة إلى المدن، للعمل فيها لسداد قيمة الأراضي التي حصلوا عليها بموجب الإصلاحات. وكذلك كان حال أهالي بومينوفو الذين كانوا يتّجهون في الغالب للعمل في العاصمة سانت بطرسبورغ. ولكنهم مع نهاية القرن التاسع عشر بدأوا يغادرون إلى هناك في هجرة دائمة تمتد لسنوات، ولا تقتصر على مواسم محددة!

وهذا، عملياً، كان التغير الذي طرأ ونقل تاريخ العائلة من «تْفير» إلى سانت بطرسبورغ!

لقد كان المهاجرون من أهالي منطقة «تْفير»، في تلك الفترة، هم الأكثر عدداً

في سانت بطرسبورغ، بحيث كانوا يشكلون عُشر سكان العاصمة. وأحد هؤلاء كان نيكولاي بوتين، الذي كان يعمل خياطاً في دار خياطة ملابس السيدات الواقعة على شارع غاروخوفا، ولم يلبث أن انضم إليه ابنه ألكسندر ليمتهن نفس المهنة. وإليه كذلك انضم سبيريدون، ابن أخيه، فأمّن له وظيفة في «أستوريا»؛ فقد كان الشاب قد تدرب في صباه على مهنة مساعد طاه في «تْفير». وها قد أصبح في نهاية المطاف واحداً من أفضل طهاة العاصمة!

عمل سبيريدون في مطعم «أستوريا» ذي السمعة الأسطورية طوال سنوات ما قبل الثورة البلشفية، ورزق بينما كان في سانت بطرسبورغ (بيتروغراد حينها) بابنه فلاديمير (والد الرئيس)، ولكن ذلك لم يمنعه من التذمر..

يُروى عن سبيريدون إيفانوفيتش أنه غالباً ما كان يتأفف من طبيعة عمله، على نحو ما قال ذات مرة:

- ما هذه الوظيفة التي ابتليت بها؟ إنها وظيفة بائسة. أحاول أن أضع على المائدة أفضل الأصناف. ويأتون، يأكلون كل شيء، أما أنا فلا أنال منهم حتى كلمة شكراً في بعض الأحيان. وسواء عملت، أم لم أعمل، لا ينوبني شيء من ذلك. هنا ألكسندر نيكولايفيتش يخيط ملابس جميلة، يرتديها الناس لسنوات، وطوال تلك السنوات يذكرونه بامتنان.

كان سبيريدون وألكسندر نيكولايفيتش أبناء عم.. وكانت سلالة الفلاحين من آل بوتين كبيرة العدد، وكانوا في الأصل يعيشون في قرية بوردينو. إلا أن أحد أبناء هذه السلالة، وهو سيميون فيدوروفيتش (1723-1795). انتقل إلى قرية بومينوفو، لذا لم يكن من الغريب أن بوتين الجد (سبيريدون) لم يبن بيتاً في بومينوفو إلا سنة 1914، قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة. وهو البيت الذي سيلجأ إليه بعد الثورة، حيث ترك العاصمة مع أطفاله الأربعة، وعاد إلى دياره ليقيم في ذلك البيت.

ولكن مهنة الطبخ، التي برع بها سبيريدون، ستعيده، ولكن إلى العاصمة

الجديدة!

كان ذلك سنة 1918، حين تمت دعوته للعمل بموسكو في مطعم حكومي. وهكذا فإن الرجل الذي اعتاد قبل الثورة تقديم الطعام لراسبوتين والخاصة في مجتمع العاصمة القيصرية، بات يعدّ الطعام لمفوضي الشعب السوفييت (كذا كانوا يسمون وزراء الثورة).

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فبعد قليل من الوقت شاءت الظروف أن يعمل لصالح قائد الثورة نفسه!

لقد استُدعي للعمل في ضاحية «غوركي» قرب موسكو، حيث عاش لينين وجميع أفراد عائلة أوليانوف، خلال الفترة الأخيرة من حياة زعيم الثورة البلشفية. وعندما توفي لينين ثم زوجته كروبسكايا، نُقل للعمل في واحد من البيوت الصيفية التي يقيم فيها ستالين، وعمل هناك لفترة طويلة.

ويبدو أن العمل هناك أراح مشاعره، فلم يعد يتذمر من طبائع مهنته.

وفي نهاية حياته تقاعد. ولكنه لم يترك عمله عملياً، فقد عاش وواصل أداء وظيفته برغبته الخاصة، في المكان الذي بلغ فيه سن التقاعد.. في بيت الاستجمام الحكومي في مدينة إيلينسك، التابع للجنة الحزبية في موسكو. وبقي هناك يعمل بصفة تطوعية إلى ما قبل ست سنوات من وفاته عام 1965 عن عمر 86 عاماً.

تبدو حياة هذا الجد مثيرة للاهتمام، بل ويمكن لها أن تكون مدعاة للفخر بالنسبة ليافع، ومبعثاً للإحساس بالقرب من النخبة السوفيتية. غير أن بوتين الشاب كان مسكوناً بتجارب أشخاص آخرين في العائلة، في مقدمهم أبيه. ولكن هذا على أي حال لم يدفعه، ربما بحكم تربيته السوفيتية، إلى الاهتمام بتاريخ العائلة.. وعملياً، لم يهتم الرئيس بوتين بتاريخ أسرته إلا سنة 1999.

كان قد أصبح في واجهة الأحداث، ومن شخصيات الصف الأول في موسكو،

ولم يكن أحد يعرف عنه الكثير. وحينها بدا أنّ التكتم، الذي كان نعمة في السابق، أصبح نقمة على نحو مفاجئ..

كان عليه أن يجيب على سؤال أساسي: «من هو؟ ومن أين ظهر فجأة، هكذا»!

كانت المهنة في أروقة الـ«كي. جي. بي» تدفعه لإطفاء الأنوار من حوله، والحرص على السير في العتمة والزوايا المظلمة، ليحافظ على تقدمه، وإلّا فإن المهنة كانت ستدفنه في عمل إداري روتيني إلى آخر حياته. بينما السياسة كانت مختلفة تماماً، فالسياسي الذي لا يملك سيرة واضحة يثير الشك والريبة، ويصبح من السهل تأليف القصص حوله..

خصوصاً إذا رُشّح للمنصب الأول في البلاد، دوناً عن كل الساسة المشاهير!

وعودة إلى سيرة العائلة؛ قدم ألكسندر ميخائيلوفيتش بوتين لابن عمومته الرئيس سنة 2002 نسخة من الطبعة الأولى من كتابه «سلالة آل بوتين». وفي هذا الكتاب لم تكن هناك ولو صفحة واحدة مخصصة للرجل الذي كان قد أصبح رئيساً للدولة الروسية. هناك ببساطة سجّل المؤلف رأيه الذي يتمسك به للآن:

- «هذا الرجل (بوتين) صاحب شخصية ذات مخزون فلاحي - حرّاث»!

في العام نفسه، تناقلت وسائل الإعلام الرئيسية في البلاد تصريحاً لبوتين يقول فيه أنه سعيد لرؤية دراسات حول سلالة عائلته؛ فقد كان خَبِرَ أثناء الانتخابات الرئاسية الأولى فداحة أن لا تكون هناك رواية رسمية لسيرته الخاصة.

الأمر الآخر الطريف، الذي يمكن تتبعه في سيرة بوتين هو الحضور المتكرر، بمعان مختلفة، للأماكن في حياته. وهذا حاله مع مقر الإقامة الذي آل إليه بعد استلامه الرئاسة عام 2000.

لقد خصص لإقامته بيت ريفي في منطقة نوفو أغاريوفو، غرب موسكو! تمت إقامة هذا المقر في النصف الأول من خمسينات القرن التاسع عشر، من قبل الدوق الأكبر سيرغي الكسندروفيتش، الذي كان حاكماً لموسكو، وهو من يشار إلى أدائه بوصفه واحداً من أسباب إنهيار حكم آل رومانوف. وأقام فيه حتى مصرعه عام 1905.

العام الذي يرد فيه أول ذكر لآل بوتين في الوثائق الرسمية.

وهو كذلك، ذات البيت الريفي، الذي كان مقراً لإقامة ألكسندر شيرباكوف، رئيس «المكتب السوفيتي للمعلومات»، الذي كان بمثابة وزارة إعلام خاصة، تشكلت مع بداية الحرب العالمية الثانية.

وخلال تلك السنوات عمل جد بوتين طاه هناك، في هذا البيت ذاته!

وأكثر من ذلك، شهد هذا المقر في مطلع التسعينات اجتماعات مجموعة خبراء ورؤساء جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق لإعداد معاهدة اتحادية جديدة على أساس كونفدرالي، في عملية سياسية عرفت باسم «عملية نوفو أغاريوفو»، التي هي السبب الرئيسي لتمرد أغسطس 1991 الذي هدف بالأساس لتعطيل التوقيع على تلك المعاهدة الجديدة، التي كان من شأنها تدمير الدولة السوفيتية التي تدمرت فعلاً إثر فشل ذلك التّمرُّد.

أما اليوم، فيشار إلى هذا المقر باعتباره المكان الذي تنبع منه طموحات روسية بإمبراطورية سوفيتية جديدة!

المفارقة الأهم، لا علاقة لها بالأماكن؛ فالجد الأول لسلالة بوتين، إيكيم نيكيتين، عاش في قرية بورودينو في منطقة تورغينوفو في «تْفير»، وكان قناً لدى النبيل إيفان نيكيتوفيتش رومانوف، أحد جدي «ميخائيل فيودروفيتش»، أول قيصر روسي من عائلة رومانوف!

ظلال الحرب والصمت

«جميع أقاربي يعيشون في مقاطعة «تْفير». منذ القرن السابع عشر يعيشون في نفس القرية، ويذهبون إلى نفس الكنيسة. ما أكثر ما كان استقرار المجتمع الروسي!»

بوتين 2002

لم يسقط الجد الطباخ، سبيريدون إيفانوفيتش، من ذاكرة بوتين، إنه البداية التي لا بدّ من أن يشير إليها في مستهل حديثه عن عائلته، إن وجد نفسه مضطراً للحديث عن نفسه. وقد يكون ذلك لأن الحديث عن الجد البعيد أقل كشفاً من الحديث عن والديه القريبين.

إنه يعرف القليل عن جده، ورواية القليل البعيد، مهما كان، بالنسبة لرجل أمن من هذا الطراز، أسهل وأكثر أمناً من رواية الكثير القريب!

لا يتوقف الأمر عند ذلك وحسب، فـ«القليل» حيادي ومريح، و«الكثير» مليء بالتفاصيل والعواطف. ورواية الأول لا تكشف سوى القليل عن الذات، بينما رواية الثاني، القريب، تكشف الذات إلى درجة قد لا يحبها رجل يرتاح إلى العتمة. وسوى ذلك، كانت حكاية الجد مكتملة منذ البداية، بحكم التزامه مهنة مستقرة، وكون حياته أصبحت صفحة مطوية. بينما حكاية والديه تشبه فيلماً سوفيتياً قديماً يصر على أن يكون واقعياً رغم كل الميلودراما المختزنة فيه..

ولكن هذا الجد لم يفعل لبوتين شيئاً ليضعه في ألبوم ذكرياته الحميم!

لا، بل فعل. فعل شيئاً لم يكن بمقدور أحد سواه أن يفعله، وما لا يمكن لبوتين أن يستخف به؛ لقد خرج بنفسه، وبالتالي بذريته، من بومينوفو إلى بتروغراد (سانت بطرسبورغ)، فمنحه هوية يقدّرها، وأتاح له الإفادة من عصبية المدينة التي تؤمن بأحقيتها، وتعتد بنفسها، وتؤمن بنديتها إزاء موسكو، كما لا يمكن

لمدينة روسية أو سوفيتية أخرى أن تفعل..

بفضله لم يعد بوتين مجرد إنسان بسيط من الأنحاء الروسية، بل لينينغرادي من سانت بطرسبورغ!

لقد كان جدّه مجرد طاه. ولكن هذه المهنة نقلته من السعي وراء المحراث ليقف على قدميه قرب النخبة القيصرية ثم السوفييتية؛ والوقوف قرب النخبة كانت تلك غريزة نشأت مع بوتين، وها قد أصبح مصدرها معروفاً، اليوم.

ولا بد أن سيرة الجد ميّزت هذا الفرع من آل بوتين، عن سواه!

لم يكن بوتين قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره حينما مات الجد. ولكنه يقول أنه يتذكره جيداً، لأنه كان يزوره مع والديه في بعض الأحيان. ولكن معرفته بجده تتوقف هنا عند مشاهداته، فالجد لم يكن يتحدث أو يذكر شيئاً عن حياته. وكان كذلك والدا بوتين، اللذين لم يكونا يتحدثان عن الجد أو يذكرانه في حديثهما تقريباً.

يقول بوتين ملاحظاً: «لسبب أو لآخر لم يكن ذلك أمراً مقبولاً بنظرهم»!

ليس من المعروف دواعي هذا «الصمت» العائلي. أكان طبعاً يسري في العائلة، أم هي عادة تسللت إلى العائلة نتيجة عمل الجد بقرب أهم شخصيات الدولة. ولكن من المؤكد أن هذه الصفة، التي وصلت لبوتين، كانت مناسبة للمهنة التي اختارها: الاستخبارات.

وكانت هناك، بالمقابل، فرص ومناسبات ولو قليلة للتغلب على هذا الصمت، واختراق جداره. وهذا عادة ما يحدث حينما كان يأتي الأقارب للزيارة، فتدور بعض الأحاديث على المائدة. وهذه الأحاديث بالطبع تتضمن شذرات من هنا، ونتف من هناك. و«هنا» و«هناك» هي معلومات ترد في السياق حول العائلة وأفرادها الآخرين وآخر أخبارهم.

هذا كان يحدث بين الفينة والأخرى، وفي فترات متباعدة. ولكنه كان يحدث!

«ولكن لم يحدث أبداً أن حدثني والداي عن نفسيهما»، يلاحظ بوتين، «خصوصاً والدي». لم يكونا يحدثاه عن نفسيهما وعائلتيهما عن سابق قصد. أما الشذرات القليلة التي أخبراه بها فلها دواع وأسباب أخرى.

وبهذا، فإن الطفل فلاديمير بوتين سينشأ بطريقة مشابهة..!

لن تصل حاجته للتعبير عن نفسه، أبداً، إلى درجة الرغبة في سرد بعض من ذكرياته. وحينما سيفعل ذلك، سيكون مدفوعاً بالضرورات التي يحتّمها عمله العام، وما يسمّيه الإعلام بـ«حق المجتمع بالمعرفة». معرفة قياداته، والمسؤولين الذين يتبوأون المراكز الأولى في الدولة.

من المعروف أن والده (فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين) ولد في سانت بطرسبورغ عام 1911. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، أصبحت الحياة هناك صعبة، مليئة بالشظف والفاقة، لذا غادر جميع أفراد الأسرة إلى قرية بومينوفو في «تْفير»، حيث منبعهم العائلي. وحيث المنزل الذي كانوا عاشوا فيه، حينها، في ذلك الوقت، ما يزال موجوداً لليوم.

ويحرص بوتين على التنويه: «بالمناسبة، ما يزال الأقارب يذهبون إلى هناك للاسترخاء»!

وهناك، في بومينوفو، التقى والدا بوتين. وحينما تزوجا كانت والدته (ماريا إيفانوفا شيلوموفا، المولودة عام 1911) في السابعة عشر من عمرها. ومثل ذلك والده.

أي أن هذا الزواج تم في أواخر العشرينات من القرن الماضي..

وهنا، يجب الانتباه إلى أن فلاديمير سبيريدونوفيتش الشاب كان معروفاً جيداً لأهالي بومينوفو، وكانوا هم معروفين كذلك بالنسبة له على نحو أكثر من كافٍ؛

فقد كان على ما يبدو كثير التردد على مسقط رأس العائلة، لذا من الوارد أن هذا الزواج جاء نتيجة علاقة حب. وهذه هي الرواية التي يرجحها بوتين الابن، الذي يفسر حالة زواج والديه المبكر على هذا النحو: «أظنهما تزوجا عن حب. ولم يكن من الممكن تأجيل الزواج، لأنه كان على والدي أن يلتحق بالجيش. وقد يكون الزواج حينها بمثابة عهد وتأكيد على الارتباط».

كانت حياة والدي بوتين صعبة بما يكفي. وتشير في الأثناء إلى حقيقة تغيب عن الأذهان رغم أن الأرقام تلح على التذكير بها: لقد كان بوتين نفسه طفلاً متأخراً؛ حينما ولد سنة 1952 كان والداه (المولودين سنة 1911) في الحادية والأربعين من عمريهما. إضافة إلى أن مولده جاء بعد نحو عقد ونصف من زواجهما. وهذا تفصيل سيثير الكثير من اللغط لاحقاً حول سيرة الرئيس بوتين..!

ساعد على ذلك بالطبع أن «الصمت» العائلي المعتاد، شمل هذا التفصيل، فتمّ اعتبار هذا الصمت تكتماً مقصوداً يستوجب البحث عن أسباب مثيرة؛ وتتذكر فيرا ديميتروفنا جورفيتش، مربية صف، فلاديمير بوتين، (من الرابع إلى الثامن) في المدرسة رقم 193، التي وضعت كتاباً حول سيرة الرئيس الروسي («بوتين: العائلة والأصدقاء والمعلمون» 2004)، وأفضت إلى كتاب سيرة آخرين بما تعرفه، فتقول:

- قال لي والده ذات مرة: «أحد أبنائنا كان يمكن أن يكون بنفس عمرك اليوم». يبدو أن العائلة فقدت ابناً أثناء الحرب. لا أعرف تماماً، لأنني تحرّجت عن سؤاله عما قصده بكلامه.

في الواقع، لم يكن بوتين الطفل الأول في العائلة!

عاد والدا بوتين سنة 1932 من بومينوفو إلى سانت بطرسبورغ. وعاشا في ضواحي المدينة، في ستاريا بيترهوف، وهي بلدة تبعد نحو ثلاثين كيلومتراً عن لينينغراد، نشأت حول سلسلة القصور والحدائق التي بناها القيصر الروسي

الشهير بطرس الأكبر، التي يشار لها أحياناً بـ«فرساي الروسي». ويعني الاسم «بيترهوف» قصور بطرس، بالألمانية!

في تلك الفترة التحقت والدة بوتين بالعمل في مصنع ما، وترجّح الروايات المختلفة أنها عملت في مصنع إيغوروف للقاطرات. بينما التحق والده على الفور تقريباً بالجيش، وخدم في أسطول الغواصات. وحينما أنهى الخدمة، كانت زوجته ماريا إيفانوفنا قد أنجبت صبيين.

أحدهما توفي بعد بضعة أشهر من مولده.

وعندما غزت ألمانيا الاتحاد السوفيتي، ودخل السوفييت الحرب العالمية الثانية (التي يسمّيها الروس منذ دخول الاتحاد السوفيتي فيها بالحرب الوطنية العظمى)، التحق الوالد بالجبهة على الفور، متطوعاً. في حين بقيت الوالدة بالمنزل، في بيترهوف. إلا أن الحياة سرعان ما أضحت صعبة جداً، كالحال دائماً في سانت بطرسبورغ حينما تنشب الحروب..

وهو ما سبق أن خبرته عائلة والد بوتين خلال سنوات الحرب العالمية الأولى.

كانت العائلة في غياب الأب بحاجة إلى المساعدة، التي هبّ إلى تقديمها بيتر ايفانوفيتش شيلوموف، خال بوتين، شقيق والدته ماريا إيفانوفنا، الذي سيحقق لاحقاً نجاحاً في خدمته العسكرية ويكافأ على واحدة من العمليات التي سينفذها بنجمة الراية الحمراء حاملاً للقب بطل الاتحاد السوفيتي؛ ولكن هذا لن يحميه لاحقاً من الوقوع في معسكرات الاعتقال.

هل قلنا «بيتر ايفانوفيتش شيلوموف»؟

يبدو أن ذلك ليس دقيقاً، وقول ينطوي على خطأ شائع فادح؛ فالمصادر العسكرية ذات العلاقة، ومنها أدبيات وأرشيف وزارة الدفاع ووزارة الأسطول البحري تتحدث عن شخص آخر هو «إيفان ايفانوفيتش شيلوموف»، الخال الأكبر لبوتين. لذا، تجدر الإشارة إلى أن ثمة ارتباك في المرويات، فأحياناً يرد

اسم بيتر بينما المقصود على الأغلب إيفان، والعكس صحيح.

وهذا الارتباك ناجم بالطبع عن حقيقة أن كلا الرجلين واكب العائلة خلال فترة الحرب، مع فارق، أن بيتر لم ينج وتتضارب المصادر حول مصيره، ما بين أن يكون قد قُتل أو فُقد، وكان يخدم في القوات الجوية.

ولكن إيفان خاضها كلها، من أول يوم إلى آخر يوم، وعاش بعدها!

الأمر الثاني هو أن الخال بيتر ايفانوفيتش شيلوموف لم يكن غريباً على أسرة بوتين، وكان مقرباً من الأسرة بشكل خاص. وهو علاوة على ذلك، لم يكن فقط خال الرئيس بوتين، ولكنه «خال مزدوج». وذلك لأن عائلتي بوتين وشيلوموف تزاوجتا مرتين في جيل واحد. تزوج فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين ماريا إيفانوفا شقيقة بيتر ايفانوفيتش شيلوموف، فيما تزوج بيوتر ايفانوفيتش نفسه، شقيقة فلاديمير سبيريدونوفيتش، آنا سبيريدونوفنا بوتينا (عمة الرئيس بوتين). وهكذا، فهو خاله باعتباره شقيق والدته، وكذلك باعتباره زوج عمته.

وهذه المعلومة تتعلق ببيتر تحديداً، وعلى نحو شبه مؤكد.

لذا، فعلى الأرجح أن المرويات الدقيقة هي تلك التي تشير إلى الخال إيفان ايفانوفيتش؛ الذي بادر إلى أخذ شقيقته، وأخرجها مع طفلها تحت القصف والنيران من بيترهوف إلى لينينغراد، حيث كان في ذلك الوقت ضابطاً في البحرية، ويخدم في قيادة القوات البحرية، التي كان مقرّها في قصر سمولني.

وهذه بدورها معلومة تتعلق بإيفان، لا بيتر، كما تورد بعض السير خطأً!

طوال ذلك الوقت، كان الجد سبيريدون ايفانوفيتش يعمل في موسكو، في نوفو أغاريوفو (مقر إقامة بوتين حالياً) بعيداً عن أبنائه، ولم يكن على أي حال بحكم ظروف تلك الأيام قادراً على مساعدتهم، حتى لو أراد ذلك. وحينها عموماً، لم يكن بوسع أحد أن يفكر بأحد. وكان ذلك مستحيلاً عملياً في ظل

الظروف الصعبة التي عمت أرجاء البلاد. إضافة إلى أن الجد نفسه كان رجلاً عائلاً، لديه العديد من الأبناء. وكانوا جميعهم في الجبهة.

ناهيك عن أن هذا النوع من المساعدة العائلية لم يكن يشبه الجد سبيريدون أساساً!

وفي كل الأحوال، لم يكن هذا حال الجد سبيريدون ايفانوفيتش وعائلته فقط، بل كان حالاً عاشته الآلاف من العائلات التي بقيت تحت وطأة الحرب دون معيليها، وبلا قدرة على الاهتمام بمن هو خارج جدران البيت. الأمر الذي تطلب بالطبع إيجاد حلول عامة؛ وفي لينينغراد أُنشئت لمواجهة هذه المشكلة دور لرعاية الأطفال، الذين يتّمتهم الحرب، أو حرمتهم من آبائهم.

وفي واحدة من هذه الدور مات الصبي الثاني لعائلة بوتين. أصيب بالديفتريا وتوفي.

والدة بوتين، نفسها، لم تكن بعيدة عن الموت. ولكنها نجت بفضل مساعدة شقيقها. كانت شهور الحصار قد جعلت الناس يعيشون على مسافة قريبة من الموت، وكان الطعام يوزع في حصص غذائية محددة ومحدودة؛ فالمدينة المحاصرة لم تكن تتلقى إلا النزر اليسير من الغذاء الذي يصل عبر طريق اسمه «شريان الحياة»، ولكنه في الواقع كان معبراً للموت.

كان طريقاً يمر عبر الخطوط الألمانية فوق بحيرة لادجسكويه (لادوغا) المتجمدة (تبلغ مساحتها أكثر من 17 ألف كيلومتر مربع، وهي أكبر بحيرة في أوروبا)، وكثيراً ما كان الجليد يتكسر تحت عجلات العربات القليلة التي تمر حاملة الأغذية، فتغرق بحمولتها وسائقيها.

ويرد اسم خال بوتين، إيفان ايفانوفيتش شيلوموف، نفسه، في قائمة كبار الضباط الذين عملوا على إدارة وإدامة هذا الشريان، الذي هو من بنات أفكار واحد من أبرز الشباب الذين استقطبهم، حينها، زعيم الدولة السوفيتية يوسف

ستالين للعمل في الدولة، قريباً منه: ألكسي كوسيغين الشهير، أبرز رئيس وزراء للاتحاد السوفيتي!

ومن الواضح أن إيفان ايفانوفيتش كان الأقدر بين أفراد عائلته على تقديم المساعدة. ولكن هذه القدرة لها حدود، فقد كان إطعام شخص واحد، في تلك الظروف، مسؤولية جسيمة، ويصعب الالتزام بها. لذا، لم يكن أمامه من خيار سوى إطعام شقيقته السقيمة من حصته الغذائية. وفي وقت ما، أُوفد الشقيق على نحو طارئ، في مهمة رسمية، فبقيت والدة بوتين بدون طعام. ويبدو أن المهمة كانت أطول مما يتحمل جسد الإنسان من جوع، فوصلت ماريا إيفانوفنا إلى حافة الموت.

لقد أوشكت على الموت فعلاً. بل ماتت على نحو ومعنى ما!

بلغ بها الجوع إلى درجة أنه أغمي عليها، واعتقدوا أنها ماتت، بل ووضعوها مع الموتى. ولحسن الحظ، أنها شهقت في لحظة ما، ثم أفاقت فيما يشبه المعجزة. وهكذا نجت، وعاشت فترة الحصار بالكامل في لينينغراد. ثم رُحّلت، حينما انتهت مرحلة الخطر.

كان والد بوتين في ذلك الوقت غائباً في جبهة القتال. كان يقاتل في ما يسمى الكتائب الضاربة التابعة لوزارة الداخلية، وهي وحدات شبه عسكرية من المتطوعين (الفدائيين)، التي شُكّلت من المواطنين السوفيت القادرين على حمل السلاح، وكان أفرادها في غالبيتهم من الحزبيين والنقابيين والعمال، الذين تطوعوا في فترة الحرب، واسندت لهم بشكل عام مهمات التعامل مع المظليين وقُطّاع الطرق وحفظ النظام العام. أما الكتيبة التي كان يخدم فيها والد بوتين فكانت مهمتها تتركز على التخريب وراء الخطوط الألمانية.

ويذكر بوتين، بكل ما يلزم من انفعال، واحدة من العمليات التي شارك فيها والده. في الواقع كانت تلك عملية انتهت بكارثة، ولم يكن من الممكن أن تنسى أو لا تذكر. ومن المرجح أن بوتين، الذي تتحرك عواطفه على غير توقع حينما

يرويها، إنما ينفعل بذلك التشابه بين ذلك النشاط الفدائي السري الصامت الذي انخرط فيه والده، والنشاط الذي امتهنه هو في حياته، وكان له وجه معلن هادئ وبيروقراطي روتيني، لكنه في ما دون ذلك عالم صاخب مليء بالمخاطرة.

أُنزل الوالد فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين في مجموعة مكونة من 28 شخصاً في كينغيسيب، وهي مدينة تابعة لمنطقة لينينغراد، وتبعد عنها نحو 130 كيلومتراً في الجهة الجنوبية الغربية، على مشارف الحدود الإستونية. وهناك تمركزت المجموعة في إحدى الغابات، وبدأت عملياتها، ونجحت في تنفيذ بعض المهمات، ومن ذلك تفجير واحد من مخازن الذخيرة العائدة للألمان ولكن بعد ذلك نفد الطعام من المجموعة.

لجأ أفراد المجموعة إلى السكان المحليين الإستونيين، طلباً للطعام. لم يكن لديهم خيار آخر، ويبدو أنهم كانوا يشعرون ببعض الأمان والثقة حيال السكان المحليين. ومن جهتهم لم يتأخر هؤلاء في مدّ يد العون لهم، فجلبوا لهم الطعام. ومن ثم وجد من بينهم من وشى بمكان المجموعة للألمان. وقبل أن يشك أفراد المجموعة بشيء كان الألمان يحاصرونهم من جميع الجهات.

لم يكن هناك أي فرصة للبقاء على قيد الحياة، تقريباً!

لقد كانت ساعة حام فيها الموت فوق الرؤوس، ولاحت صوره قريبة. كانت النهاية محتمة، ولا شك فيها. ولكن تماسك المجموعة أتاح للبعض سبل النجاة، وكان من بين هؤلاء والد بوتين. ولكن الأمر لم ينتهِ هنا، فبعد النجاة من الطوق بدأت الملاحقة.

توجه الناجون من المجموعة نحو خط الجبهة.

وفي الطريق قُتل عدد آخر منهم، لهذا قرّر أفراد المجموعة التفرق. واضطر والد بوتين، في سياق تلك الملاحقة، للاختباء لبعض الوقت في مستنقع، وكان

يتنفس من خلال أنبوب من القصب. كانت فرقة الملاحقة تستخدم كلاب الأثر، فبقي تحت الماء إلى أن انصرفت الكلاب التي كانت تساعد في البحث عنه ورفاقه.

وفي المحصلة نجا من مجموع الـ28 شخصاً، أربعة أشخاص فقط!

ذكريات الحرب

لا تنتهي قصص بوتين المفضلة عن أبيه عند هذا الحد؛ القصة الأخرى التي تؤثّر فيه خصها بجزء من نشاطه الرئاسي بداية عام 2014، حينما قام بزيارة المجمع التاريخي العسكري «نيفسكي بياتاتشوك» في ضواحي لينينغراد، حيث وضع الزهور على نصب «الحجر التذكاري».

وتبدأ هذه القصة حينما أُرسل والده (فلاديمير سبيريدونوفيتش)، بعد عودته من مهمته المميتة في كينغيسيب، إلى الجيش. وهنا، لم يعد متطوعاً، بل أضحى واحداً من عناصر الجيش الأحمر من جديد. وظهر مرّة أخرى في أماكن صعبة. وتحديداً في هذا المكان الذي يسمى «نيفسكي بياتاتشوك». وهو نقطة عبور افتراضية تقع على الضفة اليسرى (الشرقية) لنهر النيفا، كانت تسيطر عليها القوات السوفيتية في الفترة من خريف 1941 وحتى ربيع 1943، وكانت تحاول استخدامها كنقطة للهجوم على القوات الغازية بغرض فك الحصار عن لينينغراد.

كانت القوات الألمانية المحاصِرة قد احتلت كل شيء ما عدا نقطة العبور الصغيرة هذه. وكانت لينينغراد محاصرة بالكامل، لذا تمسّك الجيش الأحمر السوفيتي بهذه النقطة الصغيرة باستماتة. وكان الألمان بدورهم يحاولون احتلالها بكل قوة، فشهدت هذه البقعة عدداً من أشد المعارك ضراوة. وقصفها الألمان بلا رحمة، حتى يقال إن عدد القنابل التي أُسقطت في المتر المربع الواحد هناك يفوق ما تلقته أي بقعة أخرى من القنابل في تاريخ الحروب كلها.

ومع ذلك، لم يستطع الألمان أن يمنعوا حدوث ما كانوا يخشونه كثيراً، وفعلوا كلّ ما بوسعهم لتجنبه. فقد لعبت هذه البقعة الصغيرة في النهاية دورها المأمول في فك الحصار عن المدينة المنكوبة، لتتغير بعدها موازين الحرب.

لقد كانت تلك بقعة صغيرة، ولكن كان لها أهمية استراتيجية فائقة، تكاد تعادل

كسب الحرب أو خسارتها. ولم يكن الاحتفاظ بها بالأمر اليسير، وكلف الصراع عليها الطرفين ثمناً باهظاً جداً. وتطلب الأمر من الجيش الأحمر تنظيم أربع عمليات عسكرية كبرى خلال عام ونصف، فيما سقط نحو 60 ألف قتيل، في هذه البقعة، دون حساب الجرحى والمصابين، ولا عدد القتلى على الضفة اليمنى (الغربية) من النهر.

أصيب والد بوتين بجروح خطيرة في هذه البقعة. كانت قد صدرت تعليمات له هو وجندي آخر، باعتبارهما متمرسين بالعمل خلف خطوط العدو، بـ«الحصول على لسان». كان ذلك تعبيراً مستخدماً أثناء الحرب ويعني اختطاف أحد عناصر العدو القادرين على إعطاء معلومات. ومثل هذه العملية تعني أحياناً الاقتراب إلى حد مميت من العدو، ما يفرض تنفيذ عملية خرساء. أي بدون إصدار أدنى ضجة أو صوت.

تسلل والد بوتين ورفيقه إلى مخبأ الألمان، وبينما كانا يتهيئان لاتخاذ موقعهما، فوجئا بجندي ألماني يخرج على غير توقع. كان ذلك مباغتاً، وفي لحظة غير مناسبة تماماً. فأصيبا بالارتباك وكذلك الألماني، ولكنه كان أسرع منهما في تمالك نفسه. سحب قنبلة يدوية، وألقى بها عليهما، فانفجرت. ولم يكن هنالك حادث يمكن أن يكون أسوأ من ذلك..

كان الألماني على ثقة بأنه قتلهما، ولم يكن من الوارد أن يتوقع غير ذلك.

لقد أصابهما بالفعل، لكن القنبلة قتلت الجندي الآخر. كان على ما يبدو يستلقي ما بين مكان وقوع القنبلة ووالد بوتين، فبقي هذا الأخير على قيد الحياة، على الرغم من أن شظايا القنبلة أصابته في قدمه إصابات بالغة. ولحسن حظه، فإن الألماني لم يجد داعياً للتأكد من مقتلهما قبل مغادرته المكان.

بقي والد بوتين في ذلك المكان جريحاً لا يستطيع الحراك. كما لم يكن بوسعه أن يطلب النجدة أو انتظارها. ولكنه برغم ذلك كان محظوظاً، فقد تمكن رفاقه من الوصول إليه، وجرّوه من هناك إلى مركز القوات السوفيتية في غضون

ساعات قليلة. ولم يكن ذلك كافياً لانقاذه.

لقد كانت إصابته بليغة، وتحتّم نقله إلى المستشفى بأسرع وقت. إلا أن الوصول لأقرب مستشفى كان يتطلب سحبه عبر نهر النيفا المتجمد إلى المدينة. وهذا ما كان مستحيلاً تماماً، لأن كل شبر من ذلك الجزء من النهر كانت تحت النيران. ولم يكن أي قائد ليعطي ضمن تلك الظروف أمراً بنقله إلى المستشفى، وبطبيعة الحال، هذا لم يحصل. ولكن كان هناك بالعادة متطوّعون يغامرون بفعل ذلك.

لم يكن من أمل لبوتين الأب سوى أن يحظى، بطريقة أو بأخرى، بمتطوّع يهتم بإنقاذ حياته رغم ما في ذلك من مغامرة. ولكن الوقت كان يمر، بينما الرجل المصاب، والد الرئيس المستقبلي لروسيا، فقدَ الكثير من الدماء، وبدا واضحاً أنه ميت لا محالة!

هنا، أنقذته الصدفة!

لقد تعرّف عليه أحد الجنود. كان ذلك جاراً سابقاً له في بيترهوف؛ لقد فهم الحال فوراً، وأدرك أنه إن بقي على هذه الحال فسيموت لا محالة. فشد والد بوتين المصاب إليه، وجره فوق النهر المتجمد، وعبر به إلى الجانب الآخر من النيفا.

كانا هدفاً مثالياً للقناصة، ولكنهما بقيا على قيد الحياة.

أوصل الجار بوتين الأب المصاب إلى المستشفى. لقد فعل له أفضل ما يستطيع، وقدم له بذلك الخدمة التي لا يحتاج لشيء قدر حاجته إليها. وها قد تركه بعناية الأطباء، فودّعه، وعاد الى الجبهة. كان عليه أن يخوض المغامرة مرّة أخرى، لينتقل من ضفة النهر من جهة «موسكوفسكايا دوبوفكا» إلى الجهة الأخرى ناحية «نيفسكايا دوبوفكا»، في مسار تسهر عليه أعين القنّاصة. وبهذا، أصبح الرجلان متساويان بفرصهما في النجاة..

المصاب بسبب جراحه، والمنقذ بسبب طريق العودة الذي يحرسه القنّاصة!

وكان ذلك آخر عهد الجارين ببعضهما البعض. تعافى بوتين الأب خلال عدة أشهر قضاها في المستشفى، ولكنه لم يسمع أي خبر حول جاره الذي أنقذه. لم يعرف ماذا جرى له. وحتى حينما وضعت الحرب أوزارها، لم يظهر ذلك الجار في المدينة، ولم يُعرف إن كان قتل في طريق عودته، أم أن أجله وافاه خلال المرحلة التالية من المعارك..

أثناء وجود بوتين الأب في المستشفى عثرت عليه زوجته صدفة!

كان قد مرّ وقت طويل منذ أن التحق بالجبهة، ولم يكن من الوارد أن يفكر بمراسلتها لأنه تركها في المنزل حيث كانا يقيمان في بيترهوف، وما كان بعلمه أنها في لينينغراد منذ بدء الحرب تقريباً. وفي مثل تلك الأيام، يعيش الإنسان مع توقع أسوأ الاحتمالات، ولا فرق في ذلك بين مدني في بيته، أو جندي في جبهات القتال.

ترددت ماريا إيفانوفنا يومياً على المستشفى لرؤية زوجها. وفي الواقع، كانت هي نفسها بحاجة للعناية والرعاية. كان سوء التغذية قد أحالها إلى كائن هزيل محطم، ولم يكن يمنع الأطباء من استبقائها في المستشفى إلا حقيقة أنها ليست وحيدة في ذلك، وأن هذا كان حال غالبية سكان المدينة المحاصرة، الذين كان الجوع يفتك بهم، ويقتلهم يوماً بعد يوم.

لقد رأى زوجها المصاب حالها. كانت أقرب للموت منها إلى الحياة. وبدا أن علاجها لا يحتاج إلى دراية ومعرفة بالطب. لا يحتاج إلى أدوية وضمادات. حصة صغيرة من الطعام فقط. وهكذا، راح الرجل المصاب يغافل الممرضات ويقدّم وجباته لزوجته المتداعية.

ولم يطل الوقت بالأطباء إلى أن اكتشفوا ذلك!

كانوا قد لاحظوا أن الرجل المريض بات يغمى عليه بين فينة وأخرى. لم يكن

هناك من سبب طبي واضح. وبعد التحري، عرفوا أن الجوع هو سبب هذه الحالة. وعندما اكتشفوا السبب توقفوا عن السماح لزوجته بالوصول إليه لفترة من الوقت. إلى أن استعاد عافيته.

نجا والدا بوتين كلاهما من الحرب والجوع. لا يهم أن التجربة المريرة تركت أثرها عليهما. ولكنهما كانا محظوظين. برغم أن الحظ لم يعن أكثر من مجرد استئناف حياتهما، التي قاطعتها الأحداث، وعكّرتها التجارب القاسية. ولا يهم أن بوتين الأب ظل، بعد تلك الإصابة، يعرج طوال حياته. المهم، أنه كان يستطيع الوقوف على قدميه!

بعد عشرين عاماً من وقوفه على قدمين حطمتهما الحرب وشظايا قنبلة ألمانية، يلتقي والد بوتين، فلاديمير سبيريدونوفيتش، في لينينغراد، صدفةً، بذلك الجار الذي أنقذه من موت محقق. لقد نجا هو كذلك من تلك الحرب!

عرف منه أنه كان قد انتقل للعيش في مدينة أخرى بعد خروجه من الحصار. لم يعد إلى المدينة، وكان الناس الذين يغادرون أثناء الحرب تنقطع أخبارهم لوقت طويل، فلا يعرف أحد إن كانوا قتلوا، أو تاهوا في الحياة، أو ابتعدت بهم طرقات اختاروها عن سابق قصد.

الشعور الذي ينتاب المرء، اليوم، لدى ملاحظة بوتين أو قراءته بينما يتحدث عن هذه المرحلة، مثير للاهتمام؛ تبدو الحرب حاضرة في وجدانه، ليس كماض أليم، ولكن كقدر يحاول تجنبه إلى درجة أنه قد يندفع إلى مواجهته!

ثمة حرب لم تنتهِ بعد، في قرارة نفسه!

وهذا الفصل من سيرة حياة والدي بوتين، هو على نحو أو آخر، جزء من سيرته الخاصة. ليس لأن والدي كل إنسان هما جزء منه، وحياتهما جزء من سيرته. لا، ليس فقط لهذا.. إنه يختار أن يروي هذه التفاصيل، حينما يضطر للحديث عن نفسه لكتاب السيرة المهتمين. وهي على نحو ما مكرّرة في أكثر من حديث

مطبوع ومصور يتحدث فيه عن حياته. وربما لا يكون هذا مجرد تكرار يفرضه انعدام المعرفة بفصول أوسع وأشمل، بل إلحاح إنسان على تفاصيل بعينها، أثّرت به، وعنت له الكثير.

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، في مطلع التسعينات من القرن المنصرم، انحاز بوتين إلى معسكر «الديمقراطيين» و«الروس الجدد»، ولكنه لم يذهب معهم إلى فكرة العداء للدولة السوفيتية، ولم يُدن الماضي. واعتبر أن كل هذا التاريخ، الذي بدأ تقريباً مع مولد والديه في مطلع القرن العشرين وحتى انهيار الدولة السوفيتية، هو تاريخه الشخصي بإنجازاته وأخطائه، وبكوارثه ومآثره!

لقد أشاع «الديمقراطيون»، الذين عاش بوتين في كنفهم طوال عقد التسعينات، ثقافة إدانة الماضي، ومحاولة القطيعة معه، والتّنصل منه. أشاعوها إلى درجة أن كاتب هذه السطور شاهد بنفسه في تلك الفترة كيف يتهجّم مراهقون مخمورون على متقاعدي الحرب المتوشحين بأوسمتهم، ويعنّفونهم:

«لِمَ قاتلتم؟ لِمَ قاومتم؟ لِمَ لم تتركوا الألمان يحتلوننا»..!

ويمكننا أن نصادف مثل هذا الموقف. ولكنه يصدر اليوم عن معارضين سياسيين، وبمنطق أكثر جاذبية والتواءً. وفي الغالب يأتي على شكل البحث عن سيناريوهات بديلة أفضل: أكان يجب أن ندفع كل هذا الثمن الباهظ من الأرواح لكي ننتصر. كانت ألمانيا على كل حال ستنهزم، ولم نكن لنظل تحت الاحتلال؟

بالمقابل، يواجه بوتين مثل هذا السؤال حول «نيفسكي بياتاتشوك»، الموقع الصغير الذي تطلب الاحتفاظ به ذلك العدد الكبير من الضحايا (60 ألف قتيل، وبعض الإحصاءات تتحدث عن مئتي ألف)، حينما يطرحه عليه صحافي يحمل آلة حاسبة:

- ألا ترى أن الثمن الذي دفع لقاء الاحتفاظ بهذا الموقع كان باهظاً جداً؟.

يقول بوتين في الرد:

- أعتقد أن هناك في الحرب، دائماً، الكثير من الأخطاء. إنها أمر لا مفرّ منه. ولكن إذا كنت تقاتل، وتفكر بأن من هم حولك يرتكبون الأخطاء، فإنك لن تنتصر أبداً. ثم يجب أن نفكر في مثل هذا الأمر بواقعية: لقد توجب علينا التفكير في النصر. طالما كانوا هم في الطرف الآخر يفكرون به.

وهو لا يفوّت مناسبة للتذكير بأن هذا الماضي يخصه!

إنه لا يفتأ يشير إلى أن والده ساهم بفعالية في عمليات فك الحصار عن لينينغراد، وعاش ملحمة الدفاع عنها. وكان خاله إيفان ايفانوفيتش شيلوموف من الضباط المشرفين على إدارة وإدامة «شريان الحياة» للمدينة. وأن أمه عاشت في ظل الحصار. عانت، وجاعت، ورأت الموت الذي خيّم بظله الثقيل لأشهر طويلة.

وخلال الاحتفال بذكرى فك الحصار، أحيا ذكرى أخيه، باعتباره واحداً ممن قضوا تحت وطأته!

وفي المحصلة، يتوجب الانتباه إلى أنه إذا كان حال بوتين مع تاريخ عائلته ليس أفضل حال من المهتمين به وبسيرته، فإن حاله مع سيرته الخاصة غير ذلك تماماً. إنه يعرفها ويذكرها بدقة، محطة محطة، ومرحلة مرحلة..

أما أن سيرته غامضة، فهذا كان خياره، ومن موجبات عمله، ومقتضيات مهمته!

تحضر في رواية بوتين لسيرة عائلته أثناء الحرب ثلاثة حيثيات لا يمكن أن تكون بلا معنى: الجد، وألمانيا، والإحساس بإيقاع ذلك الفيلم السوفيتي القديم المليء بالميلودراما. وإن كان معنى تلك الميلودراما عصيّاً على الفهم..

لا يبدو مفهوماً أبداً في أي مكان بالعالم، سوى الاتحاد السوفيتي، أن يتحدث رئيس حالي عن جدّه الطاهي. ناهيك عن الحديث عنه بنوع من التباهي. ولكن

حتى في الاتحاد السوفيتي نفسه، وبثقافته التي خلفها وراءه، ليس من المفهوم أن يحضر الجد البعيد دوماً، كل هذا الحضور في وجدان حفيد لم يعرفه، ولا يدين له بشيء..

اللّهم أنه فتح طريق العائلة من بومينوفو في «تْفير» إلى سانت بطرسبورغ، ثم إلى موسكو!

إذا كان العالم الخارجي بالنسبة لأغلب الشعوب يتمثل بالغرب الناطق باللغة الإنجليزية، فإنه بالنسبة لبوتين يبدأ بألمانيا. وذلك بالسلب والإيجاب معاً. إنها شيء وبلاد يحب أن يأخذها على محمل الجد. وحديثه دائماً يسير على نحو ما يأخذه تأمل تقلبات علاقة طويلة لا تنتهي: ألمانيا هي الحرب وسيرة والده، وهي سيرته المهنية..

وهي بالنسبة له اليوم الأكثر شبهاً بأوروبا التي لم يعد لها وجود..!

ومن المتوقع أن الإحساس بإيقاع فيلم سوفيتي قديم مليء بالميلودراما، لدى مراجعة سيرة بوتين العائلية، ليس محض مصادفة ولا عارض عفوي؛ إلهاء المتلقّي باللحظات الميلودرامية، وصرف انتباهه عن السياق المنطقي للأحداث وما قد يطرحه من أسئلة إضافية.. ذلك كله قد يكون ناجماً عن وجدان سوفيتي لم يغب، أو هو أحد أعراض محاولات إنتاج سيرة تجيب على الأسئلة دون أن تقول شيئاً فعلاً.

وهذا هو الاحتمال الأرجح، لا سيما عند التعامل مع رجل يتميز ببراعة وبديهة فائقة بالتعامل مع اللغة!

من المثير أن الأماكن تحضر في حياة بوتين مرة أخرى، بإشاراتها الغامضة؛ ففي بداية الحرب، بادر الخال إيفان ايفانوفيتش إلى أخذ شقيقته، وأخرجها مع طفلها تحت القصف والنيران من بيترهوف إلى لينينغراد، حيث كان في ذلك الوقت يخدم في قيادة القوات البحرية، التي كان مقرها في قصر

سمولني.

وبعد نحو خمسين عاماً، أي في تسعينات القرن الماضي، سيكون قصر سمولني مقراً لحكومة لينينغراد وبلديتها. وستقود الأقدار فلاديمير بوتين للعمل خمس سنوات هناك، حيث كان يعمل خاله إيفان ايفانوفيتش شيلوموف، أثناء الحرب.

اللغز الثاني

سر الأقارب الجورجيين

الصفحات البيضاء

الصفحات الكثيرة البيضاء في سيرة فلاديمير بوتين شكّلت فرصة ملائمة لخصومه، الذين لم يتأخروا في محاولة ملئها بقصص وحكايات «مناسبة»، يمكنها أن تكسب الوجه السياسي الجديد القادم من «غياهب» الـ«كي. جي. بي»، الملامح التي يريدونها.

واختارت أبرز المحاولات أن تنطلق خارج موسكو، ومن مسافة بعد نسبي؛ ففي عشية الانتخابات الرئاسية في روسيا ربيع العام 2000، فجرت الصحافة الجورجية جدلاً حول أصول بوتين، بنشرها لمعلومات تفيد بأن أم بوتين البيولوجية، ليست ماريا إيفانوفنا شيلوموفا كما هو معروف، بل امرأة أخرى تقطن في قرية «ميتيخي»، الواقعة في ضواحي العاصمة الجورجية تبليسي.

لم تبق هذه المعلومات المثيرة بدون صدى.. لقد تناقلتها على الفور وسائل الإعلام الغربيّة. وسرعان ما بثّت محطات التلفزة اليونانية والألمانية ساعة مصورة عن حياة تلك المرأة العجوز، في حين نشر ممثلو الانفصاليين الشيشانيين في الخارج كتاباً حول هذه المعلومة، بعنوان «سر حياة الرئيس الروسي». كما أعدّ الصحفي الروسي أرتيوم بوروفيك فيلماً خاصاً حول «والدة بوتين البيولوجية» المفترضة.. ويقال إن النسخة الكاملة من الفيلم منعت من العرض في روسيا، مع أن القصة بمجملها بدت منذ اليوم الأول لظهورها مريبة ولا تصدق.

ولكن ليس بالنسبة للجميع..!

تقول هذه الرواية «الجورجية» حول أصل فلاديمير بوتين، إنه ولد ما بين (1949- 1950)؛ وأن والديه الحقيقيين هما فيرا نيكولايفنا بوتينا، المولودة سنة 1926، في مدينة أتشيور بمنطقة بريمورسكويه، وبلاتون بريفالوف؛ وتم التخلي عنه حوالي عام 1959 لجديه لأمه (ميخائيل إيليريونوفيتش وآنا

إيلينيتشينا بوتينا)، ثم تخلى عنه جدّاه لقريبهما البعيد، المقيم في سانت بطرسبورغ فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين (والده المعروف).

بدت هذه الرواية حول أصل الرجل، الذي أصبح للتو رئيساً بالوكالة لروسيا، ملفقة وتثير الكثير من الأسئلة، منها على الأقل: لماذا في تلك اللحظة فقط، ظهرت هذه القصة!؟

كان بوتين، أثناء رئاسته للحكومة في العام السابق، قد شن حرباً ضروساً ضد الإنفصاليين الشيشان، سحقت دورهم الذي مارسوه منذ انهيار الاتحاد السوفيتي، وطوال مرحلة يلتسين؛ لذا، لم يكن من المنطقي تجاهل حقيقة أن هذه القصة ظهرت في صحافة جورجيا، التي تتعاطف حكومتها مع الانفصاليين، والبحث عن مغزى ما خفي في ذلك..

ولكن، بالمقابل، كانت هناك حيثيات أخرى جدية.. أولها، أن فيرا نيكولايفنا بوتينا (أوسيبشفيلي بعد الزواج)، التي يفترض أنها الأم البيولوجية الحقيقية لبوتين، موجودة على قيد الحياة، وتعيش في جورجيا، في قرية ميتيخي، حيث يقال إن بوتين نفسه عاش هناك منذ أن كان عمره ثلاث سنوات وحتى بلغ التاسعة من العمر..

ولديها، عدا بوتين، أطفال آخرين من زوجها الجورجي!

ثانيها، ما الذي يدعو امرأة في الرابعة والسبعين من عمرها إلى إطلاق مثل هذه المزاعم، من دون أن يبدو عليها من بعيد أو قريب أي شبهة بالابتزاز، أو التكسب، أو نزوع نحو الشهرة، أو حتى خلل في صحتها العقلية أو النفسية..! بل على العكس، كان مجتمعها يمحضها التقدير والاحترام!

ثالثها، أن السيرة الرسمية لحياة بوتين لا تتضمن أي إشارات حول المرحلة العمرية الأولى، إلى ما قبل الالتحاق بالمدرسة؛ وهذا لا يبدو غريباً فقط، وينسجم مع الرواية التي تقول إنه عاش هذه المرحلة من طفولته في جورجيا.

رابعها، أن موعد التحاقه بالمدرسة ينسجم مع الرواية والحيثيات التي تسوقها تلك الأم التي ظهرت فجأة في مجاهيل جورجيا، ويضفي عليها مصداقية لا يمكن تجاهلها دون احتمال الاعتداء على الحقيقة.

خامسها، لدى بوتين كل الأسباب والموجبات التي تدفعه بإرادته، أو بفعل الظروف القاهرة، إلى محاولة إخفاء مثل هذه الأم، لا سيما وأنها ظهرت بينما كان يستعد لأول انتخابات رئاسية خاضها.

ومن الملفت أن هذه القصة باتت مسلسلاً تتجدد حلقاته مع كل انتخابات جديدة، ولكن بوتين لم يحاول أن ينفي هذه القصة أو يؤكدها بنفسه، أو بشكل رسمي!

كانت البداية مع انتخابات رئاسة بوتين الأولى عام 2000، وشهدت القصص الصحفية حول هذا الموضوع دفعة قوية في الأول من مارس 2000، الذي جرت الانتخابات في ثلثه الأخير.

هكذا في يوم واحد، تحول النشر من نتف متفرقة إلى عاصفة تجتاح أهم الصحف!

في ذلك اليوم نشر ممثل الانفصاليين الشيشان في العاصمة الجورجية تبليسي، فاخا إبراهيموف، مقاله الطويل بعنوان «السيرة السريّة للرئيس الروسي»، وبالتزامن معه ظهرت إلى النور مقالة الكاتب فيغنانسكي في صحيفة «سيفودنيا» معنونة بـ«للقائم بأعمال الرئيس الروسي أم وشقيقات في تبليسي»، وفي مجلة «سابيسيدنيك» كتبت أولغا لاريونوفا مقالاً بعنوان «كم والدة لدى بوتين؟» (2 آذار 2000)، أما «ليتراتورنايا غازيتا» فتناولت الموضوع في عددها الأسبوعي الصادر في 29 شباط 2000.

وغير ذلك الكثير، الذي سيتكرر مع المواسم الانتخابية اللاحقة!

صحيفة «موسكوفسكي كومسموليتس» الروسية قررت، بعد نحو ست سنوات،

أن تتعامل مع هذه القصة متكررة الحضور بجدية تامة، وأن تلاحقها من مصادرها الأصلية، وأن تجري تحقيقاتها الخاصة لمعرفة كيف بدأت هذه القصة المثيرة، وما الذي يدفع امرأة تبلغ من العمر أربع وسبعين عاماً أن تعلن للعالم أنها أم الرئيس الروسي. ولماذا تهافتت وسائل الإعلام الغربية على قصة هذه المرأة..

ومن هو في الواقع ابن فيرا بوتينا، التي تعيش في تلك القرية الجورجية البعيدة!

وهذه المتابعة، قدمتها الصحفية إيرينا بوبروفا، في عدد «موسكوفسكي كومسموليتس»، الصادر بتاريخ 13 يونيو 2006، في قصة تستحق أن تروى بالتفصيل الدقيق، سواء لما فيها من توضيحات تتعلق برواية هامة حول حياة رئيس روسيا، أو بتفاصيل تلك القصة الإنسانية المفجعة، التي تتحدث عن أم مخذولة تعيش في عوز وفاقة، نجحت في استثارة تعاطف العالم الغربي، بينما لم تستطع أن تحرك عواطف ابنها الجاحد المفترض الذي كان في طريقه ليكون رئيس إحدى أعظم دولتين في العالم!

تبدأ الصحفية إيرينا بوبروفا من الأم الجورجية!

تشدّ الصحفيّة بوبروفا الرحال إلى جورجيا، وتسعى لمقابلة تلك المرأة العجوز. وليس من المعروف إن كانت جاءت مستخفة بالقصة أم لا، ولكنها تُفاجأ لدى وصولها قرية متيخي المعزولة، بأن الأهالي يعرفون تلك المرأة بوصفها والدة الرئيس فلاديمير بوتين، ويتحدثون عنها باحترام وجدية، ويرونها «امرأة شريفة، متواضعة، واضحة، وتحب ابنها رغم أنها لم تره منذ سنوات عديدة».

كان من الطبيعي أن الجميع يعروفونها..!

بعد الضجة الإعلامية التي أحدثتها قصتها، ولم يبق أحد في جورجيا كلها لم يسمع بها. والأكثر إثارة من ذلك، أن الصحفيّة بوبروفا تفاجأ هناك أن ما من

شخص واحد من بين السكان المحليين يشك في صحة رواية تلك المرأة، التي تُقدّم نفسها باعتبارها الأم البيولوجية لبوتين.

وبعض السكان يروون ذكرياتهم الخاصة حول ومع بوتين الطفل!

كبار السن، ومجايلي بوتين ممن يفترض أنهم عرفوه وصادقوه وزاملوه في المدرسة. يسردون حوله قصصاً، ويصفون طباعه وسلوكه، بما لا يدع للشك مجالاً..

ومع ذلك، تقرر الصحفية بوبروفا لنفسها أن هذا عائد لخصائص ثقافية متعلقة بجورجيا..

ويبدو لها أن ذلك الإيمان المطلق بما تقوله تلك المرأة مفهوم نسبياً، من دون التّورط بفكرة أن مجتمع بأكمله قد تآمر لينسج كذبة: من الشائع في جورجيا اختلاق الأساطير، والإيمان بها بعمق وصدق حقيقيين. تماماً كما يحب الأطفال أن يؤمنوا بالمعجزات.

لقد كانت الأرض الجورجية عموماً ولاّدة للأساطير!

يمكن فهم الأمر من هذا الباب، فالعشرات من القرى الجورجية، على سبيل المثال، ما تزال تكافح لليوم من أجل أن تنال الحق في أن يعترف بها كمسقط رأس للزعيم السوفيتي الراحل يوسف ستالين.

فهل هذه القصة المثيرة مجرد قصة ولدتها المجاهيل الجورجية؟

يبدو الأمر مختلفاً في حالة حكاية والدة بوتين، ففي هذه الحكاية هناك حيثيات مفاجئة أخرى. وإلا فكيف استطاع الجورجيون إقناع أوروبا وأمريكا بأسطورتهم الخاصة؟ ولماذا لم يكلف أي من الصحفيين نفسه عناء التحقق من هذه المعلومات المشكوك فيها؟

وهنا، تحول الحيثيات الوجيهة في القصة دون المسارعة لاتهام صحافة

الغرب!

هناك قصص كثيرة نسجت حول بوتين وعائلته ووالديه، قبل وبعد ذلك، ولقيت الذيوع والانتشار في الصحافة الغربية، لكنها كانت تفتقر إلى الحيثيات الواقعية، فلم تحدث رغم مضمونها الصادم أي ضجة.

منها مثلاً، تلك الحكاية اللاحقة حول خيانة والده وقتاله إلى جانب الألمان!

بدأت هذه الحكاية على نحو مشابه، فقد وردت لأول مرة في مجلة «أنجورا» البولندية، في عددها رقم 31 الصادر في الثامن من مارس عام 2003، حيث نشرت في باب «أسرار التاريخ» مقالاً باسم جوزيف زانيافسكي، بعنوان «هل شارك والد رئيس روسيا في قمع انتفاضة وارسو؟». والمقصود بانتفاضة وارسو هي تلك العملية العسكرية الكبرى التي قام بها جيش المقاومة البولندية لتحرير العاصمة البولندية وارسو من القوات النازية في أغسطس 1944.

وفي المقال يورد الكاتب المعلومات التالية:

- فيكتور سوفوروف، المقيم في المملكة المتحدة، هو أحد العملاء السابقين للاستخبارات الخارجية السوفيتية في سويسرا، انشق في العام 1978 وانضم إلى المخابرات البريطانية، وحكم عليه غيابياً بالإعدام (لم يتم إلغاء العقوبة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي)، وهو مؤلف كتاب «حوض السمك» الذي أضحى واحداً من الكتب الأكثر مبيعاً لدى صدوره عام 1985.

- في فبراير من العام 2002، وبينما كان يجمع المواد لكتاب حول المارشال جورجي جوكوف في المحفوظات السرّية البريطانية في لندن اكتشف، وفق ما يقول، بالصدفة، صورة مثيرة جداً للاهتمام، يظهر فيها ستة ضبّاط، ثلاثة منهم بملابس القوزاق، واثنان بالزي الألماني، وواحد بزي جيش التحرير الروسي.

- يكتشف سوفوروف أن الضبّاط بزي القوزاق هم روس خدموا في تشكيلات جيش القوزاق العام الذي يقوده الجنرال فلاسوف، الذي انتقل للقتال إلى

جانب النازيين. وحسب ما هو موضح على الصورة فإنها التُقطت في شهر أغسطس عام 1944، تحديداً في الوقت الذي قُمعت فيه انتفاضة وارسو فيه.

- من الكتابة، كما يقول سوفوروف، يتضح أن الأول من اليسار هو الملازم فلاديمير بوتين (والد الرئيس الروسي). والاثنان الآخران بالقبعات القوزاقية، هما الرائد فرلوف والملازم ميخالتشيفسكي.

- فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين، والد الرئيس الحالي لروسيا كان ضابطاً في قوات وزارة الداخلية منذ عام 1941. في بداية الحرب استسلم للألمان بالقرب من فيتيبسك..

- عندما أنشأ الجنرال أندريه فلاسوف جيشه، تطوع فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين في صفوف ذلك الجيش. وفي تلك الفترة شاركت تشكيلات من جيش فلاسوف القوات الألمانية في تنفيذ إجراءات عقابية ضد السكان البولنديين.

- في عام 1945، أُلقي القبض على فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين من قبل البريطانيين. وفي العام نفسه، سلمت السلطات البريطانية فلاديمير سبيريدوفيتش بوتين، مع بقية مجموعة فلاسوف إلى الاتحاد السوفيتي.

وهذه الحكاية لا تصمد أمام التمحيص؛ فمكان وجود فلاديمير بوتين الأب كان معلوماً، على الأقل عدة مرات خلال هذه الفترة التي تتحدث عنها هذه الحكاية، ولم يكن لا لدى الألمان، ولا برفقة جيش فلاسوف. إضافة إلى أنه لو كان صحيحاً أن البريطانيين أسروه، ثم سلّموه للسوفييت، لما كان فلاديمير بوتين الابن رئيساً، ولما كان ولد أصلاً، لأنه والده كان سيواجه عقوبة الإعدام أو السجن لفترة طويلة، مما سيؤخر تاريخ ميلاد ابنه.

لم يُلقِ أحد بالاً لهذه الحكاية، فلماذ أثارت قصة الأم الجورجية كل تلك الضجة!

عمدت صحافية الـ«موسكوفسكي كومسموليتس»، قبل زيارتها لفيرا بوتينا، إلى

الاتصال بابنته العجوز، صوفيكو أوسيبشفيلي، فجاءت ردة فعل الابنة عنيفة ترفض استقبالها، مشيرة إلى أن أمها لن تقبل إعطاء أي مقابلات.

وقالت:

- ما كان علينا من الأساس أن نشرك العالم بسرّنا العائلي الخاص!

وكانت هذه كلمات تؤكد على الأقل قناعة عائلة فيرا بوتينا بالقصة التي ترويها. القصة التي تقول إن للرئيس الروسي سيرة أخرى، غير معروفة، وربما متكتم عليها.

وأضافت:

- لقد أصبحنا الآن نعيش كما لو أننا على برميل بارود. كل مكالمة هاتفية تثير ذعرنا. حتى إنني بتُّ أخشى ترك أمي وحدها، وأصبحنا نخاف الخروج في المساء إلى الشارع..

وكانت هذه كلمات تؤكد، إلى جانب الرفض وردة الفعل العنيفة، أن القصة باهظة الثمن على أصحابها، وأنهم ليسوا مسرورين بها، ولا يتوقعون جرّاها سوى الأذى.. وهذا، يعطيهم مصداقية ما من حيث المبدأ!

وقالت بصراحة:

- في الواقع، وصلتنا على عنواننا العديد من التهديدات..!

وهذا التصريح، يؤخذ على محمل الجد؛ فالقصة تمسّ رجلاً ليس سهلاً. إنه رجل استخبارات سابق، وهو اليوم يمتلك كل الأجهزة الأمنية بين يديه، وله من السمعة ما يرعب، ويتهمه الإعلام وسياسيون بقتل كثيرين قالوا أو همّوا بقول ما لا يرضيه. وهناك الكثير من القصص المتداولة حول اتباعه لأساليب قاسية في تصفية خصومه وفي التعامل مع الأشخاص الذين يمثّلون له مشكلة.

ولا يهم إن كانت لهذه السمعة ما يسندها أم لا. يكفي أن يصدقها المرء، ليصاب بالذعر!

ومن الجهة الأخرى، كان يمكن فهم القصة نفسها كمحاولة للإضرار به، بينما هو يخوض غمار الانتخابات الرئاسية. وهذا سبب كاف للتعرض لأذاه، حتى مع عدم قلقه من القصة نفسها. وفي حال كانت القصة حقيقية، فإنه من المؤكد سيكون منزعجاً لذيوعها بين الناس!

لم تصغ صحافية الـ«موسكوفسكي كومسموليتس» لكلام الابنة، وقررت أن تزور الوالدة، في قريتها البعيدة!

انطلقت في رحلتها من العاصمة الجورجية إلى قرية متيخي المجهولة، التابعة لمنطقة قزوين، على بعد ساعة ونصف الساعة بالسيارة عبر طريق وعرة ومحطمة.

لقد كانت «متيخي» قد أضحت بقعة منسية، ومجهولة، قبل قصة فيرا بوتينا!

كانت قد أُهملت تماماً من السلطات لسنوات طويلة. وتُركت الطريق الموصلة إليها على حالها، بينما وسائل النقل العام طالها الإهمال، ولم تُجدّد، وأصبحت مجرد أشباح معدنية تُذكّر بعهد غابر كان الناس فيه يستخدمونها لقطع المسافات بسرعة، بينما هي في حاضرها تستغرق وقتاً أطول للوصول إلى تلك البقاع مما تتطلبه المسافة الفعلية.

حافلات محطمة تقطع مسافة السبعين كيلومترا بنحو أربع ساعات!

يتضح خلال الطريق أن القرى الجورجية القديمة أضحت تشبه بعضها مثل التوائم، في حين باتت الحدود الإدارية التي تفصل بينها غير مرئية؛ فاللوحات المعدنية التي تشير إلى أسماء القرى نزعها السكان منذ وقت طويل، واستخدموها في حاجاتهم الخاصة. وبالأساس، لأنه لم تعد هناك حاجة إليها فالغرباء لم يعودوا يمرون بها!

كانت متيخي في عهد مضى طبيعة بكر تجذب السياح ومحبي الاصطياف، بينما هي اليوم مجرد مجاهيل بعيدة، في بلاد لا يثير اسمها الطمأنينة، ولا يشجع على زيارتها.

لدى وصولها إلى «متيخي» تتوجه الصحفية إلى مركز القرية..

مركز القرية أضحى مكاناً توقّف فيه الزمن منذ وقت طويل. ثمة متجر بدائي صغير يتجمع حوله شباب لا تزيد أعمارهم عن عشرين عاماً يلعبون الداما. وفي الجوار يتجرع العجائز بعض المشروبات المحلّية. وأبعد قليلاً نساء يسرن حاملات أكياس محشوة بأعمالهن اليومية. إنها تبدو في الوصف كبلدة مكسيكية صغيرة في فيلم هروب أمريكي!

وهنا، يكسر ظهور الصحفيّة، صحافية الـ«موسكوفسكي كومسموليتس»، رتابة الحياة اليومية في القرية، فيترك الناس أشغالهم، وينشغلون بالقادمة الغريبة. تتوجه الصحافية إلى إحدى السيدات، وتقول:

- ألا تأخذيني إلى بيت فيرا بوتينا؟

لا يبدو أن المرأة تعبأ بها، وتكتفي بأن تشير إلى أحد الرجال، وتقول بلا مبالاة:

- دعي واحداً منهم يأخذك إلى هناك.

ونتابع مع الصحافية بوبروفا، صاحبة القصة..

«من الواضح أن الرجال هنا يحظون بسمعة الكسالى عديمي الفائدة، في مجتمع تحفظه النساء، ويعتنين بإبقائه قائماً وموجوداً على خارطة الحياة. ذلك فضلهن الذي يبدو أن الرجال يدركون أن لا مناص من الاعتراف به».

وهكذا، لا تمر كلمة تلك المرأة مرور الكرام، وتترجم إلى أمر واجب التنفيذ.. ينهض واحد من الشباب لاعبي الداما، ويصعد بتكاسل إلى السيارة، فينطلق السائق بها عبر طريق مليئة بالحفر العميقة. وعند وصول السيارة إلى بوابة

سياج فيرا بوتينا المفتوحة، يقول المرافق المحلي:

- يبدو أنهم يعرفون بقدومك.

لم ينتظر تعليقاً، وسارع يقول، بحماسة من يستذكر ماض مثير:

- الصحفيون كانوا ضيوفاً دائمين على المرأة العجوز. في السابق كانوا يصطفون في طابور على باب الجدّة!

يبدو أن شعبية الجدّة تعني له شيئاً ما. نجاح أو انجاز يخصه ويعنيه. غير أنه سرعان ما يتضح أن هذه الكلمات هي مقدمة لفكرة أخرى، تحمل نوعاً من العتب الصديق.

- ومع ذلك، من روسيا، أعتقد، لم يأت أحد. رغم أن اللغات الأجنبية كانت تسمع هنا بكثرة!.

متن الحكاية

تصف صحافية الـ«موسكوفسكي كومسموليتس» زيارتها لـ«والدة بوتين البيولوجية» المفترضة في بيتها في قرية متيخي، فتكتب:

«كان ذلك منزلاً ريفياً من الطوب، يقود إليه طريق إسمنتي صغير، يمر بالمرء عبر الحديقة، التي ازدحمت فيها كروم العنب، نحو المدخل الذي تتصدره شرفة أرضية. وعلى الشرفة كانت امرأة صغيرة الحجم، في بلوزة سوداء ضيقة، فوق قميص قرمزي منقوش. شعرها الرمادي مسرح بعناية، عينان فاتحتا اللون ووجه صغير، غزته التجاعيد العميقة. كانت هذه هي أم بوتين المفترضة!

- لا أريد أن أتحدث مع روس!

هتفت المرأة حينما سمعت الصحفية تتحدث بالروسية. لم تبد عدائية، ولكنها كانت للوهلة الأولى حازمة، إلى درجة لا يؤتمل معها إقناعها بالتراجع عن قراراها.

- لو كنت أعرف أنك سوف تأتين، لكنت بقيت عند الجيران..!

وفي النهاية تأتى إقناع المرأة العجوز وإن بصعوبة، فقالت مشدّدة:

- خمس دقائق، لا أكثر!

ولكنها سرعان ما نسيت تحذيرها مع بدء الحديث، فاستمرت المحادثة لعدة ساعات ما يكفي للاستماع للتفاصيل، وتأمل الحيثيات، ومحاولة تخيل الأحداث كيف وقعت في وقتها.

استهلّت المرأة العجوز الحديث بالقول:

- أنا أفهم أن معظم قصتي يبدو غير قابل للتصديق!

وهذه كلمات لا يشكك بها أحد سمع الخبر، ولم يسمع القصة نفسها. من يسمع

القصة، ويعرف معاناة صاحبتها، سيصدقها، وسيحب أنه صدقها، وتعاطف معها. ولن يأبه حتى لو كان في ذلك استخفاف بالحقيقة نفسها!

- الكثيرون ينظرون إليّ كمجنونة، ولكن القرية بأكملها تعرف أنه ابني!

وهذه كلمات تجد تأكيدها في القرية نفسها. الأهالي لا يصدقونها وحسب، بل ويشهدون على صدقها بسرد ذكرياتهم مع ذلك الصبي الذي غادر قريتهم المنسية، ليصبح رئيساً.

- ببساطة فقدته ذات يوم، ولم أتمكن من العثور عليه بعد ذلك!

وهذه كلمات تلخص القصة التي امتدت على مدار سنوات طويلة، ولكنها لا تصل إلى تلك النهاية المثيرة، التي لم تستغرق سوى القليل القليل من الوقت.

- عندما ظهر فولوديا، قبل عدة سنوات، لأول مرة على شاشة التلفزيون، هرع إليّ الجيران من كل جهة. وكانوا يهتفون: «فيرا، إنه ابنك فوفكا!». أما أنا، فما أن نظرت إليه حتى صُعقت!

وتضيف مؤكدة بلوعة:

- العينان يمكن أن تخدعا الإنسان، ولكن قلب الأم لا. إنه لا يخطئ..!

وتنهدت المرأة، وخفضت عينيها.

- أنا وابني نتشابه مثل حبتي بازلاء. لنا نفس الطريقة في الحديث، والمشية ذاتها. مثل خطوات البط تماماً، ولنا عيون رمادية. أشعر بالذنب تجاه ابني، ولكن لو فعلت خلاف ما فعلت، لما كان قد حقق شيئاً..

تخرج منديلها، وتمسح به عينيها.

- ولكن أترين كيف انقلبت الأمور. ذات يوم تخليت أنا عنه، واليوم يرفض هو أن تكون له أي علاقة بي. ولكن هذه قصة طويلة. هل أنت على استعداد

لسماعها؟».

تضع فيرا نيكولايفنا أمام صحافية الـ«موسكوفسكي كومسموليتس» شهادة ميلاد، هي الدليل الوحيد الذي يمكن أن يشير إلى واقعية القصة، التي عاشتها بصمت عقوداً طويلة، ثم روتها عشرات المرّات في أسابيع قليلة.

الاسم: بوتينا، فيرا نيكولايفنا. ولدت 6 سبتمبر 1926. مكان الولادة: قرية تريوخينا، منطقة أوتشيرسكي، بيرم، روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية.

القرية التي ولدت فيها فيرا بوتينا لم تعد موجودة على خريطة المنطقة منذ وقت طويل. القرى الصغيرة تداخلت وتوحدت في واحدة من مدن منطقة بيرم.

في وقت ما، كانت فيرا نيكولايفنا بوتينا، «والدة بوتين البيولوجية» المفترضة، تعيش مع والديها في قرية تريوخينا بمنزل لطيف مع قطعة صغيرة من الأرض. كانت قد أنهت الدراسة في المدرسة المحلية، ثم انتسبت لكلية الميكنة الزراعية. كانت زميلاتها يلقبنها بـ«الفأر الرمادي»، لم تكن فيرا تتميز بجمال خاص. ولم تشارك في الأنشطة الاجتماعية، ولم يكن من المعتاد أن تذهب للرقص مع صديقاتها، كما لم تكن متميزة بدراستها. وربما كان هذا هو السبب في أنها حظيت بالعريس الأسوأ على الإطلاق في كل المنطقة.

تخرج زوجها بلاتون بريفالوف من كلية الميكنة الزراعية نفسها التي درست فيها. لم تكن سمعته في المنطقة جيدة. تعلم الإسراف بالشرب في سن مبكرة بتأثير والديه. ولهذا لم يكن أحد يقبل به للعمل، فيما تجنبته الفتيات.

- كنت صغيرة، وغرقت في كلماته المعسولة!

تقول فيرا نيكولايفنا لصحافية الـ«موسكوفسكي كومسموليتس».

لقد اندفعت تجاهه، وبدأت تعيش معه. بدا أن ذلك خطوة إيجابية تسهل

مخططاتهما في إنشاء أسرة. ولم يمض وقت طويل حتى حملت بطفلها. ولكن تبين في ذلك الوقت بالذات أن بلاتون كان متزوجاً منذ وقت طويل بأخرى. غير أن زوجته لم تستطع أن تنجب أطفالاً، فقرر أن يستخدمها لهذه الغاية.

أرادها أن تنجب له طفلاً، ليسرقه!

وتؤكد فيرا نيكولايفنا بوتينا أن بلاتون اعترف في وقت لاحق بذلك بنفسه؛ ولكنها كانت قد هربت منه في الوقت المناسب. ولهذا اعتبرت أن ليس هنالك أب لابنها، وتصرفت على هذا النحو.

ولا تعرف فيرا نيكولايفنا بوتينا كيف سارت حياة بلاتون بعد ذلك، ولا ما جرى له. ربما مات منذ فترة طويلة. ربما هو على قيد الحياة. ولكنها، من حيث الأساس، كانت تهرب منه، وبالتالي، فهي آخر من يمكن أن يحاول البحث عنه.

وبالأساس، لم تكن في روسيا لسنوات طويلة.. أنجبت الطفل في سبتمبر 1950. كان صبياً أسمته فلاديمير. وأعطته لقبها العائلي: بوتين. وبعد ذلك بعام، انتقلت إلى طشقند لاجتياز فترة التطبيق العملي قبل التخرج. أبقت ابنها عند والديها. بينما التقت هي في طشقند بشاب من جورجيا، هو جورجي أوسيبشفيلي، الذي كان يؤدي الخدمة العسكرية في تلك المدينة.

وبعد شهر، جاء الى الأورال طالباً يدها! أقيم حفل الزفاف في «متيخي»، وكانت الحياة فيها آنذاك مختلفة تماماً. كانت لدى الناس وظائف مجزية. ومنزل الزوجية الجديد كان يزدحم دائماً بالضيوف، من الصباح حتى الليل، ولم يكن أهل البيت يضنون بإنفاق المال على التسلية والحفلات.

كانت تعتقد أن الأمر سيظل هكذا دائماً. وربما لهذا السبب قررت أن تنجب لزوجها أربعة أطفال آخرين. ولكن بعد أن أنجبت أول طفلتين، أضحى الابن البكر، فلاديمير، زائداً في المنزل الجورجي. ومع ذلك، عاش «فوفا» في المنزل الجورجي تسع سنوات!

- ثم اختفى فجأة!

يقول هذا ماموكا، جار فيرا نيكولايفنا بوتينا.

ويؤكد الجار ماموكا أن الزوج الجورجي لم يحب ربيبه. وحصل أنه أحياناً كان يضربه بالعصا، وكان يجبره على الخروج من المنزل في الطقس البارد، وكان يقتّر عليه لدرجة أن الصبي كان يرتدي دائماً ملابساً ممزقة مليئة بالبقع!

ويقول ماموكا أنه لم يكن هناك من يلوم جورجي!

- نحن الجورجيون شعب فخور. فأين يمكن أن تجد بيننا من يقبل بابن شخص آخر؟ خصوصاً حينما يسخرون منك إن فعلت هذا. جاءت به فيرا في حضنها. ممن حملت به، لا أحد يعرف.. لقد عانى جورجي طويلاً جراء ذلك. ولكنه، على ما يبدو، لم يستطع التحمل أكثر. فألزم زوجته التخلص من الطفل.

ليس من المقبول في جورجيا أن تعارض النساء أزواجهن. ولم يكن بوسع فيرا أن تقاوم رغبة زوجها.

تغيرت الحياة في عائلة فيرا نيكولايفنا، وأضحت المشاجرات متكررة، على نحو يومي. وبات زوجها يصرخ بها على الدوام: «خذي معتوهك هذا بعيداً عني».

لم يكن لديها من خيار سوى أن تنقل الصبي ليعيش مع والديها.

فكّرت وزوجها في ذلك الوقت بالطلاق، لكنه لم يقبل أن يعطيها بناتها. وباتت تواجه وضعاً صعباً: أن تعيش في جورجيا، بينما ابنها في بيرم. ولم يكن من مفر. ولكن جد فولوديا، البلشفي القديم، لم يشأ كذلك أن يقبل حفيداً غير شرعي، وبدون علم ابنته ألحق الطفل بمدرسة داخلية.

- لم يخبرني والداي أين ذهبا بابني. ولكن أمي اعترفت قبل وفاتها أن «فوفا» نفسه بات يرفضني، وطلب منهم عدم إبلاغي عن مكان وجوده. لم يكن

بوسعي أن أبحث عنه بنفسي. فلو عرف زوجي، لقتلني!

وتقول فيرا نيكولايفنا أنها عرفت لاحقاً أن فولوديا التحق بالعمل في الـ«كي. جي. بي». أخبرها بذلك أحد جيران أهلها السابقين في القرية. وفهمت منه أنهم، على ما يبدو، غيروا اسم والده، وتاريخ ميلاده: من العام 1950 إلى العام 1952.

تروي فيرا نيكولايفنا حكايتها، وتبدو حكايتها عمراً آخر، مستقلاً، عانته، ولم تعشه!

يملؤها الإحساس بالظلم. والإحساس بالظلم مقترن بالإحساس بالذنب. ثمة ذنب اقترفته في وقت ما، وهو يجرُّ عليها اليوم كل هذا الظلم. إنه العقاب الذي توقعه الحياة، بمن تطالهم يدها!

إنها تقر بأنها تستحق العقاب، ولكن لا يجدر معاقبتها لمجرد أنها ضعيفة!

«يشبه بيت فيرا نيكولايفنا بوتينا النزل، تماماً: ثلاث غرف صغيرة بسرير حديدي ضخم في كل واحدة. في غرفة المعيشة أريكة قديمة، والنوافذ مغطاة بستائر مائلة إلى الأصفر ومطرّزة يدوياً. وفي الزاوية، طاولة صغيرة مغطّاة بمفرش من الدانتيل، وتلفزيون محمول بالكاد يتجاوز حجمه راحة اليد اشترته بآخر الكوبيكات التي تملكها. لقد سمحت هذه المرأة لنفسها بالحصول على كل هذا «الترف»، حينما أصبح فلاديمير بوتين رئيساً لروسيا..

وتقول أنها اشترت التلفزيون لتتمتع برؤية ابنها كل يوم!

نعم. هي بحاجة إلى تلفاز، ولو صغير بحجم راحة اليد، طالما أن ابنها الذي لا يطل عليها أبداً ويحجم عن لقائها، لا يبخل باطلالته على شاشة التلفزيون، يومياً. وهذا كاف لتشعر أنها استعادت ابنها من غياهب السنين، وقرار الضياع..

- يحصل هذا في الحياة، دائماً. أن اللحظة السوداء يتم استبدالها بالبيضاء.

قبل ست سنوات دفنت زوجي. وخلال بضعة أشهر استعدت ابني مجدداً!

تقول المرأة المسنة، وتبتسم بأسى..

حينما بات لدى أبناء فيرا نيكولايفنا بوتينا الأربعة عائلاتهم الخاصة، لم يعد أحد يأتي لزيارة السيدة العجوز، وتُركت تعيش على راتب التقاعد الذي لا يتجاوز ما قيمته سبعة عشر دولاراً بالعملة المحلية، وهو بالكاد يلبي أدنى احتياجاتها. لذلك عندما علم الصحفيون بمحنة والدة الرئيس، بدأوا بإرسال مساعدات إنسانية إلى «ميتيخي» من جميع أنحاء روسيا. وأول المساعدات وصلتها من الشيشان: كيس من السكر و56 علبة من المواد الغذائية المحفوظة.

تقول فيرا نيكولايفنا:

- جاء لرؤيتي المندوب المفوض لجمهورية الشيشان في جورجيا خيزير ألداموف وبرفقته فاخا إبراهيموف. كنت خائفة بشكل رهيب. بدأوا يطرحون عليّ كل أنواع الأسئلة. أخذوا كل صور فوفا الصغير، ولاحقا كتب فاخا كتاباً. لم أقرأ ذلك الكتاب، ولكن يقولون إنه لم يكتب أي شيء جيد عن الصبي الصغير. على ما يبدو، كانوا يريدون الإضرار بفولوديا.

تصمت للحظة، ثم تستدرك:

- وبالمناسبة، كانا هما من اختلق القصة حول أن والديّ منحا الطفل الصغير لقريبهما فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين المقيم في لينينغراد. لكنني أعرف على وجه اليقين أن ليس في عائلتنا من يحمل مثل هذا الاسم!

هل حقاً ليس هناك «فلاديمير سبيريدونوفيتش» من آل بوتين؟

لا يمكن الركون إلى معرفة فيرا نيكولايفنا، ذلك لأنها من بيرم، و«فلاديمير سبيريدونوفيتش» من «تفير»، علاوة على أنه ولد في سانت بطرسبورغ، وعاش طفولته هناك، والفترات القليلة التي قضاها خارج العاصمة كانت في

بومينوفو».

ولكن هناك شيء آخر يمكن متابعته، وقد يوصل إلى شيء..

لقد حاولت صحفيّة الـ«مسكوفسكي كمسوموليتس» الاتصال مباشرة، بالأشخاص الذين ورد ذكرهم في حديث فيرا نيكولايفنا، إلا أن فاخا إبراهيموف قال إنه يرفض بشكل قاطع التواصل مع الصحافة الروسية، ولم تتمكن من إقناعه بتغيير رأيه، ولكنه على أي حال كان قد كتب في حينه كل ما يعرفه حول هذه القصة، وبعضه تستعين به الصحفية في تحقيقها..

ومن جهة أخرى، لم يكن فاخا مشغولاً بهذه القصة منفرداً..

كان له شركاء آخرون ساهموا بشكل أو آخر في إذاعة القصة وترويجها. ومن أهمهم المؤرخ الذي درس طويلاً سيرة بوتين وتعاون مع إبراهيموف في ملاحقة حكاية «الأم الجيورية» ومتابعتها. إنه يوري فليشتينسكي، الرجل الذي يحمل درجة دكتوراه في التاريخ، ودكتوراه أخرى بالفلسفة. وهو أيضاً محرر ومترجم ومحقق عشرات المجلدات من الوثائق الأرشيفية؛ ويناصب بوتين عداء غير معلن تنتفي معه الموضوعية، لا سيما أنه يعيش مهاجراً في الولايات المتحدة ويعتاش على قصص الإثارة الروسية.

ومع ذلك، تتبعت صحافية الـ«موسكوفسكي كومسموليتس»، إيرينا بوبروفا، أثره وتمكنت من العثور عليه في بوسطن.

قال لها يوري فليشتينسكي:

- خلال حملة الانتخابات الرئاسية، جاء أحدهم إلى ممثلية الشيشان في تبليسي وقال إن والدة بوتين الحقيقية تعيش في جورجيا. بالتأكيد كان لدى هذا الرجل خطة «لاستخدام» هذه الحقيقة في وقف القتال في الشيشان. وبالفعل، قُدّمت الخطة من مندوب الانفصاليين الشيشان في جورجيا، ورُفضت منهم أنفسهم.

بعد ذلك، بحسب ما يقول يوري فليشتينسكي، فوضت ممثلية الشيشان فاخا إبراهيموف، وهو السكرتير الصحفي للرئيس السابق دوداييف، بزيارة فيرا بوتينا ومقابلتها. بل إن الممثلية الشيشانية حاولت عند نقطة ما عقد مؤتمر صحفي لكي تعلن أنه وفقاً للمعلومات المتاحة، أن الأم الحقيقية للمرشح لمنصب الرئاسة الروسية فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين تعيش في جورجيا. ولكن تبين أن المحطة الروسية الكبرى الوحيدة التي اهتمت بهذا الموضوع كانت محطة «إن. تي. في» الجورجية، وكان مدارؤها هم كذلك، يخشون السماح ببث هذه القصة على الشاشة.

ليس من السهل أن تحتفظ بمصالح تجارية، وأن تعادي بوتين في نفس الوقت!

في مارس عام 2000، قتل رئيس مجموعة «سيفرشينا سيكريتنا» الإعلامية، أرتيوم بوروفيك، ورجل الأعمال الشيشاني ضياء باجايف في حادث تحطم طائرة. وحينها أكد فاخا إبراهيموف للمؤرخ يوري فليشتينسكي ولممثلي وسائل الإعلام الغربية أن بوروفيك لقي مصرعه بعد أن تلقى معلومات عن والدة بوتين من خلال باجايف.

ولم تنته الكوارث المرتبطة بـ«الأم الجورجية» عند هذا الحد!

في خريف عام 2000، نشرت صحيفة «لا ريبوبليكا» الإيطالية بعض التفاصيل حول العمل الصحفي الذي كان يقوم به مراسلها أنطونيو روسو، الذي قتل في منتصف أكتوبر من نفس العام في جورجيا. وأعاد هذا قصة «الأم الجورجية» إلى الواجهة..!

القضية في أن الصحفي الإيطالي قبل مقتله المأساوي كان قد سلّم إلى محرر «راديو راديكال» ما يقال أنه شريط فيديو تضمن شهادة الميلاد التي تؤكد أن بوتين ولد في جورجيا، حيث تعيش والدته في فقر مدقع.

لم تستبعد الصحف الإيطالية أن تكون وفاة الصحفي الإيطالي ذات صلة بمقتل

ضياء باجايف وأرتيوم بوروفيك. وكتبت تقول إن الصحفي القتيل تمكن من تسليم المحرر تسجيلاً لمحادثته الأخيرة مع الصحفي الروسي أرتيوم بوروفيك، حيث دار الحديث بالذات حول «الحلقات السرية في سيرة سيد الكرملين».

خيوط متشابكة

يتضح أن الطابع الميلودرامي ليس العيب الوحيد الذي يشوب حكاية «والدة بوتين البيولوجية» المفترضة، فعدا عن تزامن إثارتها مع الحملة الانتخابية، وعناصرها التي تتوافق مع مخيلة الاغتيال السياسي عبر السيرة الشخصية بالأسلوب الذي شاع في تلك الفترة في روسيا، فإن خيوطها المتشابكة تقود إلى أطراف ذات مصلحة، معنية بالضجة واللغط اللذين يمكن أن تحدثهما الحكاية.

من جهته، يؤكد المؤرخ يوري فليشتينسكي أن السكرتير الصحفي للرئيس السابق دودابيف فاخا إبراهيموف قام بواحدة من مقابلاته مع فيرا نيكولايفنا بوتينا، بناءً على طلب مباشر منه. وأن تلك المقابلة سُجِّلت بالفيديو.

- حينما سُئلت المرأة المسنة إن كانت ترغب بلقاء ابنها، أجابت برفض قاطع بدافع من حقيقة أنها كانت تخاف من ابنها، الذي يمكن أن يرتب لقتلها، باعتبار أنه ليس من المريح بالنسبة له وجود أم مثلها.

تسأل الصحافية بوبروفا المؤرخ يوري فليشتينسكي:

- لماذا صدقت هذه الفرضية؟

أجاب:

- أنا مؤرخ. مؤلف للعديد من الأوراق العلمية، لذلك أحاول أن أكون موضوعياً في المقام الأول، وأن لا أرتكب الأخطاء مع الوقائع.

ومع ذلك، وبرغم سيرته العلمية وألقابه وشهاداته ومؤلفاته، لا يمكن الوثوق بحيدة المؤرخ يوري فليشتينسكي رغم جديته ومثابرته في ملاحقة موضوعاته، لأنه ليس خلواً من موقف سياسي لا يتناسب مع طلب شهادته في هذا الموقف. ولا يمكن بالطبع إغفال أنه ليس صاحب مصداقية!

ليس لأنه غادر الاتحاد السوفييتي عام 1976 بتأشيرة هجرة يهودية إلى «إسرائيل» (عند وصوله النمسا فعل كما الكثيرين: طلب الهجرة إلى الولايات المتحدة)، بل لأن ارتباطاته السياسية وعلاقاته الوثيقة المعروفة مع رجل الأعمال الراحل بوريس بيرزوفسكي تضع على كل ما يقوله في هذا السياق، بالذات، علامات استفهام كبيرة ومشدّدة..

ومع ذلك، لا ضرر من الاطلاع على رأيه، فهو رأي ذو صلة، ويؤشر على مواضع الشك.

يضيف فليشتينسكي:

- لقد حيّرتني كثيراً السيرة الرسمية للرئيس، حيث يقال إن والدته ماريا شيلوموفا أنجبته بينما كانت قد بلغت عمراً متأخراً جداً بالنسبة للولادة. فمن المعروف أن النساء في الاتحاد السوفييتي لم يجرؤن على الولادة بعد عمر الأربعين، في حين أن ماريا إيفانوفنا في ذلك الوقت كانت قد بلغت عمر الحادية والأربعين عاماً من عمرها. بالإضافة إلى ذلك، تفتقر السير الروسية الرسمية للرئيس لأية معلومات عنه قبل قبوله في الصف الأول.

وربما كان يوري فليشتينسكي لا يعلم أو تجاهل عمداً أن ألكسندر وآنا بوتينا (عم وعمة الرئيس) ما يزالان يعيشان في مدينة ريزان إلى اليوم. وهما بالذات كانا قد تقاسما في لينينغراد خلال عقد الخمسينات الشقة المشتركة مع فلاديمير سبيريدونوفيتش وماريا إيفانوفا (والدا بوتين). وكانت آنا ألكسييفنا هي بالذات من استقبل الرئيس حديث الولادة مع والدته لحظة خروجهما من دار الولادة في سانت بطرسبورغ.

تقول آنا ألكسييفنا عن تلك اللحظة:

- «فوجئت عندما علمت أن ماريا قرّرت في هذه السن)41 عاماً!(أن تنجب. ولد
فولودينكا بوزن 3.2 كغم، مع شعر أشقر على قمة الرأس. والده كان متلهفاً له.

وكان أحياناً يطوي بطانية ويضعه على بطنه. أرضعت ماريا إيفانوفا الطفل فولوديا، بسبب الأمراض المتكررة، إلى عمر أربع سنوات».

«استطاعت العجوز فيرا نيكولايفنا بوتينا أن تضمن الشهرة العالمية لقرية ميتيخي المنسية لنحو ثلاثة أشهر. وأصبحت هذه القرية محجّاً يحرص السياح الأجانب على زيارته، ويحجزون جولات خاصة لزيارة «مسقط رأس الرئيس الروسي»، ويطالبون بإلقاء نظرة على المنزل الذي يفترض أنه عاش فيه، والبحيرة التي كان يعطف عليها للصيد، وليتبادل الأحاديث مع أصدقاء الطفولة بينما يجلس مع صنارة بيده. ويدفعون للأدلاء السياحيين الجورجيين مقابل مشاهدة فيلم «والدة بوتين»، الذي صوّره الصحفيون اليونانيون.

زيارة المرأة التي تؤكد أنها أم بوتين الحقيقية في بيتها، لا تكتمل دون زيارة الأماكن التي يفترض أن الرئيس الروسي قضى فيها أيامه خلال طفولته المبكرة. ولا تمر زيارة تلك الأماكن دون مقابلة أشخاص يفترض أنهم شهود عيان عاصروا مرحلة بوتين الجورجية، وعرفوه جيداً حينها.

يتذكر غابرييل داتاشفيلي، الذي كان يشغل وقت الزيارة منصب رئيس مشاريع تنظيم منطقة قزوين، ويعدُّ واحداً من أهم الشخصيات التي يستند إليها فاخا ابراهيموف في مقاله «السيرة السرية للرئيس الروسي» (1 مارس 2000، قفاقس سنتر):

- أتذكر «فوفك» جيداً. في المدرسة كنا مجتهدين، ولهذا كنا أصدقاء!

ويضيف:

- باستثنائي، لم يكن لديه أصدقاء. لقد نشأ طفلاً هادئاً ومتكتماً. كان غالباً ما يذهب بعد الدروس إلى الصيد أو كان يأتي إليّ. وكنّا أنا وهو نلعب معاً لعبة الحرب، أو المبارزة.

من جهتها، كذلك، لا تشك نورا غوغولاشفيلي، التي يفترض أنها مُدرّسة بوتين

في جورجيا، في أن الرئيس الروسي الحالي كان واحداً من تلامذتها في المدرسة، وينقل عنها فاخا إبراهيموف قولها:

- كان «فوفا» هادئاً، وصبياً قليل الكلام. لا يكاد كان يتحدث مع زملائه. يُفضّل من الألعاب القتال. كان زملاؤه يغيظونه بلقب «المتبنّى». وقد كنت أدافع عنه دائماً وكثيراً. كان يبدو مثيراً للشفقة.

وأخيراً، جاء من يبدد الشكوك، ويقطع الشك باليقين. كان ذلك رئيس الفريق الجورجي برياضة السامبو، أوليغ أيادزه، المولود في ميتيخي. من المعروف أن بوتين يمارس رياضة السامبو بالإضافة إلى الجودو. وكان أوليغ أيادزه، هو من أخبر السكان المحليين كيف أن فلاديمير بوتين نفسه اقترب منه في واحدة من البطولات، وهمس له: «أنا نفسي لي روابط مع ميتيخي».

إذا كان بعض السكان المحليين يروون ما لديهم حول بوتين بزهو، فإن فيرا بوتينا تحتفظ تحت وسادتها بالصورة الوحيدة التي تملكها لابنها في عمر الرابعة عشرة، منتزعة من أحد الكتب التي تتناول سيرة الرئيس الروسي. وكل مساء تحدق في الصورة وتمسح دموعها.

- أنا آسف يا بني، ولكن أعتقد أنني فعلت الشيء الصحيح!

تتنهد فيرا نيكولايفنا، وتضيف:

- لو بقيت أنت هنا، لما كنت حققت ما حققت. لقد فعلت كل شيء لمصلحتك!

وتقول فيرا نيكولايفنا لصحافية الـ«مسكوفسكي كمسموليتس»:

- كما تعلمون، إنني لا أحتاج لشيء منه. أنا سعيدة أنه في حال جيد. أما أن أراه فهذا، على ما يبدو، شيئاً لن يحدث. لقد أصبحت عجوزاً مسنة. سأموت اليوم أو غداً. وهو ليس لديه الوقت ليأتي إليّ. نعم إنه لا يستطيع بعد..

أفضت فيرا نيكولايفنا بوتينا كل ما لديها؛ وبالنسبة لها، فقد أخرجت أحمالاً في

قلبها، تتراكم كل يوم، وتثقل عليها إلى أن يأتي زائر جديد تفضي إليه، وتتخفف لبضع ساعات إلى أن تُراكم الوحدة ما سبق أن أفرغته، في محادثة تتكرر يومياً».

أما صحفية الـ«مسكوفسكي كمسموليتس»، التي حظيت بأكثر مما توقعت من وقت، وسمعت بأوثق مما عرفت، وشاهدت بأوضح مما تخيلت، تصل إلى لحظة تدرك فيها أنها اكتفت، وأن المرأة العجوز لم يعد لديها شيء تضيفه، وإن كان هناك لديها ما تحب أن تكرره يوماً بعد يوم..

أطفأت جهاز التسجيل، وجمعت أوراقها، وأعادت قلمها إلى حقيبتها. ثم حاولت أن تجد في وسط كل تلك المحادثة المحزنة، ما يبيح لها أن تبتسم في وجه المرأة المجروحة. ولكنها شعرت أن ليس من حقها أن تتجاهل الحزن المقيم ولو بابتسامة؛ وهكذا تنهض مستأذنة بالانصراف.

ترافق فيرا نيكولايفنا بوتينا صحفية الـ«مسكوفسكي كمسموليتس» إلى البوابة:

- فقط لا تكتبي ما أخبرتك به. لقد تسببت لفولوديا بما يكفي من المتاعب جراء ثرثرتي!

تتوسل المرأة العجوز بالمعنى الحرفي للكلمة، بينما كانت تودع الصحفية الزائرة. ترجوها أن لا ترى في كلامها الذي سمعته أكثر مما قصد به. لقد أتاح لها فضول الزائرة التخفف من تلك الأحمال الثقيلة.

وفي الطريق إلى تبليسي عاصمة جورجيا، لم يكن لدى الصحفية الزائرة سوى فكرة واحدة تحيرها: ما الذي يدفع امرأة قروية مسنة لإحداث كل هذه الضجة حول عائلتها وتختلق أسطورة عن ابن غير موجود؟

أكثر من ذلك، كانت هناك فكرة أكثر إزعاجاً:

هناك الكثير من اللوعة في كلام فيرا نيكولايفنا بوتينا، المرأة التي يفترض أنها

الأم الحقيقية لبوتين. تلك اللوعة التي تجعل من الشك في صدق دموعها، يبدو أمراً غير صحيح تماماً.

ولا إنسانياً، أبداً!

بصرف النظر عن الحقيقة، ورغماً عن أهميتها، وربما قداستها؛ فهي تغدو بكل صفاتها، على نحو مفاجيء، مجرد تفصيل ثانوي، لا يمكنه أن يكون معياراً في تحديد موقف من دمعتين وحسرة أم. لذا، لم يتوقف البحث وتحري القصة هنا..!

عادت صحافية الـ«مسكوفسكي كمسموليتس» إلى موسكو، وقرّرت أن تفعل ما لم يفعله الآخرون. أن تتصل بمسقط رأس فيرا نيكولايفنا، في منطقة بيرم. وسرعان ما أتضح أن كل القصة التي روتها لها المرأة العجوز.. حقيقية تماماً.

ولكن مع ملاحظة صغيرة..

القريـة التـي عاشـت فيـها ذات يـوم أسـرة فـيرا نيكولايفنا بوتينا، «الأم البيولوجية» المفترضة، تتبع منطقة أتشيورسكي في بيرم. وقد عثر موظفو دار الأيتام الوحيدة هناك في الأرشيف بطاقة تخص خريج الدار السابق فلاديمير بلاتونوفيتش بوتين. وفيها: تاريخ الميلاد: 17 سبتمبر 1950. ومؤشر في خانة «الأم»: «تعيش في جورجيا، بيانات دقيقة عنها غير متوفرة». ومؤَشرٌ في خانة «الأب» شَرطة تفيد الفراغ.

- تخرج بوتين من مؤسستنا عام 1968 وانتسب للمدرسة التقنية رقم 62، الواقعة في مدينة تشرنوشكا.

قال مدير دار الأيتام لصحافية الـ«مسكوفسكي كمسموليتس»، وأضاف:

- في جميع الاحتمالات، من المؤكد أن الشاب عاش لفترة من الوقت في السكن الخاص بهذه المدرسة.

بالمقابل، انتسب الرئيس فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين عام 1969 إلى كلية الحقوق في جامعة لينينغراد، قسم القانون الدولي. وهذه واقعة مثبتة، وشهودها حاضرون، ووثائقها محفوظة! وسيرته في السنوات وما قبل ذلك معروفة وموثقة!

من جهة أخرى، غُيِّر اسم المدرسة التقنية رقم 62، في مدينة تشرنوشكا، في التسعينات إلى «كلية البوليتكنيك». هذه ملاحظة أكدتها مديرة الكلية ناتاليا ياكوشينا.

- نعم، في الواقع، لقد درس فلاديمير بوتين لدينا!

ربما كان التحق أولاً بـ«كلية البوليتكنيك» باسم فلاديمير بلاتونوفيتش بوتين، ثم تركها لينتسب إلى كلية الحقوق في جامعة لينينغراد، قسم القانون الدولي، في العام التالي باسم فلاديميروفيتش بوتين. لا، فلاديمير بلاتونوفيتش بوتين تخرج من نفس الكلية، وعمل بمجال تخصصه..!

- لقد التحق بالكلية في 15 يناير من عام 1968. وبعد التخرج، حصل على وظيفة مساعد حفار في مكتب التنقيب رقم 7. ولكن هذه المؤسسة صُفيّت منذ مدة طويلة، لذلك من غير المحتمل العثور عليه هناك.

في مكتب جوازات حي تشيرنوشيسكي لم تتوافر أي بيانات حول فلاديمير بلاتونوفيتش بوتين. ومع ذلك، أمكن الصحافية أن تتعقب زميل عمل سابق لهذا الرجل.

- أتذكر فولودكا جيداً. لقد كان رجلاً رائعاً!

يتذكر أناتولي بوياريشنيكوف، ويضيف:

- لم يسبق أن تحدث عن والديه، لأنه يعتبر أن والدته غدرت به، وتركته لجديه المسنين المريضين!

كان من الواضح أن الرجل يمتلك قصة بوسعها أن تضيف بعض الوضوح على الأحجية الجورجية، التي أطلقها أهالي قرية منسية، وأُعطيت فيها أدوار البطولة المطلقة لامرأة وحيدة ورئيس مشغول بأعدائه.

- إنه حتى لم يكن يحاول العثور عليها..!

يقول أناتولي بوياريشنيكوف، ويواصل وضع حلّ للأحجية:

- منذ خمسة عشر عاماً، غادر المدينة. لم يعد لدينا هنا فرص عمل، وكان يتوجب عليه أن يطعم عائلته، إذ لديه ابنتان كبرتا اليوم. تماماً مثل الرئيس!

كأنما تتعمد الحياة ملاحقته بشخصية أخرى، تلغي وجوده بحضورها. «لديه ابنتان كبرتا اليوم. تماماً مثل الرئيس»، ولكن هذه الحقيقة الشخصية، التي يفترض أن تؤكد وجوده، تذهب إلى محوه تماماً، بتأكيد أن الحياة تقترح له شيئاً واحداً. أن يكون فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين، أو أن لا يعود من داع لوجوده أبداً.

- كان يريد الذهاب للعمل في مكان ما في الشمال. والواقع أنه كان دائماً يحلم بمغادرة منطقتنا العقيمة، وأن يصبح رجلاً عظيماً. ولا أعرف حقيقة ما كان مصيره. لكنه رجل عنيد، قوي، لا يضيع. وقد كان كذلك أباً ممتازاً وصديقاً وفياً.

ويختتم أناتولي بوياريشنيكوف شهادته، فيقول بأسف:

- إنه لأمر مؤسف أنه لم يصبح رئيساً..!

وينشأ هنا انطباع: هناك شخص آخر، من نفس العائلة، عاش نفس الظروف الصعبة.. وربما أصعب، وكان يحلم أن يكون شخصاً عظيماً. كان يمتلك نفس الحظوظ التي امتلكها قريبه، ولكن لم يتسن له تحقيق حلمه؛ لأنه ببساطة لم يكن يريد ولا يستطيع أن يكون ذلك النموذج، الذي تصر الحياة على فرضه، وأصبحه الرئيس الروسي!

ولهذا السبب، ألغته الحياة من الوجود، رغم أنه يواصل العيش في مكان ما، على نحو ما!

وهنا، تتغير القصة تماماً. لم تعد قصة فيرا نيكولايفنا بوتينا؛ بل هي قصة فلاديمير بلاتونوفيتش بوتين، الرجل البسيط الذي كان يحلم أن يكون انساناً عظيماً؛ ولكن هذه قصة لم تروَ، ولا سبيل إلى روايتها.

لأن العالم لا يتسع لقصة رجل حلم بأن يكون إنساناً عظيماً..!

طبعاً، هناك إمكانية لمعرفتها بملاحقة قصة فلاديميروفيتش بوتين، النموذج الآخر الذي لم تقُده نفسه إلى الأحلام الطموحة، ومع ذلك أصبح رئيس دولة عظمى، وحقق مكانة عالمية.

يبدو أنه ليس بالإمكان أن يصبح الرجل انساناً، ولكن بوسع الإنسان أن يصبح رجلاً.. مهماً، ناجحاً، وعظيماً. أي، ترساً في ذات الآلة البليدة، ومؤد لدور يثير تصفيق جمهور، سرعان ما يكتشف أنه آذى نفسه كثيراً بالتصفيق الحار، لعرض يلغيه تماماً!

قصة فيرا نيكولايفنا نفسها، تصبح هنا، مجرد إعلان تجاري وسط نشرة الأخبار!

لقد صنع العشرات من الصحفيين الغربيين لأنفسهم اسماً كبيراً لملاحقتهم الإثارة في هذه القصة. وحصل العديد من المؤرخين الروس على شهادات الدكتوراة عن أطروحات في هذا الموضوع، وبيعت الأفلام والكتب المكرّسة لأقارب الرئيس الجورجيين في غضون أيام. وليس هناك أي شك في أنهم حققوا عوائد مجزية!

الأكثر إثارة للأسف، في هذا ذلك كله، هي بطلة هذا العرض المسرحي، التي لم تنل سوى دور دمية عادية في اللعبة السياسية؛ لم يكن صعباً على خصوم فلاديمير فلاديميرفيتش بوتين إقناع امرأة ساذجة مكلومة ومعذبة الضمير أن

ابنها المفقود هو رئيس الاتحاد الروسي!

نعم، فكرة أن ابنها المفقود، الذي يعذبها ضميرها بشأنه، قد أصبح رئيساً قوياً لبلاد قوية، تريح ضميرها، وتمسح عذابات الندم، وتجعلها اللحظة التي تراه فيها قوياً بينما هي ضعيفة عاجزة. اللحظة التي تشعرها بالتساوي مع الطفل الذي أهملته ذات يوم، طالما أنه اليوم في ذروة قوته يفعل مثل ما فعلت: يهملها.

ولكن الحقيقة، تبقى في أن مصممي العرض بنوه بأكمله على آلام سيدة مسنة، وعبر جعلها موضوعاً لسخرية العالم. لقد عذبتها هذه الآلام طوال حياتها الواعية، وها هو أحد ما، قرر أن عليها أن تعيش هذا العذاب مرّة أخرى، بينما يتسلى العالم بقصّتها.

لقد كانت فيرا نيكولايفنا تعيش منذ عام 2000 على أمل أن تقابل ابنها، الذي تعتقد أنها عثرت عليه، فكيف ومن يستطيع الآن جعلها تقتنع أن هذه القصة مجرد خرافة، أدت غرضها وانتهت، وأن ذلك الغرض لا علاقة له بمداواة آلامها؟

وإذا ما فهمت ذلك، فهل ستبقى لديها الرغبة في معرفة ابنها الحقيقي؟

ويبدو أن السؤال الحقيقي ليس حول هذا، بل يدور أساساً حول الجريمة التي ارتكبتها هذه المرأة لتتم معاقبتها على هذا النحو. أن تعيش عمرها كله في يأس، ولدى وصولها إلى العتبة الأخيرة من حياتها، تُمنح أملاً قوياً، ثم يُسلب منها دفعة واحدة..!

أي عقاب هذا!

تعود صحفية الـ«مسكوفسكي كمسموليتس» إلى موسكو بالطائرة. ويتصادف أن المسافر الجالس إلى جوارها هو مسؤول جورجي كبير. ويصدف أنه لم يكن صموتاً على نحو خاص، فجرّ رفيقته في السفر إلى محادثة طويلة.

وخلال المحادثة، وضع الرجل أصابع يديه على شفتيه وهمس:

- هل تعرفين السبب الحقيقي للعلاقات المتوترة بين روسيا وجورجيا؟

كان مسؤولاً مهماً، ومن نخبة المجتمع الجورجي. ويفترض المرء حينما يسمع منه مثل هذه العبارة، أنه يعرف معلومات خاصة، غير متاحة. لذا، فليس من الغريب أن يثير الفضول.

يواصل الرجل، موضحاً:

- رئيسكم يريد أن ينتقم من طفولته المنتهكة. فرغم كل شيء، أمه الحقيقية تعيش عندنا في جورجيا!

ولقناعته بأهمية معلوماته، لا يتردد في أن يقدم لصحفية الـ«مسكوفسكي كمسموليتس» عرضه السخي:

- أتريدين أن أروي لك هذه القصة؟

إنها بالطبع قصة صالحة لكل وقت، ولتفسير كل شيء. ولا يعيبها إلا أنها، كما أي حقيقة أو خرافة حول بوتين، يسهل تصديقها، بينما يصعب في الآن نفسه التحقق من صحتها، تماماً؛ ولهذا لا يجوز الشك بوجود الأقرباء الجورجيين للرئيس فلاديمير بوتين، أو التقليل من شأن القصص التي تدور حولهم. ولكن علينا أن نعرف مسبقاً أنهم ليسوا أقرباء بالدم، وأن أهميتهم لا تنبع من هنا. بل من كونهم تذكير بتفاصيل في صورة بوتين الأخرى التي تعيش في الظل، ولا نعرفها.

ونعرف بدلاً منها صورة التقطت خصيصاً لغايات النشر!

اللغز الثالث

أسرار الطفولة

ضجيج الهمسات

تبدو حكاية فيرا نيكولايفنا بوتينا، الأم الجورجية المفترضة، رغم كل ما فيها من أحزان وجيشان عاطفي، أكثر تشويقاً من الحياة الرتيبة التي عاشها بوتين في طفولته مع عائلته، حيث الصمت والتفكير العميق الذي يمتد لسنوات، والتخطيط الدقيق لتفاصيل الحياة، سمة تغلب على والدي الرئيس المستقبلي.

حياة مليئة بالنظرات والايماءات والهمسات بين شخصين!

الانطباع الذي تخلفه قراءة النتف القليلة من سيرة حياة والدي بوتين، والطريقة الحذرة والوجلة بمعانيها، التي يتحدث بها الابن الرئيس عنهما، توحي بأنهما كانا جزءاً من مجموعة من الأفراد المنعزلين، غير المتصلين بالحياة العامة من حولهم وخارج محيطهم، ويذكر حالهما بوحيدين غريبين من أقلية غير معترف بها، أو زوجين يهوديين يحاولان أن يقيما «الجيتو» في شقتهما.. أو هما والدان يجدان من الخطر أن يعرف صغيرهما أسرارهما..!

والحال، بالأصل، يعيدنا إلى تأمل حكاية السيدة فيرا نيكولايفنا بوتينا العجوز، التي لا يمكن تجاهل حرارة انفعالها إزاء وجه وحضور الرئيس الروسي. أما التحقيق الاستقصائي الذي قامت به صحافية الـ«موسكوفسكي كمسموليتس» المجتهدة، فلا يعود يثير سوى الريبة والشك، ويجعل المرء يفكر بالقدرة الشيطانية لأجهزة الدولة على اختلاق قصص واقعية مؤثرة، بقوة القصص غير المرغوبة، وبشحنة قادرة على إبطال مفعولها.. وتبرز على الفور العديد من الأسئلة الوجيهة..

على رأس هذه الأسئلة، بالطبع، لماذا تذكرت الصحيفة في 13 حزيران 2006 هذه الحكاية التي أثيرت أول مرة عام 2000 على خلفية انتخابية وسياسية مكشوفة؟ وما الذي دفعها بعد كل هذه السنوات إلى محاولة التحقق الدقيق من فصول هذه الحكاية، ومحاولة وضع نهاية لها؟

بمراجعة سريعة لأحداث ذلك الشهر، نجد ما يلي:

- في الثاني والثالث من حزيران ارتفعت حدة التوترات في شبه جزيرة القرم، حيث أبدى السكان المحليون معارضة صاخبة لإنشاء قاعدة عسكرية للولايات المتحدة على أراضيهم، وإقامة مناورات أمريكية أوكرانية مشتركة.

- في الخامس منه، أُعلن في شبه جزيرة القرم عن فقدان شحنة عسكرية خاصة بالناتو، في ظروف غامضة. منطقياً، يبدو أن الشحنة الأمريكية، المكونة من عدد يصعب إخفاؤه من حاويات الشحن البحري الكبيرة، لها علاقة بالمناورات المزمع إقامتها مع الجانب الأوكراني، خصوصاً أن الواقعة حدثت في ميناء فيدوسيا حيث تنشط التظاهرات ضد الناتو والمناورات.

- في السادس منه، فشلت مجموعة الخبراء من روسيا وأوكرانيا في التوصل إلى اتفاق حول ترسيم الحدود في بحر آزوف ومضيق كيرتش. القضية بطبيعة الحال تمس موضوع شبه جزيرة القرم، مع الاعتراف الروسي بتبعيتها لأوكرانيا (لاحقاً سنعرف أن الأوكرانيين أضاعوا فرصة ذهبية للاحتفاظ بالقرم، بتوقيع روسي رسمي جديد لا غبار عليه).

- في نفس اليوم تحتفل المناطق الشرقية من أوكرانيا بيوم اللغة الروسية. وهذا الاحتفال له طابع سياسي، ويمثل رمزياً رفضاً جماعياً للسياسة الشوفينية التي تحاول كييف فرضها على قسم رئيس من مواطنيها، لا سيما في المناطق الشرقية الرافضة لسياسات تغريب أوكرانيا ومحاولة إلحاقها بالغرب.

- وفي السابع منه تواصلت الاحتجاجات ضد المناورات المشتركة التي كان من المزمع أن تجريها أوكرانيا مع الأمريكيين وحلف شمال الأطلسي. وفي هذا اليوم بادر المؤمنون في فيودوسيا بالتعبير عن احتجاجهم، فخرجوا في مسيرة رافعين الأيقونات والرموز والشعارات الدينية، ووصلت مسيرتهم إلى إدارة وزارة الدفاع الأوكرانية. وانضم اليهم المشاركون الآخرون من مختلف

الأحزاب والفعاليات الاجتماعية.

وهذه كلها أحداث لا علاقة مباشرة لها بحكاية الأم الجورجية المفترضة. ولا تستوجب النشر حول الموضوع أو مزيداً من التقصي حوله، ولا هي تُذكّر به من الأصل. ولكن كان هناك شيء يتفاعل بشكل حثيث في شهر أيار، وبلغ ذروته وصولاً إلى الأول من حزيران، وله علاقة وصلة.. فقد ارتفعت حدة التوتر بين روسيا وجورجيا إلى درجة غير مسبوقة، على خلفية اشتداد مطالبة أوسيتيا الجنوبية بالاستقلال، ودعم روسيا لها، وإصرار موسكو على بقاء المراقبين الدوليين إلى أن تتم تصفية النزاع تماماً.

والحرب الإعلامية كانت على أشدها مع ميخائيل ساكاشفيلي، الرئيس الجورجي المتحالف مع ليبراليي أوكرانيا الذي هرب لاحقاً إلى كييف، حيث مُنح الجنسية، وعُيّن حاكماً لمقاطعة أوديسا الأوكرانية!

وهناك أمر آخر ذو علاقة، يعود تاريخه إلى الخامس من حزيران حيث نشأ سؤال مزعج: من سيخلف بوتين؟ كان هناك عامان على الانتخابات التي لا يستطيع أن يترشح فيها الرئيس الروسي، وظهور هذا السؤال كان يعني مزيداً من الإرباكات السياسية، وإشعال نار المنافسة بين كل الطامحين في فريق الرئيس.

طبعاً، وإشعال نار الآخرين على بوتين نفسه وفريقه!

ويمكن في ذلك السياق تصور أن الفريق الرئاسي وجد أن من الضرورة بمكان أن يواجه الدعاية الجورجية، التي تصوّر أن الخلاف السياسي الحاد مع روسيا يعود لأسباب شخصية تتعلق بـ«عقد» نفسية لدى الرئيس الروسي، وبالتالي إيجاد خاتمة وتفسير منطقي لحكاية الأم الجورجية. ولكن من الغريب أن صحافية الـ«موسكوفسكي كمسموليتس» هي الوحيدة من بين زملائها التي وجدت شيئاً تلاحقه، فتوصلت إلى آثار فلاديمير بلاتونوفيتش الذي يقطع صلة العجوز فيرا نيكولايفنا بالرئيس الروسي بوتين، ولكنها في نفس الوقت، تضع

بالأسلوب الميلودرامي السوفييتي من عهد أفلام مرحلة ما بعد الحرب نهاية للقصة، لا تصل إلى الرجل نفسه، ولا إلى قبره..!

لقد تبخر الرجل، أو انتهت مهمة التحقيق الصحفي عند الكشف عن هذه الفرضية، وتقديمها!

وفي الواقع، كان هذا التحقيق ملفتاً لدرجة أن العقل لا يعود يلتفت إلى الأسئلة التي تثيرها وقائعه؛ ولكن بعد القراءة المتكررة له، وبعد البحث الطويل الذي تطلب تقريباً قراءة أكوام مضاعفة من المواد الصحفية والشهادات حول ذات الموضوع، نكتشف أن ثلثي ما قالته الصحفية المجتهدة هو مذكور ومنشور سابقاً، وتاريخ نشر بعضه يعود تاريخه لسنوات..

وليس لديها من جديد إلا حكاية فلاديمير بلاتونوفيتش، التي تقصّت عنها من مكتبها في موسكو عبر الهاتف!

أي، أن كل سفرها ورحلتها وأحاديثها مع شهود العيان، ومع صاحبة الشأن، كان قد سبق نشرها بالحرف تقريباً، مرات عدة، باعتبار أن الصحافيين يأخذون عن بعضهم البعض. والأمر يشبه أن يغفل صاحب هذا الكتاب اسم كاتبة التحقيق ويدعي أنه هو من قام بتلك الرحلة، وطرح تلك الأسئلة، وتلقى تلك الاجابات.. ويعزّز في الأثناء واقعية علاقته بالتحقيق من خلال مهاراته الأدبية..!

وفي وقت أن الحيثيات المعروفة، التي سبق نشرها مراراً، تطلبت من صحافية الـ«موسكوفسكي كمسموليتس» السفر والوقوف بنفسها على تفاصيلها، فإن الحيثيات الجديدة، غير المعروفة، التي لم تنشر من قبل، ويمكنها أن تقيم دليلاً قاطعاً، لم تحظ بالعناية نفسها من الصحافية، فلم تدفعها لسفر، ولا إلى ملاحقة التفاصيل بنفسها..!

ما من اتهام هنا، من أي نوع، لصاحبة التحقيق الصحفي المعروف. ولكن هذه محاولة للإشارة إلى أن ما قامت به جديد بالنسبة للقارئ اليومي الغفول كثير

النسيان، ولكنه ليس كذلك لأي باحث يتقصى المعلومات، ويسعى للوصول إلى خلاصة واضحة.

لا سيما أنه كان يمكن للتحقيق الصحفي أن يذهب إلى ما هو نهائي وقاطع فعلاً..

إن الكشف عن وجود رجل يحمل اسم فلاديمير بلاتونوفيتش بوتين لأم اسمها فيرا نيكولايفنا بوتينا، يبدو للوهلة الأولى كافياً للقول بأن الرئيس فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين لا علاقة له بهذه الحكاية الجورجية، وليس هو المقصود بها. ولكن هذا الكشف نفسه يحمل مزيداً من الشكوك..

إنه يسعى للقول:

- إن فلاديمير بلاتونوفيتش بوتين موجود فعلاً، ولا داع للظن بالرئيس فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين.

- وإنه هو من يحمل فعلاً اسم عائلة والدته، وليس الرئيس فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين.

- وأنه هو من ولد خارج الزواج.

وتبدو هذه مهمات ملحة من خلال اهتمامات مكتب الرئيس الروسي، ومن خلال الأحاديث التي أدلى بها الرئيس؛ سواء لجهة الاهتمام بإثبات عمادة والديه وعمادته هو نفسه. ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى تأكيد الرئيس الروسي الملح على العائلة وانتقاداته المتكررة بشكل ملحوظ للعلاقات الجنسيّة الحرّة وموقفه من تبنّي الأطفال.

وهذه أشياء لم تثر صاحبة التحقيق، من الأصل..

والأصل، أن اجتهادها كان يمكن أن يقودها للتقصي في الإدارة الرئاسية، ولدى الرئيس نفسه، لا سيما أنه طرف في القصة، ولديه من دون شك اهتمام خاص

بحماية هويته العائلية من الغموض المريب. ولكنها اختارت بدلاً من ذلك أن تقصر تحقيقها على التحقق من رواية الطرف الآخر حصراً، والبحث عن الثغرات فيها. ما يجعلها تبدو صاحبة موقف مسبق، وممثلة لصاحب مصلحة برواية معينة.

ولا يمكن أن نغفل أن المعلومات المتحصلة حول فلاديمير بلاتونوفيتش بوتين تجعلها قريبة من العثور عليه هو نفسه، وإن لم يكن هو بشخصه، فقبره، أو بناته اللواتي يفترض أنهن بعمر بنات الرئيس. بل وكان من المفترض أن الرئاسة نفسها، وهي مهتمة بسيرة الرئيس، لديها القدرة على إثبات أن حكاية الأم الجورجية تتعلق بشخص آخر، ولا سيما أن الموضوع يدور حول مواطن روسي موجود ومسجل في الوثائق.

فهل كان هذا مجرد تقصير، أم كان مطلوباً عدم الوصول بالتحقيق إلى هذه المرحلة!؟

يرى بعض الباحثين أن أفضلية بوتين في الـ«كي. جي. بي» هي من كونه طفلاً متبنى. وأنه ينتسب إلى تلك النوعية من المسؤولين ذوي الوضع الاجتماعي الغامض، الذين يكونون معروفي الأم، بينما الأب مجهول، على غرار يفغيني بريماكوف، أو يكون الأب ممن «لا يعرف عنه الكثير»، كما في حالة وزير الخارجية سيرغي لافروف.

وقد يبدو غريباً أن بوتين نفسه يحرص على تأكيد العكس، مع تجنب نفي الأقاويل الكثيرة مباشرة؛ فحكاية الأم الجورجية تسلَم على غير توقع من تعليقاته الكثيرة اللاذعة التي يطلقها في العادة على مختلف الأقاويل التي تطاله، كما أن «الأم العجوز» نفسها لم تحظ بالمقابل بتعاطفه الإنساني الذي يمكن أن يعكس طمأنينته إلى هويته العائلية..

والرئيس الروسي، في هذا، يظهر نوعاً من التجاهل المحيّر، الذي يشبه الصمت لا النفي..

ذلك كله يدفع إلى تأمل توصيفات بوتين لعلاقته بوالديه، لا سيما في طفولته. وتعيد التذكير بحكاية «الصمت العائلي» غير المتوقع من عائلة قادتها أقدارها للانخراط في الفوضى العامة التي فرضتها ظروف الحرب، فترتسم في البال صورة طفل يدرك أنه بين والدين يرعيانه، لكنهما ليسا والديه..

لكن هذه، على أي حال، قد تكون مجرد صورة وانطباع..

جانب آخر من هذه الحكاية يجد تفسيراً محتملاً في تاريخ الصحافة السوفيتية، ويعيدنا إلى خاطر خروتشوفي قديم؛ إذ حينما أراد نيكيتا خرتشوف أن يدعم موقفه، في ذروة الفترة الحاسمة من مهنته (1955)، ذهب إلى تعيين زوج ابنته رادا (ألكسي أدجوباي) رئيساً لتحرير صحيفة الـ«كمسومولسكويا برافدا»، وكان قد عينه فيها سنة 1950، في حياة ستالين، صحفياً متدرباً بالقسم الرياضي(!)، وبعد عامين من رئاسة تحرير هذه الصحيفة (1957) عينه رئيساً لتحرير صحيفة الـ«إزفستيا»..

والـ«إزفستيا» (الأخبار) كانت الصحيفة الثانية في البلاد!

الأولى هي الـ«برافدا» (1912) الشهيرة والمعروفة، والناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفييتي، التي كان من الصعب على خرتشوف أو غيره من القيادت الحزبية أن يتخذ بشأنها قراراً منفرداً بحكم أنها كانت جزءاً من الجهاز الحزبي؛ والحال، بالطبع، ليس كذلك مع الـ«إزفستيا» التي تأسست سنة 1917 كناطقة باسم المجتمع، وينوب عنه في هذا المقام مجلس السوفييت الأعلى..

ومن المعروف أيضاً أن الأيام مضت دولاً بين الـ«إزفستيا» والـ«برافدا»..!

لاحقاً، منذ أواسط الخمسينات وحتى عام 1964، أصبحت الـ«كمسومولسكويا برافدا» والـ«إزفستيا»..رأسا حربة لسلطة خرتشوف. لذا، كان أول ما قام به الفريق الجديد، الذي تولى السلطة إثر الإطاحة بخروتشوف، هو إبعاد أدجوباي.. طبعاً، و«ضبط» قدرة الصحافة على الدخول في صراعات النخبة!

وانتهى الأمر بعد عقود، في أواخر عهد بريجنيف، إلى ذلك الحال الذي كانت تعبّر عنه مقولة لاذعة شاعت جداً، تقول: «لا «برافدا» في الـ«إزفيستيا»، ولا «إزفستيا» في الـ«برافدا»»؛ وهو ما يعني بطبيعة الحال: «لا «حقيقة» في «الأخبار»، ولا «أخبار» في الـ«الحقيقة»»..!

والـ«كمسومولسكويا برافدا» كانت ثانيتها الـ«موسكوفسكي كمسموليتس»..!

لقد ولدت الـ«موسكوفسكي كمسوموليتس» أولاً سنة (1919)، وكانت وظيفتها الأساسية أن تواكب الطفرة الشبابية في الحزب والدولة والسياسة عموماً. وهذا واضح من اسمها الذي يشير إلى الكمسمول.

طبعاً الكمسمول هو منظمة الشبيبة الشيوعية..

ولكن مسيرة الـ«موسكوفسكي كمسوموليتس» بدأت على ما يبدو مضطربة بحكم أن الفكرة التي كانت وراء إنشائها تعرضت للهزات القاسية الناجمة عن التذبذب الحاد حينها في معايير المقبول والمرفوض. وهذا واضح من تغيير اسم الصحيفة ثلاث مرات خلال الخمس سنوات الأولى من عمرها، قبل أن تستقر على اسمها الحالي عام 1939.

وكانت، نوعاً ما، وعلى نحو أو آخر، الـ«إزفستيا» الشابة..!

وكان مقدراً لصحيفة الـ«كمسومولسكويا برافدا»، أن تولد عام 1925 بقرار من المؤتمر الثالث عشر للحزب البلشفي، بعد محاولات لتحويل الـ«موسكوفسكي كمسوموليتس» إلى «برافدا» شابة بأسماء مثل «البرافدا اليافعة» و«اللينيني الشاب». وكان الهدف من تأسيسها أن تقوم بما استعصى على شقيقتها الكبرى الذهاب إليه.

وعملياً، ستبقى الـ«كمسومولسكويا برافدا»، مثل الـ«موسكوفسكي كمسوموليتس» والـ«إزفستيا»، صحيفة خرتشوفية!

والحادثة الأكثر تدليلاً على ذلك هو أن «لجنة الدولة للطوارئ» التي تشكلت باسم تمرد آب 1991، بقصد الإطاحة بنهج غورباتشوف، بكل ما اتصفت به من تردد وارتباك واضطراب، لم تتردد لحظة واحدة في خص الـ«كمسومولسكويا برافدا» بالمنع والحظر الفوري..

وبالفعل لم تصدر الصحيفة يومي 19 و20 آب من ذلك العام.

ومن الملفت أن بوتين خصّ هذه الصحف الثلاثة («كمسومولسكويا برافدا»، و«موسكوفسكي كمسومولیتس»، والـ«إزفستيا») إلى جانب صحيفة «ترود» بلقاء رئاسي عام 2002.

ولكن حكاية الـ«موسكوفسكي كمسومولیتس» تتجاوز حصانتها أمام المؤثرات السياسية..!

هناك أيضاً المال ومساربه الغامضة والمريبة. وفي هذا النطاق، من الصعب تجاهل حقائق تتعلق بالـ«موسكوفسكي كمسومولیتس» وتثير الريبة والشك؛ فقد كشف عام 2001 أن الصحيفة كانت تنشر مواد صحفية مدفوعة الثمن باعتبارها مواد مهنية، لا بواعث تجارية أخرى لها. ولم يكن هذا الكشف الوحيد في مسيرتها المهنية، فقد تكرّر الأمر عام 2004 وقعت ضحية مصيدة أخرى كشفت عن أنها تجاوبت مع طلبات نشر مقالات مدفوعة الثمن، ما تسبب حينها بإدراجها ضمن القائمة السوداء إلى جانب ثمان صحف أخرى.

وسمعة الصحيفة هذه تخدش مصداقية ما ينشر فيها، بصرف النظر عمن نشره!

وهذا يتيح لنا أن نتساءل من جديد: أليس من الغريب أن هذه الصحيفة دوناً عن غيرها قررت عام 2006 أن تذهب في تحري القصة القديمة حول «الأم الجورجية» أبعد مما تمكنت غيرها من زميلاتها، وأنها في نفس الوقت لم تذهب أبعد إلى الحد الذي تتيحه لها المعلومات التي حصلت عليها..!؟

حياة مشتركة

مواجهة الحيثيات الشحيحة المضطربة السياق أثناء تقصي حياة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، تدفع المرء للاستسلام للمصادر المريبة القادرة على إنتاج سرديات مذهلة في اتساقها ومعقولية تفاصيلها، دون التزام بالإضاءة الوافية على الواقع والحقيقة؛ ولكن شح هذه المعلومات واضطراب سياقها يمكن أن يجد تفسيره في سياق آخر. بل علينا البحث عن أسبابه في بعض الصفات والسمات الشخصية التي تتحدث عنها مربية صف بوتين فيرا جورفيتش، تصف والدته اللينينغرادية قائلة:

«كانت والدة فولوديا إنسانة رقيقة جداً، ودودة، وعطوفة. كان همّها أن يكون فولوديا راض وبخير. ولكن في كثير من الأحيان، كان الوالد يتولى طهي الطعام في المنزل، وكان يجيد على نحو خاص صنع الهلام. ما زلنا لليوم نتذكر هلام آل بوتين. لم يكن أحد في أي وقت مضى يجيد صنع مثل ذلك الهلام».

ولكنها لم تكن متعلمة كفاية، وعلى الأرجح درست للصف الخامس، فقط.

لقد اضطرت للكدح طوال حياتها. عملت بواباً، وفي الليل كانت تستلم البضائع في محل بيع الخبز، وفي المختبر كانت تغسل أنابيب الاختبار. حتى أنها عملت حارساً لأحد المتاجر. وهذه حياة ليست سهلة بالنسبة لامرأة!

والد بوتين، فلاديمير سبيريدونوفيتش، عمل مشرفاً في مصنع يغوروف للقاطرات. وكان على ما يذكر عارفوه محبوباً ومحل تقدير كبير جداً، سواء على المستوى الإنساني أو العملي، فقد كان يرهق نفسه بالعمل طالما كان ذلك ضرورياً.

تُصوّره المرويات الرسمية، استناداً لبوتين نفسه، مثالاً للإيثار والجد والاجتهاد في العمل..

وفي الواقع، لا يبدو ذلك بعيداً عن الحقيقة، فهذه سمات مرتبطة بالشعور بالمسؤولية والالتزام الذي يبدو واضحاً في كل محطة من محطات حياته، وإذا ما استبعد من شخصيته، فإن كل المرويات عنه ستبدو حينئذ غير مفهومة..

لقد بدأ فلاديمير سبيريدونوفيتش العمل في مصنع إيغوروف للقاطرات، بعد الحرب مباشرة حيث سُرِّح من الجندية. كان ذلك مصنعاً معروفاً. ويتذكر بوتين من طفولته باعتزاز أن هنالك في كل قاطرة من قاطرات مترو الأنفاق، لوحة مكتوب عليها البيانات الخاصة بالقاطرة، رقمها ونوعها وسنة صنعها، وكذلك إشارة إلى أنها صنعت في مصنع إيغوروف للقاطرات.

في مصنع إيغوروف للقاطرات حيث كان يعمل والده!

ويتضح في سياق هذا التفصيل عدة أمور قد تكون مهمة؛ **أولها**، أن فلاديمير سبيريدونوفيتش قد انتقل بيسر من الجندية إلى الحياة المدنية، ويمكن لنا أن نفهم أن إصابته في الحرب حتّمت ذلك باعتبار أنها إصابة تعيق مواصلته الانخراط في سلك الجندية، ولكن علينا أن نلاحظ أنها، مع ذلك، لم تحرمه في فرصته في حياة مدنية مستقرة.

الأمر الثاني، أن انتقاله اليسير إلى الحياة المدنية ترافق مع مكاسب فورية؛ فقد منحه المصنع فور التحاقه بالعمل فيه سكناً. كانت تلك غرفة في منزل مشترك، بواحد من منازل سانت بطرسبورغ المعتادة في زقاق باسكوف. في الطابق الخامس، في مبنى لا مصعد فيه. ولكن الحصول على السكن بهذه السرعة غير المعهودة، ومهما بدا زهيداً، إلا أنه في تلك الظروف التي كانت تعيشها البلاد الخارجة من الحرب، لا سيما في لينينغراد المدمرة، كان مكسباً لم يكن يأتي بسهولة.

الأمر الثالث، يمكننا أن نفترض أن يكون وراء تلك السرعة أسباب تتعدى ذلك التقدير الكبير، الذي حظي به فلاديمير سبيردونوفيتش في ذلك المصنع. وتتعدى السحر والجاذبية الشخصية اللذين توافرا للمعني، وكذلك توافر

التقدير العام لذلك السحر، ولتلك الجاذبية.

وهذا على الأقل، ما يمكن أن تفسره معلومة تقدمها مجلة «بروفايل» (العدد 32 عام 1999)، التي تؤكد أن والد بوتين، فلاديمير سبيريدونوفيتش، كان مرتبطاً بالـ«كي. جي. بي».

وهذه معلومة تفسر الأشياء على نحو عكسي..! بمعنى أن السحر والجاذبية الشخصية وتوافر التقدير العام لذلك السحر، ولتلك الجاذبية إنما هما، حتى في حال توافرهما، يستندان إلى أسباب موضوعية قوية ومعروفة..

وبالمناسبة، تخالف مجلة «بروفايل» في عددها نفسه مرويات السيرة حول والد بوتين، فتجزم أنه من مواليد قرية بومينوفو في منطقة تورغينوفو بمحافظة «تفير»، وليس من مواليد لينينغراد. والأهم، أنها تؤكد أن فلاديمير سبيريدونوفيتش (والد بوتين) كان في شبابه، قبل الحرب، عضواً ناشطاً بالكومسومول.

وهذه مقدمة ضرورية تجعل من ارتباطه بالـ«كي. جي. بي» أمراً وارداً جداً!

قبل الحرب، كان والدا بوتين يعيشان في نصف منزل مستقل ببلدة بيترهوف. وكانا فخورين جداً بمستوى معيشتهما، التي استطاعا الوصول إليها، والتي هي بمعايير تلك الأيام جيدة جداً. وبقيت هذه المرحلة كذكرى حول بداية واعدة، يحاولان استعادتها على أرض الواقع. لا يهم أن البداية الجديدة تظل أدنى كثيراً مما توافر لهما في مطلع حياتهما، فالحرب تصنع الفارق وتجعل من القليل نتيجة مجزية، تفوق بأهميتها الكثير الذي تحقق في ظروف السلم.

كان مسكن العائلة الجديد بكل تفاصيله يثير الرثاء، بدءاً من المدخل ببابه المتهالك، مروراً بالسلم الحديدي البارد، المليء بالشقوق، الذي يمثل المشي عليه خطراً. وصولاً إلى الشقة المشتركة، نفسها التي تفتقر إلى أسباب الراحة البسيطة. لا ماء ساخن، لا مكان خاص للاستحمام. والمرحاض محطم، كما لو

كان في مكان عام مهمل.

يتذكر بوتين الحياة في هذه الشقة، في زقاق باسكوف: «هناك، على ذلك السلم، أدركت دفعة واحدة وإلى الأبد، ما المقصود بعبارة «احْشره في الزاوية».

ويسرد على مؤلفي كتاب سيرته «من المصدر الأول» أو «بضمير المتكلم»، الحكاية التي أوصلته إلى فهم هذا الموقف، فيقول: «عند المدخل كانت تعيش الجرذان، وكنت مع أصدقائي دائماً نطاردها بالعصي. مرّة رأيت جرذاً ضخماً فرحت وأصدقائي نطارده حتى دفعنا به الى الزاوية. لم يكن لديه من مفر. حينها التفت إليّ وهجم عليّ. كان ذلك غير متوقعاً ومخيفاً جداً. الآن الجرذ هو من أصبح يطاردني. إنه يقفز فوق الدرجات ساعياً ورائي، كان يقفز قفزاً من درجة لأخرى. ومع ذلك، كنت أكثر سرعة، وتمكنت من صفق الباب ورائي في وجهه».

يصطدم بوتين، في هذه الشقة، لأول مرّة، بالثقافات الأخرى. عاشت مع عائلته في تلك الشقة المشتركة، في واحدة من الغرف، عائلة يهودية: عجوز مسن وزوجته وابنتهما «خافا». كانت فتاة ناضجة، ولكن الحياة -يلاحظ بوتين- لم تسر معها كما يجب. لم تتزوج، وجاءت لتعيش مع والديها.

كان والدها العجوز خياطاً، وكان طوال الوقت يخيط شيئاً ما على آلة الخياطة!

ولنا أن نتصور أن أول ما لفت الانتباه إلى هذه العائلة هو صوت آلة الخياطة المزعج الصادر من الغرفة. وهو بطبيعة الحال ليس بالإشارة الجيدة، التي يمكن أن تقدم لعلاقة طبيعية بين العائلتين.

لم يكن هذا الصوت الوحيد الذي يصدر عن تلك الغرفة؛ فقد كان سكّانها من اليهود المتدينين. وكانوا يكمنون في أيام السبت، ويتوقف الرجل العجوز عن العمل على آلة الخياطة، غير أنه كان منذ الصباح وحتى الليل ينهمك بقراءة التلمود بصوت مسموع وطقسي. سرعان ما لفتت هذه القراءة بوتين الصغير.

لقد حركت تلك القراءة فضوله، ناهيك عن أنها كانت تأتي في مواعيد أسبوعية محددة. وهكذا، ذات يوم لم يقاوم الصبي شعوره بالفضول، فاستجمع ما لديه من جرأة وذهب إلى الرجل العجوز وسأله عما كان يتمتم به. أوضح له طبيعة ذلك الكتاب الذي يقرأ منه. وهنا، يقول بوتين: «فأصبحت مهتماً على الفور».

ولكنه لا يذكر شيئاً عن طبيعة ذلك الاهتمام، ولا إلى أين قاده!

من المتوقع، بطبيعة الحال، أن يتحول فضول الصبي إلى تعاطف. والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقف عائقاً أمام ذلك هو انزعاج الوالدين المتوقع لأسباب عديدة، منها قومية تتعلق بالثقافة الروسية، ومنها ما له علاقة بالانتماء الحزبي للوالد، إلى جانب المعتقدات الدينية المكتومة لدى الوالدة.

هل ظهر مثل هذا العائق؟

إن الحكم على ردة فعل الوالدين مشروط بانتباههما إلى ذلك الفضول الذي قاد ابنهما إلى الاهتمام بتلك المعتقدات الدينية. وهنا، يمكننا أن نكون واثقين من أن الوالدين لا بدّ انتبها إلى اهتمامات ابنهما، لا سيما أنها نشأت بالعلاقة مع أطراف يعيشون في نفس الشقة، ويتقاسمون معهم يومهم والمرافق الحيوية لحياتهم.

لا يذكر بوتين، أو أي أحد من عارفيه وكاتبي سيرته شيئاً عن ذلك، ولكن يمكن الانتباه إلى حيثيات ترد في سياقات متعددة، يمكنها أن تكون مؤشراً على أن الوالدين أظهرا ردة فعل معينة، لكنها غير مباشرة، ولم تُصب هدفها من المرة الأولى.

يروي بوتين لمؤلفي كتاب سيرته «من المصدر الأول»، الصادر في بدايات القرن الحالي، شيئاً عن ظروف الحياة في شقة مشتركة، حيث يستخدم السكان نفس المرافق. ومنها المطبخ، بطبيعة الحال. ويشير إلى أن الأمور، كما هو متوقع، لم تكن تجري دائماً في المطبخ المشترك، دون متاعب. ولكنه كان رغم ذلك يلعب

دوماً في الجزء الخاص بتلك العائلة اليهودية من المطبخ، بدون أن يثير ذلك أي مشكلة معهم. لقد كانت علاقته مع العجوز اليهودي جيدة جداً، «وكان يحبني».

ولكن تغير شيء ما في سلوك الصبي بوتين!

بات يلاحظ، فجأة، مماحكات المطبخ. وأصبح شعوره الدائم بالحاجة إلى حماية والديه، والدفاع عنهما في مواضيع ذات صلة بعلاقتهما التي تبدو جافة بتلك العائلة اليهودية، التي كانت علاقته الجيدة برأسها تتيح له اللعب في المطبخ على هواه. ووصل به الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك. إلى الحد الذي يمكن أن يضع نهاية للحظوة التي كان يتمتع بها لدى شركاء الشقة المشتركة.

لقد قرر ذات يوم التدخل في واحدة من تلك المماحكات!

فوجئ حينها برد فعل والديه. وبدا له غير متوقع ولا مفهوماً أبداً. لقد غضبا منه بشدة، وزجراه، ونهراه. وكان ذلك بالنسبة له صدمة تامة. كان يحاول الدفاع عنهما، وإذ به يفاجأ بهما يتكالبان عليه: «لا تتدخل!».

ظاهرياً، يمكن فهم موقف الوالدين بشكل اعتيادي: كانا يتصرفان على أساس أنه لا مبرر لإدخال الصبي الصغير وتوريطه بخصومات الكبار ومشاحناتهما حول تفاهات ذلك المطبخ الصغير.

وافتراضياً، يمكن تفسير أن التغيير الذي طرأ على سلوك الصبي وقاده فجأة إلى ملاحظة مماحكات المطبخ، ثم استنهض في نفسه شعوره الدائم بالحاجة إلى حماية والديه، والدفاع عنهما، حتى بمواجهة تلك العائلة اليهودية التي يتصادق معها، ومن ثم التدخل فعلاً بتلك المماحكات، هو بالفعل نتيجة ملاحظات عائلية كانت تحاول الحد من اندفاعته الفضولية للاهتمام بالتلمود الذي كان يقرأه الجار العجوز أيام السبت. وعلى ما يبدو، أن الصبي الصغير لم يستوعب تلك الملاحظات في حدودها وغاياتها، وتترجمت لديه إلى نوع من

العدائية. وهو الأمر الذي اقتضى بالطبع من والديه أن يضعا حداً له!

هل هذا يحمل ما يكفي من إشارات حول هوية بوتين القومية؟

يغفل المشككون بهوية بوتين القومية، وقائع أخرى كثيرة، ذات صلة؛ لقد شهد آل بوتين في تلك السنوات الكثير من الجيران الطارئين، الذين شاركوهم لفترات معينة العيش في تلك الشقة المشتركة. كانت تسكن هناك أحياناً عائلات لفترات محدودة، ومنها عائلة عمه ألكسندر وزوجته آنا ألكسييفنا.

كانت آنا ألكسييفنا امرأة تقية، مؤمنة. تتردد على الكنيسة. وكانت تقيم وزوجها في تلك الشقة المشتركة نفسها حينما ولد بوتين. وبعد فترة من مولده بشهر ونصف، أخذته هي ووالدته ماريا إيفانوفنا وذهبتا به إلى كاتدرائية التجلي، وعمّدتاه، دون علم أبيه، عضو الحزب، وسكرتير اللجنة الحزبية في المصنع.

هذه الواقعة ذكرها بوتين نفسه، حينما زار هذه الكاتدرائية لحضور قداس منتصف الليل فيها، ليلة عيد الميلاد في السابع من يناير 2012. كما أكدها في حديث له في واحد من مشاهد الفيلم الوثائقي: «التعميد الثاني لروسيا»، وغير ذلك من المناسبات. ومن الواضح أن ذكره لهذه الواقعة، في الكاتدرائية نفسها، لم يكن ليكون لولا أن الوثائق الكنسية تدعم ذلك.

في مناسبة أخرى، يذكر بوتين أن أمه أعطته صليب معموديته ليباركه في كنيسة القيامة، سنة 1993، حينما قاده عمله في مجلس مدينة لينينغراد، لزيارة «إسرائيل» في وفد رسمي.

بالمقابل، تراكمت لدى بوتين علاقات طبيعية، وأحياناً إيجابية، مع اليهود في محيطه الاجتماعي. ومن أبكرها علاقته بمدربه في رياضة الجودو، أناتولي راخالين، الذي احتفظ بعلاقة خاصة معه إلى أن مات صيف عام 2013. ومعلمة اللغة الألمانية في مدرسته، التي التقاها أثناء لقاء له مع قدماء المحاربين من

المهاجرين، على هامش زيارة رسمية له إلى «إسرائيل» وأهداها شقة.

ويمكن الحديث أكثر من ذلك عن عدد لا بأس من اليهود العاملين معه في الإدارات الحكومية المختلفة، أو من بين المحيطين به. بل وأكثر من ذلك، فإن علاقته باليهود تبقى علاقة براغماتية، وإن كانت تتأثر بنزعات ثقافية روسية معروفة، تجد تعبيراتها الحادة أحياناً، وتقود في أحيان أخرى إلى صدامات غير متحفظة مع مجموعات يهودية.

والأهم من ذلك، أنه من أنصار السياسة القوية، داخلياً وكذلك وخارجياً، وقدم دفعة قوية لإخراج روسيا من الارتهان للحالة الإسرائيلية، التي دخلتها على يد سلفه وفريقه الحكومي. فباتت القوة والدور المنشودان يستندان إلى قوة داخلية، لا إلى مغازلة إسرائيل في الطريق إلى خطب ود الغرب والولايات المتحدة.

بل، على العكس هناك بحث عن استخدام معاكس للعلاقة مع «إسرائيل»!

ويمكن للمتابع أن يعثر على محاولات، ولو أولوية، لاستخدام الأوراق التي راكمها الاتحاد السوفييتي في أوقات ما، في فترات قوته وضعفه على حد سواء، في المجتمع «الإسرائيلي»، لإعادة التوازن في العلاقة المشوهة تاريخياً. ويمكن ببساطة ملاحظة أن بوتين يرى أن هذه العلاقة، في حالتها الطبيعة، تعني تأثر «إسرائيل» ومراعاتها للحالة الروسية، لا العكس.

وأسباب ذلك موجودة في سمات أساسية يتسم بها بوتين!

إنه عملي، يجد إمكانية فرض احترامه بأسباب القوة المتاحة له، ولا يركن خلافاً ليلتسين وغورباتشوف من قبله إلى المقولات التي تضع سيرته السياسية بمعزل عن منعة الدولة التي يمثلها، وتربطها بالقطيعة مع الماضي، وبتبني أفكار ليبرالية محددة. وهو خلافاً لذلك لا يحاول التملص من الماضي، طالما كان ذلك يمثل تاريخ الدولة، بل يحاول المراكمة على ما سبق. وهذه

خصيصة قديمة يتصف بها!

ولد بوتين في السابع من أكتوبر عام 1952، لذلك كان عمره حينما ذهب إلى المدرسة يوشك أن يبلغ ثماني سنوات تقريباً، باعتبار أن تاريخ ميلاده متأخر عن السقف المسموح به. هذا التلميذ، الذي يبدو متأخراً عن عمر المدرسة، يظهر في واحدة من الصور المبكرة، بالزي المدرسي القديم، ذي اللون الرمادي، الذي يشبه الى حد بعيد بِزّة الجيش، يقف مع وعاء من الزهور في يده.

لسبب ما كان ذلك وعاء بنبات مزهر، وليس باقة ورود..!

هذا الوعاء بذلك النبات المزهر، يمكن لمن أراد أن يوظفه، بالشكل الذي يريد، في توصيف حياة بوتين. ولكن إن جاز لنا أن نستخدم هذه الصورة، فلن نجد أفضل من توظيفها لتوصيف علاقة الرجل بحياته الخاصة والمهنية. فهو ليس بالرجل الذي يتعامل مع محطات مهنية منفصلة، بل يراكم الواحدة على أساس الأخرى.

وبهذا تصبح هذه النبتة المزهرة هي الأصل الذي يقطف منه وروده!

وفي علاقاته، يكرس ذات الشيء. إنها تستمر معه، ويتنقل محيطوه برفقته إلى المحطات التالية، ما أمكن، إلى درجة أن واحدة من التحفظات التي يواجهها اليوم أنه استقدم أغلب الذين عمل معهم أو عرفهم خلال حياته، سواء في لينينغراد أو ألمانيا، في الـ«كي. جي. بي» أم في مجلس مدينة سانت بطرسبورغ، للعمل معه في موسكو، في الرئاسة والحكومة وأجهزتها، وفي الشركات الحكومية الكبرى..

يشار إلى هؤلاء اليوم بـ«قبيلة بوتين» أو «اللينينغراديين»!

شيء كهذا ينشأ مع الإنسان منذ نعومة أظفاره، وبالعادة يكون متعلقاً بالجماعة القريبة التي ينشأ بينها. وبالنسبة لبوتين، فإن الجماعة الأولى التي عرفها هي جماعة الفناء. فناء البيت الذي شهد طفولته، وكان يلعب فيه، واكتسب أول

الصداقات من بين رواده.

لكن مفهوم الفناء سيتغير، لاحقاً، وسيكبر، ويتسع!

جنة الفِناء

كان بوتين في صغره يحب اللعب في الفناء أكثر من ارتياد المدرسة. ولحسن حظه، لم يكن ذلك فناء واحداً، كان أوسع من أن يكون كذلك. لأنه كان عملياً فنائين جُمعا في باحة واحدة، باحة كانت بمثابة جنة ما بالنسبة له. وكان يسعده هتاف أمه: «إلى الفِناء!».

كان هذا أمراً جيداً للطفل ووالدته على حد سواء!

لم يكن الأمر سيئاً بالنسبة لوالديه المحشورين معه في غرفة واحدة، طالما أن الصبي لن يذهب أبعد من حدود الفناء التي يمكن تبينها من النافذة، وبالتالي تفقد صغيرهما متى شاءا.

كان مكتفياً بتلك المساحة التي مرّت فيها طفولته كلّها!

ولن تنتابه الرغبة في الذهاب أبعد من ذلك قبل أن يتجاوز الخامسة من عمره بقليل. ولكن حتى حينها لم يأخذه خياله بعيداً. لقد وصل للمرة الأولى إلى زاوية الشارع الكبير. وبطبيعة الحال، كان ذلك خلسة ومن دون إذن.

وصادف ذلك يوم الأول من مايو. عيد العمال..! وجد الصبي الصغير نفسه أمام مشهد لم يألفه، ولم يخطر بباله من قبل. واكتشف أن الحياة لا تقتصر عليه وعلى والديه في البيت، ورفاقه في الفناء. وفوجئ بأنها مليئة بالاتجاهات والشوارع التي لا يعرف إلى أين تقود، ولا إلى أين تؤدي. لقد كانت الحياة، على غير توقع، مليئة بالناس!

رأى جماعات من الناس يملؤون الشارع في مسيرة ضخمة، ويسيرون محدثين جلبة هائلة، ربما كانت هي ما قاده إلى تجاوز حدود الفناء. وبدا له أن الحياة تتحرك بسرعة هائلة، حتى أنه شعر ببعض الخوف.

لن ينسى الصبي ذلك المشهد أبداً!

بعد حين سيكبر قليلاً، فتنتابه الرغبة في أن يستكشف العالم في مسافات أبعد. لم يكن ذلك مسموحاً له بالطبع، لذا، يقرر مع بعض أقرانه أن يستقلوا قطار الضواحي، ليخرجوا من عالم الأحياء والحارات، بل والمدينة نفسها.

كان الفصل شتاء، والطقس بارد! استقل وأصدقاؤه قطار الضواحي فعلاً. لم يحدّدوا إلى أين يتجهون. بل لم يكونوا يعرفون مكاناً محدداً يتوجهون إليه، أو لكي يتخذوا ببساطة قراراً بأن عليهم أن يترجلوا من القطار حينما يبلغونه. لذا، اتخذوا قرارهم عشوائياً، إذ لم يعرفوا مكاناً محدداً يتوجهون إليه!

نزلوا في مكان ما. كان الجو بارداً. ولم يكن هناك، حيث توقفوا، أي شيء مثير يمكن أن يبرر وجودهم، أو بالأصل مجيئهم، فركبوا القطار من جديد، وعادوا يحملون ذكريات البرد القارص. بعدها، لم تعد تنتابه وأقرانه أي رغبة في الرحيل بعيداً!

توقف الصبي، لبعض الوقت، عن البحث عن مغامرة. وربما، كان مفهومه للمغامرة قد تغيّر، لا سيما أنه بعد ذلك بقليل التحق بالمدرسة، وكانت عالماً جديداً بالنسبة إليه، فيه نمط معين من الحياة، والناس، والأحداث.

درس من الصف الأول إلى الثامن في المدرسة 193، الواقعة في نفس الحارة. تبعد دقائق من البيت. ولكنه كان يماطل للبقاء في البيت أطول فترة ممكنة قبل الانطلاق إلى دروسه، فكان يصل متأخراً دائماً عن الدرس الأول..

وبوتين على العموم إلى اليوم، لايصل أبداً في الوقت المحدد! يتأخر في حضور المناسبات الرسمية التي يجب أن يرعاها. ويضطر الوزراء والمسؤولون الذين يستقبلهم عادة في ساعة متأخرة من الليل إلى الانتظار طويلاً (يبدأ استقبالات العمل غالباً بعد الحادية عشر ليلاً)، ويتأخر في استقبال الضيوف الرسميين من رؤساء الدول الذين يقومون بزيارات رسمية لموسكو، ويتأخر على لقاءاته واجتماعاته مع مسؤولي الدول التي يزورها. ولا غرابة، إذن، في

وصوله المتأخر إلى المدرسة!

أحب بوتين المدرسة لفترة من الوقت. كانت تلك فترة منحت فيها الحياة المدرسية الصبي فرصة أن يكون «زعيماً» بين أقرانه. بالأحرى، مواصلة الدور الذي كان يلعبه في فناء البيت. ولكنه -كما يعلق هو اليوم- لم يكن يطمح إلى القيادة. كان الأهم بالنسبة إليه أن يحتفظ باستقلاليته. وطالما كان ذلك ممكناً، كان الأمر يعجبه. لاحقاً، أصبح واضحاً أن الفناء ليس أفقاً كافياً.

بدأ حينها في ممارسة الرياضة، رغم أن الظروف لم تكن مواتية لممارسة هذا النشاط؛ فقد كان من الضروري أن يهتم ابتداءً بدراسته، التي كانت علاقته بها إلى الصف السادس عشوائية جداً.

اهتمامه بدراسته سيتزايد مع نموه!

تتذكر مربية صف بوتين، فيرا جورفيتش، أنها عرفته بينما كان ما يزال في الصف الرابع، حينما تسلمت الصف من معلمة أخرى. بدأت في تدريسهم. شكّلت وبالإضافة إلى ذلك حلقة اختيارية للغة الألمانية. لاحقاً تسألها المعلمة الأساسية، تمارا بافلوفنا تشيجوفا، حول تجاوب التلاميذ مع الحلقة، وتُفاجأ بأن فلاديمير بوتين كان من بين المتجاوبين.

وهنا تتساءل بدهشة: «وفولوديا أيضاً؟ هذا شيء لا يشبهه!».

لم تستطع تصديق أنه حضر الحلقة، وأنه تابع الدرس باهتمام كبير جداً. وفي قناعتها أن هذا ليس بوتين الذي تعرفه، فبقيت تراهن أنه لن يستمر بهذا السلوك المنضبط، فهو رغم أنه «ذكي جداً، إلا أنه غير منظّم».

إنهم حتى لم ينسّبوه لـ«الطلائع»، بالذات لأنه مشاكس!

كانوا يدرسون في بعض الصفوف اللغة الإنجليزية، وفي صفوف أخرى كانوا يُعلِّمون الألمانية. وكانت اللغة الإنجليزية، بطبيعة الحال، أكثر شيوعاً من

الألمانية. ولكن الصبي فولوديا اختار اللغة الألمانية. ومع ذلك، لم يكن الصبي قد أظهر نفسه بعد، وإن كان واضحاً أن لديه مخزوناً، وطاقة وشخصية، واهتماماً لا تعرف أسبابه باللغة التي يتجنبها غالبية التلاميذ!

كان يبدي اهتماماً كبيراً بتعلمها، ويستوعب دروسها بسرعة وسهولة. ويوظِّف لها ذاكرة جيدة جداً، وعقلاً مرناً. وهذا أمر لفت دون شك مُدرِّسته، التي قررت أن تستثمر فيه، وأن تمنحه المزيد من الاهتمام، ولكن ذلك كان يتطلب إجراءات مختلفة.

انتزاعه من الفناء، وابعاده عن الصبية الغارقين في ذلك العالم المغلق على العبث واللهو وألوان المشاكسة. وكان لديه من بين أصدقاء الفناء، صديقان أخوان شقيقان، كان يقضي الوقت معهما هناك، يتسلق ويقفز على أسطح المرائب. ولم يكن أبوه راضياً عن ذلك، لذا، لم يتردد في استخدام مزاجه الأبوي الصارم للحد من اندفاعه وراء صديقيه ومجاراتهما في عبثهما اليومي. ولكن مع ذلك لم يبتعد الصبي فولوديا عن الأخوين كوفشوف!

كان والده، فلاديمير سبيريدونوفيتش، رجلاً جاداً، صاحب نظرة، وله هيئة رجل غاضب متجهم. يُشعر من يقابلونه للمرة الأولى بالرهبة، قبل أن يكتشفوا لاحقاً أنه طيب جداً، دون عواطف ظاهرة. وهذه، صفة عامة لآل بوتين، الذين يكتمون عواطفهم، ولا يظهرونها حتى في العلاقات العائلية داخل البيت. لم يكن من طبعهم الاستسلام للعواطف..!

في مرحلة ما زارت مربية صف بوتين العائلة في بيتها، وقالت لبوتين الأب:

- ابنكم لا يبذل جهده في الدراسة!

أجابها:

- حسنا، ماذا عليّ أن أفعل؟ أأقتله، أم ماذا؟

قالت:

- أظننا بحاجة إلى التحدث معه. فلنتعاون على العمل معه. أنتم في المنزل، وأنا في المدرسة. يمكنه أن يحصل على علامات جيدة، إنه فطن يلتقط كل شيء «على الطاير».

اتفقا على المحاولة، ولكن جهودهما لم تؤثر على الصبي بوتين.

بقي على حاله، يأخذ من الدراسة ما يريد، ويترك الباقي. وفقط حينما أصبح الصبي في الصف السادس تغيّر. لقد تغيّر بشكل كبير، وعلى نحو مفاجئ. كان واضحاً أنه قرر شيئاً. وربما وضع لنفسه هدفاً؛ وقد يكون أدرك أنه بحاجة لتحقيق شيء ما في الحياة. ومنذ ذلك الحين، بدأ يحقق نتائج أفضل، وكان ذلك بالنسبة له سهلاً. وأخيراً، ضُمّ إلى منظمة «الطلائع»، وسرعان ما أصبح رئيس مجموعة!

يقول بوتين: أصبحت عضواً في «الطلائع». قبل ذلك كنت مجرد فتى مشاكس!

كان الفتيان في عمره حينها مغرمين بالرقص. وكانوا في الأمسيات يترددون على المدرسة، التي كانت تضم نادياً اسمه «كريستال»، حيث تُنظّم حفلات الرقص، ويُعدّون المسرحيات، وخلاف ذلك من الأنشطة، لكن هذا كله لم يكن يسترعي اهتمام الصبي فولوديا.

وكان والده يريد له أن يعزف على الأكورديون، وأجبره في الصفوف الأولى على التمرن على العزف. لكنه هو نفسه لم يكن يريد ذلك. وكان بدلاً من ذلك يقبل على عزف الغيتار بسرور. وكان في الغالب يؤدي أغنيات المطرب السوفييتي المعروف، فلاديمير فيسوتسكي، وتحديداً أغنياته من فيلم «فيرتيكال».

كان ذلك فيلم شهير من أواخر الستينات، يعتبر من كلاسيكيات السينما السوفيتية، ويتحدث عن مجموعة من المتسلقين الذين يتعرضون لمحنة أثناء

تسلقهم لأحد الجبال في جو عاصف، وخلالها تظهر سماتهم الشخصية، والجوهر الحقيقي لشخصياتهم. وأغنيات هذا الفيلم ذائعة ومفضّلة عند محبي العزف على الغيتار، ومن أشهرها: «القمة» و«أغنية عن الصداقة».

ولكن ولع الصبي الحقيقي كان: الرياضة! كانت تجذبه بالذات فنون القتال. ثمة مدخل طبيعي يقود صبي الفناء، المهتم باستقلاليته، إلى هذا النوع من الرياضة. كان يريد امتلاك القدرة على الدفاع عن نفسه، فلم يبخل على نفسه بالتدريب، وكانت لديه كل الأسباب لينتظم في هذا النشاط، فأمضى وقتاً يتدرب في مكان ما في منطقة «محطة فنلندا»، بواقع أربع مرات في الأسبوع، وحقق تقدماً جيداً.

وبدأ يشارك في المنافسات، ويتهيأ لها باهتمام!

بدأ بممارسة الرياضة في سن العاشرة أو الحادية عشر. بعد أن بات من الواضح أن المشاكسة ليست جيدة بما يكفي ليكون الأول بين أقرانه في الفناء، وفي المدرسة. في البداية، فكر بالملاكمة، وبدأ بمزاولتها فعلاً. ولكن لم يطل بقاءه هناك، إذ سرعان ما انكسر أنفه. وحينها عرف أن هذا أمر متوقع، فلم يعد إلى هناك. لم يعد يستمتع بعد ذلك بممارسة الملاكمة.

اهتدى بعدها إلى رياضة الـ«سامبو»، وقرّر إجادتها. كانت واحدة من أبرز الرياضات القتالية الشائعة عموماً في ذلك الوقت، وكانت تحظى بشعبية خاصة، فانتسب إلى حلقة تدريب يقع مقرها على مقربة من البيت، وبدأ مشواره الطويل مع فنون القتال. كان ذلك في صالة تابعة لجمعية «ترود» الرياضية.

في تلك الصالة، تعرف على مدربه، أناتولي سيميونوفيتش راخالين، الذي سيحتفظ بعلاقة وصلات وثيقة به، وسيكون لهذا المدرب مكانة خاصة في نفسه، ويقر له بدوره الحاسم في انتشاله من حياة الفناء.

مارس في البداية رياضة الـ«سامبو»، وبعد ذلك تحول إلى الجودو. لقد كان ذلك قرار المدرب، الذي رأى ذات يوم أن الوقت حان بالنسبة لتلاميذه ليتحولوا إلى هذه الرياضة، فتحولت كل المجموعة التدريبية إلى الجودو.

وما يزال بوتين، لليوم، يردد الكلمات الأولى التي سمعها من مدربه حول هذه الرياضة: «الجودو ليست مجرد رياضة، بل هي فلسفة. إنها مليئة بقيم الاحترام. احترام الأكبر سناً. احترام العدو. عدم الاحتفاظ بضغينة. في الجودو، هناك كل شيء يحمل معنى تربوياً. هكذا، نخرج ونقف على السجادة، نحني رؤوسنا لبعضنا البعض».

«ويمكن لنا أن نتصرف بطريقة أخرى كذلك»، يضيف بوتين، «بدلاً من الانحناء للعدو، نبادره فوراً بضربة على جبهته». ومن يسمعه يقول ذلك، يتساءل على الفور: يا ترى كم مرة فعلها؟ وأي ظروف دعته إلى ذلك؟ وزملاءه في التدريب في ذلك الوقت، ما يزالون أصدقاءه إلى اليوم!

جرب الصبي التدخين بضع مرّات، ولكنه لم يصبح مدخناً. لقد أنقذته الرياضة من هذا المصير. كان التدريب مكثفاً، وأصبح همُّه الأول هو إثبات نفسه في هذه الرياضة، وتحقيق شيء ما فيها.

كانت الكاراتيه في ذلك الوقت رياضة شعبية، ولكنها محظورة نوعاً ما. بمعنى أنها مستبعدة من برامج الصالات والأندية الرسمية، وزاد من سمعتها السيئة أنهه قُدِّمت، حينما بدأت تثير الاهتمام، على أساس تجاري. انتشرت بسرعة كبيرة، نعم، ولكنها بدت مجرد نشاط يتعلق بالحصول على المال، ولم تبد كحركة رياضية.

لم يكن على ممارسي رياضة الـ«سامبو» دفع أي أجور لقاء الدروس، وكان ممارسو هذه الرياضة في الغالب من أبناء الأسر الفقيرة. بينما كانت الكاراتيه منذ البداية نشاطاً مدفوعاً، ولذلك اعتبر ممارسوها أنفسهم صفوة ممارسي فنون القتال. ولكنهم بالمقابل لم يحوزوا تقدير واحترام زملائهم من ممارسي

الرياضات الأخرى.

كان والدا بوتين، في البداية، غير راضيين عن توجهه لفنون القتال، وبدا لهما أنه استسلم للنزعات العدوانية التي قد يكون اكتسبها من حياة الفناء، وخشيا أن يستخدم هذه الرياضة في حياته اليومية، وكانا يتخوفان من عواقب ذلك، ولكنهما لاحقاً تعرفا على المدرب، الذي أصبح يزور العائلة في منزلها، فتغيّر موقفهما. وحينما أحرز الصبي أولى نجاحاته الرياضية، أدركا أنها رياضة جادة ومفيدة.

كان على الفتى بوتين أن يفكر لدى وصوله الصف الثامن، بمستقبله الدراسي، وأن يقرّر إلى أي مدرسة سيذهب بعد ذلك. كان أغلب زملاء صفه يفكرون على نحو تلقائي بالذهاب إلى المدرسة رقم 197، الواقعة في شارع بيوتر لافروف. ولكن بوتين قرّر الانتساب إلى مدرسة مختصة بالكيمياء.

كان قراره مفاجئاً للجميع، ولكنه لم يسع إلى إقناع أحد، أو تبرير قراره. لقد قرر وانتهى الأمر. لم يكن أبداً شخصاً يُكثر من الحديث. وعلى أي حال، درس في تلك المدرسة بشكل جيد أيضاً. وهناك في تلك المدرسة كانت مربية صفه المعلمة مينا مايسيفنا يوديتسكايا. وكانت كذلك تدرسه اللغة الألمانية.

وهذه المعلمة، التي هاجرت إلى «إسرائيل» عام 1973، بعد تخرجه من المدرسة، هي من قابلها عام 2005 حينما قام بزيارة رسمية إلى «تل أبيب».

الطريف أن تلك المُدرّسة لم تجذب بوتين إلى الكيمياء، بل فتحت أمامه عالم الأدب. كان فيها مُدرّس متميز للأدب، أحب بوتين دروسه أكثر من أي شيء آخر في المدرسة.

كان ذلك المُدرّس يدرّس الأدب بطريقة مميزة ومثيرة للاهتمام، ويعطى موضوعات غير عادية لكتابة التعبير، تحفّز التلاميذ على التفكير، وتضعهم بمواجهة قضايا لم يعتادوا التفكير بها. وكان من تلك الموضوعات مثلاً: «هناك

بداية للثورة، ولكن الثورة ليس لها نهاية»!

يمكننا، هنا، أن نتخيل معلماً لينينغرادياً، بميول وثقافة تروتسكية، يفكر بالثورة المستمرة!

عموماً، كانت الدراسة حقل مفاجئات بالنسبة لبوتين، فها هو يقرر على غير توقع من الجميع، بعد انتهائه من المدرسة، أنه سيتجه إلى لدراسة القانون. ومرة أخرى، لا يفهم أحد لماذا اختار القانون، وكان الجميع يحسبونه سيتجه للدراسة في المعهد التقني. وحينما سألوه عن ذلك، كان لديه جواب مقتضب وحيد.. قال: «هذه مسألة أقررها أنا بنفسي»!

كان بوتين ابن مدينة، هي في كل أسمائها التي مرت عليها، لينينغراد، بتروغراد، سانت بطرسبورغ، تمثل دوماً اقتراحاً آخر، في كل عهودها، ومع أغلب أبنائها، وهي بالأساس كانت كذلك من فكرة تأسيسها.

والفكرة تبدأ بالمرويات عن الأمير دولغوروكين الذي لجم حصانه وأشار بيده، وقال:

- هنا..!

وبنيت موسكو حيث أشار.

لاحقاً، لم تعجب بطرس الأول فكرة أن إمبراطوريته هي إمبراطورية برية. وهو الأمر الذي جعله يبحث، فيختار مكاناً لعاصمتة الجديدة (سانت بطرسبورغ). ومن على ظهر جواده أشار، وقال:

- هنا..!

ولكن جواده جمح به، وارتفع واقفاً على قوائمه الخلفية، وهي اللحظة التي تجسدها يد المثّال إيتيين فالكونيه، الذي صنع تمثال بطرس الأعظم (1782). يتماسك على ظهر جواده الجامح..

المهم، أنه منذ ذلك الحين، وهذه المدينة تجمح على طريقتها، ولا تلين للأفكار السائدة، ولا تتآلف مع الوضع القائم، بصرف النظر عما هو. لها هيئة مدينة أوروبية عجوز، سموعة للكلام، ومطيعة، وغارقة في تأمل إرث الفكر الفلسفي، وتركن إلى تذوق المخزون الفني والإبداعي، ويتملكها الإحساس بضرورة الانقطاع لتقديم إسهامات تواصل التقاليد الثقافية والروحية.. ولكنها ليست كذلك إلا للغافلين!

كانت في البدء بديلاً لموسكو. وهي دوماً تقترح بدائل للسائد والقائم، وتجمح أحياناً فتقلب المعادلات. غير أن لها في الجموح أساليب وطرق متنوعة، لم تحصر في قائمة محددة بعد..

وهي مع ذلك، فعلاً، أكثر المدن الأوروبية صمتاً، وأعمقها تفكيراً!

لم يكن من الممكن أن يكون بوتين تروتسكياً، مثلاً، ولا معارضاً بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنه سيكون شيئاً مختلفاً يشبه مدينته الأم، وينسجم مع طبيعتها، يبدو سموعاً ومطواعاً، ولكنه في الواقع جموح في لحظته المناسبة، يفاجئ محيطيه، والناس من حوله بخياراته.

وسيقول في لحظة ما:

- أنا سأقرر في هذه المسألة بنفسي!

اللغز الرابع

أسرار التخصص

طموحات فتى

يبدو أن اختيار بوتين دراسة القانون ليس أحجية بقدر رغبته في الانتساب إلى الاستخبارات. لقد اتضح أن قراره بشأن الدراسة الجامعية، كان مبنياً على هذه الرغبة، وجاء بغرض اكتساب المؤهلات التي تمكنه من تحقيق طموحه في أن يصبح عضواً في تلك المؤسسة الأمنية، ذات السمعة الهائلة: الـ«كي. جي. بي»!

يكشف بوتين أن رغبته في الانتساب إلى الـ«كي. جي. بي» ظهرت قبل تخرّجه في المدرسة الثانوية. فهل لهذا علاقة بالمعلومة التي قدمتها مجلة «بروفايل» في عـــددها رقـــم 32 لعـــام 1999، وتؤكـد أن والـد بوتـين فلاديمـير سبيريدونوفيتش كان مرتبطاً بالـ«كي. جي. بي». خصوصاً، وأن كل الخيارات التي انتابته حينها، كان لها علاقة بأقاربه!

لقد ظهرت لديه في البداية الرغبة بالعمل في الاستخبارات، على الرغم من أن الأمر كان يبدو بعيد المنال، مثل رحلة الى المريخ. ومن الواضح أن هذه الرغبة بـدأت بفكرة دون مقدمات واضحة، حتى بالنسبة له. ودليل ذلك أنه اضطر للاستعداد لها، بقراءة الكتب، ومشاهدة الأفلام. أي، ببساطة، لم تكن قراءاته ومشاهداته سابقة على ذلك!

الملفت أن الاستحالة التي بدت عليها الفكرة ذهبت به إلى البحث عن خيارات أخرى، ففكّر أن يصبح بحاراً. وهنا، إرث عائلي قريب منه، يتعلق بوالده الذي خدم في ثلاثينات القرن الماضي على متن واحدة من غواصات أسطول بحر البلطيق، ويتعلق كذلك بخاله إيفان ايفانوفيتش شيلوموف..

ذلك الخال، نفسه، الذي أعال والدته أثناء الحرب!

لقد كـان صاحب خدمة طويلة في البحرية، ابتدأها عـام 1922، وأنهاها في منتصف الخمسينات؛ ويتضمن سجله المهني الخدمة في الجهاز المركزي لوزارة

الداخلية، في القسم المختص بحراسة الحدود البحرية. وكذلك قيادة عملية الإجلاء الهائلة في ميناء أوست لوجا بضواحي لينينغراد في آب عام (1941) للمعدات العسكرية، حيث جرّ الجنود والبحارة، تحت قيادته، بأيديهم العربات الحديدية المليئة بالمعدات المطلوب إخلاؤها. وتم تكريمه على ذلك بوسام الراية الحمراء.

وفي وقت لاحق، قام ابن أخيه، الرئيس فلاديمير بوتين، بإعادة بناء البناء البحري الرئيسي في المكان الذي نفّذ خاله فيه عملية إخلاء المعدات العسكرية تحت القصف. وربما حمل هذا القرار بعض العواطف ذات الطبيعة الرمزية.

وفي وقت لاحق من تلك العملية، يتسلم إيفان شيلوموف منصب قائد أسطول حماية المياه الإقليمية في منطقة لادوغا. وبهذا أصبح مسؤولاً عن ضمان سلامة نقل البضائع والمواد الغذائية إلى لينينغراد المحاصرة عبر الطريق البحرية «شريان الحياة» وتنظيم عمليات النقل على الطريق الجليدي السريع.

وفي عام 1944 وضع إيفان شيلوموف بنفسه خطة العمليات البرمائية لوحدة تولوكسينسكايا في كاريليا. ثم قاد الحرس البحري بمنطقة كولا الواقعة في نطاق صلاحيات أسطول الشمال، للمساعدة في تسيير القوافل التي أرسلها الحلفاء، بحمولتها من الآلات والمعدات للمصانع العسكرية وإنقاذ طواقم السفن التي تتعرض للقصف. ونال لجهوده في هذا المجال نجمة الراية الحمراء للمرة الثانية.

في عام 1947، عُيّن في مدرسة باكو البحرية، نائباً لرئيس المدرسة لشؤون المناهج. وفي نفس العام نُقل إلى كالينينغراد للتحضير لتأسيس المدرسة البحرية العليا في المنطقة الغربية من البلاد. وبعد مرور عام، أعيد تنظيم الوضع الإداري لتلك المدرسة فأصبحت «مدرسة البلطيق البحرية العليا الثانية»، ورأَسَها هو نفسه.

وحينما صرف بوتين نظره عن فكرة امتهان البحرية، عاد يفكر من جديد

بالاستخبارات!

وكان فكّر أيضاً أن يصبح طياراً. ولهذه المهنة كذلك سياق عائلي يرتبط بخاله الثاني بيوتر ايفانوفيتش شيلوموف، الذي تتباين الأخبار حوله، ويقال إنه قُتل في الحرب، ويقال كذلك إنه اعتُقل باكراً، وغابت أخباره، ولم يعد إلى العائلة أبداً.

ومن المتوقع أنه للخال الغائب كل تلك السطوة، التي لكل الغيّاب على من يفتقدونهم!

عندما بدأت الحرب الوطنية العظمى، التحق القريبان، بوتين الأب والخال بيوتر ايفانوفيتش شيلوموف، بالجبهة فوراً. وتوضح البطاقة العسكرية العائدة لفلاديمير سبيريدونفيتش بوتين الصادرة عن مركز التعبئة العسكرية في بيترهوف أنه التحق بالجبهة في حزيران 1941. وكذلك، الخال بيوتر ايفانوفيتش شيلوموف.

أُلحق الخال بيوتر بالكتيبة 54 المختصة بخدمة مطار قاعدة المنطقة العسكرية الجوية السادسة، وأصبح ميكانيكياً - سائقاً، ويظهر في آخر صورة له بملابس سلاح الجو. وأي شخص ينظر إلى هذه الصورة، يدرك أن الرئيس فلاديمير بوتين أكثر شبهاً بخاله منه بأبيه.

وفقا للسيرة الذاتية الرسمية لبيوتر ايفانوفيتش شيلوموف فإنه يصنف في عداد المفقودين أو الذين قتلوا خلال الحرب الوطنية العظمى. ومع ذلك، هناك رواية أخرى يقدمها أحد قساوسة الكنيسة الروسية المهتمين بالتاريخ، نيكولاي سافتشينكو («بيليو ديلا» 14 كانون الأول 2013)، وفيها ما هو مؤكد: «في 7 تموز، 1941 حكم على بيوتر ايفانوفيتش شيلوموف من قبل محكمة حامية لينينغراد العسكرية بعشر سنوات في معسكرات الاعتقال».

يصطدم المرء لدى التقصي حول هذا الموضوع بعدّة أشياء مثيرة للاستغراب،

أولها أن شيلوموف أدين بعد أسبوع واحد فقط من التحاقه بالقاعدة العسكرية. كان المطار يقع في منطقة بوشكين، وقد تمت عمليات التعبئة في لينينغراد ما بين 23 إلى 29 حزيران. وفي 7 تموز كان بيوتر ايفانوفيتش قد أدين بالفعل.

فما هي تلك المخالفة التي تمكن من ارتكابها خلال هذه الأيام القليلة؟

الأمر الثاني، الذي لا يقل إثارة للاستغراب، يتمثل في إدانة عدد لا بأس به نسبياً من جنود الكتيبة 54 العاملين في المطار 54، مباشرة بعد شيلوموف، بتهم مجهولة لكن أحكام نصفهم تقريباً وصلت إلى الإعدام.

الأول الذي أدين بعد شيلوموف كان الجندي سيلينكو، وحكم عليه بعشر سنوات، في 22 تموز. وأدين فاسيلييف ودولغوف من الجيش الأحمر في الثالث من آب. وفي 17 آب أدين المناوب في مركز البث غورديلين. واعتباراً من شهر أيلول زاد عدد الأحكام، وأصبحت أشد صرامة!

ومن المربك، أن المدانين لم يكونوا من فئة مهنية معينة في الكتيبة، إذ من بين الذين حكم عليهم بالإعدام طبّاخ الكتيبة الشيف فاسيلي ايفاكين. من الصعب أيضاً فهم حقيقة أن الضحية الأولى من الكتيبة، في أواخر آب 1941، كان الموجه السياسي ماسلينكوف. وسيتلوه نيكولاي ديميتريفيتش لافروف متأثراً بجراحه يوم 16 أيلول».

حكاية غامضة، بلا حيثيات، وتظل غير مؤكدة!

وهنا، كانت في لينينغراد أكاديمية الطيران، ففكر بوتين جدياً بالذهاب إليها ليستفسر عن شروط الانتساب، لكنه لم يفعل. كان منكبّاً وقتها على قراءة أدب الجاسوسية، ويبدو أنه قرّر أن يتنكّب عناء محاولة الانتساب إلى عالم الظّل.

وأخذه الاهتمام لدرجة الاشتراك بمجلة مختصة بالاستخبارات!

ويبدو أن قراءة كتب الجاسوسية ومشاهدة الأفلام من نوعية فيلم «الدرع

والسيف» فعلت فعلها، وسحرته بالفكرة التي تصور الاستخبارات كقوة صغيرة، وأشخاص منفردين، يوظفون المعلومات ومهاراتهم الخاصة، محققين ما لا يستطيع جيش بأكمله تحقيقه. «رجل استخبارات واحد يحسم مصير الآلاف من الناس»، تلك الفكرة الرومانسية التي سترسخ في عقب بوتين، على إثر قراءاته ومشاهداته في هذا المجال.. وهكذا، لم يعد مهتماً بالالتحاق بأكاديمية الطيران.

كان اتخذ خياره عن قناعة، وسابق عزم وتصميم. وهذا ما لم يفهمه الآخرون، فبقوا يناقشونه ويحاولون إقناعه بخيارات أخرى. كما لم يدرك والداه هذا على الفور. وزاد الضغط عليه حينما جاءهم مدربه وقال لهم إن ابنهم باعتباره رياضي متميّز، يمكنه عملياً أن يلتحق بأكاديمية الطيران المدني، بدون امتحانات قبول.

أسعدهم ذلك، بطبيعة الحال، وبدأوا يحاولون إقناعه!

وكان مدربه، كذلك، لا يفهم أبدا لماذا يرفض الانتساب إلى هذه الأكاديمية، التي تتيح له قبولاً مضموناً مائة في المائة، مع ضمان إضافي بنقله للخدمة في الجيش إن فشل في الدراسة فيها.

كان في موقف صعب؛ فالعرض مغرٍ، ووالده رجل قوي وصاحب سلطة. بينما الضغوطات توالت طوال العام الأخير دون توقف، وأحياناً كانت تحدث بشكل يومي. ولكنه تمسك برغم ذلك بموقفه بحزم، معلناً أنه اتخذ قراره بشكل نهائي.

ولكن لماذا اختار دراسة القانون، بالذات..؟

كان هذا السؤال الذي يطرحه الجميع عليه.وعندما لا يجيب، يطرحونه على أنفسهم، ويفكرون فيه. ولم يكن أحد من المحيطين ببوتين يجد إجابة معقولة ومنطقية تفسّر هذه الانعطافة غير المتوقعة.

ولم يكونوا يعرفون كذلك، أن قراره هذا ليس عشوائياً كما بدا لهم، وأن أسباباً واقعية تقف خلفه، وتجعله يتمسك به، ولا يلتفت إليهم، ولا يأبه بإلحاحهم، وأنه أجرى الاستشارات اللازمة، قبل أن يقرر ما قرر.. لقد كان ذلك قراراً اتخذ بعد مشورة الـ«كي. جي. بي»!

كان قد أراد حينما وصل إلى الصف التاسع، وفي بدايته تحديداً، أن يعرف كيف يمكنه أن يصبح ضابط استخبارات، فذهب إلى مكتب استقبال إدارة الـ«كي. جي. بي» في المدينة. وهناك خرج رجل ما لمقابلة الصبي، تلميذ الصف السابع، ليعرف ما يريد.

استمع الرجل له، وفوجئ به يقول:

- أريد أن أعمل لديكم!

كان الكلام غريباً على تلميذ بعمره. ولكن لم يكن من مجال لتجاهل الفتى، فقال مجارياً:

- بكل سرور، ولكن هناك بعض الأشياء..

سأل الصبي باهتمام:

- أشياء مثل ماذا؟

قال الرجل:

- أولاً، وقبل كل شيء، نحن لا نقبل من يبادرون من تلقاء أنفسهم بالمجيء إلينا. ثانياً، لا يمكنك أن تجد نفسك في هذه الدائرة إلا بعد أن تؤدي الخدمة العسكرية، أو بعد التخرج من أي مؤسسة تعليمية مدنية.

كان من الواضح أن الرجل على وشك إنهاء المقابلة، غير أن الفتى سأل:

- أي تخصص؟

قال الرجل:

- كل التخصصات!

كان الرجل يعتقد أن الحديث انتهى، ولكن الفتى استزاد بالاستفسار، وسأل:

- وماذا تفضلون؟

قال:

- القانون.

قال الفتى:

- فهمت!

وانتهت المقابلة عند هذا الحد.

ربما نسي ذلك الرجل هذا الصبي الذي جاءه يسأله عن كيفية الانضمام إلى الاستخبارات، فور انتهاء المقابلة. ولكن الصبي نفسه لم ينس أي كلمة دارت بينهما. ومنذ تلك اللحظة، بدأ بتحضير نفسه للانتساب لكلية الحقوق في جامعة لينينغراد. وما كان يمكن لأحد أن يوقفه.

ولهذا السبب، كان إلحاح المحيطين به على الالتحاق بالأكاديمة الطيران المدني يوتّره. صحيح أن ذلك لم يكن ليمنعه من تحقيق حلمه بالانضمام إلى الـ«كي. جي. بي»، ولكنه سيطيل طريقه إلى ذلك.

وهكذا كان.. انتسب لكلية الحقوق!

حياة طلابية

كان الانتساب للجامعة صعباً، لأن المرشحين للقبول من بين الطلاب القادمين من المدرسة مباشرة، وعددهم يزيد على أربعمائة تلميذ، كانوا يتنافسون على عشرة مقاعد فقط، إذ كانت بقية المقاعد مخصصة ليتنافس عليها من أنهوا الخدمة في الجيش.

لذلك، كانت الفرص محدودة، والتنافس قوياً.

درس بوتين في الجامعة بجد. لم يكن يشارك بالعمل الاجتماعي، ولم يكن مسؤولاً في المنظمة الشبابية الحزبية «الكومسومول». لذلك، كان يعتمد على والديه في عيشه.

وفي الجامعة، تعرف على معسكرات العمل الصيفي! لاحظ بسرعة أن الطلبة الذين ينخرطون في هذه المعسكرات، وخصوصاً في مجال البناء، كانوا يجنون خلال العطلة الصيفية مبلغاً مجزياً من المال. كانوا يحصلون لقاء عمل شهر ونصف على ألف روبل. وفي تلك الأيام، كان ثمن السيارة الجديدة لا يزيد كثيراً عن ثلاثة آلاف روبل!

لذا، حرص على أن يقضي العطلة الصيفية في معسكرات العمل الطلابية. وهكذا، أصبح لديه المال الكافي لكي ينفقه بطريقته الخاصة. وهكذا، قرر مع اثنين من أصدقائه، أن يذهبوا للاستجمام في منتجع غاغرا في أبخازيا.

وهكذا فعلوا!

أمضوا بعض الأيام في السباحة، والتشمس. واستجمّوا بكل اندفاع. وحين شارف المال على النفاد بدأوا يستعدون للعودة الى لينينغراد. فحاولوا العثور على أرخص طريقة للسفر، ولم تكن النقود المتبقية إلا لمكان على سطح إحدى السفن، صعدو على متنها إلى أوديسا، ثم أتموا سفرهم بالقطار بتذاكر الدرجة

الثالثة.

وكانت تلك تجربة مع الليل ونجوم السماء!

استقر الأصدقاء في قارب نجاة على سطح المركب. كان قارباً معلقاً فوق المياه، فبدا كأنه أرجوحة. وطوال ليلتين كان بوتين الشاب هكذا يتأمل السماء، ولم يستطع أن يبعد عينيه عنها. وأحياناً، في المساء، كان يراقب وأصدقاءه الركاب في قمراتهم، فيخيم عليهم الحزن.. كانت تبدو حياة جميلة، غير متاحة لهم!

عندما بدأت الدراسة في الجامعة، ظهرت هناك حوافز أخرى، وقيم أخرى، ولكن بوتين واصل تركيز جهوده بشكل أساسي على الدراسة، وتعامل مع الرياضة باعتبارها مسألة ذات أهمية ثانوية. ولكنه كان مع ذلك يتدرب بشكل منتظم، وشارك في البطولات التي تجري على المستوى السوفييتي.

في عام 1976 أصبح بطل المدينة! وحصل على درجة «معلم» في الـ«سامبو» بينما كان على مقاعد الدراسة في الجامعة، وبعد عامين حاز نفس الدرجة في الجودو. وكان نيل هذه الدرجة حينها يتطلب تحقيق عدد من الانتصارات خلال عام على خصوم من فئة معينة، بالإضافة إلى إحراز واحدة من المراتب الثلاثة الأولى على مستوى المدينة، أو في بطولة جمعية «ترود» على المستوى السوفييتي.

يتذكر بوتين من هذه المرحلة منافستين خاضهما.. كان في نهاية الأولى منها، قد أصبح حطاماً، بالكاد يستطيع التنفس، وكان محتوماً أن ينهزم، أو يتعرض لاصابات جسيمة تضر به. لكن فكرة الهزيمة في مواجهة استثنائية كانت مرفوضة لديه بالمطلق، فاندفع يبذل أقصى ما يستطيع ليصمد أمام خصم قوي على نحو استثنائي، ويقاتل من أجل الفوز بشراسة.. ويتذكر، كذلك، باعتزاز أنه فاز عليه في النهاية بفارق ضئيل!

والثانية، منافسة خسرها مع بطل العالم فولوديا كولينين، الذي كان كذلك بطل المدينة. وبذات الإعزاز يتذكر كيف تمكن من إلقاء البطل أرضاً، وعلى نحو باهر، منذ اللحظة الأولى للمباراة. ما يعني، عملياً، أنه كان يجب إعلان فوزه لحظتها. ولكن الحكم لم يجد من اللائق أن يهزم بطل العالم بهذه الصورة. فأعطى بوتين تعويضاً له عن ذلك بعض النقاط، وأمر بمواصلة المباراة. وفي النهاية، فاز بطل العالم مستفيداً من خطأ تحكيمي!

تبدو سنوات الجامعة حافلة بذكريات سعيدة، حينما يستذكرها بوتين. يبدو ذلك في نبرة صوته، حينما يتحدث عن ذلك في مقابلات مصورة، وفي مفرداته الملهوفة التي يختارها في مقابلاته المطبوعة. ولا يهم ما هي طبيعة تلك الذكريات، ولا موضوعها.

إنها دائماً، تظهر فيه الحنين المعهود الذي تثيره السنوات الجامعية!

لم تخل سنواته تلك من الصخب، لا سيما أنه أصبح سيد نفسه حينها، وبدأت الحياة تسلمه قيادها شيئاً فشيئاً، وبدأ الحظ يبتسم له ولعائلته، فها هي أمه تربح، بينما كان في سنته الجامعية الثالثة، سيارة من ماركة «زابوروجيتس» جديدة.

لم يكن ذلك ليحصل دون حظ جيد!

دفعت والدته ثمن وجبتها في أحد المطاعم، وتصادف أنه لم يكن لديهم في المطعم قطع نقدية من فئات صغيرة، فأعطوها بدلاً من الباقي ورقة يانصيب، ففازت الورقة، وربحت الوالدة سيارة «زابوروجيتس»..

كانت الأسرة في ضيق مالي حينها، ولكن والداه قررا رغم ذلك منحه تلك السيارة، متخلين عن إمكانية بيعها والحصول على ثلاثة آلاف وخمسمائة روبل. وهذا مبلغ كفيل بتصحيح وضع ميزانية الأسرة. وهكذا، لسعادته، امتلك أول سيارة له.

كان مندفعاً، سعيداً بسيارته، ويقودها طوال الوقت ويده على قلبه، إذ لو حطمها، لن يجد المال ليصلحها. ومع ذلك وقع ما كان يخشاه: لقد صدم رجلاً. لم يتأذّ الرجل، وهرب على الفور بعد الحادث.

لم يكن الحق عليه، ولا كان ذلك خطأه!

كان الرجل قد قفز عن سابق قصد أمام السيارة. أراد لسبب ما أن ينهي حساباته مع الحياة. ولكنه على ما يبدو اختار العربة الخطأ، فسائقها كان شديد الانشغال بسيارته، لدرجة أنه لم يكن من الممكن أن تكون قيادته قاتلة!

لحق بالسيارة، بالطبع، بعض الضرر. لقد انعطب فيها «الأكزوزت»، وباتت تصدر ضجيجاً مزعجاً. ولم يكن هذا بالأمر غير المحتمل. ولكن الحادثة نفسها كشفت عن أمر لا يمكن السكوت عليه:

ردة فعل بوتين الهادئة، على نحو غير عادي!

كان بطبعه يصبح هادئاً جداً في اللحظات الحرجة. وأحياناً حتى أكثر من اللازم؛ وحينما انتسب للاستخبارات كانت هذه الصفة ما تزال محسوسة لديه. إلى درجة أنهم لاحقاً سجلوا ملاحظة في ملفه في خانة صفاته السلبية، تقول: «مستوى الشعور بالخطر منخفض».

وهذا كان يعتبر نقيصة خطيرة جداً!

كان «تدني مستوى الشعور بالخطر» بالنسبة لـ«كي. جي. بي» مثله مثل «الشعور بالهلع»، عامل يمنع من الاستجابة بطريقة فعالة لما يجري. ولهذا، توجب عليه لاحقاً أن يعمل على نفسه من هذه الناحية.

كان لدى بوتين علاقة عاطفية واحدة مهمة، خلال سنواته الجامعية.

كان ذلك ما يسمونه الحب الأول. وكان الحبيبان على وشك الزواج عام 1979. ولكنه عدل عن ذلك بعد أن كانا قدما أوراقهما لإجراء المعاملات اللازمة.

كان كل شيء على ما يرام.. والأهل من الجانبين تهيأوا لحفل الزفاف، بل واشتروا ملابس جديدة خصيصاً لحضور الحفل. ولكن فجأة، أُلغي الحفل، وافترق الحبيبان. وبمعنى ما، تراجع العريس «في اللحظة الصعبة، والمدانة من قبل الجميع»..

ومن المهم هنا أن نسمع ما يقول بوتين عن ذلك:

- «كان قراراً صعباً جداً. لقد بدوت كأسوأ نذل في الدنيا. لكنني قررت أنه من الأفضل، لي ولها، تقبل الشعور بالانزعاج الآن بدلاً من الاستسلام لعذاب يطول مدى العمر. لقد كانت قصة صعبة ومعقدة، ولا أحب الحديث عنها، ولكنني لست نادماً. لست نادماً، فأنا لم أهرب، بل واجهت الحقائق، ووضعتها هي أمام تلك الحقائق كما رأيتها».

لا يحب أن يتحدث عن ذلك، ولم يذكر السبب لأحد!

أقرب أصدقاءه، ومنهم من هم من خارج عالم الاستخبارات والسياسة، وممن عرفوا تلك الفتاة، لم يعرفوا السبب إلى اليوم. ومن يعرفها منهم يتحدث عنها بإعجاب وتقدير.

ومعروف أنها كانت تعمل مسعفة، وذات شخصية قوية.

ومعروف أيضاً أنها كانت بمثابة صديق له، وامرأة تجيد الاعتناء به. ولكن لا أحد يعرف ما الذي حدث بينهما. وبوتين نفسه لم يخبر أحداً من أصدقائه. وليس هناك سوى تلميحات قد لا تكون ذات شأن من أحد الأصدقاء القدامى الذين عرفوا الطرفين، إذ يؤكد سيرجي رالدوغين، صديق بوتين القديم والعازف في أوركسترا مسرح «مارينسكي» في لينينغراد: «لم يخبرني بشيء. اكتفى بالقول إن علاقته بها انتهت. أعتقد شيئاً ما حدث. وحدث بينهما هما تحديداً»، «لقد كانت امرأة تجيد الاعتناء به. ولكن هل كانت تحبه؟ إن لودميلا، زوجته، تحبه فعلاً».

ما الذي كان يمكن أن تفعله تلك الحبيبة لتبرهن لبوتين على حبها له؟

هذا السؤال لا يجد إجابة واضحة، رغم أن هناك رواية يلمح إليها ضابط الاستخبارات الخارجية السابق سيرجي جوكوف، وتشير إلى أن الضابط المستجد في الـ«كي. جي. بي»، ذهب إلى خيار الزواج تحت ضغط رؤسائه، ولكنه اصطدم بموقف صعب. لم يكن رؤساؤه راضون عن الشخصية التي اختارها شريكة لحياته. وعلى ما يبدو أن المرأة لم تذهب إلى تنازلات تذلل تلك العقبات التي نشأت، فجأة، في طريق هذا الزواج؛ فاضطر بوتين، في النهاية، إلى اتخاذ ذلك القرار..

القرار الذي جعله يبدو، كما يقول، «كأسوأ نذل في الدنيا»!

الملفت أن هذا التفصيل في حياة بوتين، الذي يفترض أنه فقد قيمته وحساسيته بمرور الوقت، ما يزال لليوم يحاط بالتعتيم الشديد، ليس فقط على مستوى الأسماء، ولكن حتى على مستوى الأسباب والوقائع.

ومن الملفت كذلك، أن بوتين ليس وحده في التعتيم على هذا التفصيل. هناك على الأقل صاحبة الشأن، المرأة التي كانت ستصبح زوجته، لم تظهر، ولم تخدش هذا التعتيم بحرف. رغم أن العديدين خرجوا على مدار العشرين عاماً الماضية يتحدثون في الإعلام عن ذكرياتهم مع بوتين، وبعضهم كتب مذكراته في كتب!

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد..! بل أن جارة قديمة للشاب المراهق بوتين، كانت تستلطفه، دون أن يكون بينهما أي شيء يمكن أن يوحي بعلاقة جدية، لم تفوت الفرصة، وخرجت على الإعلام تروي قصتها الهزيلة بكلمات كبيرة!

إنها بلا شك قصة شخصية محزنة، ولكن التعتيم المبالغ به، يضفي عليها الغموض، ويثير كثيراً من الأسئلة، التي يفترض أنها يمكن أن تنتهي بجملة واحدة واضحة، لا تسيء لأحد، ولا تحرج أحداً. ولكن يبدو أن «الحقائق»

المتعلقة بهذه القضية، ما تزال قوية!

شيء كهذا يحصل، ليس لمجرد أن «الحقائق» عاندت العواطف. بل لأن أحد الأطراف اتخذ قراراً تنازل فيه لـ«الحقائق» على حساب العواطف. وحينما يكون هذا القرار مفيداً لطرف واحد، ومؤذياً للآخر، فإن الأمور لا تخلو من المعاناة، وتستقر بالنهاية على شكل انزعاج يخلخل انسجام هذا الطرف مع نفسه..

ومن الواضح أن لهذه القصة هذا التأثير على بوتين اليوم!

وكان لها في وقتها التأثير المتوقع عليه. وهذا ما يؤكده رالدوغين الذي يقول إن بوتين عاني لوقت طويل، وبقي متأثراً كثيراً بهذه الحادثة. ولم يكن الأمر سهلاً عليه. وأظهرت معاناته أنه شخص عاطفي جداً، ولكنه لم يكن يجيد التعبير عن عواطفه. كانت لديه عواطف قوية، ولم يكن قادراً على وضعها في سياق منضبط.

وبالطبع الآن، هو مختلف، بطبيعة الحال، لأن سنوات الخدمة تركت بصمتها عليه. فبات يتحدث ببراعة. قد يكون عاطفياً، فيلجأ إلى الاقتضاب، لكن يتحدث على نحو واضح.

وبهذه البراعة يتحدث عن الطريق التي سلكها إلى مهنته!

لقد انتظر طويلاً. انتظر كل تلك السنوات في الجامعة، صامتاً ولم يخبر أحداً عن خططه، على أمل أن يتذكره ذلك الرجل، الذي قابله في مكتب استقبال إدارة الـ«كي. جي. بي» في لينينغراد.

ولكن يبدو أنه نسيه تماماً.

أ خصائي بالتواصل

لقد مرت أربع سنوات على بوتين في الجامعة. أربع سنوات صمت فيها عن مخططاته، ورغبته في الانتساب إلى الـ«كي. جي. بي»، دون أن يتصل به أحد. ولم يكن بوسعه أن يتقدم بطلب للالتحاق بالخدمة هنا، فهو يتذكر زيارته لإدارة الجهاز الأمني حينما كان ما يزال تلميذاً في المدرسة، ويذكر قول الرجل له حينها بأن الـ«كي. جي. بي» لا تقبل من يبادرون من تلقاء أنفسهم..

ويتذكر كيف أنه، هو، تعمد على إثر ذلك أن لا يعطي معلومات عن نفسه!

وفي لحظة قرر أن الموضوع مغلق. انتهى. وبدأ يفكر في نفس الوقت باحتمالات العمل في واحد من مكانين: في النيابة العامة الخاصة (ما تزال إلى اليوم موجودة في قائمة المواقع الحساسة) وفي مهنة المحاماة.

هذه كانت مهن مرموقة.

ولكن في السنة الرابعة، ذاتها، تواصل معه «مجهول»، واقترح عليه أن يلتقيا. ورغم أن الرجل المجهول لم يصرّح بهويته، ولا قال من يمثل، إلا أن بوتين عرف فوراً من يكون في حقيقة الأمر. بدا ذلك مفهوماً من العبارات الغامضة، التي سمعها منه، في تبرير الدعوة إلى اللقاء. فقد قال له حينها: «الأمر يتعلق بخياراتك المستقبلية. أريد أن أتحدث معك حول هذا الموضوع، علماً أنني لا أحبذ الحديث عن وجهة محددة».

وهنا، لمعت الفكرة في رأس بوتين: طالما هو لا يحبّذ الحديث عن وجهة معينة، فهذا يعني بالضرورة تلك الوجهة بعينها. يتكتّمون بالعادة حينما يفكرون بالـ«كي. جي. بي»!

اتفقا على اللقاء مباشرة في الكلية، في البهو. جاء بوتين. انتظر حوالي عشرين دقيقة. وبدأ باستياء يهمس بغضب: الخنزير! ثم خطر له أن أحداً ما وضب له

مقلباً وخدعه؟ وهمّ بالانصراف، وإذ بالرجل يأتي راكضاً ويمسك به.

وقال بلهفة:

- عذراً، ولكن هذا أعجبني!

ثم نظر إلى ساعته، وأضاف:

- حسناً. ما يزال لدينا الكثير من الوقت. قل لي ما سيكون رأيك لو عرض عليك العمل في «الأجهزة»؟

حينها لم يشأ أن يقول له إنه منذ سنوات المدرسة يحلم بهذا الموضوع. ولم يقل له ذلك، لأنه كان ما زال يتذكر جيداً تلك المحادثة في مكتب استقبال إدارة الـ«كي. جي. بي»: «نحن لا نقبل المبادرين من تلقاء أنفسهم».

عندما وافق على عرض الرجل الذي قدّم نفسه لاحقاً كموظف في مكتب إدارة الموارد البشرية في إدارة الـ«كي. جي. بي»، كانت فكرته عن الـ«كي. جي. بي» مكونة من مجموعة من القصص الرومانسية عن عمل الاستخبارات. أي فكرة اعتبارها، على حد قول بوتين لاحقاً، «منتجاً ناجحاً للتربية الوطنية للإنسان السوفييتي».

بعد الحديث في بهو الكلية، تملكه الهدوء فجأة. ذهب الرجل. ولكن بقيت لجنة «التوزيع» التي تنسب الخريجين للعمل في المؤسسات المختلفة في البال. ثم لم يلبث أن تلقى دعوة أخرى. دعوة من إدارة شؤون الموظفين في الجامعة، واستدعي للحديث مع الموظف المسؤول، وأجرى معه أول محادثة عشية «التوزيع»، وبدا له أن ثمة شيء جرى ترتيبه مسبقاً له.

في اجتماع لجنة «التوزيع» مع الطلبة المقبلين على التخرج كادت تحدث خيبة أمل. حينما وصلت اللجنة عند اسمه، قال ممثل وزارة العدل: «نعم، سنأخذ نحن هذا للعمل في المحاماة».

لحظتها أفاق من غفلته ذلك الرجل الموكل بالاستقطاب لـ«الكي. جي. بي» فجأة، واعترض بحدة:

- لا. لا. لقد اتُّخذ القرار بموضوع بوتين. سنأخذه للعمل في الـ«كي. جي. بي».

قالها علناً وبصراحة أمام لجنة التوزيع.

كان ذلك الشخص نفسه، الذي قابل بوتين في بهو كلية الحقوق بجامعة لينينغراد، ديمتري غانتسيوروف، الذي كان يعمل حينها في الوحدة الخاصة في «كي. جي. بي» لينينغراد، ومن اختصاصات هذا القسم «الخدمة في المؤسسات التعليمية».

لقد سبقت مقابلته لبوتين استعدادات غير قليلة تضمّنت دراسة شاملة لشخصية المرشح للتجنيد، حيث كان يُرشّح عدد محدود جداً من بين مئات الطلبة، وكانت المقابلة الأولى هامة للغاية، فقد كانت الـ«كي. جي. بي» تحرص على التقرير بشأن الترشيح على ضوئها، ولن تكون هناك مقابلة أخرى إن لم تكن المقابلة الأولى حاسمة بهذا الشأن.

لاحقاً، قال غونتسيوروف: «لقد بدأت إجراء المقابلات مع بوتين في كانون الثاني 1974. لقد أعجبني كثيراً، وأقول هذا ليس لأنه الآن رئيس للبلاد. لا. بوتين كان حيوياً، نشيطاً، وجريئاً. والأمر الأساسي: كانت لديه مهارة إيجاد التواصل الضروري مع الأشخاص اللازمين بسرعة. وبدون هذه الميزة لا شيء يمكنك أن تفعله في الـ«كي. جي. بي»، وخصوصاً في مجال الاستخبارات».

تكرّرت المقابلات مع بوتين مرة أو مرتين في الشهر لدواعي متعددة. وكانت في الأثناء عملية إعداد له من عدة جوانب. وقُبل نهائياً في الـ«كي. جي. بي» في أذار 1975، حيث أُبلغ رسمياً بذلك حينها، وكان ذلك قبل تخرجه من الجامعة بأشهر عديدة.

لم يترك بوتين هذه المناسبة تمرُّ بصمت. واحتفل بها مع صديقه وزميله في

الدراسة بوريس بوريسينكو، الذي يروي هذه الحكاية، بالتفصيل..

كان في البيت. وفجأة جاء فولوديا، وقال:

- هيا بنا..

سأله:

- إلى أين؟

لم يُجب، ولم يوضح له شيئاً.

ركبا في سيارة بوتين، وانطلقا. توقفا عند مطعم «المطبخ القوقازي»، الذي كان يقع في ذلك الوقت بجانب «كاتدرائية كازانسكي»، فترجلا ودخلا المطعم.

كان بوريسينكو ما يزال لا يعرف ما الذي حصل. لقد كان الفضول ينتابه. كان يعرف أن شيئاً ما، مهماً للغاية، قد حصل في حياة بوتين، ولكن لم يعرف ماذا بالضبط. فسأله مجدداً. ولكن هذا لم يجبه، بل حتى لم يلمح له بالحقيقة ولو من بعيد.

بدا بوتين حينها مبتهجاً وسعيداً للغاية!

أمضى الصديقان وقتاً طيباً في المطعم. أكلا وشربا، وتحدثا كثيراً حول أشياء عديدة، ولكن بوتين بقي للنهاية عازفاً عن الحديث عن مناسبة تلك الجلسة. وحينما خرجا، دهش الصديق حينما فوجيء ببوتين يجلس وراء المقود ويتولى القيادة، وكان قبل ذلك اليوم لا يسمح لنفسه بقيادة السيارة تحت تأثير الشراب.

وفقط بعد وقت طويل من ذلك، عرف بوريس بوريسينكو أن مناسبة تلك الجلسة هي الاحتفال بقبول بوتين للعمل في الـ«كي. جي. بي».

وبعد بضعة أيام من تلك الجلسة، بدأ بوتين بتعبئة بعض الأوراق والنماذج.

بالطبع لم يقولوا له أنه سيعمل في الاستخبارات الخارجية. وهنا هو الأمر، لقد كان هذا هو المدخل الصحيح. قالوا له على وجه التقريب: «نحن نعرض عليك العمل في ذلك القطاع الذي سنرسلك إليه. هل أنت موافق؟». بعضهم كان يسأل: «أي قطاع؟»، وآخرون يجيبون: «أحتاج للتفكير بالأمر». الرد بالعادة: «انتهى، اذهب. التالي».. وتكون فرصة هذا الشخص قد انتهت. اذا بدأ بلي عنقه: أريد هذا ولا أريد ذاك، فإن هذا يعني أنه غير صالح للخدمة.

قلة من أصدقاء بوتين عرفوا أنه يعمل في الـ«كي. جي. بي». كان يقول للناس حينما يسألونه إنه يعمل مع الشرطة. والقلّة الذين يعرفون، يدركون تماماً أن عليهم أن لا يتحدثوا عن ذلك أبداً، وأنه لا يجدر سؤال بوتين نفسه عن عمله. ولكن سيرجي رالدوغين يتذكر أنه حاول ذات مرة.

سأله:

- أنا عازف تشيلّو، مهنتي العزف على التشيلّو. أعرف أنني لن أكون أبداً طبيباً جراحاً، لكنني عازف تشيلّو ماهر. وهذه هي مهنتي. ولكن أنت، ما هي مهنتك؟ أنا أعلم أنك في الاستخبارات، ولكن لا أعرف ما يعنيه ذلك.. من أنت، وماذا تفعل؟

رد بوتين، حينها بهدوء:

- أنا أخصائي في التواصل مع الناس.

وبهذه الكلمات انتهى الحديث. لقد كان يعتقد حقاً أنه مختص بالتواصل مع الناس، ويقول ذلك خصومه ومنتقدوه، ولكن هؤلاء يشيرون إلى أنه يستمرئ استغلال قدرته على التواصل في الحصول على معلومات لا يتورع عن استخدامها في ابتزازهم لاحقاً، وإن لم ينفع الابتزاز فإنه لا يتردد في استخدام ما في جعبته من معلومات ضدهم.

هذا الأسلوب برز، كما يقول منتقدوه، خلال قيادته لجهاز استخبارات «في.

إس. بي» في أواخر التسعينات، حيث جهد في بناء ملفات للخصوم السياسيين في الإدارة الروسية، ثم حرقهم عبر الإعلام. ومن أشهر ذلك قصة الفيديو الذي أذاعته محطات التلفزة حينها للنائب العام الروسي يوري سكوراتوف، يصوره في غرفة نوم بوضع فاضح مع بائعتي هوى. جاء ذلك، في لحظة ليست دون معنى أو صلة..

كانت روسيا حينها قد دخلت عهد الحكومات المتعاقبة والمتتالية؛ استقالت حكومة تشرنوميردين في نيسان، فعين يلتسين سيرغي كيرييِنكو رئيساً للوزراء بالوكالة، كان شاباً غير معروف، يبلغ من العمر خمسةً وثلاثين عاماً فقط.

وهكذا أضيفت إلى الهزّة، التي أحدثتها استقالة تشرنوميردين، هزّة جديدة، هي هذا التعيين!

وعلى نحو متوقع رفض الدوما منح الثقة لهذا التعيين مرّتين، ووافق عليه فقط في الثالثة، إذ كان الرئيس يملك حق حل المجلس في حال إصراره على مرشحه لرئاسة الحكومة.

الهزة الثالثة أحدثها رئيس الوزراء الجديد نفسه!

لقد جاء تشكيله لحكومته مفاجئاً للجميع، ليس في مجلس الدوما فقط، بل ولأوساط تلك المجموعة المتنفذة التي كانت تسمى «العائلة»؛ أجرى خفضاً حاداً جداً في عدد نواب رئيس الحكومة، كما ألغى منصب النائب الأول لرئيس الوزراء. وأبقى على ثلاثة نواب هم بوريس نيمتسوف، وأوليغ سيسوييف، وفيكتور خريستنكو.

وكانت هذه المناصب، مخصصة لأعضاء «العائلة»، ومنهم مثلاً نيمتسوف الذي فرض على يلتسين في وقت ما أن يكون نائباً أول، لا مجرد نائب لرئيس الحكومة!

المفاجآت لم تتوقف عند هذا الحد..

لقد اختار رئيس الوزراء الجديد، الذي لم تعرف له قوة مساندة، لشغل منصب وزير الصناعة والتجارة في حكومته أحد قيادات الحزب الشيوعي الروسي البارزين، الذي هو يوري ماسلينكوف..!

المفاجأة الرابعة كانت بسقوط هذه الحكومة بعد أربعة أشهر!

لقد قادت الإصلاحات الاقتصادية الليبرالية التي انتهجها إلى انهيار الأسواق المالية الروسية والعجز عن سداد الديون المحلية وانهيار السندات الحكومية قصيرة الأجل، ودخول البلاد في أزمة اقتصادية خانقة.

من الواضح بالطبع، أن الرجل اختار أعداءه منذ لحظة تشكيله لحكومته..!

لقد شكّل إلغاء تلك المناصب استعداء أقوى مجموعة موجودة في سلطة يلتسين، وهي تضم ابنته، ومن المتوقع أن تكون هذه المجموعة النافذة قد عملت على تلقينه الدرس الذي لن ينساه أبداً.. هنا بالذات برز دور النائب العام سكوراتوف!

لقد أثارت الأزمة التي أطاحت باقتصاد البلاد، وهزت المؤسسات المالية فيها، وابتلعت مدخرات المواطنين، هزّة كبيرة، وبات النائب العام مطالباً بفتح ملف الأزمة، والتحقيق فيها، لا سيما وأن المعطيات أشارت إلى متهمين ضالعين مباشرة.

وهكذا فعل النائب العام سكوراتوف!

بدأ تحقيقاته التي شملت نحو ثمانمائة من مسؤولي الدولة الكبار، من ذوي العلاقة أو ممن كان يشتبه باستخدام منصابهم الرسمية للتلاعب في السندات الحكومية قصيرة الأجل. وكان من بين المشتبه بهم الذين تمت تسميتهم رسمياً: عرّاب الإصلاحات الليبرالية أناتولي تشوبايس، ومجموعة من

«الإصلاحيين الشباب» من بينهم: نائب رئيس الوزراء فاليري سيروف، ووزير الخارجية حينها أندريه كوزيريف، ونائب وزير المالية أندريه فافيلوف، وكذلك ابنة يلتسين، تاتيانا دياتشينكو (يوماشيفا، حالياً) وغيرهم..

بعد شهرين من التحقيقات أمر النائب العام سكوراتوف بتحويل القضية إلى القضاء، والإدعاء على قائمة المتهمين ممن سلف ذكرهم بتهم إساءة استخدام منصابهم الرسمية في الإدارة الرئاسية، والفساد والرشوة (بملايين الدولارات) خلال منحهم وتنظيمهم لعقود إعادة إعمار كرملين موسكو (أو ما يعرف باسم «قضية مابتيكس»).

في شهر أبريل من العام التالي، أي بعد أقل من ستة أشهر، أقال يلتسين النائب العام بمرسوم منه، على أساس تأمين حيدة «التحقيق معه في دعوى جنائية مرفوعة ضده». وبالطبع، إقالة المدعي العام كان يتوجب أن تتضمن هذه العبارة، لأنها الحالة الوحيدة التي يجوز للرئيس فيها إقالته، طالما كان سليماً معافى نفسياً وعقلياً وجسدياً.

وكان يتوجب كذلك تبرير الإقالة بمواجهة الشعبية التي تحققت للنائب العام في الشارع بعد إقدامه على فتح تلك القضايا، واستيفاء الأساس القانوني لها، لكي لا يمكن الطعن فيها.. وكان بالأساس مطلوباً الانتقام منه، وتلقينه درساً لا ينساه!

بالطبع، رفعت دعوى جنائية ضد النائب العام بعد أن بثت قناة التلفزيون الحكومية، وكذلك بعض القنوات التلفزيونية الأجنبية، فيلماً وثائقياً قصيراً بعنوان «ثلاثة في السرير»، حيث «رجل يشبه النائب العام» يمارس الجنس مع فتاتين.

لوحظ أن المسؤولين الحكوميين ووسائل إعلامهم كان يحرصون على استخدام هذا الوصف بدقة: «رجل يشبه النائب العام»، ما فهم منه أنهم يحاولون أن لا يكونوا تحت طائلة المساءلة في قضية يعرفون أنها مفبركة.

نفى سكوراتوف نفسه أن يكون هو من ظهر في ذلك الفيلم. وفي الواقع، كان مستوى جودة الفيلم يجعل من المستحيل الجزم بأنه ذلك الشخص كان سكوراتوف نفسه. ولكن هنا تطوع بوتين، الذي كان يحقق في القضية، وقال إن التحريات تثبت أن الفيلم أصلي تماماً. وأن الشخص المعني هو سكوراتوف نفسه، ولا أحد غيره. علماً أن الفحصوصات التقنية لم تستطع تأكيد ذلك.

سكوراتوف اتهم بوتين، الذي كان يرأس الـ«في. إس. بي» حينها، بفبركة هذا الفيديو!

تكشفت في فترة لاحقة بعض الخيوط التي تشير إلى أن ذلك كان فيديو مفبركاً، كما تسربت معلومات تقول إن بوتين كان تعهّد بإيجاد وسيلة لضمان استقالة النائب العام سكوراتوف من منصبه.

وفي ذلك العام، وُجّهت أصابع الاتهام لبوتين، كذلك، في قضية مقتل الجنرال ليف روخلين الغامضة، وفبركة إدانة زوجته بالجريمة، التي جاءت بعد تردد الإشاعات حول تجهيز الجنرال المغدور لانقلاب عسكري ضد سلطة يلتسين، باستغلال الأوضاع المضطربة التي كانت تعيشها البلاد، وحالة السخط العامة، إضافة إلى تواجد عمال المناجم في موسكو باضراب مفتوح عن العمل.

وبالطبع، هذا النوع من «التواصل مع الناس» أسلوب الأجهزة، وليس أسلوباً شخصياً!

وبهذا المعنى، فإن «التواصل مع الناس» ليس مجرد قدرة «اتصالية»، بل مهارة في تطويعهم والسيطرة عليهم، وحملهم على فعل ما لا يرغبون في فعله. أو المهارة في تحييدهم.

وأهمية هذه الاتهامات، سواء صدقت أو لم تصدق، في هذا السياق، تأتي في الإشارة إلى حجم وضراوة الصراع على السلطة، والمستوى الذي بلغه تحالف الـ«في. اس. بي» مع مجموعة يلتسين، في ذلك الوقت.

لقد كان جهاز الـ«في. إس. بي» يوشك القبض على السلطة، ولم يكن ليسمح لأحد مهما كان إعاقة ذلك، أو اختطاف السلطة السائغة من بين يديه!

اللغز الخامس

أسرار المهنة

احتكاك مهني

تم إرسال بوتين في البداية للعمل في الإدارة الرئيسية في لينينغراد، ثم إلى قسم مكافحة التجسس، وعمل هناك لمدة خمسة أشهر. وبالطبع لم يكن كل شيء كما أراده أو تخيله. كان خريجاً جديداً، وكان عليه أن يمر ببعض التدريب، ويبدو أن ذلك تضمّن زجّه للعمل مع زملاء أكبر سناً، وأطول عمراً في العمل بال«كي. جي. بي»..

من المفهوم أن الهدف من ذلك هو منح المستجدين فرصة الاحتكاك مع الخبرات المتوفّرة في الجهاز، والتعرف على أساليب العمل، وإخراجه من جمود التراتبية العمودية التي تحد من فعالية العمل في هكذا مجال.

وهكذا، الحق بوتين للعمل مع مجموعة من زملائه الأقدم على واحدة من العمليات. كان أولئك الزملاء ممن أمضوا سنوات طويلة في الخدمة، وبعضهم كان على وشك التقاعد. وفي مستهل هذه التجربة، وفي الاجتماع الأول للمجموعة، يجد بوتين نفسه أمام نمط لا يتوافق مع تصوراته العامة..

كان الزملاء الأقدم يتعاملون مع العملية بشكل روتيني، على حد وصف بوتين نفسه. يبدو أنها بالنسبة لهم عمل يومي لم يعد يتطلب التفكير، لدرجة أن أحدهم حاول اختصار الاجتماع بكلمتين. سارع إلى تقديم ايجاز حول العملية وطبيعتها، ثم قال: «دعونا نفعل هذا وذاك. هل أنتم موافقون؟».

وبدا أن الجميع موافقون، وليس لديهم ما يضيفونه..

كان ذلك اعتيادياً بطريقة لم يتصورها المستجد بوتين. طريقة عمل تخلو من الإثارة التي تخيلها، ولا علاقة لها بكل تلك المهارة والدهاء، اللذين كانا يشدّانه في الأفلام والكتب التي تتحدث عن عالم الجاسوسية، الذي يسحره.

وكان واضحاً أن الزملاء الأقدم، يلجأون إلى سلطتهم وقدرتهم على تجاوز

القانون، بدلاً من التفكير بحلول يبرهنون بها على مهارتهم ودهائهم. فلم يملك إلا أن يعترض.

قال:

- لا. هذا ليس سليماً!

رنّت كلمات بوتين المستجد بقوة مفاجئة على مائدة الاجتماع، فاتجهت إليه الوجوه تعلوها إمارات الاستغراب. إنه مجرد مستجد، وها هو في أول اجتماع يحضره، يعترض على عمل زملائه الأقدم، ويطعن بسلامته.

قال الرجل صاحب الاقتراح باستهجان:

- ما هذا؟ ما الذي غير سليم هنا؟

لم يكن لدى بوتين في الرد سوى جملة واحدة:

- هذا مخالف للقانون!

فتساءل الرجل بدهشة:

- أي قانون؟

فذكر له بوتين القانون الذي عناه، فاندفع الزملاء المسنون يعترضون باستهجان:

- ولكن لدينا نظامنا الخاص!

عاد بوتين المستجد، يتحدث من جديد عن القانون. كان ذلك شيئاً بديهياً بالنسبة له، ليس لأنه متخرج للتو من كلية القانون بجامعة لينينغراد، ولكن لأن الـ«كي. جي. بي» نفسها كانت تنتسب لما يسمى بمؤسسات إنفاذ القانون.

ولدهشته، فإن فكرته أثارت في المجتمعين الرغبة في النقاش أكثر مما أثارت

العمليـة نفسـها. وكـانوا يتعـاملون علـى اعتبـار أن القانون دخيـل على عملهم، يحكم الحياة المدنية، ولا علاقة له بهم وبأنشطتهم. فكانوا يعودون للحديث عن نظامهم الخاص. بينما كان بوتين يكرر بإلحاح:

- ولكن هذا مجرد نظام، وليس القانون نفسه!

وفي المحصلة، كان عليه أن يقبل بالفكرة التي أوجزها له محدثه:

- بالنسبة لنا، نظامنا الخاص هو الأهم!

سيتميز بوتين بعد ذلك، باحترامه الشكلي للقانون، أي، سيفعل ما يريد، وما يطلب منه بالضبط، ولكن بعد تكييفه قانونياً. وسيجد دائماً حلاً قانونياً، للقيام بشيء غير قانوني. وهو عموماً، هنا، ينسجم مع الفكرة الشعبية الروسية القائلة بأن القانون وجد لكي يُخرق. وبالطبع، يمكن خـرق القانون بتجاهله، ويمكن خرقه بالتحايل عليه.. وهذا هو المقصود..!

عدة أشهر مضت على نحو شكلي بينما بوتين يتابع بعض القضايا والعمليات مع زملائه الأقدم. وبعد نحو نصف عام أُرسل للدراسة لمدة ستة أشهر، لتأهيله للعمل في «العمليات». كان ذلك في مدرسة استخبارات عادية في لينينغراد. لقد اعتبـر رؤسـاؤه أن لديه أساساً مهنياً جيداً، ولكنه بحاجة لتدريب عملي بحت.

درس هناك. اجتاز الدورة، وعاد للعمل في لينينغراد وأماكن أخرى نحو نصف عـام، في «وحـدة مكافحـة التجسس». ومن هنا، سيبدأ بوتين بالدخول إلى المجال الحيوي لـ«عصبية» الـ«كي. جي. بي» داخل الدولة، وبمواجهة الحزب.

كان ذلك في نهاية السبعينات. في تلك الفترة التي تُعرف اليوم بمرحلة انقلاب ليونيـد بـريجنيف علـى الـ«كي. جـي. بـي»، وشـروعه بتضييق الخناق عليها، ومحاولة تقييدها، وضبط نشاطها الداخلي، بل ومحاولة نزع الشؤون الداخلية من اختصاصاتها وتحويلها كاختصاص حصري لوزارة الداخلية..

وهذه السياسة كانت ستجعل نشاط الـ«كي. جي. بي» قاصراً، عملياً، على التجسس ومكافحة التجسس والمعلومات، في حين كانت لدى الـ«كي. جي. بي»، في تلك الفترة، اختصاصات داخلية كثيرة وكبيرة، وجاء ذلك ردّة طبيعية على عهد خرتشوف، الذي أعاد تنظيم الـ«كي. جي. بي» بطريقة اعتقد أنه يمكنه الاطمئنان إليها..

أقال خروتشوف في العام 1961 شيليبين من رئاسة الـ«كي. جي. بي»، وعين مكانه سيميتشاستني، ولم يطل الأمر بخرتشوف نفسه؛ اجتمعت اللجنة المركزية للحزب في تشرين الأول عام 1964، في غياب خروتشوف، الذي كان في إجازة، فأقالته من مناصبه الحزبية والحكومية «لأسباب صحيّة». وكانت الـ«كي. جي. بي»، برئاسة سيميتشاستني، ضامنة لسلامة هذا التحرك..!

الطريف أن هذه الطريقة تُذكّر بتمرد آب 1991 الفاشل، ضد غورباتشوف!

وتدعو إلى الإشارة بأن هذا الأخير، غورباتشوف، لم يكن أول من ابتدع تعبير «البيروسترويكا» في الإشارة إلى إصلاحاته السياسية؛ فقد سبقه إلى ذلك خروتشوف، الذي استخدم هذه المفردة ذاتها في وقت ما في الإشارة إلى سياسته.

وهنا، يقتضي التوضيح بعض التفصيل في الحديث..

في عام 1967، تولى الـ«كي. جي. بي» مديرها الأسطوري يوري أندروبوف، أعاد بناء الجهاز وفق معطيات معينة مستنبطة من تجربته المهنية الخاصة، ومنها على سبيل المثال:

- تجربته الخاصة مع أحداث بودابست 1956 (كان حينها سفيراً هناك)، وهي التجربة التي سيستدعيها في العام التالي خلال إدارته ويطبّقها مع أحداث تشيكوسلوفاكيا، أو ما سمي بـ«ربيع براغ»، التي واجهتها الـ«كي. جي. بي»، بما يسمى بخطة «عملية الدانوب».

- تجربة انفلات القيادة الحزبية (خروتشوف) وضعف الهياكل الحزبية مقابل قوة منصب «الأمين العام»، وهو الظرف الذي أتاح لخرتشوف انتهاج سياسة ارتجالية، أحدثت هزات في الهياكل الحزبية، وفي بنية الدولة، وخلخلت أساسات العلاقة بين الدولة والمجتمع.

- أثر التحولات الداخلية، والهزات التي شهدتها الخمسينات والستينات على السياسة الخارجية (سيعتبر بريجينيف لاحقاً أن مهمته الأساسية هي المفاوضات مع الولايات المتحدة على السلاح، وسيتبنى ما يسمّى سياسة التعايش السلمي بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، وسيعتقد أنه قادر على تحقيق هذا التعايش).

- الشعور القوي بأن التهديد الخارجي أصبح له أساس واقعي في الداخل، لذا بادر على الفور بإنشاء الإدارة الرئيسية الخامسة، التي زاولت تحديداً أصحاب التوجهات الفكرية المغايرة. أي، من عرفوا لاحقاً بالمنشقين!

وهذه التجارب ستقوده إلى فكرة أن الـ«كي. جي. بي» يجب أن تبسط سيطرتها على الحزب والدولة، وأن تتولى بنفسها السيطرة على المجتمع، وأن تكون طرفاً وازناً في رسم السياسة الخارجية.

وهكذا، في نهاية السبعينات بدأ بريجنيف يشعر بالحصار. كان الحزب، الذي هو أمينه العام، ينظر إلى رجل الـ«كي. جي. بي» القوي، يوري أندروبوف، عضو المكتب السياسي، كخليفة مرجّح باحتمالية كبيرة، إضافة إلى أن الهياكل الحزبية تضمنت هياكل أمنية تتبع لجهازه. وهكذا لم يكن «الأمين العام» يشعر أنه مطلق اليد..

وكانت الخارجية، التي يترأسها أندريه غروميكو، تجد العون والمساندة من الـ«كي. جي. بي»، وتجد نفسها أكثر انسجاماً معها منها مع بريجينيف وقيادة الحزب.

وفي الحياة العامة، وفي المجتمع وهياكله، كانت الـ«كي. جي. بي» تتمتع باليد الطولى، بالقدرة على السيطرة والتأثير. وكانت السلطة إلى اسم آخر يشير إلى هذا الجهاز.. وبدا للأمين العام أنه يتوجب عليه مقاومة هذا الحال..

بدأ بريجنيف حينها بأفكار عامة حول الفعالية والأداء، وصولاً إلى الاختصاصات. وبدا أن الشؤون الداخلية هي أمر «محلي»، لا يجب أن يكون من اختصاص الـ«كي. جي. بي». وهنا، برزت أهمية وزارة الداخلية التي يمكنها أن تتعامل مع المهمات والواجبات «المحلية» التي يمكن أن تقوم بها الـ«كي. جي. بي».

وهنا بدأ صراع الـ«كي. جي. بي» ووزارة الداخلية، أو ما سمي بـ«شولكوف ضد أندروبوف»!

بدأت حينها وزارة الداخلية تروّج لنفسها باستخدام الإعلام وبتجنيد المثقفين والإعلاميين باعتبارها قوة إنفاذ قانون مدنية، مقابل إبراز صورة الـ«كي. جي. بي» القمعية، التي تتجاوز على القانون وعلى الحياة المدنية.

كانت تلك حملة علاقات عامة هائلة، يظهر فيها وزير الداخلية شولكوف في المسارح وبين الفنانين، وينظم صالونات فكرية يحضرها مثقّفون معارضون، مع كل الاستعراض اللازم الذي ينقل وبجواره بالضرورة خبر عن إجراء قمعي قام به عناصر الـ«كي. جي. بي».

ووصلت المواجهة بين الجهازين إلى ذروتها مع جريمة «محطة مترو جدانوف» (اسمها اليوم «فيخينو»)، التي أقدم فيها ضباط من الشرطة على ضرب أحد ضباط الـ«كي. جي. بي» حتى الموت!

ذلك كان صراع أجهزة بأشد ما يكون..!

لاحقاً، يصبح يوري أندروبوف أميناً عاماً أول، وأول ما يفعله هو فتح ملفات متعلقة بغريمه وزير الداخلية نيكولاي شولكوف، الأمر الذي ينتهي بانتحار

الوزير المقال.

وبالمناسبة، الفساد كان وقتها كلمة كبيرة، ولكنها لم تعن أكثر من الاستفادة من شقة إضافية، أو كما في حالة شولكوف الحصول على سيارة مرسيدس أو اثنتين!

ليس في الموضوع مليارات ولا ملايين، ولا شركات واستثمارات!

علاقات موروثة

تـأثير العلاقات المتوترة والثارات بين الـ«كي. جي. بي» ووزارة الداخلية لن يترجم فقط في المشهد السياسي، بل سيجد طريقه للعب دور حاسم في تعزيز «عصبية» الـ«كي. جي. بـي»، التـي ستعمل علـى نحو دراماتيكي لاحقاً عى استبعاد الخليفة الذي اختاره يلتسين ستيباشين، وهو محسوب على الشرطة، أي وزارة الداخلية، ووضع فلاديمير بوتين مكانه في اللحظة الأخيرة.

من هنا كان اهتمام بوتين بالقانون..!

لقد كان هذا الصراع أول تجربة كبيرة يعيش في ظلها. وكان لها تأثيرها عليه، لا سيما مع ملاحظته كيف برعت وزارة الداخلية في خوض حملة علاقاتها العامة، في إبراز نفسها كقوة إنفاذ قانون مدنيّة، مقابل تسويد صفحة الـ«كي. جي. بي».

لا حقاً، في أواخر التسعينات سيتجدد هذا الصراع، ولكنه سيدور بين الـ«في. إس. بـي»، وريث الـ«كي. جي. بي»، والجيش. وسيكون موضوع الصراع هو السلطة، وخلافة يلتسين.

بالطبع بوتين السياسي، الذي يقف على رأس الدولة اليوم بما في ذلك الأجهزة العسكرية والأمنية، يمر على هذه المرحلة مروراً عابراً، بل ويقلّل من أهميتها. وحينما يريد الدفاع عن الـ«كي. جي. بي»، يلجأ إلى الحديث عن وكالات إنفاذ القانون بشكل عام.

وعموماً، فإن دفاعه يوضح الموقف الصعب الذي كانت فيه الـ«كي. جي. بي» في تلك الفترة. يوضح بوتين:

- «في الواقع، الكثير من الأمور التي أصبحت وكالات إنفاذ القانون تسمح لنفسها بها منذ بداية التسعينات، كانت مستحيلة تماماً في ذلك الوقت (العهد

السوفييتي). كانت الأجهزة تتصرف بحذر شديد للغاية».

ويعطي مثالاً على ذلك «الحذر الشديد»، فيروي حادثة حول مجموعة من المنشقين في لينينغراد قرّروا القيام بفعالية ما. إحياء ذكرى الديسمبريين أو ذكرى بطرس الأكبر على الأغلب. وهذه من المناسبات التي كان المعارضون، بالعادة، يوقتون أنشطتهم عليها. وبطبيعة الحال كانوا يوجهون مسبقاً الدعوات لحضور تلك الفعالية إلى أعضاء السلك الدبلوماسي والصحفيين للفت أنظار العالم.

وبطبيعة الحال تكون لدى الـ«كي. جي. بي» المعلومات الكاملة حول الفعالية ومنظميها. ولكن لا يكون مسموحاً اعتقال المنظِّمين، ولا التعرض للمشاركين. وبالأصل، لا يسمح لها بفض الفعالية.

بل هذا أصبح، وقتها، خارج نطاق صلاحيات الـ«كي. جي. بي»!

وبهذا، لا يبقى من سبيل إلا الدخول في المنافسة مع المنظمين، حيث يمكن التغلب عليهم بالقدرات التنظيمية. لذا، يكون على الـ«كي. جي. بي»، أن تتولى بنفسها تنظيم تلك الفعالية، في المكان المحدد نفسه، الذي من المفترض أن يأتي إليه الصحفيون. وتُدعى اللجنة الحزبية الإقليمية، والنقابات العمالية، للمشاركة.. وتؤمن الشرطة الحماية اللازمة للمكان، وتصدح الموسيقى!

يقف الصحفيون وممثلو السلك الدبلوماسي ينظرون، يشاهدون لبعض الوقت. وما أن يروا أن الفعالية تحظى برعاية رسمية، ولها طابع شبه رسمي، حتى تنتابهم خيبة الأمل: ليس إلى ذلك تمت دعوتهم، فإما أنهم خدعوا وتم استدراجهم إلى فعالية رسمية، من قبل السلطات، أو من قبل المنشقين الذين يحاولون تجيير الفعاليات الرسمية لأنفسهم..

وإما أن هؤلاء المعارضين واهمون يعارضون السلطات متخذين مواقف لا تثير إلا رضاها..!

وبالنتيجـة، يتـرك ممثلو السلك الدبلوماسي والصحفيون الأجانب المكان ويذهبون. وحينما يذهبون، تُزال الحواجز، وينفض الجمع. وليتفضل من يريد أن يحيي الذكرى على طريقته، فليفعل. ولكن حينها، بعد أن يذهب الصحفيون وأعضاء السلك الدبلوماسي، لا يعود أحد مهتماً بإحياء المناسبة.

ويجزم بوتين:

- نعم، «لقد كان الاتحاد السوفييتي دولة توليتارية..».

ويضيف:

- «ولكن لم يكن من المسموح فيها للأجهزة الأمنية استعراض القوة والتصرف بفجاجة. كان هذا شيئاً غير مقبول، وغير مسموح به. لم تكن الأمور تجري بفجاجة كما نراها اليوم».

وتقوده تأملاته حول الحياة المعاصرة، لا سيما في عقد التسعينات فيلاحظ:

- «ما يميز الحياة اليوم هو غياب الهارمونيا!».

ويخلص إلى أن المشكلة مع الحياة تلك الأيام، ليس في أن المرء يحب أو يكره ما يشاهده، وليس في أن السلطة متعارضة مع المجتمع، وليس أن المجتمع يعج بالنزعات المتناقضة، لا، بل في غياب الهارمونيا، وفي أن كلّ ما يجري لم يؤدِّ وظيفة ما محددة سلفاً، واعية. وإن ما كان يجري لم يكن ليصل إلى نتيجة محددة، إذ لا وجود لنتيجة مبتغاة، والإرادات القائمة تدفع باتجاه الأحداث وتصنعها عشوائياً. أي، إنه مجرد ضجيج، لا ينتج موسيقى..

لـم تأت تشبيهات بوتين الموسيقية مصادفة. كان يذهب، أحياناً، بعد العمل لحضـور حفلات موسيقية. كان يذهب برفقة صديقه العازف في أوركسترا مسرح «مارينسكي»، سيرجي رالدوغين، الذي كان قد سأله مرة كيف يمكن الاستماع بشكل صحيح للموسيقى السمفونية. وكان فضوله يقوده لمحاولة

فهم سيمفونية شوستاكوفيتش الخامسة..

كيف يمكن أن يستخلص من كل تلك الأصوات التي تبدو متنافرة سيمفونية ما!

وبالطبع، لم يكن من الصعب على موسيقي شرح الموسيقى لإنسان مهتم. لإنسان يرى أن التواصل هو جوهر مهنته. مهنته التي تقوم على جمع المعلومات وفرزها وتحليلها، ثم معرفة الوجهة التي يمكن استخدامها بها. وإذا اضطر بوتين اليوم للحديث عن سيمفونية شوستاكوفيتش الخامسة، فإنه سيتحدث بقدر كبير من التفصيل حولها، ويقود محادثيه إلى الدخول في عالمها.

لقد أعجبته هذه السيمفونية كثيراً، حينما سمعها..!

لقد كانت تشبه شيئاً يشغله، ويحاول فهمه، وحينما أراد فهمها، دخل إلى عالمها بنفسه، ترافقة شروحات صديقه الموسيقي. لقد سلم قياده له، فوجد نفسه قادراً على جمع كل تلك الجمل الموسيقية في موضوع واحد، بمتعة من يجمع تفاصيل أحجية..

كان يسأل بصراحة:

- هنا دخل العازفون على الكمان، لماذا يا مايسترو؟

يشرح له رالدوغين بأكبر قدر من البساطة:

- انظر، طالما الموسيقى تشدو، تكون هذه هي الحياة السلمية، وبناء الشيوعية.

انظر كيف: تاتي. بابا، والآن نبدأ بسماع جملة فاشية آتية من بعيد. انظر: ها هي.. هناك النحاسيات بدأت تعزف. ها هي الآلات النحاسية تعزف. أتسمع؟ سوف ينمو هذا الموضوع الآن، وها هي تلك التي كانت في البداية، حيث الحياة سلمية، وهما الآن ستتواجهان، هنا، هنا، هنا وهنا.

كان يعجبه ذلك الشرح كثيراً.

الرفيق بولاتوف

يُجمِع عارفو بوتين أنه يتمتع بشخصية قوية جداً. لا يكفي أن تكون أفضل منه حتى تتغلب عليه. إنه عنيد ومثابر، ومهما كنت أفضل منه، ستظلُّ معرضاً للخسارة أمامه، لأنه «عنيد مثل كلب حراسة»، سيضغط إلى النهاية، لديه شخصية صلبة على نحو مذهل، وتتجلى في كل شيء.

وهذه المثابرة، وهذا العناد، قاداه إلى الـ«كي. جي. بي»، وداخلها!

عمل بوتين لمدة ستة أشهر في قسم مكافحة التجسس، وعلى ما يبدو أنه أثار اهتمام موظفي الاستخبارات الخارجية. بدأوا بالحديث معه. محادثة أولى، ثم ثانية، وثالثة وتالية.. كانت الاستخبارات الخارجية تبحث باستمرار عن كوادر جديدة، بما في ذلك من بين مرتّبات ضباط المخابرات.

كانوا يختارون الشباب المناسبين لبعض المهمات.

بالطبع، كان يريد الالتحاق بالاستخبارات الخارجية. كان أعضاء الاستخبارات الخارجية يُعتبرون في الـ«كي. جي. بي» من ذوي الياقات البيضاء في الأجهزة. أي، نخبة النخبة. وكان الكثيرون يبذلون ما في وسعهم ويحاولون توظيف علاقاتهم للانتقال للخدمة فيها. هذه حقيقة، فالخدمة هناك كانت تعني السفر إلى الخارج، مع كل الامتيازات، وفي الداخل كانت المكانة المرموقة أكثر من مغرية.

بطبيعة الحال، وافق بوتين، لأن في هذه المهنة كانت كل تلك المتع التي حلم بها، وكان هذا الجانب من العمل الأمني هو ما قاده إلى العمل في الـ«كي. جي. بي». أرسلوه بسرعة إلى موسكو لاجتياز دورة تدريب خاصة. مكث هناك لمدة عام، ثم عاد من جديد إلى لينينغراد، وعمل هناك في الدائرة الأولى. كانت هذه مديرية الاستخبارات الخارجية، وكانت لها فروع في المدن السوفيتية الكبيرة، بما في ذلك لينينغراد. هناك عمل حوالي أربعة سنوات ونصف، ثم مرة أخرى

ذهب إلى موسكو للدراسة في مدرسة الاستخبارات العليا، لاحقاً «معهد الراية الحمراء الذي يحمل اسم يوري أندروبوف» (ومنذ 1994، أكاديمية الاستخبارات الخارجية).

وحول هذه الدروة لمدة عام في موسكو، هناك حديث آخر..

يفترض أن الدورة بدأت أواخر صيف عام 1979 وانتهت في أواخر صيف عام 1980، الذي شهدت فيه موسكو حدثاً رياضياً دولياً: «أولمبياد موسكو». وهذا الحدث كان مهماً في حياة شخصيات أواخر عهد جورباتشوف، الذين صعدوا مع يلتسين، وتشكلت منهم نخبة السلطة والمجموعة الأوليغارشية التي أحاطت بهم..

ويقال أن بوتين كان واحداً من هذه المجموعة، التي ولدت في كواليس «الألمبياد»!

الأمر في أن مؤرخي الاستخبارات والـ«كي. جي. بي» يجزمون أنه خلال وجوده في تلك المدرسة زاول نشاطه الاستخباراتي العملي في نطاق التحضير والمواكبة الأمنية لـ«أولمبياد موسكو».

رغم ذلك، لا مؤشرات على هذا في الأحاديث حول تلك المرحلة..

حينما وصل فلاديمير بوتين من «كي. جي. بي» لينينغراد، وكان برتبة رائد، والتحق بمدرسة الاستخبارات العليا، ووُزِّع للدراسة تحت إشراف ميخائيل فرولوف، الذي قرّر حينها على الفور النظر إلى تلميذه باعتباره تلميذاً مرشحاً لرئاسة قسم.

ورئاسة قسم في معهد الراية الحمراء ليست مجرد مهمة روتينية!

إنها وظيفة تتحكم بالكثير من الأشياء. هنا نحتاج إلى المهارات التنظيمية، وإلى درجة معينة من اللباقة والكفاءة. وبدا أن هذا كله متوفر في شخص

بوتين. لقد درس بسلاسة، ودون انقطاع، ولم تكن هناك مخالفات أو نقائص، كما لم يكن هناك أي سبب للشك في صدقه وإخلاصه.

يتذكر ميخائيل فرولوف أن بوتين جاء يقدّم له تقريراً، وكان يرتدي بدلة من ثلاث قطع، على الرغم من أن الحرارة في الشارع وصلت إلى 30 درجة. وكان فرلوف نفسه جالساً في قميص بأكمام قصيرة.

لقد كان بوتين من جهته يعتبر أن من الضروري أن يظهر أمام قيادته بمظهر رسمي تام. ولكن هذا الاهتمام لم يضع سدى. لقد أضحى مثالاً يشير به فرلوف إلى الآخرين:

- انظروا إلى الرفيق بولاتوف!

هناك لم يكن من المتعارف عليه التعامل بالأسماء الحقيقية. لهذا لم يكن اسم بوتين هو بوتين، بل بولاتوف. كقاعدة عامة، كان الحرف الأول من الأسم يعتمد مع تغيير الباقي. فرلوف نفسه، عندما كنت تلميذاً يدرس في الاستخبارات، كانوا يسمونه فيلامونوف، بدلاً من فرلوف.

في معهد الراية الحمراء لم يكونوا يعلّمون قواعد الاستخبارات ومكافحة التجسس، فقط. كان نصيب الأسد من العمل ينصبُّ على دراسة واختبار التلميذ نفسه، تحديد مستوى كفاءته المهنية، وصفاته الشخصية. كان مطلوباً من الهيئة التدريسية تحديد ما إذا كان الطالب في نهاية المطاف مناسب للاستخدام في الاستخبارات الخارجية أم لا.

التعليم في المعهد كان نوعاً من ميدان للاختبار. كان فرولوف، على سبيل المثال، يُدرّس فن الاستخبارات، وكان يرى في فن الاستخبارات القدرة على التواصل مع الناس، والقدرة على اختيار الأشخاص المناسبين، والقدرة على طرح القضايا التي تهمُّ البلاد والقيادة السياسية. القدرة على تحديد التفاصيل الجوهرية من عداها، الانتباه إلى العوامل الهامشية التي يمكن أن تكون حاسمة

في حياة شخص أو في مسار قضية، والقدرة على أن تكون طبيباً نفسانياً، إن لزم الأمر، كما يقول!

لذلك، كان يتطلب الأمر دراسة الطلبة واحداً واحداً، كلٌّ على حده، وبالتفصيل، وبما فيه الكفاية لمعرفتهم تماماً بشكل كامل، ومن كل الزوايا. وفي نهاية الدراسة كان يُقرّ تقييم شامل يتضمن كل الصفات والخصائص والعادات السلوكية والمهارات والقدرات الخاصة بكل خريج.

وكان هذا التقييم يحدد مصير الخريج نهائياً!

كان يُطلب من المعلمين جميعهم، بدءاً من قسم مكافحة التجسس وانتهاء بقسم التربية البدنية، وضع تقييماتهم الخاصة على تقييم المتدربين. ثم يُرسل كل ذلك لرئيس قسم التدريب، الذي عليه أن يجمع كل تلك التقييمات معاً: ملاحظاته الخاصة مع تقييمات المدربين وملاحظات هؤلاء المعلمين، ويكتب، على أساسها تقييماً مفصلاً.

كان ذلك قدراً ضخماً من العمل الدقيق، الذي يتجمّع في كمية كبيرة من الوثائق. ولكنه من حيث الحجم يُختزل في النهاية إلى أربع صفحات مطبوعة فقط، عن كل خريج. وكان كل شيء يُدرس بعناية: الصفات الشخصية والمهنية. وكان المكلفون بإعداد التقييمات النهائية من الهيئة التدريسية يغلقون على أنفسهم لمدة أسبوع أو اثنين، وينخرطون في العمل: يكتبون ويكتبون.. وفي نهاية التقييم، يضعون إجابتهم على السؤال حول ملاءمة أو عدم ملاءمة الخريج للعمل في الاستخبارات.

يتذكر فرولوف حادثة ذات دلالة.

كان لديه طالب استطاع القيام بالمهمات العملياتية التي وضعت له. كان بارعاً على نحو ملحوظ. وأحياناً كان يتكون لدى معلميه انطباع بأنه يعرف الحل مسبقاً، وكان عقله التحليلي الممتاز يمكّنه من إيجاد حلول رائعة، غير متوقعة،

مذهلة في مستواها العملي.

وكان جديراً بتقييم رائع!

كانت قدرته على حل المشاكل العملياتية تؤهله لمغادرة المعهد مرفوع الرأس، واثقاً بجدارته، مطمئناً إلى مستقبله. ولكن القدرة على حل المشاكل العملياتية لم تكن أولوية.

هي لوحدها لا تساوي شيئاً..!

أُعدّ تقييم خاص بهذا الطالب في نهاية تدريبه، وحال ذلك التقييم بالذات دون عمله في الاستخبارات، علماً أن التقرير لم يجحف في تقدير قدراته، ولكنه لفت الانتباه إلى صفاته الشخصية.

ببساطة: الوصولية وعدم إخلاصه لرفاقه!

كان التقييم، بالنسبة لهذا الطالب، حينما قرأه مثل الصاعقة في سماء صافية؛ على الرغم من أنه كان في العموم إيجابياً، بل ويتضمن إشادة بقدراته، إلا أنه أغلق أمامه طريق العمل في الاستخبارات.

في الواقع، لا يحتاج ضابط الاستخبارات جلّ ما يتعلمه من مهارات في حياته العملية، كما يؤكد مؤرخو ودارسو الـ«كي. جي. بي»؛ ولكن يُحرص على إجادته التامة لها، ليس فقط ليستخدمها إن طرأت لها حاجة، بل لأن هذا الحجم من المهارات والمعارف هو ما يصنع شخصية ضابط الاستخبارات، وما يجعل من اتقانه للمهارات الضرورية التي يحتاجها على نحو يومي أكثر يسراً وسهولة بالنسبة له.

والأسوأ من ذلك أن المهارات العالية، في وجود خصائل معيبة في شخصية ضابط المخابرات، تصبح بلا قيمة؛ يمكن تخيل ما الذي يمكن أن يحدث عندما يصل إلى الإدارات مثل هذا الضابط. سيخلق بشخصه وصفاته بيئة متوترة

وضارة لا تسمح بالعمل بشكل طبيعي.

لذلك، لم يكن من الممكن أن يساعده التقييم!

هذه حالة تناقض شخصية فلاديمير بوتين، الذي لديه بعض الصفات السلبية الأخرى، التي تضمّنها تقييمه، ومنها أنه «يبدو إنساناً متحفظاً وصموتاً بعض الشيء ما يثير سؤالاً حول استعداده للعمل الجماعي»، و«إن كان إدراكه لأهمية التشارك بالمعلومات بقدر وعيه بأهمية حجبها».

ولكن غفر له أن هذه الصفة، سلبية في مكان، وإيجابية في مكان آخر!

ويذكر تقييمه غير هذه من الجوانب السلبية، حيث يشير إلى أنه «يتصف بميول أكاديمية، يمكنها أن تؤثر على نشاطه ومستوى أدائه مع عدم السيطرة على نزوعه للاحتكام إلى ما درسة بدرجة زائدة. لكنه ليس جافاً، ولا مستغرقاً، ولا جامداً»، لا. بل إنه «عملي، وذكي، ولامع».

كان مصير كل طالب يدرس في المعهد يتحدد بمثل هذه التقييمات، كما كان يتحدد مستقبل الخريجين بنتيجة المناقشة مع لجنة تخريج عالية المستوى، كانت تستدعي الخريجين، وبعد قراءة تقييمهم، تقرر له في أي وحدة من وحدات الـ«كي. جي. بي» عليهم أن يعملوا. وهذا ما حصل مع فلاديمير بوتين.

قررت اللجنة إلحاقه بممثلية الـ«كي. جي. بي»، في ألمانيا الشرقية.

كان بوتين قد أدرك منذ بداية دراسته في معهد الراية الحمراء أنهم يُعدّونه للعمل في ألمانيا. لأنهم تشددوا معه في جانب اتقان اللغة الألمانية. وكان السؤال الوحيد المتبقي لديه هو: لأي ألمانيا يعدونه؟ الشرقية أم الغربية، وماذا سيفعل هناك؟

من أجل السفر إلى ألمانيا، كان من الضروري العمل في الدائرة المختصة في الإدارة المركزية. سنة ونصف، أو سنتين، أو ربما ثلاث سنوات.. حسب كل

شخص، وكل حالة. وكان هناك خيار ثان: السفر على الفور إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

قرر أنه من الأفضل أن يذهب فوراً.

اللغز السادس

الأسرار ا لعائلية

علاقة عاطفية

كان بوتين يعمل في الدائرة الأولى في الـ«كي. جي. بي» بلينينغراد، حينما اتصل به، ذات مرة، أحد أصدقائه، ودعاه إلى مسرح أركادي رايكين. قال إن لديه تذاكر، وإن ثمة فتيات سيحضرن برفقتهما. ولبّى بوتين الدعوة.

وكانت هناك بالفعل، فتاتان.

وجد نفسه مهتماً بالفكرة، وكان معنياً بتكرارها؛ فاصطحب الفتاتين في اليوم التالي إلى المسرح من جديد، برفقة صديق آخر. وتدبر التذاكر بنفسه هذه المرة. وكذلك في اليوم الثالث.

واحدة من هاتين الفتاتين كانت زوجة المستقبل!

استمر بوتين ولودميلا يتواعدان لفترة طويلة، ثلاث سنوات تقريباً. كان عمره حينها 29 عاماً، وكان اعتاد التخطيط لكل شيء؛ وكان قد فهم أنه إذا لم يتزوج خلال عامين أو ثلاثة، فإنه لن يتزوج أبداً. هذا على الرغم من أنه اعتاد بالفعل حياة العزوبية.

ولكن لودميلا وضعت حداً لذلك.

كانت لودميلا ألكسندروفنا شكريبنوفا (لاحقاً، بوتينا) تقيم في كالينينغراد، وتعمل مضيفة على متن الرحلات الداخلية على طائرات الخطوط الجوية السوفيتية «ايرفلوت». وفي ذلك الوقت، لم تكن هناك رحلات دولية من مطارات كالينينغراد، لأن هذه كانت مدينة سوفيتية مغلقة.

وكان فريق «إيرفلوت» العامل بكالينينغراد يتكون من عدد محدود.

وصلت لودميلا ألكسندروفنا إلى لينينغراد مع صديقة تعمل مضيفة معها على نفس الخطوط الجوية، في زيارة خاصة مدتها ثلاثة أيام. وخلال وجودهما في

المدينة، دعت الصديقة لودميلا إلى مسرح مجلس المدينة لحضور عرض فنان الكوميدي أركادي رايكين. وكانت هي بدورها، مدعّوة من قبل أحد أصدقائها. لم تكن تريد الذهاب وحيدة فدعتها، وهذا الصديق عرف أنها ستحضر فدعا صديقه بوتين!

وصل الثلاثة، لودميلا وصديقتها وصديق صديقتها، إلى شارع نيفسكي. هناك كان يقع شباك التذاكر، بالقرب من مبنى مجلس الدوما، ووجدوا بوتين في انتظارهم، واقفاً على درجات سلم شباك التذاكر، وكان يرتدي ملابس متواضعة جداً، بل وتؤشر على ضيق ذات اليد.

كان غير ملحوظ تماماً، لا يثير الاهتمام!

شاهد الأصدقاء الجزء الأول من العرض، وخلال الاستراحة، توجهوا إلى البوفيه. بدا أن لودميلا ألكسندروفنا مستمتعة، وتحاول أن تنقل مزاجها المرح إلى البقية، رغم أنها لم تكن مهتمة بالعرض المسرحي نفسه، ولم تُظهِر تجاوباً يذكر معه.

بعد الحفل، اتفق الأصدقاء على اللقاء في اليوم التالي، والذهاب مرة أخرى إلى المسرح. لقد كانت رحلة الفتيات تمتد لثلاثة أيام، وكانت لودميلا ألكسندروفنا مهتمة بشكل طبيعي بالجانب الثقافي في هذه الزيارة. لهذا، سرعان ما انتبهت إلى أن بوتين هو ذلك الرجل الذي يمكنه الحصول على تذاكر لأي عرض مسرحي.

في اليوم التالي، التقوا من جديد، ولكن بدون ذلك الصديق الذي عرّفهما على بوتين!

جاء بدلاً منه سيرجي رالدوغين، صديق بوتين، وخريج المعهد الموسيقي، الذي كان انضم إلى أوركسترا مسرح مارينسكي، وسافر في جولات فنية إلى اليابان وغيرها من البلدان، ما هيأ له وضعاً مالياً مريحاً، سمح له بشراء سيارته الأولى،

وكانت «لادا» من الفئة الأولى.

اتصل به بوتين، واتفقا على اللقاء في شارع نيفسكي، وقال له أن فتاتين من طرفه سيسبقنه إليه. أما هو نفسه، بوتين، فسيتأخر لربع ساعة، ثم سيذهبون جميعاً إلى المسرح.

جاءت الفتيات في الموعد المحدد تماماً!

واحدة منهما كانت لودميلا ألكسندروفنا. بدت أنيقة للغاية، تلفت الانتباه، لها حضورها المميز، وتترك انطباعاً فورياً بقدرتها السلسة على فرض حضورها دون الاعتداء على مساحة الآخرين.

جلست الفتاتان مع رالدوغين في سيارته. وبدأوا بانتظار بوتين.

لم يكن الوضع مريحاً لرالدوغين، الصديق الذي وجد نفسه يستقبل فتاتين لا يعرفهما، ويضطر للجلوس معهما في سيارته في مكان قريب من مكان عمله، بينما يمر بي بعض أصدقائه وزملائه، ويرمقونه بنظرات خبيثة يستحقها كل لاهٍ وعابث يختلي بفتاتين في سيارة..

لم يكن ذلك مريحاً له أبداً!

انتظروا لمدة ساعة تقريباً. وكان على رالدوغين أن يختلق الأحاديث، وأن يحاول الإطالة فيها، وأن يكون لطيفاً في الأثناء، دون أن يبدو ثرثاراً، أو شخصاً استعراضياً يحاول تسويق نفسه..

وأخيرا ظهر بوتين..!

توجهوا إلى قاعة لينينغراد للموسيقى، وفي اليوم الثالث ذهبوا مرة أخرى إلى مسرح مجلس المدينة. ثم كان على الفتيات أن يعدن إلى كالينينغراد البعيدة، حيث ينتظرهن عملهن.

توقفوا في مترو الانفاق، وكان يجب أن يفترقوا.

انتحى بوتين بلودميلا، بينما وقف رالدوغين جانباً. كانت تعرف أنه ليس من أولئك الأشخاص الذين هم على استعداد لتقديم أي معلومات عن أنفسهم، وخصوصاً رقم الهاتف المنزلي.

ولكن ها هو فجأة، في آخر لحظة، يعطيها رقم هاتفه!

وبالطبع أثار ذلك دهشة رالدوغين، الذي لم يكن يتصور أن صديقه رجل الاستخبارات معني بهذه الفتاة الغريبة القادمة من تلك المدينة البعيدة إلى هذا الحد. إلى درجة أنه أعطاها رقم هاتفه المنزلي..

لم يكن هذا سلوكاً معتاداً منه!

وبعد فترة، في لقاء لاحق، يسأل رالدوغين لودميلا إن كان بوتين أخبرها أين يعمل، فتجيبه بنعم. لقد أخبرها أنه يعمل في «التحقيق الجنائي»؛ فيحدد مستوى علاقتهما بأنها قوية إلى درجة أنه أعطاها رقم هاتفه، ولكنه لم يتخذ قرارات حاسمة بشأن هذه العلاقة لدرجة أن يخبرها أين يعمل في الحقيقة..!

بالطبع علمت لودميلا، بعد بعض الوقت، أن بوتين يعمل في جهاز الاستخبارات الخارجية في الـ«كي. جي. بي»، ولكن الأمر كان بالنسبة لها، في ذلك الوقت، سيان: الـ«كي. جي. بي» أو التحقيق الجنائي. أي فرق!

من المؤكد أنها، الآن، تعرف الفرق!

كان مسؤولو الأجهزة الأمنية، يتخفون بهويات ومهن أخرى. كان من الضار، أن تصبح الهوية المهنية الحقيقية معروفة على نطاق واسع، ويؤدي ذلك بالعادة إلى تقليل فرص التقدم الوظيفي، ويحرم ذلك المسؤول من فرص الانتداب في وظائف بالخارج. لذا، كان لدى الجميع في الـ«كي. جي. بي»، بلا استثناء تقريباً، بطاقات تعريف خاصة بالتحقيقات الجنائية.

لم يكن بوتين يعرف وقتها إلى أين ستصل علاقته بلودميلا، فكان لا بد من

إخفاء هويته الحقيقية؛ على الأقل لمدة من الزمن، يتأكد فيها من ديمومة هذه العلاقة ومستقبلها، ومن طبائع فتاته نفسها.

جرت الأمور بينهما بسلاسة. أحبت لودميلا لينينغراد في تلك الزيارة الأولى فوراً، ومن النظرة الأولى، لا سيما أنها تمكنت من قضاء وقت كاف فيها، كما حظيت برفقة طيبة، وخرجت منها بعلاقة لطيفة واعدة. ناهيك عن أن المدينة، التي تبدو متجهمة أغلب فصول السنة، لا تبدو في كل الأحوال عدائية..!

لاحقاً جاء الحب. ويقول طرفاه إنه كان قوياً!

لم يأت على الفور. في البداية كانت لودميلا تتصل بفتاها اللينينغرادي. لم يكن لديها بمنزلها في كالينينغراد هاتف. لذا كان عليها دائماً أن تبادر بالاتصال، وبعدها بدأت تطير إلى لينينغراد للقائه. كان عليها أن تستقل الطائرة للذهاب إلى موعد غرامي اعتيادي، يستخدم الناس السيارة أو الباص للوصول إليه.

بقيت المسافة بعيدة بين المدينتين! لم يكن في كالينينغراد أي رحلات جوية مباشرة إلى لينينغراد، بمعنى، أنه لم يكن باستطاعتها أن تستفيد من عملها للتواصل مع فتاها اللينينغرادي، لذلك كان عليها أن تعمل ثلاثة أو أربعة أيام متتالية، ثم تطير إليه في رحلة عادية.

شيء ما في بوتين، على ما يبدو، شدها إليه!

بعد ثلاثة أو أربعة أشهر، كانت قد قرّرت بالفعل أنه الرجل الذي تريده. في البداية كان يعطي انطباعاً بأنه عادي ولا شيء مميز فيه، ولكن ربما تكون تلك القوة الداخلية التي يتمتع بها، وتجذب الجميع اليوم، هي ما شدّها إليه ذلك الحين.

وبحسب لودميلا ألكسندروفنا، فإنها لم تكن تفكر بالزواج، ولكن حينما أصبح بوتين هو المرشح ليكون زوجها، أرادت ذلك. وبالطبع تزوجا بعد ثلاث سنوات ونصف. ثلاث سنوات ونصف، كاملة لم يرد فيها ذكر الزواج. وحدث ذلك فجأة.

ذات مساء، كان بوتين وفتاته جالسين في منزله، وإذ به يفاجئها بقوله:

- أنت تعرفين الآن من أنا كإنسان. أنا في الأساس لست شخصاً جيداً.

وبعد ذلك، بدأ يعطيها توصيفاً لشخصيته: صموت، في بعض الأشياء يكون حاداً جداً، وأحياناً يمكن أن يكون مؤذياً.. وهلمّ جرا.

- وباختصار، أنا لست ضمانة حياة مأمونة.

وأضاف:

- خلال ثلاث سنوات ونصف، ربما تكونين قرّرت شيئاً لنفسك؟

وخطر في بال لودميلا، بينما كنت تستمع لكلماته، أنه يتحدث عن إنهاء علاقتهما. فقالت:

- في الواقع، نعم. لقد وصلت إلى قرار.

فقال بنبرة متشككة:

- حقاً؟

وهنا أيقنت تماماً أنهما على وشك قطع علاقتهما.

- حسنا، إذا كان هذا هو الحال، دعيني أقول أنا أحبك، واقترح أن نحدد تاريخاً معيناً لنتزوج.

قال ذلك. وكان هذا مفاجأة كاملة، كانت قد توقعت وأعدت نفسها لنتيجة أخرى. قالت له إنها موافقة، وبعد ثلاثة أشهر تزوجا. وأقاما حفل زفافهما في مطعم «عائم».

كان سفينة مركونة على الشاطئ، حُوِّلت إلى مطعم!

حياة زوجية

تبدو مروية بوتين حول قصة زواجه عادية، بل وربما رومانسية. ولكن متتبعي سيرته المهنية، يتوقفون عند الـ«ثلاث سنوات ونصف»، التي لم يرد فيها ذكر الزواج، إلى درجة أن لودميلا توقعت على نحو منطقي أن بوتين كان يريد ان يقطع علاقته بها، حينما بدأ بمفاتحتها برغبته بالزواج.

ويسألون: ما الذي حفزه ليفاتحها على نحو مفاجئ، تبدو فيه دواعي الاستعجال. ويرجحون أنه اتخذ هذا القرار، وسارع إلى تنفيذه، لأن رغبته في العمل بالخارج توقفت على زواجه. ويدلّلون على ذلك بأنه أرسل بالفعل، بعد أشهر قليلة ليجتاز دورة تؤهله للعمل بالخارج، وبعد نحو عام ونصف أُرسل إلى ألمانيا الشرقية بعد طول انتظار.

مهما يكن من أمر، فإن «حادثة» الزواج تبدو كإجراء لازم!

لقد بدا الحبيبان في زفافهما جديين تماماً. وهذا واضح حتى في صور الزفاف. لقد كانا الإثنان جدّيين تماماً، أكثر مما يسمح به لحبيبين. بالنسبة لها، لم يكن الزواج خطوة سهلة، وبالنسبة له، أيضاً. ولكن دائماً هناك، في الواقع، ناس يتعاملون بجدية مع الزواج، كون المناسبة لا تمر بجدية متجهمة لا تليق إلا بمن يقضي واجباً.

وفي الحقيقة، لم يكن هناك شيء يخططان له!

لقد كانا مضطرين للقبول بما كان يتيحه لهما الواقع. لقد عاشا مع والدي بوتين، في شقة صغيرة. كان تبديل تلك الشقة صعباً للغاية: في إحدى الغرف كانت هناك شرفة، وفي المطبخ والغرفة الأخرى نافذة تصل تقريباً إلى السقف. عند الجلوس إلى المائدة، لم يكن من الممكن رؤية الشارع، بل هناك جدار.

وكان هذا وضعاً غير مؤات ونقيصة كبيرة!

كانت علاقة لودميلا جيدة مع والدي زوجها. وهما من جهتهما عاملاها كامرأة اختارها ابنهما الوحيد. وكان ابنهما بالنسبة لهما قبس النور الذي ينبعث من طاقة ضيقة. لقد فعلا له كل ما يستطيعان من أجله. وقدّما له، أكثر مما يمكن لأي أحد أن يقدم له: لقد كرّسا حياتهما كلها لأجله.

كان فلاديمير سبيريدونوفيتش وماريا إيفانوفا والدين جيدين.

وبرأي المعارف والجيران كان يمكن أن يحسده المرء على علاقته بوالديه. كان يعاملهما باحترام ويرعاهما باهتمام، ولم يحدث أن خرجت علاقته بهما عن هذا الإطار. حدث في بعض الأحيان، بطبيعة الحال، أنهم كانوا غير راضين عن شيء ما، وكان يختلف معهما. ولكن دائماً كان يفضّل في مثل هذه الحالة الصمت على الإساءة لهما.

بحسب بوتين، في السنة الأولى من زواجه، كان يعيش وزوجته في وئام تام. كان لديهما شعور متواصل من الفرح والسعادة. وحتى بعد ذلك عندما كانت لودميلا حاملاً بابنته الكبيرة، ماشا، التي ولدت بينما كانت لودميلا ألكسندروفنا في السنة الرابعة من دراستها.

وكان بوتين قد غادر لمدة عام للدراسة في موسكو.

لم ير عائلته كثيراً في تلك الفترة. كانت لودميلا تذهب مرة في الشهر لرؤيته في موسكو. وجاء هو مرة واحدة أو مرتين إلى لينينغراد، وليس أكثر من ذلك.

وفي واحدة من تلك المرات، كُسرت ذراعه..!

تطاول عليه أحدهم في مترو الانفاق، ونشب بينهما عراك؛ وبالنتيجة، كُسرت ذراعه. الجودو كما هو معروف ليس تقنية هجوميّة. وكان مستاء جداً، جراء الحادثة وخشي أن تؤثر على فرصه المهنية:

- في موسكو لن يفهموا ذلك. أخشى أنه ستكون هناك عواقب.

وحصلت بالفعل بعض المتاعب معه في موسكو نتيجة لذلك، ولكن سار كل شيء على ما يرام في النهاية، على ما يبدو.

ونتيجة دراسته في موسكو جاءت رحلة العمل إلى ألمانيا..

كان عليه أن يذهب إلى برلين، ولكن بعد ذلك رشّحه أحد أصدقائه اللينينغراديين ليكون رئيساً لمجموعة الـ«كي. جي. بي» في دريسدن. وكان هذا الصديق قد عمل في دريسدن، وانتهت فترة مهمته، فأوصى ببوتين ليحل مكانه.

كان العمل في برلين، مع ذلك، يعتبر أكثر وجاهة، وأكثر إثارة للاهتمام، لا سيما مع إمكانية الوصول إلى برلين الغربية. وربما كان هذا شيء يتعلق بالرفاهية، ويهمّ الزوجة أكثر. ولكن لودميلا، كالعادة، لم تتدخل في هذه التفاصيل، وهو من جهته لم يكن يتحدث، أو يحب أن تتدخل بما يعتبره «حيثيات العمل».

على نحو ما بدا الزوجان مناسبين لبعضهما البعض!

يقال إن أصحاب المهن الطبية والأمنية يتميزون بشكل طبيعي بالكاريزما، وعلى أقل تقدير بالشخصية المستقلة. هذا يقتضي، إذن، أن نتذكر أن أصحاب المهن المتعلقة بالطيران ينتمون في الغالب لهذه الفئة.

وهذا ينطبق على المضيفة السابقة، لودميلا شكريبنوفا!

لقد كانت لديها شخصيتها المستقلة، التي لم تلبث أن ظهرت، هادئة في قول الحقائق الصعبة، ولا تجد في قولها أمراً غير عادي. وهي تفعل ذلك حتى في معرض تقييمها لنفسها ولأفعالها. وأصعب ما تكون الأمور حينما تنتابها الرغبة لتعديل مسار الأمور لتتناسب مع الحياة الهادئة التي اختارتها.

لن يتعرض بوتين لهذا، بشكل جدي، حتى وقت متأخر!

سيكون وجودها في حياته ايجابياً بشكل كبير. وخلال وقت طويل ستتولى

كل ما له علاقة بالأعباء العائلية والمنزلية؛ لقد كانت مقتصدة جداً. تقوم بالأشياء بسرعة كبيرة. ربة بيت حقيقية، لا تستطيع النوم طوال الليل، وتحب السهر كثيراً، ولكنها تستيقظ باكراً، وتقوم بأعبائها اليومية بدءاً من عمليات التنظيف وإعداد الطعام، مروراً بالاهتمام بدراستها الجامعية، وليس انتهاء بالاهتمام بأطفالها وزوجها..

تصغر لودميلا ألكسندروفنا زوجها بخمس سنوات. وقبل أن تصبح مضيفة، كانت تدرس في الكلية التقنية، ولكنها تركتها من تلقاء نفسها، في السنة الثالثة.

كانت تفكر بالانتساب لمعهد آخر.

وفي هذه اللحظة التقت بزوجها، عادت الطموحات الدراسية إلى تفكيرها. بدأت تسأل وتطلب المشورة، إلى أي معهد يمكنها أن تنتسب. نصحها زوجها بجامعة لينينغراد، لقد تخرج منها هو نفسه. ولكنها قرّرت الانتساب إلى معهد اللغات. البداية، في القسم التحضيري، ثم ذهبت إلى قسم اللغة الإسبانية، وباتت تدرس اللغات.

تعلمت لغتين: الإسبانية والفرنسية. وكانوا يدرسون البرتغالية كذلك، لكن معرفتها بهذه اللغة بقيت في مراحلها الابتدائية. غير أنها خلال وجودها في ألمانيا، أصبحت تجيد اللغة الألمانية.

قبل مغادرتهما لألمانيا كانت قد ولدت ابنتهما الأولى ماريا (ماشا). وحينما خرجت لودميلا ألكسندروفنا مع الطفلة من دار الولادة، أخذها زوجها إلى بيت صيفي في فيبورغ يعود لوالد زوجة صديقه سيرجي رالدوغين، وأقاموا هناك مع عائلة صديقه الموسيقي في ذلك البيت لبعض الوقت..

كانت فترة سعيدة، تفرض العيش بقرب صديق موسيقي!

بعد ذلك، بدأ الاستعداد للسفر إلى ألمانيا الشرقية، وبدأت الإدارة المعنية في

الـ«كي. جي. بي» عمليات التحقق من لودميلا ألكسندروفنا. وكانت هذه العملية قد بدأت منذ أن كان بوتين في موسكو. ولكن حينها، لم يكن متأكداً بشكل رسمي إلى أين يرسلونه.

وكانت الشروط المتعلقة بأفراد الأسرة أكثر تشدداً!

كان من الضروري في هذه المعايير، على سبيل المثال، أن تكون الحالة الصحية للزوجة جيدة إلى الحد الذي يسمح لها بالعمل في مناخ حار ورطب. ويالها من مأساة: لقد صرفوا خمس سنوات في إعداده وتدريسه، وحينما حان الوقت للسفر إلى الخارج للعمل، في موقع عسكري، يصبح الأمر كله، فجأة، رهناً بالحالة الصحية للزوجة!

بالنسبة للاستخبارات لم يكن ذلك إجراء متأخراً، ولا زائداً عن الحاجة!

أُجري التحقق الكامل من لودميلا ألكسندروفنا وفق البرنامج الشامل المعتمد. وبالطبع لم يخبرها أحد شيئاً عن ذلك؛ وفقط بعد أن انتهوا بالفعل من عملية التحقق، استدعوها إلى إدارة شؤون الموظفين في الجامعة، وأخبروها أنها اجتازت ذلك التحقق الخاص.

وهكذا، بدأت رحلة العائلة إلى ألمانيا.

اللغز السابع

الأسرار الألمانية

زاد الرحلة

انتسب بوتين لجهاز الـ«كي. جي. بي» عام 1975، وتقاعد منه عام 1991. أي، ستة عشر عاماً. أمضى منها في الخارج، في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، نحو خمس سنوات.

يختار بوتين وصف عمله في ألمانيا، منطلقاً من الزاوية الشائعة، فيقول:

«كنت قد وصلت دريسدن عام 1985، وعدت بعد سقوط جدار برلين عام 1990؛ لقد كان البعض يقول إن العمل في البلدان الاشتراكية بالنسبة لـ«كي. جي. بي» هو مجرد عمل في الضواحي. ولكن من هذا المنظور، فإن لينينغراد أيضاً ضاحية، وكنت أجد نفسي في العمل في مثل هذه الأماكن، بالذات»!

بالمحصلة، لم يكن العمل في الاستخبارات له علاقة بالصورة الرومانسية التي تراكمت في خيال بوتين، جراء قراءة الروايات ومشاهدة الأفلام. ولكنه كان استوعب ذلك منذ وقت طويل، خلال خدمته في أجهزة الـ«كي. جي. بي» في لينينغراد.

لقد كانت الاستخبارات الخارجية، دائماً، في صلب بنية الـ«كي. جي. بي». وربما كان ذلك بتأثير الواقع المتأتي من أن موظفي هذه الدائرة، في أغلبهم، يعيشون في الخارج لسنوات طويلة: يمضون ثلاث سنوات في واحدة من البلدان الرأسمالية، وأربع أو خمس سنوات في بلدان ما كان يسمى المعسكر الاشتراكي، ومن ثم تدريب لتسعة أشهر في موسكو، ثم العودة إلى الخارج مرة أخرى.

ثمة من تحول ذلك بالنسبة له إلى شبه إقامة دائمة في الخارج. هناك مثلاً من عمل لمدة 20 عاماً في ألمانيا، وغيره لمدة 25 عاماً. انقضت حياتهم كلها هناك مع فترات تدريب متقطعة في موسكو لمدة تسعة أشهر، كل عدة سنوات. وهذه ليست مدة كافية للدخول مجدداً في الحياة السوفيتية!

يجد العاملون في الخارج صعوبة في الاعتياد مجدداً على الواقع السوفييتي، لا سيما مع مشاهدة ما كان يجري في البلاد؛ كانت الأمور تسير في وجهة غير مقبولة بالنسبة لهم، وتتنافى مع كل تلك القيم والاستراتيجيات التي تربوا على خدمتها. وكان الشباب من جيل بوتين، يلحظون ذلك لدى الحديث مع زملائهم الكبار. أبناء الجيل الذي كان يتسلم المسؤوليات الأولى آنذاك، أصحاب الخبرة وأصحاب المعرفة بدواخل الأمور.

وهؤلاء كانوا جيلاً مختلفاً تماماً، له وجهات نظره، وتقديراته، ومزاجه الخاص!

أحد أصدقاء بوتين عمل في أفغانستان، رئيساً لمجموعة تعمل في المجال الأمني. حينما عاد من هناك، اهتم بوتين بزيارته، وتحدث معه، بطبيعة الحال، حول سير الأمور في ذلك البلد المنكوب، وكان معنياً بالدرجة الأولى باختبار بعض الأفكار والآراء التي تكونت لديه، خلال عمله في الاستخبارات الخارجية في لينينغراد.

كان كل شيء يتعلق بأفغانستان، حينها، يتسبب بإثارة ضجة كبيرة!

تحدث الصديقان باندفاع بالغ، كان لدى بوتين ما يسأل عنه، وكان لدى صديقه ما يرويه. ولكن كان ثمة شيء بدا غير مريح في الوقائع. شيء يشير إلى أخطاء لا يمكن أن تكون عفوية، ويؤشر على انفصال بين الوسائل الفاعلة والأهداف. بل بدا أن الوسائل تخدم أهدافاً واستراتيجيات لم تعد موجودة.

وتحت وطأة هذا الاحساس، سأل بوتين صديقه:

- كيف تقيم نتائج عملنا هناك، في أفغانستان؟

كان ذلك الصديق يحتل موقعاً مهماً؛ كان لا بد، مثلاً من توقيعه عند توجيه أي ضربات صاروخية، بمعنى أن مثل هذا القرار، وبالتالي قرارات أخرى كثيرة، لن تتخذ من دون علمه ومباركته.

نظر الصديق إلى بوتين باهتمام، وقال:

- كما تعلم، فإنني بتّ أقيّم نتائج عملي قياساً بحجم وعدد الوثائق التي لم أوقّعها!

كان جوابه صادماً لبوتين. وأثر به كما لو كان صفعة قوية تلقاها على وجهه. ذلك أن هذا صادر عن تلك الفئة من مسؤولي الـ«كي. جي. بي»، الذين يحظون بالتقدير، والمعروفين بحسهم السليم. ومن المفزع أن يصل من هو مثله إلى مثل هذه النتيجة: كل ما يتم فعله خاطئ.

بالطبع، من المتوقع أن تكون آراء هؤلاء مخالفة لكل الأنماط التقليدية، الراسخة، التي تعوّد عليها الآخرون. ذلك متوقع، على الأقل، لأنهم كانوا في الاستخبارات الخارجية، في ذلك الوقت، يسمحون لأنفسهم أن يفكروا بخلاف ما هو سائد، وأن يقولوا ما لا يسمح به أغلب الناس لأنفسهم.

ولكن أن يصل هؤلاء الناس، النخبة في جهاز النخبة، إلى هذه النتيجة، التي تضمنتها تلك المحادثة، يقول بوتين، فإنه أمر «يبدأ المرء معه بالتفكير بشيء بعيد»!

بهذه المقدمة غادر بوتين إلى ألمانيا. كان ذلك زاد رحلته!

وصلت العائلة إلى دريسدن عام 1985. في ذلك الوقت كانت لودميلا ألكسندروفنا قد تخرّجت من الجامعة. وكان عمر الابنة ماشا عام. وكان الزوجان ينتظران طفلاً ثانياً. وبالفعل ولدت ابنتهما الثانية كاتيا هناك في دريسدن.

أتاح عمل الزوج الجيد في جمهورية ألمانيا الديمقراطية للعائلة أن تعيش في بيت تابع لجهاز أمن الدولة الألمانية «ستاسي». بمعنى أن البيئة المحيطة كانت صديقة، حيث يعرف الجيران طبيعة عمل جيرانهم، ويشاركونهم الانتماء إلى نفس بيئة العمل.

كان عمل بوتين يقع في نطاق الاستخبارات السياسية. الحصول على معلومات عن السياسيين، عن خطط العدو المحتملة. ويمكن وصف هذا العمل بأنه نشاط يقع في نطاق ما يسمى «الاستخبارات على الأرض»، وكانت تلك أرض ألمانيا الشرقية، والمهمة الأساسية التي يتوافقون عليها مع شركائهم الألمان الشرقيين هي ملاحقة أي معلومات عن العدو الرئيسي.

والعدو الرئيسي بالطبع هو «الناتو»..

كانت تقع في مجال عمله أنشطة الاستخبارات المشتركة: تجنيد مصادر معلومات، والحصول على المعلومات. ومعالجة المعلومات وإرسالها إلى المركز. كان الأمر يتعلق بالمعلومات حول الأحزاب والاتجاهات السياسية داخل هذه الأحزاب، حول زعماء هذه الأحزاب. زعماء اليوم والمحتملين غداً، تعزيز تقدم بعض الناس لاحتلال مناصب معينة في الحزب وجهاز الدولة.

كان من المهم في عمله أن يعرف من، وكيف، وماذا يفعل، وما الذي يحدث في وزارة خارجية البلد المعني، وكيف يبني هذا البلد سياسته حول قضايا مختلفة، في أجزاء مختلفة من العالم. أو، على سبيل المثال، ما يمكن أن يكون موقف شركاء الاتحاد السوفييتي الغربيين في مفاوضات نزع السلاح.

وبطبيعة الحال، للحصول على هذه المعلومات، كان يجب توفير مصادر للمعلومات. وبالتالي، فإن العمل يجري بالتوازي ما بين تجنيد المصادر وجمع المعلومات، فضلاً عن معالجة المعلومات وتحليلها.

هذا هو العمل الروتيني الذي كان يقوم به.

وبهذا الحديث ذي الشجون المفاجئة مع صديقه العائد من أفغانستان، توجه بوتين إلى دريسدن. لا فكرة حول كيف أثّرت هذه المحادثة، وما تلاها من أحداث لاحقة تؤكدها على نظرة بوتين لعمله. ولكن من المؤكد أنه بقي إلى النهاية يجد العمل في الاستخبارات الخارجية بالـ«كي. جي. بي» أمراً جدياً

تماماً، وبالغ الأهمية.

واصل أداءه المهني، بالطريقة المعروفة عنه!

لم يكن يتحدث عن العمل في المنزل. كان هذا طبعه وكذلك طبيعة يفرضها عمله. وعموماً، كانت الأمور في الـ«كي. جي. بي» ومثيلاتها من الأجهزة دائماً هكذا: عدم الحديث مع الزوجات في شؤون العمل مطلقاً. وبالطبع، كانت هناك، دائماً، حالات أدى فيها إطلاق اللسان إلى عواقب وخيمة. لذا، كانت القاعدة السائدة تقول إنه كلما عرفت الزوجة أقل، كلما استطاع زوجها النوم بشكل أعمق.

ولكن ثمة أمر جديد هنا، ويتعلق بالعائلة!

كانت لودميلا ألكسندروفنا تتواصل كثيراً مع العائلات الألمانية في الجوار. بدا ذلك طبيعياً على نحو ما، وأمراً جيداً في أحيان. إلا أنه سرعان ما اتضح أن مثل هذه الأنشطة الاجتماعية تخضع للاعتبارات المهنية عند درجة معينة، يصعب تقديرها. وكان بوتين، في لحظات معينة، يؤشر لها على علاقة غير مرغوب بها من بين علاقاتها!

كانت الحياة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية أفضل منها في سانت بطرسبورغ، على عدة مستويات. وكان أول ما لاحظته العائلة القادمة من روسيا، التي كانت صفة الحياة العامة فيها هي الطوابير والنقص الفادح في السلع، هو أن ألمانيا الديمقراطية لم تكن تعاني من ذلك، بل على العكس كانت هناك وفرة واضحة.

وعموماً، بدا أن الألمان يتمتعون بمستوى حياة جيدة، ومستوى معيشة أفضل مما في الاتحاد السوفييتي؛ وحتى بالمقارنة بين موظفي الاستخبارات، كان موظفو الأجهزة الألمان يتقاضون رواتب أعلى من رواتب زملائهم السوفييت. ويشهد على ذلك، نمط الحياة الذي كان يسمح به الجيران الألمان لأنفسهم.

كان الضباط السوفييت ما يزالون مضطرين، بطبيعة الحال، للاقتصاد ليتمكنوا من شراء سيارة؛ وكانت الميزة التي يحصلون عليها هي أن رواتبهم تدفع بعملتين: جزء من الراتب كان يُدفع بالماركات الألمانية، والباقي بالدولار. والأهم أنهم لم يكونوا مضطرين لإنفاق المال، على أي حال، اللهم ما عدا على الطعام. وسوى ذلك لم يكونوا يدفعون شيئاً. كانوا يعيشون في شقة حكومية مجهزة ومؤثثة.

وعلى العموم بدت الحياة مريحة هناك..!

بدأ وزن بوتين الرياضي يزداد، وتظهر عليه آثار شغفه بالبيرة الألمانية. كان يذهب بانتظام إلى بلدة صغيرة في رادبيبرغ، حيث يوجد واحد من أفضل مصانع الجعة في ألمانيا الشرقية، فيملأ عبوة مزودة بصنبور وتتسع لأكثر من ثلاثة لترات. وحينما يسكب البيرة منها، تنزل كما لو أنها مصبوبة من البرميل مباشرة.

كان يفعل ذلك بانتظام. وكان العمل يقع على بعد خطوتين من البيت، وبالتالي فإن السعرات الحرارية الزائدة وجدت راحتها في الجسم، ولم تكن هناك طريقة لتصريفها، لا سيما وأنه لم يكن يمارس الرياضة، إذ لم تكن هناك ظروف مهيأة لذلك، إضافة إلى أن حجم العمل اليومي كان كبيراً.

كانت العائلة تعيش في شقة مقدمة من العمل في عمارة كبيرة، لها اثنا عشر مدخلاً. شغلت المجموعة السوفيتية فيها خمس شقق. وبجانب المدخل المؤدي إليها كانت هناك أربع شقق يعيش فيها أفراد من الاستخبارات العسكرية. وكل ما تبقى من الشقق كان يشغلها الألمان، وضباط جهاز أمن الدولة «ستاسي».

ترقيات متتابعة

عمل الفريق السوفييتي في مبنى منفصل، في فيللا ألمانية قديمة مسيجة. من عدة طوابق. ولم تكن المسافة من هذه الفيللا إلى العمارة السكنية تزيد عن بضعة دقائق سيراً على الأقدام. وكان بوتين يستطيع من نافذة مكتبه رؤية ابنته الصغيرة في حضن أمها.

سرعان ما انتظم نمط حياة روتيني: في الصباح كان بوتين يأخذ ابنته الكبرى ماشا إلى الروضة، الوقعة تحت نوافذ شقة العائلة مباشرة. ومن ثم يوصل الصغيرة كاتيا إلى الحضانة. وبعدها يواصل طريقه إلى عمله.

وكان يعود دوماً إلى المنزل في الظهيرة لتناول الغداء.

لقد كان جميع زملائه معتادين على فعل ذلك. وكان أصدقاء العمل يجتمعون أحياناً في المساء في شقة بوتين، ومن بينهم كان ألمان. وكان بوتين نفسه وعائلته أصدقاء للعديد من الأسر.

بدت تلك حياة ممتعة. لم يكن هناك شيء يشغل البال، والمزاج العام لطيف، والجميع مستعدون لتبادل الحديث حول أي شيء، وبكل سرور ينجرفون إلى رواية النكات والحكايات.

وكان بوتين المتجهم نفسه، في تلك الظروف، راوٍ جيد وضاحك للنكات!

في عطلة نهاية الأسبوع كانت العائلة تخرج برفقة بقية العائلات السوفيتية وبعض الأصدقاء من المدينة إلى الأنحاء الجميلة في ضواحي دريسدن. وفي الغالب يختارون منطقة تسمى «سويسرا السكسونية»، على بعد مسافة قصيرة من المدينة.

يتنزهون، ويتناولون بعض النقانق مع البيرة. ثم يعودون إلى المنزل.

يبدو أن مهنة بوتين كانت ناجحة في دريسدن. بل من الواضح أنها سارت على نحو جيد هناك؛ فقد كان من المتعارف عليه في الاستخبارات الخارجية أن الحصول على ترقية واحدة خلال الخدمة في الخارج، يعتبر إنجازاً كبيراً، يمكن للمرء أن يتباهى به.

في حين أنه تمت ترقية بوتين خلال عمله في ألمانيا مرتين!

عمل بوتين في دريسدن في البداية ضابط مباحث مفوض. ثم مساعد رئيس قسم. وهذا يعتبر نمواً مهنياً أكثر من جيد جداً. ولكنه لم يتوقف هنا، فقد أصبح بعد ذلك مساعداً، ثم مساعداً أول لآخر رئيس للدائرة. ولم يكن من الممكن ترقيته أكثر من ذلك. كانت هناك تراتبية قيادية، وكان في هذا الهيكل رئيس واحد فقط. وكتعويض عُيِّن عضوا في اللجنة الحزبية لممثلية الـ«كي. جي. بي»!

ولكن ما هذه النجاحات التي استحق عليها هذه الترقيات؟

هناك مجرد تكهنات وشائعات تتردد في الإعلام، وتخالط السير الذاتية التي يكتبها عنه كاتبو سيرته والإعلاميون. ومن أبرز ما يقال في هذا المجال أن بوتين شارك في عملية «الشعاع»، التي قيل إنها نشاط استهدف السيطرة على القيادة السياسية والحزبية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. ولكن بوتين نفسه ينفي ذلك، «لا أعرف بالضبط. لم أشارك في هذه العملية. وحتى أنني لا أعرف ما إذا نُفّذت أم لا».

الأحاديث التي تناولت دور بوتين، تحدثت عن مهمة محددة قام بها، وتلخصت كما يقال، بالسيطرة على سكرتير اللجنة الإقليمية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد في دريسدن هانز مودروف.

وهذا، ما يصر على نفيه بوتين، قائلاً: «التقيت عدة مرات بمودروف في الاستقبالات الرسمية. كان هذا هو مستوى التعارف بيننا. لقد كان يتحدث مع

مستوى مختلف من الناس، مثل قائد قواتنا هناك، ضابط الاتصال الأول. وبشكل عام، لم أعمل مع كوادر الحزب، بما في ذلك، بالمناسبة، حزبيينا نحن. كان ذلك ممنوعاً».

ويقال كذلك إن بوتين هو من حصل على مخططات الطائرة المقاتلة «يوروفايتر».

وينفي بوتين حتى هذه المعلومة، ويُصرّ على أنه لم يشارك في الاستخبارات التقنية، بل ولم يعمل على هذا الخط من الاستخبارات أساساً. أما النجاحات التي صنعت له سمعة رجل مخابرات من الطراز الأول، فيعزوها إلى «نتائج محددة في العمل، تقاس بعدد الوحدات من المعلومات التي جرى الحصول عليها واستخلاصها من المصادر» الموجودة تحت تصرفه.

وهذا يعني بنفس الدرجة عدد مصادر المعلومات التي وفرها (وجندها)، ومقدار ما وفره لـ«المركز» من إجابات لقيت التقدير.

من الواضح أن بوتين يتجنب ربط اسمه بأي عملية محددة. بل هو يتجنب، حتى اليوم، الدخول في جدال مع شخص وجه له إساءة علنية مباشرة، طالما كان الأمر يتعلق بنشاطه الاستخباراتي؛ ففي وقت ما، قال رئيس المخابرات الألمانية الشرقية السابق ماركوس وولف، إن ميدالية التقدير البرونزية «لقاء الخدمات المقدمة للجيش الوطني الشعبي لجمهورية ألمانيا الديمقراطية»، التي حصل عليها بوتين أثناء خدمته في دريسدن، تكاد تمنح لكل سكرتيرة يخلو سجلها من الانتهاكات الجسيمة.

لم يجد هذا الهجوم لدى بوتين من ردة فعل، سوى تعليق هادئ يقول إن كلام ماركوس لا يتضمن أي إساءة، بل على العكس تماماً هو يؤكد أنني لم أسجل خلال عملي في ألمانيا الديمقراطية أي انتهاكات، ولكن فقط فاته أن الميدالية ليست «لقاء الخدمات» بل «لقاء الخدمات الريادية المتميزة».

لن يرد بوتين، لأنه لا يريد أن يعادي جماعته الأقربين!

لقد كان لماركوس وولف أصدقائه وزملائه ومحبينه في موسكو؛ ومن اللافت أن ذكرى وفاة رجل الاستخبارات الألمانية الشرقية الأولى، أُحييت في مبادرة من منظمة قدامى محاربي الاستخبارات الخارجية الروسية؛ وتمت الإشارة إلى الاحتفال بتصريح من رئيس المكتب الإعلامي لجهاز الاستخبارات الروسية، وبيان خاص أعد بهذه المناسبة.

وهذا شيء، لا يمكن أن يتجاوزه بوتين!

لن يقف ليرد الإساءة إلى رجل له شعبيته واحترامه لدى قدامى محاربي الاستخبارات الخارجية، وفي أروقتها العاملة، ويوصف بأنه كان ابناً باراً لبلاده، وصديقاً كبيراً للاتحاد السوفييتي.

رجل استخبارات، كانت له خبرته وسيرته!

لقد كان من بين عملائه من وصلوا إلى مراتب سياسية عليا، وعلى وجه الخصوص، رجله غونتر غيوم الذي ترقّى حتى بات مساعداً لمستشار ألمانيا الغربية فيلي برانت!

ولكن بوتين يهتم بالرد على الاتهامات التي تؤكد ضلوعه بعمليات خارج علم السلطات الألمانية!

وهنا، يلاحظ في تعليقاته أنه يلجأ إلى مهاراته اللغوية بقدر أكبر من محاولة تفنيد المعلومات بمعلومات مقابلة. ولكنه عموماً يصرّ على نفي هذه التهم، مؤكداً إن «الأصدقاء» من موظفي «ستاسي»، كانوا يواكبون نشاط الفريق السوفييتي وكل ما يقوم به في ألمانيا.

ويُذكر بأن «هذا كله بقي في المحفوظات» لديهم هناك.

يقول بوتين: «لا يمكن القول إنني كنت أقوم بعمليات سريّة خارج نطاق علم

السلطات المحلية لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، وتحديداً أجهزتها الأمنية. ناهيك عن أن الجزء الأغلب من العمل كنا نقوم به بواسطة مواطنين من جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وجميعهم معروفون ومسجلون على لوائح السلطات المحلية. أي، الأمور شفافة وواضحة. ومعروف بتفاصيله لأجهزة مكافحة التجسس الألمانية».

ويؤكد: «لم أعمل ضد مصالح ألمانيا. وهذا شيء واضح. وعلاوة على ذلك، لو كان الأمر عكس ذلك، لما كنت سافرت بعد عودتي من ألمانيا الديمقراطية إلى أي بلد في أوروبا الغربية. ولم أكن حينها ذلك المسؤول رفيع المستوى، كما أنا اليوم. سافرت مرات عديدة، بما في ذلك إلى ألمانيا نفسها».

اللافت أن بوتين يذكر في سياق حديث له حول عمله في مجلس مدينة سانت بطرسبورغ نائباً لعمدتها، بعد عودته من ألمانيا، أنه تلقى رسائل من بعض الموظفين الألمان. الأمر الذي استدعى منه أحد اللقاءات، إلى خوض حديث لا يبدو ناعماً مع القنصل الألماني.

قال له:

- ضع في اعتبارك، أنني أتلقى رسائل. هذه صلاتي وعلاقاتي الشخصية. إنني أفهم أن لديكم هناك حملة ضد ضباط الأمن السابقين، ويتم إلقاء القبض عليهم، وتضطهدونهم لأسباب سياسية. لكن، هؤلاء أصدقائي، وأنا لن أتنكر لهم.

فأجاب القنصل باستسلام:

- إننا جميعا نفهم ذلك، سيد بوتين. أي أسئلة يمكن أن تكون هنا؟ كل شيء واضح.

بالنسبة لبوتين فإن الألمان يعرفون من هو، ومن أين أتى، وماذا كان يفعل في ألمانيا. ولا شيء لديه يخفيه حول ذلك. وهذا مفهوم. ولكن هل كان انتصاره لزملائه السابقين من ضباط الاستخبارات الألمانية الملاحقين في بلادهم بعد

انهيار جدار برلين مجرد انتصار شخصي لأصدقاء سابقين؟ لا يبدو الأمر كذلك، ومن الصعب أن يكون!

من المعروف أن بوتين كان وقتها نائب عمدة سانت بطرسبورغ، أناتولي سوبتشاك، الذي كان واحداً من عتاة «الديمقراطيين»، الذين كانوا يتوسلون على أنقاض الدولة السوفيتية، الغرب كله. والمجموعة الموجودة من «الديمقراطيين» في سانت بطرسبورغ كانوا، خلافاً لزملائهم من مجموعات موسكو المرتبطة بالأمريكيين، أصحاب ميول أوروبية، وبالتحديد أصحاب نزوع باتجاه ألمانيا. وهؤلاء لا يستطيعون تحمل كلفة احتضان ضابط مخابرات يتصرف من تلقاء نفسه.. ولكنه على الأغلب لا يتصرف من تلقاء نفسه.

هو أولاً، ما يزال ضابطاً عاملاً، ويتقاضى مرتبه الشهري بشكل اعتيادي من إدارة الـ«كي. جي. بي» في سانت بطرسبورغ، ويلبي نداءها إن جاءه النداء.

وهو ثانياً، عمل في مجلس المدينة بعد أن حصل على الموافقة اللازمة من ضباطه المسؤولين عنه في عمله الأصلي. ولم يخف ذلك عن مسؤولي مجلس المدينة، الذين عمل معهم.

وهو ثالثاً، ليس مجرد ضابط «كي. جي. بي»، بل واحد من منتسبي الدائرة الأولى فيها، المختصة بالاستخبارات الخارجية. والأدهى أنه كان قد خدم في ألمانيا الديمقراطية، معاكساً لمصالح ألمانيا الغربية، التي كسبت الجولة، وغنمت الوحدة بعد انهيار جدار برلين.

بلى، على الأرجح لم يكن ذلك مجرد انتصار شخصي من زميل لزملائه السابقين!

كان الصراع قد احتدم في تلك الفترة بين «الديمقراطيين»، الذين استلموا السلطة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. وتحديداً ما بين الجناح المرتبط

بالولايات المتحدة، وكانوا في قمة السلطة في موسكو، والجناح المرتبط بأوروبا وكان مركزهم في سانت بطرسبورغ.

ومعلوم أن هذا الصراع قاد في النهاية إلى دخول جماعة موسكو على خط الانتخابات في سانت بطرسبورغ، وأسقطوا أناتولي سوبتشاك، ثم فتحوا ضده ملاحقات قضائية إلى درجة أنه اضطر إلى الهرب من البلاد، وبقي في الخارج سنوات طويلة.

وبالتزامن مع الصراع بين جناحي «الديمقراطيين»، قاد انهيار الاتحاد السوفييتي إلى ضرب الـ«كي. جي. بي»، وتقسيمها، وتشتيت قياداتها التاريخية، والضغط على منتسبيها، ودفعها لاتخاذ وضع دفاعي. ولكن هذا كان يحصل بـ«كي. جي. بي» المركز، بموسكو!

ومن المتوقع، أن تكون إدارة الـ«كي. جي. بي» الثانية من حيث الأهمية والقوة، وهي في سانت بطرسبورغ، وكانت بعيدة عن كل هذه الإجراءات الانتقامية، التي انطلقت في مطلع التسعينات، قد أخذت زمام المبادرة، فقامت بالدور الذي كان يجب أن تقوم به لاستعادة التوازن، ولعبت دور مركز قيادة بديل في العمليات السياسية الداخلية!

وفي ذلك الوقت، كان جناح «الديمقراطيين» في سانت بطرسبورغ يبدو حليفاً مناسباً بمواجهة موسكو وجناحها «الديمقراطي» الذي هيمن على السلطة في البلاد على إثر تمرد 1991؛ وكذلك حلفائهم الأوروبيين الباحثين عن موطئ قدم في عاصمة الشمال الروسية بعد أن حرق الأمريكيون كل فرصة لهم في العاصمة الأولى نفسها.

لذا، كان من الطبيعي أن يحتفظ «ديمقراطيو» لينينغراد بهدوئهم إزاء سلوك بوتين مع القنصل الألماني، وأن يتعاملوا كما لو أنهم غير أصحاب شأن في الموضوع. وكذلك القنصل الألماني نفسه الذي احتمل الحديث بصبر، رغم أن الغربيين كانوا في ذلك الوقت يتعاملون مع المسؤولين الروس بازدراء.

كان يعي أنه لا يتحدث مع بوتين نفسه!

ومن اللافت، أن المحكمة الدستورية الاتحادية الألمانية قضت بعد فترة (عام 1995) من حديث بوتين مع القنصل الألماني في سانت بطرسبورغ بوقف ملاحقة ضباط مخابرات ألمانيا الشرقية السابقين بتهم الخيانة والتجسس..!

ربما كان أصدقاء بوتين الألمان يعرفون لمن يشكون همهم، فعلاً!

التباسات ألمانية

دمر موظفو ممثلية الـ«كي. جي. بي» في دريسدن كل الآثار غير المرغوب بها، لدى تداعي الأحداث في ألمانيا الشرقية. تم ذلك تحت إشراف وقيادة بوتين نفسه. دُمّر كل شيء يمكن أن يقود إلى أي شيء، دُمّرت كل البيانات المتعلقة بالعلاقات، وبالاتصالات، وشبكات العملاء.

ويتذكر بوتين أنه هو نفسه أحرق كمية كبيرة من المواد!

أُحرقت الكثير من المواد لدرجة أن الموقد انفجر. كانوا يحرقون في الليل وفي النهار. ولكن هذه كانت مواد لا تعدّ ذات أهمية من ناحية الجدوى التشغيلية؛ إضافة إلى أن الظروف وقتها اقتضت إيقاف جميع الاتصالات، وتجميد العمل مع مصادر المعلومات لأسباب تتعلق بالسلامة.

وقبل ذلك كانت قد نُقلت جميع المواد المهمة إلى موسكو.

حدث ذلك عام 1989، عندما بدأ الألمان بتحطيم وزارة أمن الدولة، وبات يخشى أن تمتد الموجة لتطال ممثلية الـ«كي. جي. بي» في دريسدن. وكان بوتين شاهد عيان على الوقائع كما حدثت، همّه الأساسي أن لا يكون مشاركاً فيها، ويتذكر الحالة الهستيرية التي سيطرت على الناس جيداً.

وبطبيعة الحال، كانت هذه ردة فعل ناقمة على دور وزارة أمن الدولة!

ويجد بوتين، الذي يبدي تفهمه لغضبة الناس، من الضرورة بمكان أن يشير «بالمقابل، كانت وزارة أمن الدولة جزءاً من المجتمع، وتعاني مثله من الأمراض نفسها. وكان يعمل فيها أشخاص مختلفين جداً، ولكن أولئك الذين أعرفهم، كانوا جيدين. وكوّنت صداقات مع العديد منهم، أما أنهم الآن يُقصونهم جميعاً، فهذا كما أعتقد خطأ، وهو نفس الخطأ الذي ارتكبه النظام في ألمانيا الشرقية مع المجتمع المدني، مع شعبه».

ويضيف:

«نعم، على الأرجح، كان من بين موظفي وزارة أمن الدولة، من كان متورطاً في القمع. ولكني لم أرَ ذلك. لا أريد أن أقول إنه لم يكن هناك قمع. ولكن أقول إنني لم أرَ ذلك شخصياً».

وهذا كلام قريب، على نحو ما، من مشاعر بوتين المحبط بعد عودته من دريسدن!

في الواقع، أعاد بوتين صياغة آرائه حول هذه المرحلة نسبياً مع ارتقائه لسلم السلطة، وتبعاً لوضعه السياسي، وبمراعاة الصورة التي تفرضها المسؤوليات السياسية، التي بدأ العامل الدبلوماسي يؤثّر فيها.

لم يعد يقاتل في الخفاء، في جبهة مفتوحة! أصبح يتحرك في ساحة مكشوفة، ويقول كلاماً في العلن، ويتوخى أن يكون في إطار لا يثير اللغط حول علاقته بالقوانين، أو التقاليد والأعراف المعمول بها في العلاقات الدولية.

وعليه، بدأ يتخذ في حديثه ميلاً آخر، نسبياً!

وهكذا، يتحدث عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية بوصفها كانت اكتشافاً بالنسبة له، ويقول إنه كان يعتقد أنها على أسوأ تقدير واحدة البلدان الشرقية في وسط أوروبا، في نهاية عقد الثمانينات، وإذا به يدرك فجأة، من خلال التواصل مع العاملين في وزارة أمن الدولة الألمانية، أنها تعيش الظروف نفسها، التي عاشتها الدولة السوفيتية قبل سنوات عديدة.

ولا يجد ضيراً في أن يقول: «كان ذلك حكماً دكتاتورياً صعباً، يتماثل مع نموذجنا الخاص وعلى شاكلته، ولكن قبل ثلاثين عاماً. والمأساة في أن الكثير من الناس كانوا يؤمنون بسذاجة بكل تلك المثل الشيوعية. وحينها فكّرت: إذا كان سيكون لدينا بعض التغيير، فكيف سيؤثر ذلك على حياة هؤلاء الناس؟».

والسياسي، خلافاً لرجل الاستخبارات، يجد في ادعاء البراءة فضيلة!

و«ببراءة» يواصل بوتين: «كان من الصعب، في الواقع، أن نتصور أن ذلك التغيير سيبدأ في جمهورية ألمانيا الديمقراطية على هذا النحو الجذري. لم يكن ذلك في بال ولا في حسابات أي شخص! علاوة على ذلك، عندما بدأت الأحداث، لم يكن أحد يعرف كيف يمكن أن تنتهي».

ولكن علاقته بالحقائق لا تموت، رغم أنه يضطر لتغليفها بكلام مطلوب!

يقول: «في بعض الأحيان كانت تنشأ لديّ أفكار بأن هذا النظام لن يستمر طويلاً. وكانت هذه الأفكار تتأثر، بطبيعة الحال، بما كان قد بدأ بالفعل عندنا تحت عنوان البريسترويكا، التي بدأ المجتمع في سياقها يناقش علناً العديد من الموضوعات التي كان تناولها محظوراً. أما في ألمانيا فكان كل شيء محرماً بالكامل، وكانت العائلات مقسمة، جزء من الأسرة يعيش على الجانب الآخر من الجدار، ونصف هنا. وكانت الرقابة تطال الجميع وتخنقهم، كان ذلك غير طبيعي».

من الملفت، هنا، أن بداية هذه الفقرة تقبل صياغة أخرى، تشبه كلام بوتين الحقيقي!

بوتين الذي عاد من ألمانيا محبطاً، يشعر بالخذلان. غاضباً، يجرفه غضبه، ويكاد يستولي عليه، ويُخرجه عن طوره، قبل أن يهدئ زملاءه القدمى في إدارة «كي. جي. بي» سانت بطرسبورغ من روعه.

يشبه كلام بوتين، الذي دفعه لرفض عرض قيادته للعمل بالمركز، في موسكو!

يمكن أن تصبح الفقرة هكذا: كنت أعرف بأن النظام في ألمانيا الشرقية لن يستمر طويلاً. وهذا، بطبيعة الحال، نتيجة لما كان قد بدأ بالفعل عندنا تحت عنوان «البريسترويكا».

لا بأس هنا، من استعادة بعض الحيثيات الهامة..

لقد كان في صلب عمل ومهام بوتين خلال وجوده في ألمانيا إلى جانب تجنيد مصادر معلومات في البلد المضيف وبدرجة أساسية بلدان «ناتو»، العمل في مجال جمع المعلومات حول الأحزاب والاتجاهات السياسية وزعماء هذه الأحزاب، زعماء اليوم والمحتملين غداً، وتعزيز تقدّم بعض الناس لاحتلال مناصب معينة.

إن أهم محاولات تفسير حصول بوتين على ترقيتين خلال عمله في ألمانيا الذي استمر خمس سنوات فقط، وهو أمر غير عادي أبداً، هي مشاركته في عملية «الشعاع»، التي قيل إنها نشاط استهدف السيطرة على القيادة السياسية والحزبية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. ولا يهمّ أن ينفي بوتين نفسه ذلك، لا سيما أنه لم ينف وجود العملية أصلاً.

إن نخبة وزارة أمن الدولة الألمانية الشرقية، وتحديداً رئيس المخابرات الألمانية الشرقية السابق ماركوس وولف، لديه موقف عدائي من بوتين بشكل لافت، ما يثير سؤالاً: ما الذي يلفت مدير جهاز، ومسؤول رفيع ولو سابق، إلى ضابط «كي. جي. بي» صغير، كان يخدم في مدينة ألمانية قصية؟

من المفهوم أن محطة الـ«كي. جي. بي» في دريسدن لم تكن أي محطة. أقله أنها كانت مسؤولة عن متابعة التواجد العسكري الأمريكي في ألمانيا الغربية. ولكن هذا من شأنه أن يجعل ماركوس وولف يشعر بالسرور لدى رؤيته أحد الضباط السوفييت السابقين، الذين عملوا في هذه المحطة، يرتقى بسرعة سلم السلطة في روسيا الجديدة.

لا يجد هذا الموقف تفسيره إلا بالقبول بالإشاعات التي تتناول «مهمة» بوتين في ألمانيا، وتحديداً مشاركته المفترضة في عملية «شعاع». لا سيما أنه من المعروف أن غورباتشوف فعلاً عمل على تغيير الأنظمة في أوروبا الشرقية، وجهد في محاولة الإطاحة، داخلياً، بقيادات تلك الدول.

تماماً، كما أن الموقف العدائي الذي يخص به بوتين غورباتشوف، والازدراء الشديد الذي يظهره نحوه، لدوره التدميري الذي لعبه في تاريخ الدولة السوفيتية وفي أوروبا الشرقية عموماً كما في تلميحات عديدة، يجد تفسيراً منطقياً في الإشاعات حول «مهمة» بوتين في ألمانيا الديمقراطية، والنتائج التي قادت إليها، ولم تكن نتيجتها على النحو الذي كان يعتقده بوتين.

ولا بد من ملاحظة أن بوتين يهتم بالاتهامات التي تؤكد ضلوعه بعمليات خارج علم السلطات الألمانية، ويهتم بنفيها أكثر من سواها، وكان يحرص مرة بعد مرة على تأكيد أنه لم يقم بعمليات سرية خارج نطاق علم السلطات المحلية لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، وتحديداً أجهزتها الأمنية.

وربط هذا كله، بالمخاوف التي تنشأ في ألمانيا وغيرها من الدول الأوروبية من أن لا يكون نشاط بوتين في ألمانيا، في مجال تعزيز فرص تقدّم بعض الناس لاحتلال مناصب معينة أمراً متعلقاً بالرهان على بقاء ألمانيا الشرقية ككيان سياسي مستقل، بل بالإمكانيات المستقبلية التي يمكن أن يتيحها اندماج هذا الكيان في الجسم الأوروبي.

لقد مثلت ألمانيا الشرقية، خزاناً سياسياً وأمنياً هائلاً، جرى ضخة دفعة واحدة في ألمانيا الغربية. ومن المعروف أن الأمر استدعى ملاحقات وعمليات استبعاد وتنقية. ولكن ذلك طال الأسماء والرموز الأمنية والسياسية المعروفة أو المسجلة في القيود..

فماذا عن الرصيد المتوقع، الذي خلفته وعملت على مراكمته ممثليات الـ«كي. جي. بي»، قبل انهيار جدار برلين!؟

المخاوف واقعية بالطبع؛ فأثر ضخ الخزان السياسي والأمني في ألمانيا الموحدة، يظهر ماثلاً اليوم، وتُعدّ المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل مثالاً تقريبياً؛ فمواطنة ألمانيا الشرقية لم تكن لتكون من هي اليوم، لولا انهيار جدار

برلين، ولولا الخزان السياسي الذي يمثله مواطنو ألمانيا الشرقية السابقين.

من الطريف أن المستشارة الألمانية، خريجة جامعة كارل ماركس، بدأت حياتها السياسية في حركة الصحوة الديمقراطية، التي نشأت كحركة سياسية معارضة في ألمانيا الشرقية في تشرين أول عام 1989، وتحوّلت إلى حزب سياسي في كانون أول من نفس العام. أي، هو حزب من «مواليد» مرحلة العبث الغورباتشوفي في ألمانيا الشرقية.

ومن اللافت أن حزب الصحوة الديمقراطية نفسه، اختفى عن الوجود في الخامس من آب عام 1990، بعد الاندماج مع الاتحاد الديمقراطي المسيحي بألمانيا الشرقية، الذي اندمج، بدوره، في الثالث من تشرين أول عام 1990 مع نظيره في ألمانيا الغربية الاتحاد الديمقراطي المسيحي.

ألا يشبه هذا عملية تسلل تقليدية!؟

وفي شباط عام 1990، كانت أنجيلا ميركل تشغل منصب المتحدثة باسم الحزب. وبعد الاندماج، انتخبت في انتخابات ما بعد الوحدة عضواً في البرلمان عن الاتحاد الديمقراطي المسيحي.

وأخيراً صعدت ميركل لتصبح أمينة عامة لحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي، نفسه، بعد سلسلة من الفضائح المالية، المفاجئة، التي هزت الحزب، واضطرت رجال الصف الأول فيه، إلى إفساح المجال لها للوصول إلى الموقع الأول، حيث انتخبت في سابقة تاريخية عام 2000، كأول امرأة، وأول بروتستانتينية تتولى مثل هذا المنصب في حزب له جذور مسيحية كاثوليكية متشددة.

وفي النهاية، أصبحت مستشارة لألمانيا في عام 2005!

يجب أن نتذكر أن حزب الصحوة الديمقراطي، قبل أن يختفي من الحياة السياسية، كان يترأسه المحامي المعروف بتوليه قضايا المعارضين والمنشقين

طوال الثمانينات والصديق الشخصي لوالد أنجيلا ميركل وراعي بداياتها السياسية، ولفغانغ شنور، الذي قدم استقالته، خلال أقل من ثلاثة أشهر، على تأسيس الحزب!

واستقال على إثر اضطراره للاعتراف بحقيقة أنه مخبر لوزارة أمن الدولة!

الواقع، أن الكثير من ملفات وزارة أمن الدولة في ألمانيا الشرقية وقعت في خضم الأحداث العاصفة عام 1989 بأيادٍ أخرى واستُخدم بعضها. وهذا ما تسبب في فضحية حزب الصحوة الديمقراطي.

مثل هذا الموقف، واجه مثله بوتين حينها!

إجراءات طارئة

في خضم الاضطرابات التي عمّت ألمانيا الديمقراطية على إثر انهيار جدار برلين، بدأت موجة شغب طالت مؤسسات الدولة؛ وبعد أن حطّم الناس مبنى إدارة أمن الدولة، بدأوا يتجمعون حول مقر ممثلية الـ«كي. جي. بي» في دريسدن. وكان بوتين يتابع تحطيم المواطنين الألمان لمقر إدارة أمن الدولة، معتبراً أن هذا شأنهم الداخلي الخاص. ولكن ها هو مضطر لأن يوضح لهم بصورة مفهومة أن مقر ممثلية الـ«كي. جي. بي» ليس شأناً داخلياً. لقد كان ذلك تهديداً حقيقياً وخطيراً!

وكان ما يزال في الممثلية ما يكفي من الوثائق، في حين لم يكن هناك أحد لحماية المقر. وكان عليه أن يكون مستعداً لفعل ذلك بنفسه هو ومن معه، طالما أنه يملك هذا الحق حسب ما هو معمول في إطار الاتفاقات بين الوكالتين الأمنيتين والدولتين (السوفيتية والألمانية الشرقية). وابتداءً، تَوجّب عليه أن يظهر هذا الاستعداد للدفاع عن المقر بأوضح صورة.

وهكذا فعل، وأحدث ما فعل الأثر المطلوب، لبعض الوقت!

كان لديه عدد قليل من الأفراد. وبعد مرور بعض الوقت، نما الحشد وأصبح أكثر جرأة؛ فخرج بوتين إلى المتجمهرين الذين احتشدوا حول المبنى وسألهم ماذا يريدون. وأوضح لهم أن المبنى هو مقر لمنظمة عسكرية سوفيتية.

فسأل ناس من الحشد، غير مصدقين:

- إذن، لماذا هنا في الفناء سيارات بنمر ألمانية؟ ثم ماذا تفعلون هنا أساساً؟

قال لهم إن لدينا اتفاقية تسمح لنا باستخدام الأرقام الألمانية.

- وأنت من تكون؟ تتكلم الألمانية بشكل جيد جداً.

صرخ أحدهم. فأجابه قائلاً إنه مترجم.

ولكن العبارة الأهم، والأكثر وقعاً التي قالها بوتين للحشد الغاضب؛ وقالها بثقة، واستذكرها دائماً في مقابلاته، هي:

- أتعرفون..! أن يكون جدار برلين انهار، فهذا بفضل إرادتنا الطيبة!

وكان يتحدث عن الجانب السوفييتي، ويعني كما يفهم من السياق أن هذا لم يكن ليحدث لو لم يكن هناك قرار سوفييتي.

واللافت هنا، أن غورباتشوف كان قبل ذلك بوقت قصير في زيارة إلى كندا، وأثناء المحادثات مع رئيس الوزراء الكندي صدرت عنه عبارة غريبة جداً.

قال:

- بما يتعلق بالمسألة الألمانية، فهي اليوم بالنسبة لنا ليست مسألة ملحة. في الواقع لدينا اليوم دولتان ألمانيتان عضوان في الأمم المتحدة، وهناك الهياكل السياسية والعسكرية.

لقد أعطى بكلماته هذه إشارة بعدم ممانعة الاتحاد السوفييتي للتصرف إزاء ألمانيا الشرقية!

وعملياً، كان الهاجس الملح لغورباتشوف في كل المحادثات، التي أجراها في ذلك الوقت العصيب بالنسبة لألمانيا الشرقية، هو إيصال هذه الرسالة، أن يسمع ويفهم الجميع أن الجانب السوفييتي ليس مهتماً بالمسألة الألمانية، التي بالمناسبة تحكمها اتفاقية هامة، هي اتفاقية يالطا الشهيرة (1945).

وعاد يؤكد على ما قاله، بعد ثلاثة أيام من ذلك، خلال محادثات أجراها في إيطاليا مع رئيس الوزراء أندريوتي: «لقد قلتها بصراحة: موضوع توحيد الألمانيتين، ليس ملحاً».

وزاد على ذلك بأن أوعز بإعطاء القوات السوفيتية المتواجدة في ألمانيا،

بالإضافة إلى ممثليات الـ«كي. جي. بي» هناك بعدم التدخل في الأحداث الألمانية الداخلية، إلا بأمر مباشر من موسكو.

وهذا بطبيعة الحال بمثابة رفع الغطاء عن النظام الحليف هناك!

أجرى بوتين اتصالاً مع قيادة القوات السوفيتية في دريسدن وشرح لهم الوضع. قال إنه يواجه مزاجاً عدوانياً، فقالوا له: «لا يمكننا القيام بأي شيء دون أوامر من موسكو. وموسكو صامتة». أي، لا ترد بجواب. ثم، بعد بضع ساعات أرسلوا الجنود، وتفرّق الحشد.

ولكن عبارة «موسكو صامتة» لم تمر سهلة على أذنه!

تكوّن لدى بوتين، كما لدى كثيرين من أمثاله، شعور بأن دولته لم تعد موجودة. وأصبح واضحاً بالنسبة له أن الاتحاد السوفييتي مريض، وأنه مصاب بمرض قاتل، غير قابل للشفاء اسمه الشلل. شلل السلطة.

لقد كانت عبارة «موسكو صامتة» صدمة متكررة في الثمانينات!

ويعلم بوتين دون شك، أنه في تلك الليلة التي صمتت فيها موسكو عن إجابة استغاثته بينما كان يواجه في دريسدن ما يقارب خمسة آلاف من المواطنين الألمان الغاضبين، أقامت مجموعات من مثقفي الاتجاه «الديمقراطي» في موسكو، حفلاً كبيراً وصاخباً، في الطابق الخامس من «بيت السينما»، استمر حتى الصباح، احتفالاً بهذا الحدث «الرائع» و«العظيم».. والمقصود بالطبع، سقوط جدار برلين!

هذه المفارقة، لن تكتمل إلا بعودة بوتين من ألمانيا، والتحاقه بالعمل لدى هؤلاء «الديمقراطيين» في مجلس مدينة سانت بطرسبورغ، في لحظة محيرة لا تجد إلى يومنا هذا الوقائع الصريحة التي تفسرها.

لكنها على أي حال كانت أحداثاً صعبة، وليس غريباً أن تقود إلى مسالك غير

متوقعة!

بلى، هي أحدث صعبة، ولم يكن وقعها على لودميلا ألكسندروفنا أقل قسوة، رغم أنها لم تصطدم بها مباشرة. لكنها راقبت من جهتها ما كان يحصل مع جيرانها. وتروي بتأثر كيف أن جارتها، التي كانت صديقتها كذلك، «بقيت تبكي أسبوعاً كاملاً. بكت على الفكرة المفقودة، وانهيار تلك المبادئ التي آمنت بها طوال حياتها. بالنسبة لهم، كان ذلك بمثابة انهيار لكل شيء: الحياة، والعمل».

لقد أصبحوا جميعا بلا عمل، ومنعوا من ممارسة مهنهم!

وفي روضة الأطفال التي كانت ترتادها ابنة بوتين كاتيا كانت هناك معلمة، وبعد انهيار جدار برلين، لم يعد لديها الحق في العمل بالروضة، باعتبار أنها مسجلة على سلم رواتب وزارة أمن الدولة.

رغم أن مهنتها معلمة روضة، وليست محققاً، ولا مخبراً!

لقد كانوا جميعاً موظفين في وزارة أمن الدولة، بحكم أن تلك المنشآت على اختلافها تابعة للوزارة؛ وقد عانى الكثيرون جراء تلك الملاحقة الانتقامية. وفي حالة تلك الجارة، عانت لوقت من أزمة نفسية، ولكنها لاحقاً بطريقة أو بأخرى تجاوزت المحنة..

لقد التحقت بالعمل في دار لرعاية المسنين.

كانت تلك الملاحقة الانتقامية تثير الجنون؛ ولم يسلم منها أحد من مواطني ألمانيا الشرقية تقريباً، ولكن تباينت الدرجات. وهنا تروي لودميلا قصة حول صديقة ألمانية شرقية أخرى لها تعمل في شركة ألمانية غربية، عملت هناك لوقت طويل، وبنجاح كبير، وذات يوم، قال رئيسها في العمل، فجأة، في حرارة النقاش:

- جميع الألمان الشرقيين السابقين أغبياء، وغير متعلمين وغير أكفياء عموماً،

وهم مواطنون من الدرجة الثانية.

وبعدما سمعت هذا الكلام، قالت له:

- ولكن، بالمناسبة، أنا من جمهورية ألمانيا الديمقراطية. هل تعتبرني كذلك غير كفؤة ولا متعلمة؟

«صمت رئيسها لا يعرف ماذا يقول. ولكن الأمر كان واضحاً. السياسة التي قادت إلى انهيار جدار برلين لم تكن سياسة توحيديّة، كان يقف وراءها مزاج ابتلاع انتهازي، وسلوك انتقامي. وهذا كان يجري حقنه في المجتمع، آنذاك!».

هذا ما تراه لودميلا ألكسندروفنا، في شهادتها حول تلك الأحداث.

من جهته، يقر بوتين في أحاديثه عن هذه الفترة بأنه كان، في الواقع، يعرف أنه لا مفر من حصول ما حصل، مشيراً إلى أن ذلك أثار أسفه الشديد، تحديداً، على الموقع الذي خسره الاتحاد السوفييتي في أوروبا.

ويلاحظ بأسف أنه كان يود أن يحل شيء ما آخر مكان الذي كان. «ولكن لم يكن هناك شيء مقترح، لم تكن هناك خطة، وهذا أمر مؤسف. لقد رمينا ما كان موجوداً وذهبنا».

اللغز الثامن

الأسرار الغورباتشوفية

ألغاز دريسدن

التقى بوتين مع كيسنجر بعد عودته إلى سانت بطرسبورغ بوقت؛ وفجأة راح ثعلب السياسة الأمريكية يؤكد له ما كان يفكر فيه. حصل هذا حينما تشكّلت في سانت بطرسبورغ لجنة يترأسها كيسنجر وسوبتشاك، مختصة بشؤون تطوير سانت بطرسبورغ وجذب الاستثمارات الأجنبية.

زار كيسنجر، حينها سانت بطرسبورغ بضع مرّات. خلال واحدة من تلك المرات استقبله بوتين في المطار. استقل السيارة معه وتوجه به إلى مقر الإقامة. في الطريق سأل كيسنجر بوتين من أين هو، وماذا يفعل، فأجابه.

وسأل كيسنجر:

- منذ متى وأنت تعمل هنا؟

قال بوتين:

- منذ نحو عام.

- وقبل ذلك أين كنت تعمل؟

- قبل ذلك كنت في مجلس المدينة.

- وقبل مجلس المدينة؟

- في الجامعة.

- وقبل الجامعة؟

- قبل ذلك كنت في الجيش.

- في أي سلاح؟

قال بوتين:

- حسنا، أعتقد، أن ظنكم سيخيب الآن. أتعرف، لقد عملت في سلك الاستخبارات.

قال كسينجر بهدوء:

- هل عملت في الخارج؟

أجابه بوتين باقتضاب:

- عملت في ألمانيا.

سأل كسينجر مدققاً:

- في الشرق أم الغرب؟

فقال بوتين:

- في الشرق.

قال كسينجر:

- كل الناس المرموقين بدأوا في الاستخبارات، بما في ذلك أنا.

دهش بوتين. لم يكن يعرف أن كيسنجر كان يعمل في الاستخبارات. ولكن ما قاله بعد ذلك كان مفاجئاً أكثر، ولم يكن بوتين ليتوقع سماعه منه، أبداً.

قال:

- أنت تعرف، الآن ينتقدونني بشدة لموقفي في ذلك الوقت بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي. اعتقدت أن الاتحاد السوفييتي لا ينبغي أن يخرج بسرعة من أوروبا الشرقية. السرعة الكبيرة تحدث تغييراً في التوازن في العالم، وهذا يمكن أن يؤدي إلى نتائج غير مرغوب بها. وللآن يوجهون اللوم لي على هذا

الموقف، ويقولون: ها قد خرج الاتحاد السوفييتي من أوروبا، وكل شيء على ما يرام. وكنت تقول بأن هذا مستحيل. ولكن أنا بالفعل اعتقدت إنه غير ممكن.

ثم فكر لحظة، وأضاف:

- بصراحة، ما زلت لا أفهم لماذا فعل غورباتشوف ذلك!

لم يكن بوتين يتوقع أن يسمع منه ذلك. لم يكن يتوقع أن ينطق العجوز الأمريكي بما كان هو نفسه يفكر فيه: كان من الممكن تجنب الكثير من المشاكل، لو لم تجر الأمور على نحو ذلك الهروب المهين.

وبينما يفكر بوتين بكلام ثعلب السياسة الأمريكية، يكون قد ترك للآخرين الكثير مما يفكرون فيه، ويتوهون في تتبع أثره الذي محاه جيداً، ولم يترك منه إلا بعض الشهادات والأقوال..

شهادات وأقوال لم تقدم صورة كاملة، حول نشاطه في دريسدن!

عملياً، لم تبدأ رحلة فلاديمير بوتين المهنية في موسكو، ولكنها بدأت في واقع الأمر في دريسدن. لقد كان حتى سقوط نظام إريك هونيكر ضابط «كي. جي. بي» في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. هذه الفترة من سيرة بوتين استمرت خمس سنوات، وتخللتها الكثر من الشائعات الغامضة.

واحدة من الشائعات تدور حول اجتماع في يوم شتائي! وتبدأ الشائعة بالحديث عن اجتماع عاجل نجح في عقده اثنان من ضباط الـ«كي. جي. بي»، في واحد من مباني دريسدن (16 كانون الثاني 1990)، وحضره ضابط الشرطة السياسية في ألمانيا الشرقية، التي كانت لعدة سنوات، واحداً من أبرز الأجهزة المساندة للأجهزة السرية السوفيتية. كما حضره ممثل الاستخبارات الخارجية الألمانية التابعة لوزارة أمن الدولة الألمانية.

كانت ثمة زجاجة من الشمبانيا على الطاولة..! وفي الواقع، لم تكن هناك أسباب

للاحتفال، فألمانيا الشرقية ستكف عن الوجود قريباً، وكذلك خدماتها السّرية. كان قد اقتُحِم مكتب وزارة أمن الدولة في مقاطعة دريسيدن ليلة 6 كانون أول 1989، وسيطر الناس على ملفات الأرشيف المخزن هناك.

كان واضحاً أن إنقاذ الوضع بأساليب ما قبل البيريسترويكا غير ممكن!

وكانت وكالات الاستخبارات في ألمانيا الشرقية فقدت القدرة على العمل والتصرف، ودون مساعدة الأجهزة في الدول الاشتراكية الشقيقة لن تستطيع حتى حماية خطوط الهاتف السرية من عمليات التنصت. لقد انقضى وقت الفعاليات العملياتية وجوازات السفر المزورة. إنها كارثة. والآن في الاجتماع يفكر الرجال الأربعة بالوسائل التي يمكن بواسطتها حفظ ونقل ما تبقى من شبكة الاستخبارات الألمانية الشرقية إلى الـ«كي.جي. بي».

وكان عملاء موسكو أنفسهم في وضع صعب!

لم يكتب لهم مواصلة جهودهم في «البحث عن مخبرين جدد». وكانت هذه التطورات تقلق الـ«كي. جي. بي». وخلال ذلك الاجتماع وصل بهم الأمر إلى تجاهل القواعد الرئيسية لمهنتهم، أو لربما لم يعد أي من ضابطي الاستخبارات السوفيتيين يهتم بالفعل. ربما لأنهم يدركون أنه تمت خسارة الحرب الباردة، وسرعان ما ستجتاح الاتحاد السوفييتي نفسه التغييرات الكارثية.

فما هو ذلك الشيء الذي كان يستدعي الاحتفال وسط الانهيار والأنقاض!

كان الجاسوسان السوفيتيان يعلمان على الأغلب أن الأعداء حصلوا بالفعل على منفذ للوصول لجواسيس ألمانيا الشرقية، وأن وقتاً عصيباً قد حلّ، ولا سبيل لإيقاف تقدمه، ورغم ذلك كانت الكؤوس ترن بأيدي الرجال الأربعة، الذين راحوا يشربون بصحة التعاون الناجح والاشتراكية الديمقراطية في ألمانيا الشرقية.

من يراهم يعتقد أنهم أنجزوا مهمة معقدة، على نحو ناجح!

لم يتسن إنقاذ أي شيء. قبل أربعة عشر عاماً، كان «كلاوس تساونديك» يعمل بستانياً، و«جورج سي»، مجرم سابق، ويعيش على حساب المعونة الاجتماعية؛ وها هما اليوم معرضان للخطر. كما إنه كان قد فقد أثر أحد رجال الاستخبارات السوفييت. ومع ذلك، فإن أحد المشاركين الأربعة في ذلك الاجتماع، وهو الذي كان جند «كلاوس تساونديك»، ووصف جورج سي بـ«أفضل عميل لدينا»، تقدم في الحياة بشكل لا يصدق..

كان هذا، فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين..!

أربع سنوات ونصف، في الفترة من آب 1985 إلى كانون الثاني أو شباط 1990، عمل فلاديمير بوتين في دريسدن. ولكن من غير المرجح أن يتذكر سكان المدينة الواقعة على نهر إلب هذا الرجل القصير، باهت الملامح لدرجة تجعله غير مرئي أو ملحوظ. ومن المرجح أنهم لم يستطيعوا تذكره حينما عُيِّن رئيساً للوزراء، ثم رئيساً لروسيا..!

كل هذا لا يلغي السؤال حول ما الذي كان يُبهج عملاء الـ«كي. جي. بي» وأخلص شركائهم الألمان في ذلك الاجتماع، الذي عقدوه في تلك الأيام العصيبة..!

الأحداث الألمانية في ذلك اليوم، وفي اليوم السابق ليس فيها ما يبهجهما؛ كانت الجموع البرلينية قد اقتحمت مقر الاستخبارات الألمانية «ستازي» في العاصمة الألمانية؛ فهل كان هذا ما يثير بهجتهم؟

إلا إذا كان هذا الهجوم الشعبي غطاء لعملية سيطرة على محفوظات الاستخبارات الألمانية وتدميرها في مكانها (!) وما علاقة هؤلاء الأربعة، الذين عرف من بينهم بوتين، بهذه الواقعة!

لقد ولدت فترة عمل بوتين في دريسدن شائعات وأسئلة كثيرة: هل حقاً وضع بوتين في تلك السنوات من عمله في دريسدن الأساس لصعوده الأسطوري في

روسيا بعد الاتحاد السوفييتي؟ هل حقاً انه أنشأ شبكة في دريسدن؟ وهل كان جزءاً من عملية «الشعاع»، التي كانت تتجسس الـ«كي. جي. بي» في اطارها على مسؤولي الحزب الاشتراكي الألماني الموحّد؟ من كان بوتين في العموم: هل كان رجل استخبارات خارق من عصر الحرب الباردة أم..

هو مجرد رجل استخبارات عادي يعمل في ضواحي ألمانيا الشرقية البعيدة؟

من الصعب القول إن دريسدن مركز استخباري. إنها أصغر وأقل أهمية من ذلك. لذا، استقرت فيها وحدة «كي. جي. بي» صغيرة، فماذا كان بوتين يفعل هناك؟ وفيم كان يتلخص عمله؟ حول هذا الموضوع هناك العديد من الأساطير. العديد من الشائعات.

يقولون، على سبيل المثال، أن الوظيفة قادت بوتين إلى عاصمة ألمانيا الغربية، بون، في أواخر السبعينات. ويقال إن استخبارات واحدة من الدول الغربية رصدته بالكاميرا وصورته يتجول في مركز كاديوي للتسوق في برلين الغربية.

وهناك من زعم أن بوتين نظّم عملية الحصول على وثائق ومخططات مشروع طائرة يوروفايتر، وتعقب الاتصالات الحثيثة بين شركتي سيمنز وروبوترون. كما أن هناك إشاعات عن قيامه بالتجسس على علماء ألمانيا الشرقية البارزين من مثل مانفريد فون اردين.

ويقال كذلك أن بوتين كان يتجسس كذلك على الإصلاحيين من الحزب الاشتراكي الألماني الموحّد الحاكم، بل وقدم لبعضهم الدعم. المقصود هنا، هانز مودروف وفولفغانغ بيرغهوفر.

إثبات كلّ هذا غير ممكن، ولكن كثير من هذه المعلومات تتعارض مع منطق استخبارات الدول الاشتراكية. وهي في أفضل الأحوال مجرد إشاعات، وبالذات الحديث عن عمل بوتين في بون، إذ حينما وصل بوتين في عام 1985 إلى دريسدن، يكاد لا يتحدث اللغة الألمانية. وهناك شك كبير أيضاً باهتماماته

المهنية بهانز مودروف وفولفغانغ بيرغهوفر، إذ من المتوقع أن يكون رئيس المنظمة الحزبية في المنطقة وعمدة المدينة من اختصاص أعضاء أرفع شأناً في «كي. جي. بي»، وعلى الأغلب فإن العلاقة معهم يتولاها أعضاء في الحزب الشيوعي السوفييتي.

ذات الأمر يمكن قوله عن حالات مماثلة من الشائعات الأخرى من هذا النوع.

مَهمّة غامضة

«ماذا لم يلفّقوا من قصص حولي».. هكذا شكا بوتين في واحدة من المقابلات، مشيراً إلى الإشاعات والأقاويل التي تناولت فترة عمله الاستخباراتي في ألمانيا الديمقراطية. ولكن هذا موقف ونفي متوقع من رجل استخبارات انتقلت به مهنته إلى السياسة.

«كل هذا هراء».. هذا ما يؤكده فلاديمير أوسولتسوف، الذي عمل مع بوتين في دريسدن لأكثر من عامين في نفس المكتب، مشيراً إلى نفس الإشاعات والأقاويل. وإن كان هذا التأكيد لا يجد ارتياحاً لدى دارسي بوتين، فهو تأكيد يأتي في سياق ضغينة مستحكمة، ويستهجن لأسباب شخصيّة الاهتمام الإعلامي المبكّر بشخصية بوتين.

وفي مثل هذه المواقف، فإن غياب إجابات قاطعة، ودلائل غير شخصية، هو أمر مثير للانتباه؛ إذ من المتوقع دوماً أن لا تكون هناك دلائل تؤكد بشكل قاطع، ولكن من غير المحتمل تقريباً أن تنعدم إمكانية وجود دلائل تنفي بشكل قاطع. وفي حالة بوتين لا توجد إجابات قاطعة. لا نفياً ولا تأكيداً، بينما ملفات الـ«كي. جي. بي» في دريسدن، إمّا أُحرقت في عام 1989، أو نُقلت إلى موسكو.

قليلون هم من يتحدثون اليوم عن هذه الفترة في حياة الرئيس الروسي.

وهكذا، فإن بوتين بالنسبة للرئيس السابق للاستخبارات الخارجية في ألمانيا الشرقية ماركوس وولف هو «شخصية غير هامة بما يكفي». بينما الجنرال السابق في الـ«كي. جي. بي» أوليغ كالوغين، الذي هرب إلى الغرب، لا يعتبر بوتين رجل استخبارات مهماً. ومع ذلك، فلا وولف ولا كالوغين سبق لهما أن التقيا مع بوتين شخصياً. كما أن فلاديمير أوسولتسوف، الذي كان زميلاً لبوتين، لا تراوده أي أوهام بشأن أنشطة بوتين الماضية: «خمس سنوات ونحن نعمل معاً لا نعرف من أجل ماذا». كان العمل «منظماً بشكل مفرط وغير فعّال».

مَهمّة غامضة

«ماذا لم يلفّقوا من قصص حولي».. هكذا شكا بوتين في واحدة من المقابلات، مشيراً إلى الإشاعات والأقاويل التي تناولت فترة عمله الاستخباراتي في ألمانيا الديمقراطية. ولكن هذا موقف ونفي متوقع من رجل استخبارات انتقلت به مهنته إلى السياسة.

«كل هذا هراء».. هذا ما يؤكده فلاديمير أوسولتسوف، الذي عمل مع بوتين في دريسدن لأكثر من عامين في نفس المكتب، مشيراً إلى نفس الإشاعات والأقاويل. وإن كان هذا التأكيد لا يجد ارتياحاً لدى دارسي بوتين، فهو تأكيد يأتي في سياق ضغينة مستحكمة، ويستهجن لأسباب شخصيّة الاهتمام الإعلامي المبكّر بشخصية بوتين.

وفي مثل هذه المواقف، فإن غياب إجابات قاطعة، ودلائل غير شخصية، هو أمر مثير للانتباه؛ إذ من المتوقع دوماً أن لا تكون هناك دلائل تؤكد بشكل قاطع، ولكن من غير المحتمل تقريباً أن تنعدم إمكانية وجود دلائل تنفي بشكل قاطع. وفي حالة بوتين لا توجد إجابات قاطعة. لا نفياً ولا تأكيداً، بينما ملفات الـ«كي. جي. بي» في دريسدن، إمّا أُحرقت في عام 1989، أو نُقلت إلى موسكو.

قليلون هم من يتحدثون اليوم عن هذه الفترة في حياة الرئيس الروسي.

وهكذا، فإن بوتين بالنسبة للرئيس السابق للاستخبارات الخارجية في ألمانيا الشرقية ماركوس وولف هو «شخصية غير هامة بما يكفي». بينما الجنرال السابق في الـ«كي. جي. بي» أوليغ كالوغين، الذي هرب إلى الغرب، لا يعتبر بوتين رجل استخبارات مهماً. ومع ذلك، فلا وولف ولا كالوغين سبق لهما أن التقيا مع بوتين شخصياً. كما أن فلاديمير أوسولتسوف، الذي كان زميلاً لبوتين، لا تراوده أي أوهام بشأن أنشطة بوتين الماضية: «خمس سنوات ونحن نعمل معاً لا نعرف من أجل ماذا». كان العمل «منظماً بشكل مفرط وغير فعّال».

«وكالة الاستخبارات كانت تعيش في عالم صغير مغلق بإحكام، مبني على روتين سخيف، وتقارير لا معنى لها، ودراسة لا نهاية لها للملفات الشخصية».

وإذا كان يمكن تصديق فلاديمير أوسولتسوف فإن فلاديمير بوتين شارك في «المخابرات غير الشرعية» و«مخابرات الوثائق والهويات المزورة». وفقاً لهذه البيانات، كان بوتين مجرد ترس صغير في آلة الـ«كي. جي. بي» الضخمة. كانت مـهمته إقناع المواطنين الألمان من أصحاب القناعات الأيـدلوجية القويـة للتعاون مع الاستخبارات، وقبل كل شيء الطلاب من دول العالم الثالث، الذين يمكن تجهيزهم وإرسالهم للإقامة في الغرب.

وبحسب فلاديمير أوسولتسوف كان الأمر يشبه البحث عن اللؤلؤ في القمامة!

كان يتم وضع الآلاف من المرشحين المحتملين تحت المراقبة والمئات منهم وضعوا تحت اختبار الموثوقيـة الأيـديولوجية، وتعـرّض العشرات منهم لاختبـارات صـارمة. لـيتبقى منهم في النهاية عشرون أو ثلاثون شخصاً، يصبحون في نهاية المطاف مخبرين، وعدد محدود جداً منهم يصبحون عملاء سرّيين.

أيمكن اعتبار مهنة بوتين في ألمانيا ناجحة؟

للوهلة الأولى، نعم. في نهاية المطاف، حصل على الترقية مرتين لقاء عمله في دريسدن. أصبح رائداً، ومن ثم عقيداً. بوتين نفسه يفسر هذه الترقيات باعتبارها تتويجاً «لنتائج ملموسة في عمله»، فضلاً عن عدد من مصادر المعلومات الذي يعكس بدوره مقداراً معيناً من عمليات التجنيد. ومع ذلك، فإن فلاديمير أوسولتسوف يعتقد أن هذه المصادر غير مهمة كثيراً. ووفقا له، فإن بوتين قد يكون جنّد عميلين سريين فقط، ولكنه تمكن من الحصول على ترقية عن كل واحدة من هذه الحالات..

نجمتان إضافيتان على كتفيه..!

الاتصالات مع الجواسيس في الغرب والمخبرين في الشرق، لم تكن مهمة بوتين. لكن كان لديه اثنان ممن يسمّون بـ«الموظفين الهامين غير الرسميين»، اثنان من مواطني ألمانيا الشرقية، الذين استقروا في محيط مديرية الشرطة الألمانية في المقاطعة: «راينهارد إي» و«جورج سي». بينما بقي بوتين في الخلفية، ضابط ارتباط، يطور خطط العمليات، يصادق على الأنشطة، وينظم اللقاءات السرّية.

الخوف الروسي من الأميركيين في دريسدن كان يتم الشعور به في كل خطوة. كان الاتحاد السوفييتي على قناعة راسخة بأن توجيه ضربة نووية محتملة من قبل الولايات المتحدة لن يكون أمراً مفاجئاً بلا مقدمات وحيثيات. وكانت موسكو تعتقد أن الإعداد لمثل هذا الهجوم لا يمكن أن يمر دون ملاحظة، ويمكن بالتالي من خلال الأدلة الظرفية التنبؤ به.

وكان على بوتين أيضاً أن يسهم في هذه القضية..

كانت موسكو تنطلق من حقيقة أن واشنطن ستلجأ عشية نشوب أي حرب نووية إلى إرسال مجموعاتها من «أصحاب القبعات الخضراء» بمهمة تحييد قدرة الرد السوفييتية. والقوة المعنية بهذا الخصوص هي القوات الخاصة في الجيش الأمريكي، وعلى وجه الخصوص، تلك المتمركزة في القاعدة العسكرية في «باد تيليتس» في بافاريا. وكان في ضمن مهمات كل رجل استخبارات سوفيتي مهمة تسجيل أي علامات على إعداد هجوم نووي. وتجنيد المخبرين المحتملين المؤهلين لتقديم الخدمات في هذا الموضوع، بما في ذلك، في دريسدن. لقد كانت هذه مهمة مستعصية ومرهقة فعلاً..!

الآلاف من الطلبات المقدمة من مواطني ألمانيا الغربية لزيارة دريسدن، كانت تخضع للتمحيص لعدة أيام. تقريبا كلّ مساء، جلس ضبّاط الـ«كي. جي. بي» في مكاتبهم المظلمة، وغاصوا في الملفات والوثائق. وما أن يتضح في هذه الطلبات أن شخصاً ما من «باد تيليتس» في بافاريا يفكر بزيارة دريسدن حتى

يبدأ العمل العملياتي على الفور. يجب أولاً التأكد إن كان هذا الشخص قد أثار في وقت ما اهتمام «ستاسي» أو الـ«كي. جي. بي»، أم لا.. ثم يبدأ التحقق من وضع الجهة أو الشخص الداعي.

وحسب ما يقول أوسولتسوف، فإن هذا العمل لم يكن من ورائه أي طائل. يقال إنه كان لدى بوتين مخبر مقرّه في «باد تيليتس» في بافاريا، أو في مكان ما في هذه المنطقة. حتى لو كان هذا صحيحاً، فإن مثل هذا المخبر لن يقدّم أكثر من نتف فسيفسائية صغيرة تشبه اللغز، تصبح جزءاً صغيراً من اللوحة الكبيرة التي لدى موسكو.

في مرحلة ما، لم يعد بوتين يعتقد بوجود تهديد من الغرب!

وبات يبدو في الأحاديث العامة العلنية أكثر اقتناعاً وحماسة لأفكار البيروسترويكا، ولكنه لم يكف في الأحاديث الخاصة المنفردة عن انتقاد البيروسترويكا بشدّة وإطلاق الأحكام الحادة بشأنها. قال بوتين ذات مرة لزميله في المكتب فلاديمير أوسولتسوف إن الاتحاد السوفييتي هو دولة بلا قوانين، وأعلن أنه من الضروري أخذ المثال من الولايات المتحدة. الأميركيون، في رأيه، بنوا نظاماً اجتماعياً مثالياً، وبالتالي، فإن الخطر لا يأتي من واشنطن، بل من موسكو..!

وبصرف النظر عن الآراء، يواصل بوتين القيام بعمله بإخلاص. أوسولتسوف يصفه برجل استخبارات براغماتي وملتزم. وبقدر ما كان بوتين ينتقد بلده في الأحاديث الخاصة بشدّة، إلا أنه لم يفعل ذلك بالعلن أبداً. وبقي على المستوى الرسمي، يثني على «الصداقة غير القابلة للكسر» بين الشعبين الشقيقين السوفييتي والألماني. ثم يشكو بعد ذلك لدائرته الخاصة أنه اصطدم في ألمانيا الشرقية بـ«مجتمع جامد» للغاية. ووصل الأمر به إلى حد أنه قال ذات مرة لأصدقائه علناً: «يجب أن يرحل هونيكر».

هل كان يعبّر بذلك عن رأيه الشخصي، أم كان يؤدي مهمة رسمية؟

ربما كان فلاديمير بوتين جزءاً من عملية «الشعاع»، التي يفترض أن مجموعة سرية من الـ«كي. جي. بي» نفّذتها بغرض جمع المعلومات حول الحزب الاشتراكي الألماني الموحّد ودعم الإصلاحيين في صفوف الحزب.

المؤمنون بنظرية المؤامرة واثقون من أن هذه المجموعة السرية الصغيرة التي كلفتها الـ«كي. جي. بي»، التي يفترض أن بوتين له علاقة بها، كانت مهمتها الأساسية هي الإطاحة بإريك هونيكر، وإجراء تغييرات جذرية أخرى في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. المشكلة، أن ليس هنالك وثائق متاحة للجمهور عن هذه المجموعة وعمليتها!

ولا أحد يعرف ما هي قوة هذه المجموعة ومقدار نفوذها، وممن تكونت، وإلى أي مدى أثّرت على عملية التغيير التي بدأت وقادت إلى تلك الأحداث في ألمانيا الشرقية، وأدت إلى الانفجار العام وانهيار جدار برلين.

يمكن القول إن هذه العملية منيت بالفشل، في الظاهر على الأقل!

لا يمكن لأحد، بطبيعة الحال، أن يجزم بذلك؛ فلكي تحكم بنجاح أو فشل أي عملية يتوجب أولاً معرفة أهدافها الحقيقة. الأهداف النهائية التي تريد الوصول إليها، والخطة الموضوعة لتنفيذها.

أحياناً، تفشل الخطة، ولا تعمل كما يجب، ولكن النتائج تأتي كما أرادها المخططون. وهنا، يلعب الواقع، وسير الأحداث دور المصحح للمخطط، بشكل تلقائي.

وأحياناً أخرى، تنجح الخطة، تسير كما هو مخطط لها، ولكن النتيجة تأتي بعكس ما أراده المخططون، أو على الأقل لا ينجحون في إحداث التغيير الذي أرادوه، بشكل كامل أو جزئي، وهنا، مثال على سوء التخطيط، أو فقدان السيطرة على النتائج!

وفي أحيان أخرى مختلفة، تفشل العملية فشلاً كاملاً. فلا الخطة تعمل، ولا النتائج تأتي كما أُريد لها أن تكون. ويصعب الوصول إلى مثل هذا النوع من الفشل دون إخفاق شامل..

فأي إخفاق، أو أي نجاح كان من نصيب «الشعاع»؟

لا يُعرف المهمة الأساسية ولا الأهداف النهائية الحقيقية، أو الخطة الفعلية، التي وضعت لعملية «الشعاع». ولكن لدينا ما يقال، وما يقال هو أن الغرض من العملية هو إيصال أشخاص مناسبين لموسكو إلى السلطة في برلين الشرقية.

ولكننا لسنا على يقين بأننا نعرف ما الذي يناسب موسكو الغارقة بالبريسترويكا!

لا نعرف حتى إن كانت موسكو تتصرف كطرف واحد، أو أن الـ«كي. جي. بي»، التي حاولت الإطاحة بغورباتشوف بعد عامين، كانت تتصرف وفق رؤيتها الخاصة، أم كانت تخدم رؤية غورباتشوف. وإن كانت تتصرف وفق رؤيتها، فإلى أي حد كانت هذه الرؤية تختلف عن الرؤية الرسمية.

لا نعرف إن كانت العملية تهدف إلى تحقيق غايات غورباتشوف، فنقول إنها نجحت، أم أنها كانت تسعى لتحقيق مصالح الاتحاد السوفييتي، فنحكم عليها بالفشل الذريع.

الأمر المنطقي الذي يفرضه هذا اللايقين، هو أن القائمة ليست مغلقة على هذين الاحتمالين!

وقد يكون في الأمر ما فيه، أو قد ينكشف في لحظة ما عن تشابه مع النسخة السوفيتية من الأحداث في كثير من أجزائها، وبالذات تلك الأجزاء المتعلقة بروسيا وبوتين نفسه؛ نجح مخطط تدمير الاتحاد السوفييتي، ولكن الأحداث أعادت خلق روسيا القوية التي تستعيد نسخة دولية من الإمبراطورية المنهارة، ولكن معافاة تماماً، و«الديمقراطيون» جاءوا ببوتين لإنقاذ حكمهم، ولكنه بنى

نظاماً لم يكن يحلم به أشد معارضيهم تطرفاً.

أي، ربما كان أو يكون للواقع ولخط الأحداث رأياً وازناً!

مجموعة الشعاع

لا يمكن تأكيد المزاعم بأن بوتين كان عضواً في مجموعة «الشعاع»، والتأكيد على هذه الرواية قد يكون مدفوعاً بمحاولات تفسير صعود بوتين، الذي بدا «صاروخياً»، في وقت احتل فيه المشهد السياسي رجال مرحلة البريسترويكا، ما جعل هذا الصعود لرجل من خارج الطبقة السياسية، يبدو غير مفهوم، تحفّه الألغاز، التي تزداد غموضاً باقتران سيرته الـ«كي. جي. بي»، والخدمة في ألمانيا الديمقراطية في وقت تغيرات حرجة.

من جهة أخرى، ومن حيث المبدأ، لم يكن من الممكن إشراك الأفراد الذين كانوا يعملون رسمياً في الـ«كي. جي. بي» بألمانيا الشرقية، في هذه العملية، وذلك لدواع تتعلق بالسلامة واللباقة. ومن المهم الانتباه إلى أن موسكو كانت على أي حال ستتجنب رجال الـ«كي. جي. بي» العاملين في ألمانيا الشرقية، في ذلك الوقت. ذلك أن هؤلاء كانوا مكشوفين لجهاز الاستخبارات الألمانية «ستازي»، بحكم ظروف العمل والتعاون المباشر فيما بين الجهازين الأمنيين، إضافة إلى أن العلاقات التي تفرضها طبيعة العمل تعرض فريق دريسدن إلى علاقات خاصة، وربما شخصية، مع ممثلي الجانب الألماني، يمكنها أن تضر بحسن أداء العملية، ويجعلهم عرضة للتأثر بعواطف لا تحتملها المهمة.

وهذا هو الحال، حتى بالنسبة لمجموعة دريسدن، ومنها فلاديمير بوتين!

ومع ذلك، فإن سيرة بوتين الألمانية على ما يبدو لم تكن بعيداً عن رصد المخابرات الغربية التي كان يعمل ضدها؛ فالصحافة الغربية دأبت بين فترة وأخرى على نشر نتف متفرقة، مثل لقطات تعد بمشهد مثير لا نراه، حول يوميات بوتين. وربما كانت رؤية المشاهد الكاملة ستبقى رهناً بإمكانية تعرض أجهزة المخابرات الغربية لما تعرضت لها مثيلتها في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية من استباحة على إثر الهزات الاجتماعية الكبيرة التي حدثت في بلدانها.

في هذه النتف المتفرقة إشارات تعزّز الفكرة حول بوتين رجل الاستخبارات صاحب الدور المحوري، ولكن هذه الإشارات تبقى كذلك دون سند قاطع، أو حيثيات تسند موضوعها بتفاصيل. غير أنه من اللافت أن هذه النتف تتركز على ذلك الاجتماع العاجل الذي عقده بوتين وزميل له مع اثنين من زملائهما الألمان اثنان من ضباط الـ«كي. جي. بي»، في واحد من مباني دريسدن، في أواخر أيام الدولة الألمانية الشرقية، والطبيعة الاحتفالية التي اتسم بها ذلك الاجتماع.

ولكن، مرّة أخرى، لا سياق محدد توظّف فيه هذه المعلومة، ولا توضع في اتجاه واضح.

ومن الأمور الأخرى التي تتوقف عندها هذه النتف هي شخصية العميل كلاوس تساونديك، أحد مجندي بوتين السابقين؛ إذ ترصده واحدة من هذه النتف، في تلك الظروف الحرجة، يصعد إلى شقة بوتين خفية، ودون أن يشعل ضوء الدرج. دون أن نفهم لماذا، وما الذي جرى بالذات، وما كان الأمر في الواقع.

من المعروف أن بوتين وكلاوس تساونديك التقيا في لعبة كرة قدم!

كان يطلب من كل موظف في «ستاسي» ممارسة الرياضة. وفي السابعة من صباح كل يوم خميس كان أفراد الاستخبارات الخارجية في دريسدن يجتمعون للعب الكرة. وكان بوتين ينضم إليهم في بعض الأحيان. وهكذا، تعارف تساونديك وبوتين، وأصبحا صديقين.

وبدأ الصديقان يخوضان في أحاديث طويلة، على نحو متواصل..

لم تكن فقط أحاديث مهنية حول الاستخبارات السرّية والتحقق من المرشحين للتجنيد. بل كانا غالباً ما يتجاوزا ذلك في أحاديثهما نحو الأدب الألماني والفلسفة.

كان بوتين مهتماً بتوضيح أنه ليس معجباً بماركس، بل بعمانوئيل كانط. وذلك في ما يشبه تقنية تقليدية لإثارة اهتمام الأشخاص وفضولهم من خلال التعبير أمامهم عن مواقف وقناعات لا يتوقعونها من محدثهم، وتعاكس قناعاتهم، بطريقة بسيطة غير متصلبة تغريهم بمحاولة تغييرها!

ووفق ذلك، كان بوتين يعبّر أمام تساونديك، البستاني الذي اعتاد أن يحاكم الدنيا استناداً إلى ماركس، عن إعجابه بفلسفة كانط المشبعة بروح النهضة، و«نقد العقل الخالص» وأطروحة «السلام الأبدي»، حيث يجري الحديث عن ضرورة إلغاء الجيوش النظامية الدائمة وصياغة المبادئ المؤسسية للحفاظ على السلام.

وهذا يذكر، على أي حال، بأحلام الفتى بوتين الأولى حول رجل الاستخبارات، الذي يغني عن جيش كامل!

ومع ذلك، كانت أوروبا الوسطى حتى أواخر الثمانينات بعيدة تماماً عن تلك الروح السلمية التي كان يتحدث عنها بوتين مستنداً إلى عمانوئيل كانط. ولم يكن أحد يعرف بعد أن الحرب الباردة، بصيغتها المفتوحة والمعروفة، ستنتهي قريباً، وأن ألمانيا الديمقراطية في طريقها للاختفاء من خريطة العالم، وأن الإمبراطورية السوفييتية ستنهار بكل بساطة.

لم تكن معرفة ذلك متاحة، لا لبوتين، ولا لتساونديك!

ويبدو أن هذه لم تكن مجرد تقنية تجنيد، فقد كان بوتين حينها، على أي حال، قد اكتشف أنه يستطيع إلى حد ما العيش بدون إيمان بالشيوعية. أو بالأحرى، اكتشف أن الشيوعية هي أيدولوجيا، وهي في المعادلة «متغير»، وأن مظلة الانتماء هي الدولة، والدولة في المعادلة «ثابت». وكانت الفكرة الشيوعية بالنسبة له قبل ذلك مجرد ثقافة رسمية، بينما أضحت الـ«كي. جي. بي» عنوانه الشخصي في هذه الدولة. لذا، لم يقلقه الاضطراب على المستوى الأيدولوجي، ولكن الشيء المختلف فعلاً فهو تلك الشكوك الكبيرة التي كانت تفاجئه بين

الحين والآخر حول الـ«كي. جي. بي» نفسها، وحول سلامة موقفها من «المتغير» وعلاقتها بـ«الثابت».

ولكنه كان يواصل القيام بعمله بنفس الاجتهاد، متجاوزاً تلك الشكوك.

واصل الحفاظ على المستوى المهني في عمله. كانت أدنى الأسباب تدفعه لذلك، حتى ولو كان يحتاج العمل فقط لأجل الحفاظ على الامتيازات. ومع ذلك، فإن هذه الامتيازات نفسها أصبحت موضع شك.

وهنا، يختبر بوتين، على نفسه وبنفسه، واقع أن تعيش القوة العظمى في أزمة!

حصل ذلك حينما اندفعت الجماهير الغاضبة إلى مقر عمله في الخامس من كانون الأول 1989 وكادت تقتحمه. في حين تعاملت الدولة العظمى مع الأمر كما لو كان شأناً خاصاً يتعلق به هو شخصياً..

وكان قبل ذلك معتاداً أن يعتبر نفسه، كفرد، شأناً من شؤون الدولة العظمى!

لم تجب الدولة العظمى نداءاته واستغاثاته، وتركته شبه أعزل، مجرداً من القوة، يواجه خمسة آلاف ألماني غاضب، رغم أن هناك في الجوار وحدات عسكرية سوفيتية قادرة على احتلال المدينة بأكملها..

بعد بضعة أسابيع، وظّب فلاديمير بوتين وعائلته حقائبهم، وكذلك زملاؤه وعائلاتهم، وغادروا إلى بلادهم، دون أن يعرفوا شيئاً عن الخطط التي تُعدّها لهم الـ«كي. جي. بي»، إن كانت قد أعدت لهم شيئاً..

في دريسدن يترك بعض زملائه من ضباط الاستخبارات الخارجية الألمان، كقنبلة موقوتة. ولكن العميل كلاوس تساونديك، وهو من آخر من جندهم بوتين، يتحول إلى قصة فشل ذريع. لقد انقلب على الـ«كي. جي. بي»، وتحول لخدمة الطرف الآخر. كان هذا الثمن الذي دفعته الـ«كي. جي. بي» بسبب توقف بوتين عن التواصل مع مجنّده. وربما كان هذا نتيجة شعور هذا «المجنّد»

بالخديعة، إذ أن عملية «شعاع»، التي يفترض أنها أدت إلى انهيار نظام بلاده، لا يمكن أن تثير لديه سوى مشاعر من هذا النوع.

بالنسبة لبوتين، فإن واقعة تساونديك «محطة حرجة» في مهنته، وألقت ظلالاً رمادية على علاقته بال«كي. جي. بي»؛ فالعميل خائب الأمل، الذي فقد السيطرة على مواقفه، فعل ما اشترط عليه أن يفعله؛ قدّم معلوماته للجانب الألماني الغربي. ونتيجة لذلك، كُشف عن ما لا يقل عن 15 مخبراً. وأُلقي القبض كذلك على من كان بوتين يصفه بـ«أفضل عميل لدينا»، المعروف بـ«جورج سي». بل وكذلك جزء كبير من شبكة استخبارات الـ«كي. جي. بي» في دريسدن.

كان هذا سبباً إضافياً للإحباط والغضب العارمين!

لم يكن لهذا الفشل أن يضر ببوتين. كان ذلك شأن من قرّروا أن لا داع لمواصلة الاتصالات، وتركوا بوتين يذهب ليجرب نفسه مع أناتولي سوبتشاك، عمدة لينينغراد، التي كانت استعادت مرة أخرى اسمها القديم: سانت بطرسبورغ.

وكانت هناك أشياء كثيرة يتوجب أن تستعيد صفاتها القديمة، وأشياء أخرى أكثر كان يجب أن تتجدد وتكتسب صفات جديدة. لكن بوتين لم يتصور أن من المقدر له أن يتقدم وتتجدد مهنته، وأن تكون المحاولة الفاشلة للإطاحة بغورباتشوف، وانهيار الاتحاد السوفييتي، وكل أحداث التسعينات العاصفة، هي مجرد محطات على طريق بلوغه القمة..

وأن ليس عليه أن يدفن نفسه في مجلس مدينة سانت بطرسبورغ!

كان يجب أن يعلم أن التصاريف التي حملته، وحمته، في دريسدن الألمانية، لن تتركه يضيع في مسقط رأسه. وأنه ليس مطلوباً منه سوى أن يتصرف بمهنية، ولا ينخدع بما ستمنحه له مهنته من قوة وصلاحيات ونفوذ، وأن عليه أن يتشارك مع الجميع في كل هذا، ليكون لديه حائط صد يحميه!

وكل شيء بدأ في ألمانيا..

كان يخدم في برلين العديد من مواطني بوتين اللينينغراديين، من بينهم سيرجي فيكتروفيتش شيميزوف أفضل رفيق لبوتين في دريسدن بشرب البيرة، الذي أصبح لاحقاً، في عهد بوتين، مدير عام «روس أبورون إكسبورت». أما اللينينغرادي، صديق بوتين الذي نصح العقيد لازار ماتفييف، رئيس مجموعة دريسدن، بأن يأخذ بوتين للعمل في فريقه، فهو بوريس ألكسندروفيتش ميلنيكوف، الذي شغل في عهد بوتين منصب رئيس مركز مكافحة الإرهاب في رابطة الدول المستقلة. ويوري سيرغيفيتش ليتشوف، المتقاعد والعضو الفخري في الـ«كي. جي. بي». وأندريه يوريفييتش بليانينوف، الذي تولى إدارة الخدمة الاتحادية لعقود الدفاع.

ولا تخلو مجموعة دريسدن من هؤلاء، وإن كانوا أقل عدداً!

تكونت مجموعة دريسدن من فيكتور أديانوف، رجل الأعمال المعروف؛ ونيكولاي توكاريف، الذي تولى رئاسة شركة «زارو بيج نفت» ثم رئيس «ترانس نفت».

وكان لدى بوتين في دريسدن أصدقاء ألمان، من بينهم ضباط سابقين في «ستاسي» وبعض العملاء من مجنّديه، وأصدقاء عاديين. ومن المثير للاهتمام، النظر إليهم أين يعملون الآن، فجأة انقلبت أحوالهم، وانتقلوا من النبذ والإقصاء إلى مناصب عليا في إدارات «بنك دريسدنر» و«دويتشه بنك» - المؤسسات المالية المفضلة لدى بوتين من أيام عمله نائباً لعمدة سانت بطرسبورغ.

وهي المؤسسات المالية التي كانت شريكته في تدبر أمر أخطبوط النفط والغاز «يوكوس»!

هذه الصلات كان يمكن أن توضحها الألمانية آيرين بيتش في مذكراتها، الصادرة بعنوان «صداقة مبهرة» (2002)، لكنها عمدت إلى تجنب ذكر الأسماء بصراحة، ولجأت إلى التلميح أحياناً: «..وكان هؤلاء من الألمان الشرقيين، الذين

تعرفوا على بوتين في دريسدن ويعيشون الآن في موسكو، حيث كان زوجي يشغل منصباً رفيعاً في أحد البنوك الألمانية الكبرى، وبالتحديد في ذلك البنك الذي كان رئيس مجلس الإدارة فيه هو من نظم رحلة لودميلا»؛ «وكان زوجي زميل فولوديا من ستاسسي» (تقصد زوجها ماتياس وارنيج)؛ «في هامبورغ.. حُجِزت غرفة لودميلا من ذلك البنك الألماني، الذي يتردد ذكره كثيراً بالعلاقة مع لودميلا وفولوديا».

ذكريات زميل بوتين السابق، فلاديمير أوسولتسوف، أكثر إفادة بكثير!

لا يفوته أن يشرح فيها الصفات الشخصية التي ساعدت بوتين في الحصول على ترقيتين عسكريتين وأخريين حزبيتين في دريسدن، وجعلته يسيطر على عمدة لينينغراد أناتولي سوبتشاك، ومن بعده على الرئيس المتداعي بوريس يلتسين، في أواخر عهده.

وحول ذلك يكتب أوسولتسوف، فيقول:

«فولوديا عرف كيف يكون مهذباً، ودوداً وخدوماً وغير مزعج، وكان قادراً على الفوز بمحبة أي شخص، ويبرع بذلك خصوصاً في علاقاته مع الكبار، الذين يماثلون أبيه في العمر».

ويكاد أوسولتسوف يصور بوتين كإنسان معاد للسوفييت، فيكتب:

«تدريجيا أصبح واضحاً بالنسبة لي، أن بوتين التقط كل حكمة «المنشقين» هذه في لينينغراد، حيث عمل خمس سنوات في محاربة «الانحراف الأيديولوجي».

ويواصل فلاديمير أوسولتسوف، زميل بوتين في دريسدن ذكرياته:

«كان فولوديا يذكر العديد من أولئك المنشقين في أحاديثنا باحترام. وكان لديه تقدير خاص إزاء سولجينيتسين. لم أصادف أبداً مشاعر مماثلة بين العاملين

في خمس وحدات «كي. جي. بي» عملت فيها، من كراسنويارسك وحتى مينسك، ولا حتى في أماكن أكثر قرباً من هذه».

وهو أيضاً منافق، منافق بحسب ما يقول أوسولتسوف:

«في وجود الأخرين، كان فولوديا، لا يجد أدنى حرج في تأكيد الحديث عن «التأثير الصهيوني» على المنشق السوفييتي ساخاروف. ومع ذلك، كانت لهجته تحمل دائماً نبرة متهكمة، أفهمها جيداً. هذا ما كانه فولوديا، ومنطقه: لماذا تجلب المتاعب لنفسك، بالبصاق في وجه الريح؟».

ثمة شيء مثير للاهتمام في هذه المذكرات حول أوسولتسوف، نفسه!

لقد عاد إلى الاتحاد السوفييتي قبل زميله فلاديمير بوتين بعامين، فانتُدب سريعاً إلى مينسك في مكتب تصميم المعدات الهندسية الإلكترونية الدقيقة في منصب نائب كبير المهندسين. وهناك بسرعة ملحوظة انضم الضابط الاحتياط في الـ«كي. جي. بي» فلاديمير أوسولتسوف إلى فريق «الديمقراطي» البيلاروسي البارز الكسندر دوبروفولسكي، وترأس حملته الانتخابية لانتخابات مؤتمر نواب الشعب السوفييتي.

ألا يذكّر ذلك بسيرة فلاديمير بوتين ومهمته مع أناتولي سوبتشاك!

حالف دوبروفولسكي النجاح في الانتخابات، وأصبح عضوا في الكتلة النيابية الأقاليمية، التي كانت تضم أسوأ «ديمقراطيي» البلاد ممن ساهموا في انهيار الاتحاد السوفييتي، وعلى رأسهم: بوريس يلتسن، وايغور غايدار، وغافرييل بوبف، وسيرجي ستانكيفيتش، وبوربولوس، وبولترانين، وتشوبايس، ويافلينسكي، وأناتولي سوبتشاك..!

والآن، دبرفولسكي هو قائد الحزب الديمقراطي البيلاروسي المعارض لألكسندر لوكاشينكو!

ويمكن هنا التذكير بأن عقيد الاحتياط من الـ«كي. جي. بي» يفغيني ساؤوشكين، الذي كان يعتبر رجل مخابرات متشدد، نجح في آذار 1990، على قائمة حركة «روسيا الديمقراطية» في انتخابات مجلس مدينة موسكو..

وكان مدعوماً بثقة غافرييل بوبوف وسيرجي ستانكيفيتش..!

إنها قصة تشبه قصصاً كثيرة، لا تبدأ بقصة ضابط المخابرات، ألكسندر كورجاكوف، الذي تحول بقدرة قادر إلى حارس شخصي لبوريس يلتسن، قبل أن يتحول لاحقاً إلى أقوى شخصية في روسيا أواسط التسعينات.

ولا يهم هنا، أن فلاديمير أوسولتسوف يصرّ على أنه ذهب إلى دوبروفولسكي من تلقاء نفسه، وأن بوتين لديه قصته الحذرة حول كيفية وصوله إلى أناتولي سوبتشاك؛ وأن ساؤوشكين يصر على أنه تصرف بقناعاته، التي لا يعتد بها أصلاً..

بصرف النظر عن كل ذلك، تبقى شبهة تنفيذ أوامر عملياتية من الـ«كي. جي. بي» قائمة ووجيهة!

اللغز التاسع

الأسرار اللينينغرادية

رجل أمن سابق

لقد أدرك بوتين بعد حادثة دريسدن وانهيار جدار برلين، على نحو ما، إن الـ«كي. جي. بي» تقترب من فشل قسري. كانت الأمور مع الدولة تدفع بها إلى الواجهة، بينما حالة الاسترخاء في الجهاز تقلّل من إمكانياته في التصدي لدوره المحتوم؛ وهنا يقر بوتين بأن هذا الشعور، بالذات، كان وراء رفضه للعرض الذي تقدّم به زملاؤه عارضين عليه العمل في جهاز الـ«كي. جي. بي» المركزي.

«بالنسبة للعمل في موسكو»، يقول بوتين، « لقد كنت أعرف مسبقاً أن لا مستقبل لهذا النظام. البلاد نفسها لم يعد لديها مستقبل. والجلوس داخل النظام وانتظار انهياره.. أمر صعب جداً».

وهذا، بدرجة ما، قول بأثر رجعي، هادئ ويتوخى التماهي مع أفكار سامعه!

في الواقع، لم يعد بوتين إلى بلاده ساكناً، أو محايد المشاعر، يتأمل بهدوء ما يدور. بل على العكس، عاد من ألمانيا محبطاً، يشعر بالخذلان، غاضباً، ويجرفه غضبه، ويكاد يستولي عليه، ويخرجه عن طوره.

كان يشعر بأنه تلقى طعنة من الظهر..! وسجل في تلك المرّة اللحظة الأولى التي يكون فيها عمله موضوع سخطه وغضبه العلني، بعد أن كان في السابق متحفظاً، لا يستجيب حتى لمجرد الفضول الذي يبديه مقربون منه إزاء عمله. بات هو، نفسه، لحظتها، يبحث عن من يستمع له من أصدقائه!

ويروي سيرجي رالدوغين بأي ألم وسخط كان يتحدث معه بوتين أيامها حول كيف خانت موسكو رجال استخباراتها في ألمانيا، وكيف كان يكرر بانفعال: «لا يجوز التعامل هكذا معنا. لا يجوز! كيف أمكنهم أن يفعلوا بنا ذلك..!؟».

وبمرارة يتساءل:

- أنا أفهم أنني قد أخطئ، يمكنني أن أخطئ، ولكن كيف يخطئ أولئك الذين كنا ننظر إليهم باعتبارهم المهنيين الأرقى، الذين كانت بين أيديهم أفضل معلومات استخباراتنا!

كان شعوره بخيبة الأمل والمرارة كبيراً جداً.

قال له رالدوغين:

- أنت تعرف الحقيقة، فولوديا، فلا توجع رأسك.

قال بحزم:

- سأترك الـ«كي. جي. بي»!

فقال له رالدوغين:

- ولكن، ليس هناك رجل استخبارات سابق!

كان بوتين يتحدث بحرارة وصدق، ولم يكن من الممكن لأحد يسمعه أن لا يدرك نبرة الصدق في كلماته. ولكن كان من غير الممكن استيعاب فكرة أن يترك الـ«كي. جي. بي». كيف يمكنه أن يتخلى عن ذلك المستوى من الاطلاع والشعور بالتحكم والسيطرة الذي يسكنه واعتاده؟

كانت ترهقه فكرة رئيسية: لم يكن ما حقّقه هو وزملائه لازماً لأحد!

وبدأ يتساءل عن الحافز الذي كان يدفعه وزملاؤه للعمل، ويبحث عن الدافع الذي كان يجعلهم يصرفون وقتهم باندفاع للكتابة، وللتجنيد، وللحصول على المعلومات، هل كان وهماً؟

لم يكن ذلك بدافع الوظيفة فقط. أبداً لم يكن كذلك!

كانت مثل تلك الأسئلة سيلاً جارفاً، لا يهدأ، في رأسه: «أليس في المركز أحد يقرأ؟ ألم نحذّر مما يمكن أن يحدث..!؟ لم ينسبوا لنا كيف نتصرف، وماذا

نفعل؟ بقيت موسكو دائماً صامتة في الردّ، لم يقترحوا علينا أي رد فعل».

وهنا، في هذه الأسئلة، مساحة جدّية للبحث والاستقصاء!

تعطي هذه اللحظة من حياة بوتين انطباعاً قوياً بأن ثمة جُهدُ وإنجازات مهنية معينة، كانت تعني لصاحبها الكثير، وإذ به يصطدم بحقيقة أنها لا تعني شيئاً، ولم تستخدم في الوصول إلى النتائج التي من الممكن أن تؤدي إليها. لذا، فإن الأسئلة التي تؤرقه تبقى متركزة حول ذلك الشعور بالإحباط نتيجة إحساسه بأنه أهدر عمره في تحقيق إنجاز ضائع.

ولا يعطي بوتين هنا إجابة وافية حول ذلك الإنجاز!

بالمقابل، يتحدث عن إنجازات زملائه. واللافت أنه يتحدث تحديداً عن إنجازات زملائه، الذين عملوا من خلال الاستخبارات العلمية التقنية، التي ينفي بشدّة كل الشائعات التي دارت حول علاقته بها، ويؤكد بإصرار أنه لم يعمل على ذلك الخط أبداً.

ويورد مثالاً، فيقول إن زملاءه، في الاستخبارات العلمية التقنية حصلوا لقاء عدة ملايين من الدولارات على معلومات عن اكتشاف علمي هام. في حين أن التنمية المستقلة لمثل هذا المشروع تكلف مليارات من الدولارات والكثير من الموارد والوقت. لذا، كان يعتبر انجازاً مهماً للغاية الحصول عليه جاهزاً.

وهذا ما فعله «أصدقاؤه» في الاستخبارات العلمية التقنية!

والنتيجة المخيبة للأمل، أنه لم يتم فقط تجاهل هؤلاء الذين حققوا هذا الإنجاز، وحصلوا على المعلومات جاهزة وأرسلوها إلى المركز؛ بل وتم تجاهل الإنجاز نفسه، وإهمال تلك المعلومات العلمية التكنولوجية، ولم يجر توظيفها، ولا العمل عليها، ولا ضخّها في المراكز العلمية المختصة، وبقيت مجرّد ملف أمني، ونجاحاً استخباراتياً هائلاً عجز أصحابه عن الاستفادة منه.

لوقت يبقى بوتين يتساءل حول سنوات عمله في دريسدن، وينفجر أمام أصدقائه المقربين بأسئلة من نوع: من يمكنه أن يعمل هكذا عبثاً، يقضي سنوات حياته لا لشيء، فقط ليتسلم في آخر الشهر مرتباً..؟

وكان، عمليا، منذ أن عاد من ألمانيا في كانون الثاني 1990، قد بدأ ببطء يفكر بعمل بديل. كان لديه طفلتان، ولم يكن من السهل أن يرمي كل شيء وراء ظهره ويمضي، دون أن يعرف إلى أين سيذهب، وماذا سيفعل، كان ما يزال يرفض عرض الانتقال لمركز الـ«كي. جي. بي» بموسكو!

وهنا، حدث شيء تغيرت معه الأفكار والمزاج؛ لقد وُجِّهت الدعوة له للعمل في مركز الـ«كي. جي. بي» بموسكو، من خلال شخص قريب هذه المرّة. كان ذلك قائده السابق في دريسدن، لازار لازاروفيتش ماتفييف.

كانت علاقتهما وثيقة، وبينهما كلام وحسابات مختلفة!

بالنتيجة، يتحول بوتين من التفكير بترك العمل في الـ«كي. جي. بي» إلى الموازنة بين البقاء في لينينغراد، أو قبول الدعوة، التي على ما يبدو جاءت مشفوعة بتقديرات تحاول أن تقرأ الاحتمالات والأفضليات.

ومن الواضح أن الخيارات وضعت، وأن عليه أن يختار..

وهنا، يلجأ بوتين إلى صديقه الموسيقي سيرجي رالدوغين، ويتحدث معه، أو بالأحرى يفكر أمامه بصوت مسموع، ويقلّب الخيارات، التي لم يعد بينها البحث عن عمل آخر.

يقول بوتين لصديقه:

- إنهم يعرضون عليّ أن أذهب للعمل في موسكو، أو سانت بطرسبورغ مع الترقية.

لم تعد موسكو تتشدّد باستقدامه للعمل في مركزها. إنها تبحث عملياً عن حل

يريحه. وهذا ما يجب أن يكون غريباً، ويثير بعض الأسئلة حول دواعي «كي. جي. بي» موسكو لاسترضاء الضابط العائد من ألمانيا، بينما غيره كان يجري إهمالهم.

يقول له رالدوغين بعد تفكير:

- في موسكو، هناك كلهم رؤساء. ليس هناك ناس عاديين. ستجد واحداً لديه عمّ في الوزارة، والآخر له شقيق، والثالث له نسيب، وأنت ليس لديك أحد، فكيف سيكون حالك، هناك؟

فكر بوتين للحظة وقال:

- ومع ذلك، هنالك في موسكو.. آفاق!

ولكن بدا مع ذلك أنه يميل بشكل واضح إلى البقاء في سانت بطرسبورغ، وكان من المفروغ منه أن بوتين صمت في هذا الحديث عن حسابات وحيثيات أخرى لعبت دوراً في قراره.

ولم يكن من الممكن كذلك عدم ملاحظة أنه استعاد سكينته وتكتمه!

لاحقاً، يبرر بوتين قراره بالبقاء في لينينغراد بأنه كان يُحب أن يكون «تحت سقف جامعة لينينغراد»، على أمل كتابة أطروحة، وليتعرف على طبيعة العمل فيها، وربما يستقر فيها للعمل. وهذا قد يكون، مجرد كلام رومانسي يفرضه التكتّم المهني!

لم يكن لأحد أن يأتي من بيئة غير أكاديمية، ويدخل إدارة الجامعة دون دعم مباشر من الـ«كي. جي. بي». أما بوتين، فقد عُيّن على الفور مساعداً لرئيس الجامعة للعلاقات الدولية. وكان ما يزال على رأس عمله الاستخباراتي، ضابط احتياط عامل.

كانت الجامعة خياراً مثالياً، يلبي حاجات جميع الأطراف!

بوتين الذي فاض به، وبات يفكر بترك العمل في الـ«كي. جي. بي»، وبالدرجة نفسها رغبة هذه الأخيرة في استبقائه واسترضائه في آن معاً؛ فهو ما يزال ضابطاً عاملاً، وفي الوقت نفسه يزاول عملاً يحبّه، بعيداً عن الروتين الذي لم يعد يقوى عليه.

وكانت الحياة قد تغيرت كثيراً حينما عاد من ألمانيا!

بدت رطانة البريسترويكا الجذابة، التي تابعها مع عائلته عبر شاشة التلفزيون خلال وجودهم في ألمانيا، والحكايات عن استعادة البلاد لروحها، مجرد قصص تخفي واقعاً مراً يتزايد وطأة، يوماً بعد يوم.

لم يكن من الممكن ملاحظة أي تغييرات إيجابية ولو بسيطة!

كانت الطوابير تتزايد، وتصبح أطول فأطول، والبطاقات التموينية تنتشر أكثر، والرفوف الفارغة في المتاجر باتت هي القاعدة، بل أصبح التسوق بحد ذاته فناً يتطلب مهارات ومعارف قد لا تتوافر لأنجح الباحثين عن الذهب.

وما فعلته البريسترويكا بالسوق، فعل فعله بكلف الحصول على المواد الأساسية!

لقد كانت الأسعار هي نفسها. إلا أن السلع ليست متوفرة في المتاجر، بل يمكن الحصول عليها من متاجرين غير رسميين بأسعار تبدو خيالية، بينما العائلة العائدة من ألمانيا، لم يكن لديها أي وفورات مالية. صُرف كلّ ما جنته من مال على شراء سيارة.

وكان ربُّ العائلة غير مطمئن بعد لخياراته، وله الحق في ذلك. فالأحداث قادته إلى الاقتراب بلقمة عيشه من عالم السياسة غير المأمون. عمله الذي بدا ناجحاً في ألمانيا، كان يمكن أن يمنحه منصباً أو رتبة أعلى..

ولكن ليس استقراراً مالياً، وراحة نفسية!

كان رئيس جامعة لينينغراد، في ذلك الحين، هو ستانيسلاف بتروفيتش ميركوريف، تميز بما يكفي من الكياسة بحيث لم يتسبب بأي ازعاج لمساعده للعلاقات الدولية. وعملياً، بدا لبوتين إنساناً لطيفاً.

كانت الأمور من هذه الناحية مشجعة، وأكثر من مرضية!

وهكذا، بدأ بوتين يكتب أطروحته الجامعية، واختار فاليري ابراموفيتش موسين، وهو واحد من أفضل المتخصصين في مجال القانون الدولي، مشرفاً، واستقر خياره على موضوع القانون الدولي الخاص.

وفي الأثناء بدأ في استعادة علاقاته القديمة، ومنها بزملائه السابقين في كلية القانون!

كان بعضهم قد بقي في الكلية للعمل، أو لنيل الدكتوراة، وأصبح غيرهم أساتذة ومدرسين؛ وأحد هؤلاء طلب من بوتين أن يساعد أناتولي سوبتشاك، الذي كان قد أصبح قبل ذلك بقليل رئيس مجلس مدينة لينينغراد.

قال له إن سوبتشاك محاط ببعض المحتالين، وأنه بحاجة للمساعدة.

ولكن أي مساعدة، وبأي صفة يمكن لبوتين أن يساعد، ومن هو بالضبط من طلب منه ذلك، فهذه تفاصيل تغيّبها الكلمات المخاتلة، التي تطفىء الأسئلة دون أن تجيب عليها. وببساطة، فإن أولئك «المحتالون» هم من ساعد سوبتشاك على الفوز بالانتخابات، ولا يعرف أحد كيف ولماذا أصبحوا فجأة مجرد محتالين.

وما الذي يجعل سوبتشاك، على حين غرة، يجنح إلى التنصّل منهم!

من الواضح بالطبع، أن هناك ثمة مساعدة يمكن أن يقدمها بوتين لسوبتشاك، ولا يمكن لأولئك «المحتالون» تقديمها، ونوعية هذه الخدمة يمكن العثور عليها في الفارق ما بينهم وبين بوتين: هو ضابط «كي. جي. بي»، وهم معارضون

ذوي صوت عال، يعتقدون أنهم بكسب الانتخابات استلموا السلطة.

سأل صديقه الذي لا يصرّح بهويته، ولا يوضح إن كان زميلاً في «كي. جي. بي»، أم لا؛ علماً أن توضيح ذلك كان سيكون أمراً وجيهاً من نواح عدة:

- كيف يمكنني أن أساعده؟

قال:

- اترك الجامعة، واذهب للعمل معه.

قال بوتين مذكراً:

- ولكنني ضابط في الـ«كي. جي. بي». وهو لا يعرف ذلك، وقد أكون عبئاً عليه.

وتذكير بوتين هنا، يثير سؤالاً حول هوية هذا الصديق الذي اقترح عليه هذا الاقتراح، ولم يتحرّج أمامه من التذكير بانتمائه إلى الـ«كي. جي. بي». بل ويثير ذلك سؤالاً حول مصدر ذلك الاقتراح..

رد الصديق ناصحاً:

- اذهب إليه، وتحدث معه.

العمل مع سوبتشاك

كان سوبتشاك في نهاية الثمانينات ومطلع التسعينات رجلاً مشهوراً وله شعبية كبيرة، وكان موضع اهتمام من العامة ومن السلطة على حد سواء، وكان كذلك يدرّس القانون في الجامعة، وأخذ بوتين بعض الدروس في صفّه.

يجب التنويه هنا، أنه لم تكن قد نشأت علاقة بين الرجلين أثناء الدراسة، هذا ما يؤكده بوتين على الأقل، في معرض تعليقه على ما تداوله الكثيرون ممن كتبوا في وقت لاحق أنه كان على نحو ما تلميذه المفضل.

ولدى بوتين الكثير من الأسباب التي تدفعه إلى وضع علاقته بسوبتشاك في إطار محدد إلى درجة معينة: كان مجرد واحد من أولئك المدرسين، الذين درّسوه لبعض الوقت، وحسب. وما من علاقات شخصية.

التقى بوتين بأناتولي سوبتشاك بمكتبه في مجلس المدينة. ذهب وقدّم نفسه، وقال له كل شيء يتوجب أن يقوله، فتصرّف سوبتشاك على ما كان معروفاً عنه من اندفاع، فقال على الفور:

- انتهينا! سأتحدث مع ستانيسلاف بتروفيتش ميركوريف! ابدأ العمل من يوم الاثنين. سنتفق الآن بسرعة على كل شيء، وسيتم نقلك من الجامعة إلينا!

كان ذلك أسرع مما توقّع بوتين، وبظنه أن الحديث سيطول ليخبره بأهم شيء؛ لذا، لم يستطع إلا أن يقول:

- أناتولي الكسندروفيتش، سأفعل ذلك بكل سرور. أنا مهتم بهذا، بل إنني أريد ذلك. ولكن هناك شيء واحد يمكن أن يكون عقبة في طريق هذا التحول.

سأل سوبتشاك نافد الصبر:

- ماذا؟ عن أي شيء تتحدث؟

قال بوتين:

- عليّ أن أخبرك أنني لست مجرد مساعد رئيس الجامعة، أنا ضابط «كي. جي. بي»!

صمت سوبتشاك للحظة؛ وبدا أنه يفكر.

فكر، وفكر، ثم قال:

- فليذهبوا إلى الجحيم..!

الملفت هنا، أن بوتين حينما يروي هذه الحادثة لا ينسى أن يقول إنه تفاجأ بردة سوبتشاك، ليس لأنه تلفّظ بكلمات جريئة بحق الـ«كي. جي. بي»، بل لأنه استخدم بالروسية عبارة بذيئة، لم ينتظر أن تصدر عن بروفيسيور القانون ورئيس مجلس المدينة لينينغراد.

وفي الحقيقة، يمكن هنا أن يكون سوبتشاك قد فكّر، وفكّر، وفكّر، بالسبب الذي يدعو الـ«كي. جي. بي» أن ترسل إليه واحداً من رجالها. أما من ينظر إلى المشهد في الخارج، فيمكنه أن يتوقف عند فكرة أن الـ«كي. جي. بي» أرسلت رجلها بهويته الصريحة، ليعمل مع رجل يفترض أنه خصم، بقدر ما يحمل ذلك من غرابة.

بعد ذلك قال سوبتشاك:

- أنا بحاجة إلى مساعد. بصراحة، أنا أخشى الخروج إلى بهو الاستقبال. لا أعرف من هم الناس الذين هناك، ولا ماذا يفعلون.

كان أولئك الرجال الذين يشير إليهم سوبتشاك هم حاشيته القريبة، وبحسبه، فإنهم بأدائهم يثيرون الكثير من الاهتياج بين نواب مجلس المدينة. وعلينا هنا أن نتذكر أن نواب تلك الفترة، هم إمّا موالون للدولة السوفييتية القائمة، وإمّا نواب موالون لرئيس البلدية، وينتمون لجماعات «الديمقراطيين» التي ينتمي

إليها.

ومن المفهوم، بالتالي من هي الفئة الغاضبة، التي يريد سوبتشاك استرضاءها ببوتين!

وافق بوتين على الالتحاق بالعمل، معلناً أنه سيكون عليه أن يُخطر قيادته في الـ«كي. جي. بي» حول تركه للعمل في الجامعة؛ إذ يبقى هذا التزاماً «حساساً».

و«حساساً» المفردة التي يستخدمها بوتين في الإشارة إلى عمله في الجامعة ووصفه هذا العام بالتزام تجاه الـ«كي. جي. بي»، لا يحتاج إلى شرح. إنه بوضوح يتحدث عن «مهمة». ولكن ألا يبدو غريباً أنه قرر من تلقاء نفسه الاستجابة لاقتراح زميله في العمل مع رئيس البلدية «الديمقراطي»، وقابله بهذا الشأن، واتفق معه عملياً، دون أن يبلغ قيادته..؟

إن إغفاله ذكر اسم الصديق الذي أرسله إلى رئيس البلدية دون مبرر واضح، يبعث على الظن أن هذا الصديق هو من «الزملاء» في الـ«كي. جي. بي». وبوتين هنا، على الأغلب كان يناور مع رئيس البلدية؛ ويريد أن يعطيه انطباعاً أنه ضابط «كي. جي. بي»، ولكنه تقدم للوظيفة بمبادرة شخصيّة منه، بنصيحة من صديق.

وفي رواية بوتين أنه ذهب بالفعل الى رؤسائه. وقال لهم:

- أناتولي سوبتشاك يعرض عليّ الانتقال من الجامعة إلى مجلس المدينة للعمل معه. إذا كنتم تجدون هذا أمراً غير ممكن، سأكون مستعداً للاستقالة.

فجاءه الجواب:

- لا. لماذا تستقيل؟ اذهب واعمل بهدوء. ما من مشكلة.

وهكذا كان. انتقل بوتين من الجامعة للعمل في مقر بلدية لينينغراد في قصر «سمولني» الشهير، وخُلقت وظيفة خاصة له تتيح منحه منصباً لائقاً، وكان ذلك

بتأسيس مكتب العلاقات الخارجية في البلدية، وعُيّن رئيساً له.

وسيُثبت بوتين لاحقاً أنه قادر على تحويل المسميات الجوفاء إلى ورشة عمل حقيقية!

في العادة، كانت جدران مكاتب المدراء وكبار المسؤولين الكبار في البلدية في العهد السوفيتي تحمل صورتين: واحدة لفلاديمير إيليتش لينين والثانية لسيرغي كيروف مسؤول لينينغراد الذي اغتيل في الثلاثينات على يد أنصار تروتسكي. أما مكاتب المسؤولين من الدرجة الأدنى، كانت هناك صورة لينين فقط. في أواخر العهد السوفيتي أُزيلت تلك الصور. واختار كل موظف الصورة التي يعلقها في مكتبه. بعضهم يعلق صورة القيصر نيكولاي الثاني، وآخرون يعلقون صورة غورباتشوف، وكان أغلبهم يعلقون صورة يلتسين..

أما بوتين، الحريص على لمسته الخاصة، فطلب صورة لبطرس الأكبر!

أحضروا له صورتين لبطرس الأكبر ليختار واحدة من بينها: صورة رومانسية من شباب بطرس الأكبر، بشعر مجعد، مرح، من فترة «السفارة الكبرى»؛ والثانية، التي اختارها بوتين، صورة محفورة، وهي من الصور الأخيرة لبطرس الأكبر. هي صورة تعود إلى تلك السنوات التي كانت اصلاحات بطرس الأكبر أكثر فعالية وبروزاً.

كانت صورة تعود لفترة ما بعد الحملة البروسية الفاشلة وحرب الشمال، التي مكنت بطرس الأكبر من وضع أسس الإمبراطورية الروسية، ويظهر فيها متجهماً، مشغول البال.

وهو على الأغلب لم يختر هذه الصورة بمحض الصدفة..

لقد كان ذلك، بالدرجة الأولى، خياراً يبعده عن التجاذبات الواضحة، فبطرس الأكبر، معروف كمصلح كبير، وكانت تتشارك في تقديره السلطة القائمة و«المنشقون» في العهد السوفيتي الذين كانوا يختارون المناسبات المتعلقة به

لإقلاق راحة ضابط المخابرات بوتين وزملائه في الـ«كي. جي. بي»، وكذلك السلطة السوفيتية السابقة، وأنصارها الذين هم جزء من جمهور البلدية. إضافة إلى أن ذلك يظهره بمظهر اللينينغرادي المنتمي، الذي يعتدّ برمز من رموز مدينته.

وكان بطرس الأكبر المتجهم والمشغول البال يجذبه ويروق له..!

كانت الظروف المحيطة ببوتين حينها مواتية، فقد أظهر رؤساؤه تفهماً وإدراكاً لطبيعة الوضع والظروف من حولهم في ذلك الوقت. وكانوا مشغولين عن متابعة التفاصيل، وبرز لديهم هامش من الحرية، يمنحونه لمجنديهم ليتصرفوا على مسؤوليتهم، ووفق تقديرهم؛ فلم يقيّدوه بأي شروط. لذا، وعلى الرغم من أنه من الناحية العملية كان ضابطاً عاملاً في الأجهزة، إلا أنه لم يتواجد في مبنى الإدارة إلا نادراً. بل وأكثر من ذلك، لم يحاول رؤساؤه استخدامه في مهمات عملياتية.

وعموماً، كانت المؤسسة تتحلل، فيما تحاول إدارتها مقاومة هذا التحلل!

وفي الواقع، حدث مرة واحدة أن حاول أحد زملاء بوتين الاستفادة من قربه من سوبتشاك، الذي كان في ذلك الوقت يغيب كثيراً في رحلات عمل، وينيب بوتين عنه لتسيير الأمور. وحصل ذات مرة، بينما كان سوبتشاك متعجلاً للذهاب في رحلة عمل، أن كانت هناك حاجة ماسة لوضع توقيعه على وثيقة، ولكن كان يلزم وقت لا يملكه لتحضير تلك الوثيقة، ولم يكن من عادته أن ينتظر، فأخذ ثلاثة أوراق فارغة، وضع على جزئها السفلي توقيعه، وأعطاها بوتين، وقال له: «تولّ الأمر!». وغادر.

في مساء اليوم ذاته جاء بعض زملاء بوتين في الـ«كي. جي. بي»، وطلبوا منه وضع توقيع سوبتشاك على وثيقة تهمهم، فأخرج بوتين واحدة من تلك الأوراق البيضاء التي عليها توقيع سوبتشاك. وقال:

- ترون إلى أي حد يثق بي هذا الرجل؟ فماذا؟ ماذا تريدون مني؟

تراجعوا على الفور، معتذرين. وهكذا انتهى الأمر قبل أن يبدأ.

لم تؤثر هذه على وضع بوتين في الـ«كي. جي. بي». سارت الأمور في مجراها الطبيعي، وبقي بوتين يتسلّم راتبه من الاستخبارات الخارجية كما هو معتاد. وكان، بالمناسبة، الدخل الذي يعتمد عليه بشكل رئيسي، فهو يفوق ما كان يتقاضاه من مجلس المدينة. وببساطة، الحيثيات تدعو إلى القول إن تلك الحادثة كانت محاولة «فهلوة» من زملاء المهنة، وربما لصالحهم الشخصي، وليس من إدارتهم، ولو كانت كذلك لكان بوتين أمام وضع صعب، فعلاً.

في وقت قريب من تلك الحادثة، نشأت ظروف أخرى جعلت بوتين يفكر في الاستقالة؛ حدث هذا في وقت لم تكن العلاقات فيه مع أعضاء مجلس نواب مدينة لينينغراد سهلة دائماً.

أولاً، لأن تعيين بوتين ونفوذه كان يثير مجموعات «الديمقراطيين» في المجلس!

وثانياً، كان النواب كحال غيرهم من «ممثلي الشعوب» في مختلف أنحاء العالم، يتحولون في الأوقات المشوهة إلى مجموعة ضغط لرعاية مصالح خاصة لأشخاص وجهات محددة، على قاعدة الأسباب النفعية.

وهكذا، زار نائب، ذات يوم، بوتين في مكتبه، وقال له:

- أتعرف؟ إن بعض الناس هنا يحتاجون إلى المساعدة. هل يمكن أن تفعل؟

وفي سياق الحديث يكتشف بوتين أنه لا يمكن فعل ذلك دون تجاوزات، ومن المؤكد أن التجاوزات لم تكن وحدها هي ما يسوء في الأمر، بل بواعث الطلب نفسه، ونوع القوة التي يستند إليها ذلك النائب في طلبه؛ لقد كان يظن أن بوتين، الذي كان يتعرض لهجوم نيابي حينها، سيضطر إلى المجاملة والمهادنة.

أدرك ذلك بوتين، فاعتذر عن أداء تلك الخدمة أول مرّة، وتكرّر الطلب ورُفض. ولكن النائب جاء في مرة ثالثة أكثر وضوحاً. وقال لبوتين:

- هناك أشخاص سيئون، وأعداء من كل نوع، لقد اشتموا أنك ضابط أمن دولة. وهذه معلومة يجب محاصرتها على الفور، وأنا على استعداد لمساعدتك في ذلك، ولكن عليك أن تقدم لي معروفاً.

أدرك بوتين ساعتها أنه لن ينجو من الابتزاز المتكرر إن فعل، وسيبتزونه بخلفيته المهنية، مرة بعد مرة. وإن لم يستجب لهم، سيكشفون النقاب عن سرّه المهني الصغير، بطريقة فضائحية، تضعه في موقف دفاعي.

وكان لا بد من اتخاذ القرار الصعب. فابتدأ بإعداد استقالته، وقدّمها!

لم يكن من السهل أن يلجأ إلى هذه الخطوة، دون تفاهم مع رؤسائه؛ فهو على الرغم من كل شيء، كان ما يزال مرتبطاً بالأجهزة. وعلى الأغلب أن عمله في مجلس المدينة، هو جزء من هذا الارتباط.

ومن جهة أخرى، كان هناك بمقابل «الديمقراطيين» المنفلتين قوى أخرى في الحزب والدولة، بدا أنها قادرة في لحظة ما على تغيير مسار الأحداث. ولم يكن تمرد آب 1991، الذي حسم الأمور لصالح «الديمقراطيين»، قد وقع بعد.

وكان مستقبل البلاد ما يزال غامضاً، ولا يمكن تقدير الوجهة التي ستأخذها الأحداث.

كل شيء كان معرضاً للانقلاب رأساً على عقب في لحظة واحدة. وكان ربط بوتين لمستقبله بسوبتشاك، في تلك المرحلة، حتى وإن كان بتنسيق مع الـ«كي. جي. بي»، يعدّ مغامرة وأمراً محفوفاً بالمخاطر إلى حد كاف.

وأدرك أن قوته النسبية، ونجاحه في أن يكون متواجداً على جانبي الصراع الدائر في البلاد، أمر مرتبط بتوازن القوى الهش، وعدم قدرة أي من الطرفين

حسم الصراع لصالحه. ولكن ماذا لو تطورت الأمور، ومال ميزان القوى لجهة دون سواها؟

لم يكن هناك من شك أنه إن واصل العمل بذات الطريقة، وحسمت الأوضاع على أي نحو، فإنه سيصبح تحت طائلة تهديد الرأي العام، الذي تنتابه الهستيريا في الأوقات التي تشهد تحولات كالتي تنتظرها البلاد، ولا يعود مستعداً لتفهم أي توضيحات؛ فإن انقلبت الأمور في غير صالح «الديمقراطيين»، فسيكون شعبياً مداناً بالتعاون معهم، وفي صدارة من سيطالب الشارع برؤوسهم، وسيكون قد احترق بكل بساطة، ولن يشفع له أنه كان ينسق مع رؤسائه. قد يبقيه هذا في الأجهزة، ولكنه لن يكون بوسعه أن يفكر بمستقبل سياسي، وأن يأمل بوظيفة مرموقة في الدولة يعتقد أن سيرته المهنية تؤهله لها.

أما إن حسمت الأمور لصالح «الديمقراطيين»، فإنه سيكون عرضة لصراع الأجنحة بينهم؛ وسيتعرض للابتزاز، بطريقة أشد، وبأساليب أكثر إيذاءً.

ومن جهة أخرى، لم يكن لديه ما يفعله لو فقد العمل في مجلس المدينة وفي الأجهزة معاً، سوى العودة إلى الجامعة ومواصلة إعداد أطروحته، والبحث كعامة الناس عن وظيفة في مكان ما، وعن أي مصدر رزق.

بعد أن سلّم طلب الاستقالة من عمله في الـ«كي. جي. بي»، انتقل إلى الخطوة التالية؛ أن يتحدث علناً عن عمله في الأجهزة الأمنية، باعتباره جزءاً من سيرته المهنية السابقة. هنا، لجأ إلى صديقه المخرج التلفزيوني إيغور شادخان، وطلب مساعدته.

كان شادخان حينها يعمل في ستوديوهات تلفزيون لينينغراد. جاء إليه بوتين وقال:

- إيغور، أريد أن أتحدث علناً عن عملي السابق. أريد أن أتحدث علناً، بحيث لا

يعود هذا سراً، ولا يبقى هناك أحد يظن أن بامكانه ابتزازي به.

سجل شادخان مقابلة مفصلة جداً معه، دارت في مجملها عن عمله في الـ«كي. جي. بي»، وحول خدمته في الاستخبارات الخارجية، وكل ما يتعلق بذلك، وبُثّت على شاشة تلفزيون لينينغراد.

وهنا، يطرح سؤال: هل كان بوتين قادراً، حينها، على اتخاذ هذا القرار بنفسه؟

بالتأكيد، لا. وحتى لو فعل، لن تفيده كل صلاته، ولا أجرأ أصدقائه في بث تلك المقابلة على شاشة تلفزيون لينينغراد أو أي تلفزيون آخر. ومن جهة أخرى، لم تكن الـ«كي. جي. بي» لتسمح ببث هذه المقابلة، لو لم يكن هناك قرار نهائي في الاستثمار بضابطها بوتين، في مجالات الحياة المدنية.

كانوا على الأغلب، قد فرزوه للعمل في هذا الاتجاه، ويعنيهم جداً تسهيل مهمته!

يتوجب هنا، أن نتذكر تلك الواقعة التي حدثت قبل عام من ذلك في ألمانيا، ومسّت بوتين على نحو ما. انكشاف صلة زعيم حزب الصحوة الديمقراطية الألماني المعارض، ولفغانغ شنور، بالاستخبارات الألمانية، مما كلفه مستقبله السياسي الواعد، وكذلك ما تعرض له ضباط «ستاسي» السابقين بعد انهيار جدار برلين، الذين تحطمت فرصهم في الحياة على خلفية مهنتهم السابقة.

ومن المؤكد أن حادثة الابتزاز دفعت بوتين للقيام بخطوة استباقية، تحميه!

ركز بوتين، في تلك المقابلة، على الحديث عن نفسه بوصفه ضابط «كي. جي. بي» سابق، رغم أنه كان قدم استقالته للتو، ولم يكن قد أصبح «سابقاً» بعد. وبالدرجة الثانية، كان معنياً بإيصال فكرة جوهرية تتلخص بأنه مجرد «موظف» في البلدية، وليس «سياسياً»؛ بمعنى أن صلته بالـ«كي. جي. بي» ليست مستهجنة..

عموماً، كانت رسائله في تلك المقابلة الطويلة محسوبة بدقة!

الطريف أن تلك المقابلة لم تؤد إلى وقف محاولات الابتزاز فوراً، فقد زار نفس النائب بوتين في مرة تالية، وكرر ذات التلميحات عن حياته الماضية، ولكن هذه المرة كان بوتين مستعداً له.

قال له على الفور:

- كل هذا غير مهم، لقد بات كل هذا معروفاً للجميع! هل هناك شيء آخر؟

وبطبيعة الحال، بقي طلب استقالة بوتين في أدراج الـ«كي. جي. بي» المكينة، ولم يُتّخذ أي إجراء بشأنه، وبقي يتلقى راتبه الشهري، ويحافظ على اتصاله بالحدود المعهودة.

وهكذا، حينما وقع تمرد آب، أو ما يسمى بـ«الانقلاب على غورباتشوف»، كان ما يزال ضابطاً عاملاً في الـ«كي. جي. بي»!

تمرّد آب

انتهى تمرد آب بفشل ذريع. وكان من نتائجة الأولى الحاسمة تحييد كل القوى التي كانت تصطف وراء هدف الحفاظ على الاتحاد السوفيتي، وأدى إلى استلام «الديمقراطيين» السلطة في الدولة التي سرعان ما انهارت وتفككت.

في تلك الأجواء، بدأت عمليات الملاحقة للعناصر المؤيدة لحركة التمرد.

وكان السؤال الأكثر تداولاً حينها هو: أين كنت في ليلة 18 إلى 19 آب (1991)؟ كان يطرحه العامة على بعضهم البعض، والأهم أن ذلك كان السؤال الأساسي الموجه سياسياً وفي التحقيقات لمسؤولي الدولة والإدارات، وعلى رأسها الـ«كي. جي. بي»، المشكوك بولائهم للسلطة الجديدة، بحثاً عن شبهة مشاركة في تمرُّد آب.

الملفت أن بوتين، حينما يصل إلى الحديث عن تلك الفترة، يبادر محاوريه الذين كانوا يجرون معه مقابلة بغرض إعداد سيرة حياته، بالإشارة إلى ذلك السؤال. ولكنه، برغم ذلك، ومع تنبهه الأكيد لأهمية السؤال، لا يعطي إجابة واضحة عليه، ويكتفي بالقول: «لقد كنت في إجازة. وعندما بدأ كل شيء، كنت قلقاً جداً، لأن الله وحده يعلم أين كنت في تلك اللحظة».

ويجدر بنا هنا أن نتخيل أن بوتين تعرض للاستجواب، وطرح عليه السؤال:

- أين كنت في ليلة 18 إلى 19 آب (1991)؟

الإجابة التي لدى بوتين:

- لقد كنت في إجازة. وعندما بدأ كل شيء، كنت قلقاً جداً، لأن الله وحده يعلم أين كنت في تلك اللحظة.

ليس هناك، على الأغلب، إجابة مثيرة للريبة بقدر هذه. «لقد كنت في إجازة.

وعندما بدأ كل شيء، كنت قلقاً جداً، لأن الله وحده يعلم أين كنت في تلك اللحظة ». أليس كذلك؟

في الترجمة المستندة على الظنون والشكوك الشائعة في ذلك الوقت، فإن عبارة بوتين تبدو اعترافاً كاملاً بالتورط، و«كنت في إجازة»، تبدو كأنها «كنت في مهمة»!

ليس من المعروف فعلاً إن كان قد استُجوِب بوتين، الذي وصل لينينغراد في العشرين من آب، في اليوم الثاني لحركة التمرد، قادماً «الله وحده يعلم من أين».

أين يقع هذا الـ«الله وحده يعلم من أين»، وماذا كان يفعل هناك، ولماذا تأخر في العودة إلى العاصمة الثانية للدولة، التي كان نائب عمدتها، هي أسئلة «الله وحده يعلم» ما هي الإجوبة الدقيقة والواضحة عليها.

وبدلاً من الإجابة هذه الأسئلة، يسارع بوتين بالحديث عن دوره في مقاومة التمرد!

إنه يصف ذلك بكلمات متدفقة فياضة، حتى إن المرء لا ينتبه إلى أنه ظهر في مسرح الأحداث متأخراً نحو ثمان وأربعين ساعة، وبعد أن باتت الأمور واضحة في ميلها تقريباً.

وللتذكير، في مساء اليوم الثالث كان قد قُضي على التمرّد..!

مهما يكن من أمر، فإن لدى بوتين هنا ما يرويه؛ لقد استقر وسوبتشاك في مجلس المدينة لا يبارحانه. وإلى جانبهما كان هناك آخرون كثيرون أفزعتهم أحداث في تلك الأيام. ويذكر أنه بالرغم من أن مغادرة مبنى مجلس المدينة كان أمراً يعدّ خطيراً، أنهما نظما الكثير من الفعاليات: ذهبا إلى محطة مترو كيروف، وألقيا الكلمات أمام العمال، وقاما بزيارة العديد من المؤسسات.

هل هذا كل شيء؟ لا. ثمة أشياء أكثر أهمية!

لقد وصل الأمر بهما إلى توزيع بعض الأسلحة على بعض الناس. ولكنه لا يذكر من أين حُصِل على الأسلحة، وعلى من بالذات من الناس وُزِّعت، وما إذا كان هناك قرار بالمواجهة المسلحة في حال نجح التمرد. وما الهدف من توزيع الأسلحة في وقت بدا فيه أن التمرد لن يستخدم القوة المسلحة، وسيقصر محاولته «الانقلابية» على إجراءات دستورية.

طبعاً، هذا لم يدفع بوتين للجوء إلى سلاحه الشخصي..!

فلسبب ما، ربما لدواعي إظهار الانضباطية، يهتم بالقول إنه «مع ذلك، كنت أحتفظ بسلاح الخدمة في الخزنة. لقد دعمنا الناس حيثما ذهبنا. وكان من الواضح أنه إذا ما أراد أحد مواجهة هذا الموقف، فإنه سيسقط عدد كبير من الضحايا».

انتهى التمرد، وتمت السيطرة على رموزه!

هنا، من المهم ملاحظة أنه في كل المرّات التي يتحدث فيها بوتين عن هذا الجزء من حياة بلاده، يبدو غير بعيد عن التعاطف مع أسباب «المتمردين»، ويشير إلى أنه «كان واضحاً أنهم بتصرفهم يتسببون بانهيار البلاد المتداعية أصلاً. من حيث المبدأ، كانت مهمتهم نبيلة، لأنها، ربما، كما قد يكونوا فكروا، تركزت على الإبقاء على الاتحاد السوفيتي ومنع انهياره. لكن الأدوات والوسائل التي اختاروها، قادت وحسب إلى تعجيل الانهيار».

وبالمقابل، لا ينسى أنه كان ضابط «كي. جي. بي»، حينها. وحال عودته إلى سانت بطرسبورغ يكون عليه أن يقرّر مع من يقف. وبالطبع، يقرّر أنه لن يكون إلى جانب «المتمردين». وفي الواقع، لو كان إلى جانب هؤلاء، لما كان أحد رآه في بلدية لينينغراد، ولكان ظهر في مقر الـ«كي. جي. بي»، حتماً.

ولكن، بالمناسبة، ليس من دليل ينفي أنه كان هناك فعلاً في اليوم السابق!

لا بد من الانتباه إلى أن الـ«كي. جي. بي» كانت مشاركاً رئيسياً في حركة التمرد. ومن المتوقع أن تستدعي خيرة ضبّاطها. وربما هذا سبب اختفاء بوتين في اليوم الأول وأغلب اليوم الثاني، إلى ساعة أضحت مآلات الأمور واضحة. وهي أضحت واضحة حينما قرّرت قيادة «التمرد» في موسكو أن العملية ستتطلب إراقة الدماء، فقرّر أعضاؤها عدم الذهاب في هذا الخيار.

وبات واضحاً أي جهة ستكسب المنازلة الكبرى!

ولم يكن من مبرر لإضاعة الوقت. ظهر في «سمولني» حيث مقر البلدية، وهناك كتب طلب استقالة آخر؛ ولكن هذه المرة، كان عليه أن يُخطِر سوبتشاك:

- أناتولي ألكسندروفيتش، لقد قدمت بالفعل طلب استقالة، ولكنه حفظ في «مكان ما». والآن لا بد لي من القيام بذلك مرة أخرى.

اتصل سوبتشاك على الفور بفلاديمير كريتشكوف، رئيس جهاز الـ«كي. جي. بي»، والمشارك الأول بلجنة الطوارىء التي قامت بـ«التمرد»، ثم اتصل بعد ذلك بـرئيس الإدارة التـي يعمل بها بوتين في لينينغراد. وفي اليوم التالي، تلقى بوتين علماً بأن الاستقالة قد وُقِّعت، وأصبحت نافذة!

أليس في هذا ما هو غريب ومريب فعلاً..؟!

كـانت الـ«كي. جي. بـي» جزءاً مـن التمـرد، وعلـى رأس قيادتـه؛ وكأن حركة «التمرد» نفسها قد وصلت إلى طريق مسدود، وبات واضحاً أنها ستمنى بهزيمة بينة، لا شك فيها. وهنا يظهر بوتين، فجأة، ويرغب في الاستقالة، لأنه لن يكون إلى جانب «المتمردين». وليضمن الموافقة على الاستقالة، يتصل رئيس بلدية سانت بطرسبورغ «الديمقراطي» الذي يقود مواجهة التمرد في مدينته، في ذلك الظرف العصيب الذي يتابعه كل العالم، برأس التمرد، رئيس الـ«كي. جي. بي»، لا لشيء إلا ليطلب منه التلطف بقبول استقالة أحد مجنديه، الذين وقفوا ضد حركته الانقلابية!

كيف يمكن فهم ذلك..!؟

لا شك أن من عاش ويتذكر تلك الأيام العصيبة لن يرتاح بحال من الأحوال لهذه الرواية بصورتها هذه، التي تخفي أو تتجاهل عمداً حيثيات مفصلية هامة؛ فاستقامة هذه الرواية مع الواقع تتطلب أكثر من مجرد تفاصيل هامشية يمكن أن تغيب عن البال.

وبالأصل، ما الداعي إلى ذلك؟

كانت الـ«كي. جي. بي» ستتحمل عبء هزيمة الانقلاب، وستتعرض إلى التطهير، وإخراج العناصر التي لعبت دوراً مسانداً لـ«المتمردين»، وإحلال موالين لمجموعات «الديمقراطيين» محلهم. وكان الخيار المنطقي بالنسبة لـ«الديمقراطيين» المنتصرين أن يبقى «رجلهم المفترض» بوتين مرتبطاً بالجهاز، هم في عملية التطهير، وبالنسبة له سيساعده ذلك على احتلال موقع مرموق فيه، ممثلاً للفريق الجديد، فليس لديهم أفضل منه..

ولكن يبدو أنه كان يريد تجنب عمليات التطهير، ولا يؤيدها، ويعمل عكسها!

لو كان على رأس عمله، لكان استدعي للتحقيق، وطرحت عليه تلك الأسئلة التي يتجنب الإجابة عليها لليوم؛ ولكان استُجوِب الآخرين عنه وعن دوره. ولكن استقالته معززة بظهوره بين مجموعات «الديمقراطيين» ستلغي كل سؤال حوله. وحتى في حال اكتشاف أي دور له، كان سيتنصل من ذلك ببساطة، بأنه انسحب من مسرح العمليات، وانضم إلى مناوئي «التمرد»..

لا، بل وقدّم استقالته من الـ«كي. جي. بي»، نفسها!

الأمر المريب الآخر، يتمثل في ردة فعل سوبتشاك حينما أخبره بوتين عن عزمه على الاستقالة؛ لم يجد ذلك تفصيلاً ثانوياً في خضم تلك الأحداث المهولة التي كانت تعيشها البلاد ومدينته، بل على العكس من ذلك اندفع فوراً يعمل على

تحقيق هذه الخطوة، في وقت لا يُصرف إلا على الأهم المهم، ثم المهم، فالأدنى أهمية..

فما هي درجة أهمية استقالة بوتين، لسوبتشاك، وما نوع هذه الأهمية؟

وبالمناسبة، لم يخطر لا لبوتين، ولا لسوبتشاك، ولا لغيرهما، استغلال هذه الاستقالة إعلامياً؛ فالمنطق يقول إنه إذا كان بوتين وجد في نفسه القوة الأخلاقية ما يكفي لأن يستقيل احتجاجاً، فإنه من دون شك سيعلنها بثقلها الاحتجاجي، ناهيك أنها بصيغة ما تمثل انشقاقاً في صفوف «المتمردين»..

لا سيما أن معنى الاحتجاج حاصل، سواء أعلنه أم لم يعلنه، وله الثمن نفسه!

أمر مريب ثالث، يتشكل من طبيعة الاتصالات التي جرت لإتمام الاستقالة بالسرعة القصوى؛ لم تجر مع أصدقاء ثانويين، أو مع مجرد متعاطفين في الـ«كي. جي. بي». بل مع فلاديمير كريتشكوف نفسه، ثم اتصل بعد ذلك برئيس الإدارة التي يعمل بها بوتين في لينينغراد، وهو داعم قوي لحركة «التمرد» أيضاً.

أي، مع «المتمردين» أنفسهم، بل مع نخبة النخبة بينهم!

المدهش أن الموضوع يبدو كوساطة عادية، يقوم بها صديق لدى صديق آخر، وليس بين عدوين يعدّان السلاح لمواجهة في الشارع، وكانت الأمور قد وصلت بينهما إلى ما صنع ذلك الحدث من صخب وضجيج، تداولته وسائل الإعلام العالمية، وظن العالم أن البلاد على شفا هاوية الحرب الأهلية..

والمدهش أكثر أن «المتمردين» الأعداء استجابوا لهذه الوساطة، التي قام بها واحد من أشرس أعدائهم. واستجابوا لوساطته بسرعة قياسية، بحيث وُقّعت الاستقالة خلال أقل من أربع وعشرين ساعة!

إنه لأمر غريب فعلاً أن ينشغل قادة حركة «التمرد»، في تلك اللحظات الحرجة،

بإتمام استقالة مسببة بالاحتجاج على إجراءاتهم، وتسعى لتأمين وضع ضابط لديهم، انضم إلى أعدائهم، وتلبية لطلب واحد من أشرس خصومهم.

ومن الغريب أكثر أن تتضافر جهود الطرفين المتنازعين لتحقيق ذلك!

البطاقة الحزبية

الغرابة التي تكتنف سلوك الأطراف في تلك الفترة لافت إلى حد كاف. ولكن ما صدر عن بوتين نفسه، وما يتعلق به شخصياً هو جزء أساسي من هذه الغرابة. والأكثر لفتاً للانتباه أن الأطراف تغيّر سلوكها بشكل غير متوقع فور أن يتعلق الأمر ببوتين، الذي بالمناسبة لم يكن شخصية معروفة في ذلك الوقت، ولا كان في مركز الأحداث الظاهر. وهذا بالتأكيد، أمر يمكن تفسيره إذا سلمنا أن بوتين كان رقماً هاماً في هيكلية طرف فاعل معين في تلك الأحداث.

وهنا، يجري الحديث عن «كي. جي. بي» لينينغراد، تحديداً!

في الواقع، لم يكن موقع بوتين إلى جانب رئيس بلدية لينينغراد يمنحه فرصة في حماية نفسه، أو التأثير على الأحداث، أو الخروج سالماً من ذلك الصراع.

وعلينا، هنا، أن نتذكر أن «كي. جي. بي» لينينغراد في تلك الأحداث أضحى مركز القيادة البديل، بعد تعرض المركز الرئيسي في موسكو لعمليات تطهير، وجرت عليه عمليات إعادة الهيكلة، التي قسّمته إلى عدة أجهزة، وتم تسليم قيادتها إلى أيد طارئة.

أمر آخر، يتوجب تذكره هو ذلك الحديث حول أمر عملياتي يقال إن رئيس ال«كي. جي. بي» فلاديمير كروتشكوف أصدره، ويلفت إلى ضرورة التعامل مع تقدم رموز «الديمقراطيين» في بعض مؤسسات الدولة، ووصولهم إلى المراكز المنتخبة، ويطلب فيه من إدارات الجهاز إدخال عناصرهم إلى تلك المؤسسات والإدارات، والسيطرة من خلال الالتحام السلمي مع «الديمقراطيين» الجدد.

ومن جانب آخر، يتوجب تذكّر الشرخ الحاصل بين «ديمقراطيي» لينينغراد الأوروبيي التوجه و«ديمقراطيي» موسكو الأمريكيي الاتجاه، وهو الأمر الذي أضاف إلى الثنائيات الروسية ثنائية جديدة، أو بالأحرى أكسب المعادلة الروسية التقليدية التي تقوم على المقابلة بين موسكو ولينينغراد معان

جديدة، غير محلية. أي مقابلة بين التأثير الأوروبي والنفوذ الأمريكي في روسيا الضعيفة.

لم يكن هذا الشرخ، الذي عبر عن رغبة أمريكية في الانفراد برسم مستقبل روسيا، واضحاً كفاية لدى وقوع تمرد آب 1991؛ ولكنه كان موجوداً. وكانت جذوره محسوسة في الفارق بين توجهات وطبيعة شخصية رموز هذين الاتجاهين في وقت مبكر. وقاد ذلك في النهاية إلى وضع أسس للمفاضلة بين جناحي «ديمقراطيي» روسيا لدى الـ«كي. جي. بي».

هل نحن أمام تحالف الـ«كي. جي. بي» و«ديمقراطيي» لينينغراد!؟

عموماً، لا غنى عن هذه المعطيات لتوضيح الغرابة في الحيثيات المحيطة ببوتين. بينما الخلاصة الهامة التي يمكن أن يصل إليها المرء هنا، هي أن موقف وموقع بوتين من أحداث تلك الفترة لم يكن مبنياً على اعتبارات شخصية وخاصة؛ بل على الأغلب، كان موقفه ودوره مبنياً على حسابات الجهة التي ينتمي إليها. وهنا، بالذات تجد مكاناً الكلمات التي يقولها عن رئيس إدارته في «كي. جي. بي» لينينغراد، وتظهر أنه كان على تواصل مع رؤسائه في ذلك الوقت، وعلى معرفة حثيثة بمواقفهم وآرائهم وخلفياتها، وتكشف بنبرتها ومحمولاتها الضمنية عن «المحاكمات» الداخلية حول طريقة التعامل مع تلك الأحداث.

يقول بوتين:

- كان رئيس إدارتي شيوعياً بقناعاته، وكان مقتنعاً بأن كل ما يقوم به الانقلابيون هو صحيح تماماً. لكنه كان رجلاً محترماً جداً، وكنت وما أزال لليوم أنظر إليه باحترام كبير..!

تلك «المحاكمات» الداخلية حول طريقة التعامل مع تلك الأحداث، التي سادت في «كي. جي. بي» لينينغراد، لم تكن تشبه في شيء ما كان يحدث في المركز

بموسكو؛ هناك كانت الأساليب انتقامية، والهدف هو تطويع الجهاز الأمني ولو عبر تحطيمه. بينما في لينينغراد كان الأمر يتعلق بتقييم داخلي للأداء وصحة الخيارات التي رُوهِن عليها، وطبيعة الوسائل والاجراءات التي تحمي الإدارة من التعرض لما تعرض له المركز.

هذا هو القلق الذي يعبر عنه بوتين حول أحداث ذلك الوقت.

يتذكر بوتين عن نفسه أن الأحداث أثارت قلقه واضطرابه الشديدين، كما لم يكن في وضع يكون فيه قريباً من الشعور بالرضا. وهذا غريب، إذ انتهت الأحداث نهاية تناسب فريق «الديمقراطيين»، الذي كان انتسب إليه. لا سيما أن هؤلاء استلموا السلطة في البلاد، وملكوا بأيديهم مصائر خصومهم وأعدائهم، الذين تشتتوا، ولُوحقوا، وبعضهم أخرج من الخدمة، وغيرهم أُلقي به في السجن.

فما الذي كان يقلقه بشدة حينها، في حقيقة الأمر!

في الواقع، وعلى حد وصفه، فإن الوضع الذي نشأ حينها بدا وكأنه أزمة عصفت بحياته الخاصة، وكسرتها. وبمعنى آخر، يبدو أنه لم يكن جاهزاً للتكيف مع النتيجة، ما يدعو ببساطة لاعتقاد أنه كان يراهن على نتيجة أخرى، ويتمناها.

وهذا يبرر مشاعر بوتين التي كانت عملياً مشاعر إخفاق!

في توضيح اضطرابه، يعترف أنه لم يكن قادراً على تقدير أعماق العمليات والأحداث التي كانت تجري في البلاد، رغم أنه يقرّ أنه كان واضحاً له منذ عودته من جمهورية ألمانيا الديمقراطية، أن شيئاً ما يحدث في روسيا. كما يلمّح إلى أنه خلال أيام «التمرد» اهتز لديه الإيمان بالقدرة الكلية التي قادته للعمل في الـ«كي. جي. بي»!

لنا أن نعتقد أنه لم يتصور أن ما شهده في ألمانيا الديمقراطية يمكن أن يحدث له، هو نفسه، في بلاده!

مواجهته هذا الموقف لن تكون سهلة، بالذات إن كان يعيش هذه الأحداث من جهة الفريق المهزوم. وسيكون مذاقها مراً على نحو استثنائي، إن كان فعلاً لعب دوراً في تلك العملية الأمنية السوفيتية المفترضة، التي اشتهرت باسم «الشعاع»، وقادت إلى الأحداث التي أنهت وجود الدولة في ألمانيا الديمقراطية.

يتحدث بوتين حول ذلك دون أن ينسى ذكر الصعوبة في معايشة ذلك الواقع الجديد، بالنسبة لإنسان أمضى معظم سنوات حياته في الأجهزة. في تقديم واضح للوصول إلى الخلاصة الاستدراكية التي تقود إلى أنه كان يجب عليه اتخاذ قرار، فاتخذ قراره بالاستقالة!

وهنا، لا بد من ملاحظة حالة عدم الراحة غير المتوقعة، التي يعيشها بوتين إزاء الوضع الجديد؛ ويمكن الجزم بدرجة معقولة من الثقة أن مصدر القلق لم يكن أزمة شخصية نفسية، ولكنه متعلق بالقلق إزاء رهانات خطرة.

في هذه المرحلة، يحاول أن يُبقي خطوطه مفتوحة مع الشيوعيين!

يتجسد ذلك حتى بعد بضعة أشهر من «تمرد» آب. حينها نُقلت ملكية «دار الإعداد السياسي»، العائدة للحزب الشيوعي إلى مجلس المدينة. وبعد ذلك بوقت قصير استقر هناك مركز الأعمال التجارية الدولي. ولكنه يجنح إلى التعامل بلباقة مع الشيوعيين. يترك جزءاً من البناء لهم: عملياً، جناح كامل من المبنى ترك تحت سلطة الحزب الشيوعي الروسي، وحزب العمال الشيوعي وغيرهما من المنظمات الشيوعية الأخرى. رغم أن الحزب الشيوعي الروسي كان قد مُنع، وحُلّ بمرسوم من رئيس روسيا آنذاك، بوريس يلتسين.

ولكن التوتر يقوده إلى صدام غير مباشر مع الشيوعيين..!

كانت تنتصب فوق ذلك المبنى سارية للعلم. وفي لحظة قرّر الشيوعيون استخدامها للغرض المقصود، ورفعوا العلم الأحمر. وهكذا، في كل مرّة كان

أعضاء قيادة المدينة يغادرون مقر مجلس المدينة في «سمولني» يشاهدون العلم. وكان واضحاً تماماً من نوافذ مكتبي سوبتشاك وبوتين.

وكان هذا بالنسبة لهما، تحدياً مزعجاً، فقرر بوتين إزالة العلم!

أعطى بوتين أمراً بإزالة العلم الأحمر، فأُزيل. لكنه ظهر في اليوم التالي. فكرّر بوتين أوامره بإزالة العلم، ولكن أعيد رفعه مرة أخرى. وهكذا تواصل هذا الصراع بدرجات متفاوتة من النجاح. بدأت الأعلام تنفد لدى الشيوعيين، ومع ذلك كانوا يعلقون أعلاماً مرتجلة، وفي واحدة من المرات لم يكن العلم أحمراً، بل مائلاً للبرتقالي.

وهنا، فاض ببوتين. أحضر رافعة وأشرف شخصياً على قص السارية نفسها بقاطع اللحام!

لم يندفع بوتين إلى تطبيق مثال يلتسين بشأن علاقته بالحزب؛ لم يلق ببطاقته الحزبية، ويعلن خروجه من صفوف الحزب. بل اعتبر أن مشكلة هذه العلاقة ترجع إلى الحزب، الذي كف عن الوجود، وليس إلى قرار اتخذه هو..

فهو كما يقول ويكرر دائماً:

- أنا لم أترك الحزب. الحزب نفسه لم يعد موجوداً؛ فأخذت بطاقتي الحزبية، ووضعتها بعناية على الطاولة، وهي هناك منذ ذلك الحين.

تلفت الانتباه هنا عبارة «وضعتها بعناية على الطاولة». هذه العبارة، على نحو ما، تريد أن تلفت الانتباه إلى أنه تعامل باحترام مع مسألة عضويته الحزبية، فهو لم يبق البطاقة الحزبية في استعراض أمام الجماهير والاعلام، كما فعل يلتسين وآخرون. وهي بهذا دون شك رسالة إلى قطاعات معينة في الدولة، وتحديداً في الأجهزة الأمنية، كانت تتمسك بقناعاتها الأيدولوجية.

وبالنسبة لحقيقة أنه لم يترك الحزب بل «الحزب نفسه لم يعد موجوداً» فهو

حقيقي، ولكنه لم يكن ليستمر بعضويته لو تطلبت منه التزاماً محدداً؛ وعموماً هناك روايات أخرى تكذّب بوتين في ذلك، وتؤكد أنه كتب استقالته من الحزب، ولكن في تلك الأثناء صدر المرسوم بحل الحزب ومنع نشاطه، فلم يعد من داع لتقديم الطلب وكان يكفي أن لا ينضم إلى جهود مقاومة هذا المرسوم..

على أي حال، تعيد هذه الواقعة المتعلقة بالعضوية الحزبية، التي يكرّر بوتين الحديث عنها، السؤال حول استقالته من الـ«كي. جي. بي»: لماذا لم يتصرف على ذات النحو، وقد كان معلوماً أن وجه هذا الجهاز سيتغير؟! لِمَ لم يتصرف إزاء علاقته بالـ«كي. جي. بي» كما تصرف بعلاقته بالحزب؟

في الواقع، لا يمكن فهم ذلك إلا بتتبع الأحداث اللاحقة، وشكل علاقته بالحزب الشيوعي الروسي، وريث الحزب الشيوعي السوفيتي، الذي كان ينتمي إليه.

لقد كان ثمة إحساس، وربما معرفة، بأن الأمور لم تنتهِ، تماماً؛ وأن الشيوعيين سيبقون قوة معادلة لكل الاتجاهات والتجمعات الأخرى، وسيبقون حتى مع تشرذم الحزب القوة الحقيقية الوحيدة في البلاد، التي يمكنها أن تكون الأكثر تأثيراً، حتى وهي خارج السلطة.

وعموماً، لم تكن البلاد قد استقرت بعد. كانت الاضطرابات تطلُّ برأسها بين الفينة والأخرى؛ ورغم أنها تختفي، أو تتراجع حدّتها. إلا أنها تؤكد كل حين على موعدها مع البلاد..

وبالفعل، سرعان ما عادت الأزمة عام 1993، حادة، تُنذِر بمواجهة دامية!

حدث ذلك في تشرين الأول 1993، حينما اتضح أن الخلافات في معسكر «الديمقراطيين» أكبر وأعمق مما كان يبدو؛ فانقسمت السلطة على ذاتها، في فرز واضح: خرج بعض ممثليها إلى جانب المعارضة، وعلى رأسها الشيوعيون..

وقاد ذلك إلى انحياز الأجهزة الأمنية إلى جانب السلطة!

يقول بوتين إن سانت بطرسبورغ عاشت خلال تمرد عام 1993، نفس ما عاشته موسكو تقريباً، اللهم إلّا أنه لم يحدث إطلاق نار. ولكنه في المقابل لا يجد ما يرويه حول ذلك سوى القول بأن قيادة المدينة تمركزت في «سمولني»، بينما اعتصم النواب في مجلس المدينة. كان الأمر مشابهاً لما حدث في موسكو.

نتذكر أن أدوات مواجهة ذلك العام كانت السلطتان: التشريعية والتنفيذية!

يرسم بوتين عملياً هنا نفس صورة الصراع الذي خاضه يلتسين مع مجلس النواب. ومثل ما حدث في موسكو، لم تعش سانت بطرسبورغ، هذه المرة، كما كان الحال عام 1991، انقساماً داخل وكالات إنفاذ القانون.

لقد أعلنت الـ«كي. جي. بي»، التي كان يقودها في ذلك الوقت فيكتور تشيركيزوف، زميل بوتين القديم في الجامعة ثم في العمل بالاستخبارات، منذ البداية عن تأييدها لرئيس البلدية. وبعد ذلك قاد سلسلة من العمليات لإلقاء القبض على المناوئين، الذين نظّموا وخططوا لزعزعة «الاستقرار».

ما لا يقوله بوتين هو أن الأحداث في سانت بطرسبورغ لم تكن متشابهة مع ما كان يجري في موسكو. وشهود تلك الفترة يجزمون أن لا بوتين ولا سوبتشاك ظهرا في تلك الأيام. وربما كان ذلك أثار غضب موسكو، فأرسلت قراراً عبر الفاكس بتنحية سوبتشاك وتعيين نائبة شيرباكوف مكانه.

شيرباكوف الذي تسلم الفاكس خبأه، ولم يخرجه أبداً.

محاولة موسكو الإطاحة بسوبتشاك لم تثمر لأن شيرباكوف امتنع عن التعاون، وأبدى التزاماً تجاه رئيسه. ولكن غضب موسكو لم ينتهِ هنا، فقد نُظّمت حملة ضد عمدة لينينغراد، وتكلف ألكسندر كورجاكوف، حارس يلتسين الشخصي، ولاحقاً قائد حمايته، بإنشاء صحيفة «سترينجر» للنيل منه، وإسقاطه في الانتخابات التالية في لينينغراد.

وهكذا كان. خسر في انتخابات 1996 الشهيرة أمام نائبه الآخر، ياكوفلوف!

وبالمناسبة، تبدو أحداث تشرين الأول 1993 لحظة مهمة في التاريخ الروسي الحديث، ليس لحدّتها وطابعها الدراماتيكي وصداها الدولي الكبير، بل لأنها وضعت الأسس لنهاية عهد يلتسن، فالأجهزة الأمنية التي كانت «مستضعفة» إلى ذلك الحين، وجدت الفرصة لتعود شيئاً فشيئاً إلى الواجهة، بعدما اضطرت يلتسين إلى اللجوء إليها.

لجأ إليها لتُنقذ حكمه، فأنقذته، ثم جعلته تدريجياً أسير إرادتها!

لاحقاً، ستحدد هذه الأجهزة موعد رحيل يلتسين، بعد أن تتخلص من مرشحين أرادهم الرئيس العاجز أن يخلفوه، ثم ستضع له في اللحظة الأخيرة المرشح الذي يناسبها..

وكان ذلك المرشح هو رجل الظل: بوتين نفسه!

اللغز العاشر

الأسرار المعتمة

مجلس المدينة

تختلف تقييمات رؤساء بوتين لشخصه عن تقييمات مرؤوسيه؛ تماماً مثلما يختلف الجميع في تقييم مهنته عموماً، أو أدائه المهني في مراحل محدّدة. ويبدو أن الشيء الوحيد المتفق عليه هو سيرته الدراسية، التي يمكن القول أنها نالت تقييمات جدية وموضوعية. فهو في جانب كان مجتهداً ومثابراً بلا شك، وفي آخر غير مبال، يكتفي بعلامات النجاح، لا سيما في المواد العلمية مثل الفيزياء والكيمياء، رغم أنه كان قد درس على نحو جيد في مدرسة متخصصة.

وكان الاجتهاد يحضر، دائماً، في الجوانب التي تقربه من طموحه لاقتحام عالم الجاسوسية!

ويبدو أن هذا الاجتهاد لم يوصل بوتين إلى منطقة متقدمة من إحراز الرضا والقبول لدى رؤسائه؛ فها هو نائب مدير «كي. جي. بي» لينينغراد في الثمانينات، أوليغ كالوغين، يقول:

- أتذكّر بوتين على نحو غامض. بصراحة كان شخصية باهتة جداً، عديمة اللون. عمل لوقت في أمانة الإدارة العامة في لينينغراد، ثم نُقل إلى العمليات. ويمكنني أن أقول عموماً، على سبيل المثال، إنه كان على النقيض من زميله باتروشيف، الذي عمل تحت رئاستي المباشرة، وكان يظهر بعض الطموح والاستقلالية. بوتين في هذا المعنى، كان شخصية عادية، لا تتميز بشيء.

ويواصل كالوغين، الذي يعيش اليوم في الولايات المتحدة بعد قصة شهيرة، قادت إلى خلاف عاصف مع قيادته، وأدت إلى محاكمته غيابياً بتهمة الخيانة وتجريده من رتبته وأوسمته، عام 1990:

- كون بوتين وصل إلى ضابط احتياط ينتدب في مؤسسات الدولة الأخرى، مثل جامعة لينينغراد كما في حالته، فإن عليّ القول هنا إنه بالنسبة لرجل في

عمره، وعاش تجربة العمل بالخارج، مع أن العمل في ألمانيا الشرقية لا يعتبر تجربة خارجية حقيقية، كان يمكن أن ينتدب للعمل في مؤسسات أكثر أهمية من ذلك بكثير، مثل وزارة الخارجية، أو وزارة العلاقات التجارية الخارجية. وفي لينينغراد، كان يمكن أن ينتدبوه لمؤسسة شحن البلطيق، وهي مؤسسة هامة وتابعة لوزارة الأسطول البحري، أما جامعة لينينغراد، فهي ربما، آخر مكان من حيث الأهمية. إنها تعني مقبرة للمهنة.

ويبدو أن بوتين كان يثير الاهتمام والإعجاب لدى موظفي «مقبرة المهنة»!

في الواقع، كان رؤساؤه المباشرين يحبّونه، ويقرّبونه، ويثنون عليه وعلى عمله في تقييماتهم؛ ومن المرجح أن تكون صفاته التي خدمته في «مقبرة المهنة» قد أدت خلال وجوده في دريسدن إلى دفعه للأمام، من خلال ترقيته وإشراكه في مهام خاصة..

ولديه هنا، بعض المواصفات اللازمة التي تؤهله..!

كانت العملية الأشهر في ذلك الوقت هي «الشعاع»؛ وبحكم كونها ليست عملية مشتركة مع الجانب الألماني الشرقي، فإنه من المحتم أن يستعان في تنفيذها بأشخاص من خارج دائرة الضوء المباشرة.

وبوتين لم يكن ذلك الضابط المتقدم، ويخدم في دريسدن البعيدة، التي تفرض نوعاً روتينياً من العمل ذي الطبيعة المحلية، بينما النشاطات المتعلقة بالسياسة والنخب السياسية، فهي أنشطة متوقعة من العاملين في العاصمة نفسها..

ولكن بوتين، الذي كان يعمل رسمياً في دريسدن، كان يتواجد في برلين أسبوعياً!

موظفو بوتين أكثر تقديراً له. وتبرز توصيفاتهم لشخصه جدّية معقولة، وانغماساً بالعمل دائماً. وهو على حد وصفهم ليس بالمدير الصعب، ولكنه متطلّب ويستطيع أن يكون صارماً وصعباً، دون أن يرفع صوته. إذا أعطى أحداً

ما مهمة، فإنه لا يهتم حقاً كيف يفعل ذلك، ومن الذي يفعل ذلك، وما هي المشاكل التي يمكن أن تنشأ أثناء تنفيذها..

ما يهمه هو أن تُنفّذ المهمة، بالشكل المطلوب، في الوقت الملائم، وفقط!

لا يتوقعون أن تؤثر حالته النفسية على طريقة التعامل معهم؛ فهو لم يعتد رفع صوته أبداً، سواء كان راضياً أو منزعجاً، في مزاج طيب أو متعكر المزاج. ولكنهم يخشون أن يعودوا إليه مع حالاتٍ من الفشل لأسباب غير وجيهة، أو بفعل عقبات ليست قوية، فهذا غير مغتفر. أو أن يرتكبوا خطأ ينم عن لحظة غباء، فذلك شيء يخرجه عن طوره، ويصبح قاسياً في كلامه وأحكامه..

والواضح، أنه ليس هناك شيء أو أحد يمكن أن يغضبه بقدر الغباء!

تعكس هذه الآراء على نحو ما، طبيعة بوتين: إنه يعمل دائماً بجد، على شيء ما. أي، أنه ليس من النوعية التي يمكن أن تقبل القيام بعمل روتيني لفترة طويلة. وربما كانت محبة موظفيه له، تعكس تعاطفهم مع مديرهم الذي يغرق في العمل ويجهد نفسه.

وهكذا كان خلال فترة عمله في مجلس مدينة لينينغراد!

كانت المهمة المساعدة الروتينية قد تحولت سريعاً إلى عمل مرهق؛ فقد أُنشئ في العام 1991 مكتب للعلاقات الخارجية، وترأسه فلاديمير بوتين، وبعد قليل من الوقت أصبح هذا المكتب من أهم إدارات البلدية، وبات مركزاً مؤثراً على الحياة العامة، ومنها السياسية، وعلى اقتصاد المدينة الكبرى الثانية في روسيا..

وإلى هذه الفترة، كما هو متوقع، يعود تاريخ أهم ملفات الفساد بحق بوتين!

كان نظام التجارة الخارجية للمدينة، في ذلك الحين، يعيش بالضبط نفس الظروف التي تعيشها كل مناطق البلاد: احتكار الدولة في ظل انهيار الأداء

والسلسلة الاقتصادية في البلاد، صلاحيات واسعة لشركات الدولة العملاقة من مثل «لينفينتورغ» أو «لينفنيشتورغ». ويترافق مع ذلك بطبيعة الحال، غياب كامل للجمارك، والخدمات المصرفية والاستثمارية، والأوراق المالية وغيرها من الهياكل الضرورية.

وكانت هناك حاجة ماسة إلى تهيئة الظروف للتعاون مع الغرب في ظل اقتصاد السوق.

استهلّت اللجنة باكورة نشاطاتها الهامة بافتتاح أول فرع للبنوك الغربية في سانت بطرسبورغ، وكان ذلك واحد من الأحداث الأولى من هذا النوع في البلاد. وقد تم ذلك بجهد نشط من بوتين. وعن ذلك تتحدث هوية أول بنك فتح أبوابه في المدينة..

كانت البداية مع فرع «بنك دريسدنر»، ثم بنك «ناسيونال دو باري».

وتركزت جهود إدارة المدينة أيضا على جذب المستثمرين الأجانب. وبمبادرة من مكتب العلاقات الخارجية أُسِّست المناطق الاستثمارية، التي نمت بنجاح، وأنشئت أولها، «بارناس»، بالقرب من منطقة مرتفعات بولكوفو.

صُمّم المخطط على قاعدة استقطاب مستثمر عملاق، وكان في هذه الحالة شركة «كوكا كولا»، يحصل على حق استخدام قطعة أرض، مقابل أن يتحمل كلفة إنشاء البنية التحتية في مرتفعات بولكوفو، مع الأخذ بعين الاعتبار ظهور العديد من الصناعات في المستقبل القريب. وقد حدث هذا.

بعد «كوكا كولا»، ظهرت في تلك المنطقة شركة «جيليت»، ثم «ريجلي». وبعدها بدأت الأمور تتسارع، فتزايد عدد المناطق الحرة، حتى باتت تتأسس حتى داخل حدود المدينة نفسها.

بالإضافة إلى ذلك، بمساعدة من اللجنة نشطت وتيرة تحسين البنية التحتية في المدينة لتهيئة الظروف للمشروعات الاستثمارية. والإنجاز الكبير الأول،

الذي تبناه بوتين هو الانتهاء من مد كابل الألياف البصرية إلى كوبنهاغن.

كان هذا المشروع الضخم قد بُدء به في العهد السوفيتي، لكنه فشل. ولكن بعد جهود بوتين الناجحة، أصبحت سانت بطرسبورغ تتمتع باتصالات هاتفية دولية ترقى إلى المعايير العالمية.

أخيراً، كان هناك مشكلة الكوادر: المتخصصين الذين يعرفون اللغات، كان هناك القليل جداً منهم. وبمبادرة من بوتين، وبدعم سوبتشاك أُنشئت مدرسة العلاقات الدولية. وفي عام 1994، تخرجت الدفعة الأولى فيها. وبدأ خريجو هذه الكلية يعملون بالفعل في اللجنة وغيرها من الهياكل الأخرى.

في هذه الفترة بدأ اسم بوتين يرتبط بملفات سيئة السمعة!

أبرزها، الفضيحة المرتبطة بالإمدادات الغذائية، التي قيل وكُتب عنها الكثير في الصحافة، وما يزال صداها يتردد إلى اليوم، وما تزال الأحاديث تتناولها بين حين وآخر، ويذكّر بها معارضو بوتين، بين فينة وأخرى.

كانت البلاد تعيش أزمة غذاء في عام 1992، وواجهت لينينغراد مشاكل كبيرة في هذا المجال. وحينها اقترح رجال أعمال من لينينغراد المخطط التالي: أن يُسمح لهم ببيع السلع في الخارج، بشكل رئيسي مجموعة المواد الخام، وبالمقابل يلتزمون من جهتم باستيراد المواد الغذائية وضخها في السوق المحلي. وبدا أن ذلك حلّ مرض، وبالتالي، وافق مكتب العلاقات الخارجية، الذي يرأسه بوتين، على هذا الاقتراح.

حصل مكتب العلاقات الخارجية على موافقة رئيس مجلس المدينة، وصدر تكليف بهذا الشأن. وبدأت الخطة تعمل. فنشطت الشركات في تصدير المواد الخام. وبطبيعة الحال، كان يفترض أن يتم ذلك وفق الإجراءات المعمول بها، ومنها تنظيم كافة التصاريح اللازمة وتراخيص التصدير، وكل المستندات اللازمة التي عادة ما تطلبها الجمارك عند التصدير لتسمح بخروج تلك المواد.

قيل حينها الكثير، وانتشرت الإشاعات التي قال بأن عمليات التصدير طالت بعض المعادن النادرة. ولكن بوتين ينفي ذلك. ويؤكد أنه لم يُصدّر ولو غرام واحد من المعادن، التي تحتاج إلى تصريح خاص. ولكنه يعترف بأن بعض الشركات لم تف بالتزاماتها الرئيسية المنصوص عليها في العقد، فلم تستورد المنتجات الغذائية من الخارج، أو لم تستوردها بالحجم المطلوب، أي، أنها انتهكت التزاماتها تجاه المدينة.

ويؤكد بوتين أن «افتعال» هذه القصة، كان يهدف بالأساس لإحداث ضجة!

وبالنسبة لبوتين فإن الموضوع بأكمله يتلخص بأن بعض النواب كانوا يحاولون الضغط على سوبتشاك، لكي يقيله، لأنه يوظّف رجل «كي. جي. بي» سابق، ورجل الـ «كي. جي. بي» السابق هذا هو المسؤول عن هذه الملفات. بالإضافة إلى دوافع أخرى تتعلق بعمل بعض النواب مع بعض الشركات التي حاولت الاستفادة من هذه الخطة، ولم تحصل على شيء، لذلك كانوا سعداء بالعثور على رجل ينتمي إلى الـ«كي. جي. بي» يمكن إلصاق كل التهم الشريرة به، والضغط لطرده ووضع رجلهم الذي يناسبهم في مكانه.

قيل حينها الكثير، وانتشرت الإشاعات التي قال بأن عمليات التصدير طالت بعض المعادن النادرة. ولكن بوتين ينفي ذلك. ويؤكد أنه لم يُصدّر ولو غرام واحد من المعادن، التي تحتاج إلى تصريح خاص. ولكنه يعترف بأن بعض الشركات لم تف بالتزاماتها الرئيسية المنصوص عليها في العقد، فلم تستورد المنتجات الغذائية من الخارج، أو لم تستوردها بالحجم المطلوب، أي، أنها انتهكت التزاماتها تجاه المدينة.

ويؤكد بوتين أن «افتعال» هذه القصة، كان يهدف بالأساس لإحداث ضجة!

وبالنسبة لبوتين فإن الموضوع بأكمله يتلخص بأن بعض النواب كانوا يحاولون الضغط على سوبتشاك، لكي يقيله، لأنه يوظّف رجل «كي. جي. بي» سابق، ورجل الـ «كي. جي. بي» السابق هذا هو المسؤول عن هذه الملفات. بالإضافة إلى دوافع أخرى تتعلق بعمل بعض النواب مع بعض الشركات التي حاولت الاستفادة من هذه الخطة، ولم تحصل على شيء، لذلك كانوا سعداء بالعثور على رجل ينتمي إلى الـ«كي. جي. بي» يمكن إلصاق كل التهم الشريرة به، والضغط لطرده ووضع رجلهم الذي يناسبهم في مكانه.

خطأ شخصي

لا يعترف بوتين بخطأ شخصي في إجراءاته اللينينغرادية، رغم أن تلك العملية أديرت من قبله هو شخصياً ومن قبل إدارته، وبالنسبة له فإن التقصير هو من طرف «المدينة»، ويقصد بـ«المدينة» جهات أخرى من مؤسساتها وإداراتها، لم تبذل، بطبيعة الحال، كل ما في وسعها.

كان من الضروري، بحسب بوتين، العمل بشكل وثيق مع سلطات إنفاذ القانون ودفع تلك الشركات التي لم تف بالتزاماتها إلى الوفاء بها، ولو بالعصا. و«لكن إرسالهم إلى المحكمة لا طائل منه، فهم يذوبون على الفور. في الأساس، ليس لديهم ما يظهرونه. أتذكّر ذلك الوقت، كانت هناك الكثير من الشركات والمكاتب، مثل الهرم المالي «إم. إم. إم»، التي أكلت عقول الناس بوعودها حول الأرباح المضمونة الطائلة، ثم ذابت فجأة بأموال المدّخرين.. عموماً لم نحسب حساب هذا».

والبرهان الأكيد على براءته، الذي يصر عليه بوتين هو أن مجلس المدينة لم يعمل في التجارة، ومكتب العلاقات الخارجية في حد ذاته لا يتاجر: لا يبيع شيئاً، ولا يشتري أي شيء. إنه ينظم التجارة الخارجية وحسب، وهو لا يمتلك الصلاحية في إعطاء التراخيص. كانت التراخيص صلاحية حصرية بيد وزارة العلاقات الاقتصادية الخارجية، والوزارة هي هيكل إداري اتحادي، ولم يكن لديها علاقة مباشرة مع إدارة المدينة.

في الواقع، أثارت هذه القضية ما هو أكثر من الاشاعات والضجيج الإعلامي!

لقد شكّل نواب مجلس لينينغراد لجنة تحقيق خاصة، برئاسة النائبة المعروفة مارينا ساليه، وما تزال أعمال وخلاصات هذه اللجنة متداولة إلى اليوم، بالرغم من أن بوتين يصر على أن هذه اللجنة «كان يفترض أن تجري تحقيقاً خاصاً، وفي الواقع لم تجر أي تحقيق، بل، لم يكن من الممكن أن يكون هناك تحقيق.

فمن وجهة نظر جنائية لم تكن هناك قضية ولا متهمين».

ومع ذلك، فإن الوقائع لا تقول بأنه غير ذي علاقة:

- كان بوتين بدأ في خريف عام 1991، برنامجه الخاص لتأمين سانت بطرسبورغ بالإمدادات الغذائية من الخارج مقابل تصدير المواد الخام.

- في الرابع من كانون الأول من العام نفسه، وجه رسالة تتضمن هذا الاقتراح إلى لجنة العلاقات الاقتصادية الخارجية في وزارة الاقتصاد، باعتبار أن «مصدر الغذاء الوحيد المتاح للمدينة، في الفترة من كانون الثاني إلى شباط 1992، قد يكون وارداتها في مقابل الصادرات من المواد الخام».

- طلب بوتين أن يُمنح مكتب عمدة بطرسبورغ مبلغ 124 مليون دولار من قيمة
صادرات تلك المواد الخام (الخشب والنفط والخردة غير الحديدية، فضلاً عن 14 طن من المعادن الأرضية النادرة - التنتالوم والنيوبيوم والجادولينيوم والسيريوم والزركونيوم، الإيتريوم، السكانديوم، الإيتربيوم).

- طلب بوتين كذلك أن يكون للجنة العلاقات الخارجية التي يترأسها الحق في توزيع الحصص والتراخيص.

- في الخامس والعشرين من آذار 1992 منحت وزارة العلاقات الاقتصادية الخارجية، التي كان يرأسها في حينه بافل آفين، لجنة العلاقات الخارجية في سانت بطرسبورغ صلاحية منح تراخيص التصدير.

- لكن بوتين كان قد وقّع فعلاً، قبل ورود الموافقة الرسمية، أربع رخص تصدير: واحدة لشركة «نيفسكي دوم» لتصدير المنتجات النفطية، وأخرى للمؤسسة الصغيرة «الجمعية اللينينغرادية للصليب الأحمر» لتصدير الألومنيوم والمعادن النادرة، وثالثة لمركز التجارة الدولي المملوك لصالح غريغوري ميروشنيك لتصدير 150 ألف طن من المنتجات النفطية مقابل اللحوم والبطاطا والسكر، ورابعة لشركة «فايفكور» لتصدير 50 ألف متر مكعب من الأخشاب مقابل

استيراد الحليب.

وعملياً، فإن معظم التراخيص والعقود (بما لايقل عن 13 رخصة على الأقل، صدرت قبل ورود الموافقة الرسمية من وزارة الاقتصاد) وقّعها نيابة عن لجنة العلاقات الخارجية بوتين نفسه، ونائبه الكسندر أنيكين. وفي أربع حالات أخرى حملت اسم بوتين، بينما حملت توقيع نائبه.

في العاشر من كانون الثاني 1992 بقرار من الدورة 13 لمجلس المدينة أُنشئت لجنة برلمانية خاصة للتحقيق في نشاط لجنة العلاقات الخارجية، برئاسة مارينا ساليه (رئيس لجنة الغذاء في برلمان المدينة) ويوري غلادكوف.

وتتذكر مارينا ساليه أن المواد الخام، بما في ذلك تلك التي تحتوي على العناصر الأرضية النادرة، بيعت في الخارج بترخيص من لجنة العلاقات الخارجية «بأسعار متدنية مقارنة مع أسعار السوق في ذلك الوقت». على وجه الخصوص، اتفاق لجنة العلاقات الخارجية مع الشركة الألمانية الروسية «جيكوب» (المساهم الرئيسي فيها هو المواطن الألماني بيتر باخمان).

نص هذا الاتفاق على منح الشركة ترخيص تصدير13.997 كيلو من المعادن النادرة، بسعر 72.6 مارك ألماني للكيلوغرام الواحد من السكانديوم، في حين سعر سكانديوم في السوق العالمية في ذلك الوقت كان يبلغ أكثر من ألفي ضعف هذا السعر، أي، 150 ألف مارك ألماني (بوتين نفسه لم يوقّع على الاتفاقية - وُقّع عليها من قبل نائبه). وخُفّضت أسعار المعادن النادرة الأخرى في سبعة أو عشرة أو عشرين مرة.

تضمنت العقود التي وقعتها لجنة العلاقات الخارجية عمولة للشركات، لم تكن مرتفعة وحسب، بل وتباينت بشكل غير مفهوم. ففي العقد المؤرخ بالثالث من كانون الثاني 1992 مع شركة «لوكك» الذي وقعه بوتين شخصياً، وصلت العمولة إلى 25٪ (540.000 دولار)، وفي الاتفاق مع شركة «انترليسبيرجا» الموقع باسم رئيس اللجنة فلاديمير بوتين من نائبه الكسندر أنيكين، وصلت

العمولة إلى 50٪ (5.983.900 دولار أمريكي).

وبهذا، أوصت اللجنة النيابية عمدة لينينغراد بإقالة بوتين من منصبه وإحالة القضية إلى مكتب مدعي عام المدينة ومديرية مراقبة الإدارة الرئاسية للتحقيق، وتم إبلاغ وزير العلاقات الإقتصادية الخارجية بافل آفين بنتائج التحقيق رسمياً.

لم ينظر مكتب الإدعاء العام بالقضية، على الرغم من أن مدعي عام المدينة فلاديمير ايريمنكو أرسل إلى أناتولي سوبتشاك تقديراً قانونياً حول «صياغة العقود غير الصحيحة من لجنة العلاقات الخارجية وعدم قانونية بعض التراخيص».

ومن جهته، لم يطعن الوزير بافل آفين كذلك في التراخيص الصادرة عن لجنة العلاقات الخارجية لمدينة سانت بطرسبورغ. ومع ذلك، اضطر نائب بوتين في اللجنة، ألكسندر أنيكين، لترك منصبه، وأُلغيت بعض الصفقات التي تمت بإشراف بوتين نفسه.

وأشرف بوتين شخصياً، بوصفه رئيساً لمكتب العلاقات الخارجية، في عام 1992، على تأسيس بورصة سانت بطرسبورغ للعملات، ووقّع في العام نفسه عقداً باسم مكتب عمدة المدينة مع شركة التدقيق الدولية الكبرى «كي. بي. إم. جي» لتقديم الاستشارات المالية للبلدية، وكذلك بدأ مشروعاً استثمارياً ضخماً مع شركة «كوكا كولا».

سهّل بوتين وصول عدد من الشركات، الألمانية على وجه الخصوص، إلى المدينة. وكان عرّاب افتتاح فرع بنك «بي. إن. بيه. دريسدنر» الألماني ليكون أول البنوك الأجنبية في روسيا. ومن المعروف أنه يرأس هذا البنك، الذي أخذ اسم «بي. إن. بيه. دريسدنر روسيا»، العميل السابق لجهاز الاستخبارات في ألمانيا الشرقية «ستاسي»، ماتياس فارنيغ، وهو زميل عمل لفلاديمير بوتين خلال مدة خدمته في دريسدن الألمانية.

في عام 1992، ترأس بوتين وفد مدينة سانت بطرسبورغ وزار فرانكفورت، حيث قام هو وعضو آخر في الوفد، فلاديمير سميرنوف (صديق رجل الأعمال فلاديمير كومارين - بارسوكوف) بإقناع مجموعة من المستثمرين في فرانكفورت بإنشاء شركة ألمانية روسية (ذاع اسمها «سباغ»، على نطاق فضائحي واسع)، زاولت الاستثمار العقاري في سانت بطرسبورغ. وضمت في مجلس إدارتها أربعة مسؤولين من مكتب رئيس بلدية سانت بطرسبورغ، بما في ذلك بوتين نفسه؛ وكان بوتين نائب رئيس مجلس الإدارة فيها.

ترأس شركة «سباغ» أحد مواطني ليختنشتاين هو رودولف ريتر، في حين أن فرع الشركة في سانت بطرسبورغ والمعروف باسم «زنامينسكايا»، فكان رئيسه التنفيذي فلاديمير سميرنوف، أما صديقه رجل الأعمال فلاديمير كومارين - بارسوكوف، فكان عضواً في مجلس الإدارة.

وفي عام 1999، أُجري تفتيش عام في شركة «سباغ» من دائرة الاستخبارات الاتحادية الألمانية وتحديداً لعلاقاتها مع رئيس الوزراء الروسي الجديد، آنذاك، فلاديمير بوتين.

وبنتيجة عمليات التفتيش والتدقيق، اتُّهم الرئيس التنفيذي للشركة رودولف ريتر بغسل الأموال لصالح عصابات إجرامية روسية (المافيا الروسية)، وكذلك لصالح مهربي المخدرات الكولومبية (كارتيل كالي للكوكايين). وفي مايو 2000، قُبِضَ على ريتر في عاصمة ليختنشتاين فادوز.

ظل بوتين على نحو رسمي مستشاراً لشركة «سباغ» حتى نهاية شهر آذار عام 2000.

فساد شرعي

تغيّر بوتين كثيراً بانتقاله للعمل في مجلس المدينة، ولم يعد نهباً للتفكير ومراجعة الماضي والقلق. كان كمن دخل في مرحلة جديدة من حياته، كاملة، ومختلفة كلياً؛ فأصبح من النادر أن يلتقي أصدقاءه. كان مشغولاً على الدوام، يغادر المنزل في وقت مبكر، ويعود في وقت متأخر من الليل. وبطبيعة الحال، يكون متعباً، لا يتسع وقته في البيت إلى حد يمكنه من أن يكشف شيئاً عن يومياته في العمل.

كانت خبرة الـ«كي. جي. بي» قد عوّدت العائلة بأن العمل هو شأن غاية في السرية، فلم تنتظر منه غير ذلك.

وتغيّر سلوكه حتى في العطلات، وأثناء حفلات الشواء، التي باتت تقام أقل فأقل في البيت الريفي، وحينما كانت تقام، كان غالباً ما يقضي الوقت بالسير على طول السياج، مفكراً في شيء ما، وكان عقله دائماً في مكان آخر. لقد انغمس تماماً بأعمال المدينة، وغرق بطبيعتها الجافة، وبات رجلاً عملياً، دائماً!

ولم تتغير اهتماماته فقط، بل وعواطفه، كذلك..!

في ذلك الوقت، كان مجلس المدينة يحاول استعادة النظام في تجارة الكازينوهات في سانت بطرسبورغ؛ كان بوتين يتبنى رأياً يقول بأن هذه التجارة هي واحدة من مجالات النشاط التي يجب أن تبقى حكراً على الدولة.

وسيتطور هذا الموقف، وهذه التجربة، لدى بوتين لاحقاً في مجال أكثر حيوية وخطورة، ويطبّقها بنجاح على الشركات الكبرى التي تتحكم بالثروات الوطنية، وعلى رأسها النفط والغاز..

ولكن هذه البداية مثيرة، ويكون المرء غافلاً إن لم تثر لديه أسئلة جمة..

أولا: إن عبارة «استعادة النظام في تجارة الكازينوهات»، ابتداء، ليست بالبراءة

التي تبدو عليها، إذ إن تجارة الكازينوهات في ذلك الوقت هي الجزء الظاهر من جبل جليد الجريمة المنظمة وأعمالها و«البزنس الأسود»، الذي تديره، أي، ما أصطلح على تسميته بـ«المافيا».

ثانياً: «استعادة النظام في تجارة الكازينوهات» تعني، في واحد من معانيها، قوننة عمل هذه المؤسسات، وتصفية الأدوار السوداء التي كانت تضطلع بها في خدمة «البزنس الأسود». وهذا يعني الدخول إلى المنطقة المحرّمة لدى «المافيا»، طويلة اليد، كلية القدرة في ذلك الوقت. وهو الأمر الذي يفوق قدرة مسؤولين يحتلون مناصب ويديرون مؤسسات معتبرة وهامة.

ثالثاً: يقترح بوتين أن هذه التجارة هي واحدة من مجالات النشاط التي يجب أن تبقى حكراً على الدولة. وهو هنا، لا يريد فقط قوننتها من خلال تنقية أنشطتها وتقاضي رسوم وضرائب على عوائدها، ولكن «استعادة النظام» فيها، من خلال تمكين الدولة من الاستحواذ عليها.

وباختصار، من المستحيل أن يفكر مسؤول عاقل بالاقتراب من هذه المنطقة، لا سيما في ظروف تلك الأعوام، وخصوصاً إن كان من مستوى بوتين حينها؛ فمسؤول العلاقات الدولية في بلدية سانت بطرسبورغ هو في النهاية موظف، لا سلطة لديه إلا على الورق والأختام والتوقيعات. وحتى البلدية التي يعمل فيها، لا تملك ما يسعفها في مثل هذه المواجهة.

في ذلك الوقت، كانت بلدية سانت بطرسبورغ تعاني من شح في الموارد، حاد، وشكل قلقاً دائماً ومقيماً. لذا، فالبحث عن موارد ليس أمراً مفاجئاً، ولكن مثل هذا المخرج كان ببساطة انتحاراً مباشراً، ومن يقدم عليه، كأنما حكم على نفسه بالتصفية الجسدية.

فماذا كان لدى بوتين يشجعه على هذه الخطوة..؟

كان لديه جهاز الـ«كي. جي. بي»، الذي يستطيع أن يتسبب بمشاكل لا ضرورة

لها بالنسبة لأساطين عالم «البزنس الأسود»، كما يستطيع أن يسهل عليهم حياتهم وأعمالهم. ولديه القدرة المعلوماتية التي يمكن أن يوظفها ضدهم أو يضعها في خدمتهم، كما أن بوسعه أن يغلق عليهم عالم «البزنس الأسود»، ويحكم عليهم تمضية حياتهم فيه، ووفق قوانينه، أو يساعدهم على الانتقال السلس إلى مظلة العمل القانوني الشرعي، مدعومين بسلطة الجهاز ومعلوماته وقوته.

وكان لدى بوتين ما يفكر فيه هنا، هو مدينته المعوزة، وجهاز الـ«كي. جي. بي»، الذي يبدو أنه لم يكن بعيداً عن ابتكار هذه الفكرة، لا سيما وأنه مع انهيار الأوضاع السياسية في أواخر الثمانينات انهمك في عمليات اقتطاع أرصدة طوارئ وتهريبها إلى الملاذات الآمنة العالمية؛ كما أن الجهاز حفل بأشخاص من ذوي المعرفة والدراية بالعمليات المالية وضروب التجارة والبزنس، وهؤلاء كانوا يديرون عمليات تمويل أنشطة الجهاز الخارجية، وبعض الملفات المالية الحساسة للدولة، ومواجهة بعض الإجراءات التي تفرضها الدول الغربية على الاتحاد السوفيتي.

لذا، من المرجح أنه بوتين تحت غطاء دعم عوائد البلدية الشحيحة، كان مكلفاً بإدارة عمليات التمويل الجانبي لجهاز الـ«كي. جي. بي»، الذي شحّت موارده، وبات خاضعاً دوناً عن سواه للمساءلة، بينما ميزانيته نفسها لم تعد سرّية، على الأقل بالنسبة لأطراف معادية في السلطة، وبات بالتالي مكشوفاً تماماً. الأمر الذي يفرض اللجوء إلى تأمين اعتمادات وميزانية سرية. ولم يكن من مجال سوى اقتناص حصة من الأنشطة العشوائية التي تجري في البلاد.

هذا يفسر دور بوتين وقوته الخفية عير المفهومة في موقعه الوظيفي المتواضع بوصفه مجرد مسؤول في مجلس مدينة سانت بطرسبورغ، كما يفسّر أيضاً الأهمية المفاجئة التي اكتسبتها إدارة الـ«كي. جي. بي» الفرعية في سانت بطرسبورغ، وبدء تدفق اللينينغراديين على العاصمة للعمل في الإدارة الرئيسية في موسكو، وفي الأجهزة الحكومية «الصديقة»..

ولكن هذا، على أي حال، مجرد ترجيح وافتراض!

بلى، مجرد ترجيح وافتراض، ولكن يمكن بالمقابل الاطمئنان إليه لأن مواجهة مجتمع الأعمال الأسود مستحيلة دون سند وقوة مباشرة، لا يتيحهما مجرد المنصب في مجلس المدينة، ناهيك عن أن موقف بوتين في هذا الموضوع لم يكن يتناقض مع قانون مكافحة الاحتكار الذي كان اعتُمد، ولكن كذلك مع مصالح أباطرة المال والقمار، الذين لم يكونوا ليقبلوا بأن تمارس الدولة، ممثلة بـ«المدينة»، رقابة مشدّدة على أنشطتهم ومداخيلهم.. ناهيك عن مشاركتهم فيها، أو انتزاع هذه التجارة منهم!

للقيام بذلك، أنشأ مجلس المدينة مؤسسة على مستوى سانت بطرسبورغ، لا يملكها أي كازينو، وهي بالرغم من ذلك تسيطر على 51% من أنشطة الكازينوهات والقمار في المدينة. في هذا المؤسسة فوّض ممثلو إدارات الرقابة الرئيسية، وهي: الـ«في. إس. بي» (وريث الـ«كي. جي. بي»)، وشرطة الضرائب، ومفتشية الضرائب.

كان رهان بوتين يتمحور حول أن الدولة كمساهم سوف تتلقى 51% من الأرباح.

ويقول بوتين إن التجربة أثبتت أن ذلك لم يكن مخرجاً بدون عيوب، فمهما كان عدد الحصص التي تمتلكها المدينة، فإن هذا لم يعن بحال من الأحوال أنها امتلكت السيطرة المناسبة على هذه التجارة..

كانت كل تلك الأموال تذهب من الطاولات لتتحول إلى نقود سوداء!

أظهر أصحاب الكازينوهات لمجلس المدينة الخسائر فقط، أي في ذلك الوقت الذي كانت فيه بلدية المدينة تحسب الأرباح، وتبدأ بالتفكير في آلية إنفاقها في تنمية المدينة، ودعم المجال الاجتماعي، كان أصحاب الكازينوهات يضحكون ويظهرون الخسائر، يفعلون ذلك رغم كل الإجراءات، ورقابة الـ«كي.

جي. بي»، وشرطة الضرائب، ومفتشية الضرائب.

ويبرر بوتين بأن هذا كان خطأ متوقعاً ممن يتعاملون لأول مرة مع اقتصاد السوق!

علماً، أن هذه النتيجة متوقعة، أي، أن تذهب «كل تلك الأموال من الطاولات لتتحول إلى نقود سوداء» و«أن أصحاب الكازينوهات كانوا يظهرون لمجلس المدينة الخسائر فقط». بلى، إنها نتيجة متوقعة ويجب أن تكون ضمن الخطة الموضوعة مسبقاً، وإلا كيف يمكن أن تذهب الأموال إلى الـ«كي. جي. بي»، وبصورة سرية..!؟

أما المجرمون، وأساطين عالم «البزنس الأسود»، هم الشريك المثالي في أي عملية غير قانونية!

لهم حصتهم الكاملة من الأرباح، غير معرضة للاقتطاع لأنهم ببساطة رسمياً وعلى الورق، وبتصديق من شرطة الضرائب ومفتشية الضرائب، كانوا يديرون عملاً «يخسر» ولا يحقق أي أرباح. وهم فوق ذلك يزاولون أعمالهم في النور، باعتبارهم شركاء لمجلس المدينة، ويتمتعون بمزايا الشركاء، وحماية الجهاز الأمني الأهم.

بالمناسبة، إن كثيراً من ملفات الفساد التي يتهم فيها بوتين، سواء التي كانت تعود إلى هذه المرحلة، أو التي تعود إلى مراحل لاحقة، تفوح منها رائحة هذا السيناريو، أو نسخ مشتقة منه، ومعدلة عنه، أي، أعمال غير شرعية لا تنتسب إلى حالات الفساد الشخصي، من حيث هي تتم لصالح مؤسسة رسمية.

وهنا يمكن تذكر أنه خلال حملة أناتولي سوبتشاك الانتخابية عام 1996، حاول خصومه السياسيين، وهم مدعومون من «ديمقراطيي» موسكو النافذين، كل جهدهم للعثور على مخالفة أو أي نوع من الجريمة في أعمال الكازينوهات، ليتهموه وفريقه بالفساد. وعملياً استُغلّ هذا الملف في الحملة، وبدأت

الاتهامات لمكتب رئيس البلدية بأنه يستثمر الأموال العامة في لعب القمار.

وفي وقت لاحق، كذلك، واجه بوتين اتهامات قوية بالفساد في هذا الموضوع، وفي غيره، ولكن أصحاب الاتهامات الذين لم تكن تنقصهم المصلحة والإرادة لمتابعة اتهاماتهم قضائياً، وجدوا أنفسهم مجرد أصوات لا يستمع لها أحد. وكان هناك دائماً ثمة غطاء قوي غير مرئي، يحول دونهم والوصول إلى بوتين، أو ربطه بأي مخالفة في أي شيء كان ارتبط به!

بالنسبة لبوتين، كان يمكن مناقشة ما إذا كان هذا الأمر صحيحاً أو خاطئاً فقط من وجهة النظر الاقتصادية. ويقول: «إذا كان الحكم يتمحور حول حقيقة أن المخطط كان غير فعّال، وبسبب ذلك فشل المشروع في تحقيق الخطط، فهذا صحيح. لم تعمل سانت بطرسبورغ بما يكفي لإرغام هذه الكازينوهات على تقاسم أرباحها مع المدينة لتمويل العمل على تلبية احتياجات المجتمع».

وقناعة بوتين: أن العملية كلها كانت فرصة لانتزاع حقوق المتقاعدين والمعلمين والأطباء من هذا المال السهل!

بطبيعة الحال، خلفت هذه القضية وراءها واحداً من ملفات الفساد التي يتهم بها بوتين إلى اليوم. ويمكن فهم طبيعة المصالح التي رأت في موقفه هذا محاولة لابتزاز أصحاب الأعمال، ولكن بطبيعة الحال، لا يمكن إغفال حقيقة أن اليوميات الدموية لتلك الفترة كانت تنجم في تلك الفترة من صراع النفوذ والقوة على المصالح.

كان هنالك موظفون نافذون، وكان هناك «رجال أعمال» يجنون مالاً سهلاً، بوسائل لا يمكن إقرارها!

ومن المؤكد أن مجرد هذه الفكرة كانت كفيلة بإنهاء حياة بوتين باكراً، لو لم يكن يتمتع بمصادر قوة شاملة، وتقنع رموز عالم «البزنس الأسود» إلى درجة إيقاف الرصاصة وهي في طريقها إلى رأسه. ناهيك عن ردع كل من يخطر بباله

أن يتجرأ على الاقتراب منه. ومع ذلك، من المفهوم تماماً أنه كان يشعر وقتها بالتهديد، وأن ينتابه القلق. كما أن من المنطقي أن نتصور هنا حيثيات تهديد صريحة، لم يأت على ذكرها أحد..

في الواقع، كان بوتين في ذلك الوقت قد بدأ يتصرف من موقع قوة!

مظاهر القوة

برزت القوة التي بات يتمتع بها بوتين في ذلك الوقت خلال حادثة بروتوكولية؛ فقد زار آل غور نائب الرئيس الأميركي، ذات مرة، سانت بطرسبورغ. وأثناء الزيارة حدثت واقعة مما كان يسمح الغربيون، أمريكيون وأروبيون لأنفسهم في ذلك الحين.

أثناء استقبال نائب الرئيس في المطار، أساء ضابط القنصلية العامة الأمريكية في سانت بطرسبورغ التصرف مع أحد مسؤولي المدينة، حيث دفع قائد المنطقة العسكرية، بوقاحة.

وعلى الفور، أصدر بوتين بياناً رسمياً أعلن فيه هذا الضابط غير مرغوب فيه بالمدينة!

وتبع ذلك ما يكفي من الإشارات التي أوصلت الأمريكيين إلى القناعة بأن المدينة ممثلة بمجلسها تعتبر أن لا بيئة صالحة للتعامل مع ممثليهم أوقنصليتهم العاملة في سانت بطرسبورغ.

لم يكن سوبتشاك رئيس مجلس المدينة وعمدتها من فعل ذلك، بل نائبه المجهول حينها، بوتين، وعلى إثر هذا البيان، جاء سفير الولايات المتحدة في موسكو، بنفسه، إلى سانت بطرسبورغ لحل النزاع. وبعد مرور بعض الوقت سُحب ذلك الضابط والقنصل العام معاً.

وبعدها أضحى كل السلك الدبلوماسي، لا سيما الأوروبيون منهم، ينظرون بإعجاب كبير إلى بوتين الذي لقّن الأمريكيين درساً.

وجدت قوة بوتين المتنامية فرصتها الثانية الشهيرة في حادثة أخرى، شكّلت بدورها فضيحة سياسية دولية، ولكنها هذه المرة حدثت خارج روسيا، في مدينة هامبورغ الألمانية، في آذار 1994.

كان الرئيس الإستوني لينارت ميري، الذي كان، بالمناسبة، على معرفة جيدة ببوتين وسوبتشاك، قد سمح لنفسه بإطلاق تصريحات وقحة ضد روسيا في كلمة ألقاها في الندوة العامة للاتحاد الأوروبي. وكان بوتين في القاعة، جنباً إلى جنب مع غيره من الدبلوماسيين الروس، وحين كرر لينارت ماري مرة أخرى إشارته عن «المحتلين»، في إشارة إلى روسيا، لم يحتمل بوتين، وقف وغادر القاعة على نحو صاخب واحتجاجي..!

بدا الأمر، كما يصفه الحاضرون عليه، مثيراً للإعجاب: كانت الندوة تجري «في قاعة الفرسان بسقفها ذي العشرة أمتار ارتفاعاً وأرضيتها الرخامية، وعندما خرج محتجاً كانت كل خطوة يخطوها تتردد تحت الأقواس في صدى مجلجل. وحينما خرج من باب القاعة الضخم انصفق الباب وراءه مخلفاً ضجة تصم الآذان».

ومع ذلك، قلل بوتين من شأن ردة فعله، وقال إن خطوته الاحتجاجية لم تكن مخططاً لها أن تتضمن صفق الباب بعنف وراءه، ويؤكد أنه لم يكن ليكون فجاً، حتى حاول أن يمسك بالباب قبل أن ينصفق، غير أنه لم يستطع لأنه لم يكن يستطيع تمالك نفسه، حينها.

هل يريد أن ينكر بوتين مظاهر قوته؟

لا تبدو مظاهر قوة بوتين اليوم غريبة على شخصيته، أو طارئة عليها. بل إن صورته العامة باتت مجبولة بمظاهر القوة والتماسك، ويتعامل الآخرون معه على أساس هذه القوة، ولا مكان إلى جانبها لخصائص أصلية أخرى في شخصيته، غير متوقعة مثل الخجل.

الخجل والتردد كان يظهران في وقت ما مبكر في ملامحه على نحو خادع، بقدر مبالغ به.

كان من المدهش دائماً أنه، وهو الذي يبدو خجولاً إلى حد الشلل، يتعامل

بهدوء تام مع أصحاب المراتب الرفيعة، مع المسؤولين الأجانب، مع الوفود الزائرة. وحيث من الطبيعي أن يشعر الموظفون من درجته آنذاك بالحرج، وحتى الخجل، عند الحديث مع المسؤولين الكبار، كان على العكس من ذلك يتعامل بسهولة، وعلى نحو طبيعي، مع أي قائد أو مسؤول مهما علا شأنه.

وكان زملاؤه يحسدونه على ذلك، ويدهشهم كيف يبدر ذلك منه!

وفي الواقع، فإن الطبيعة الأصلية لبوتين هي غير ذلك. إنه بطبيعته شخص خجول بما يكفي؛ ولكنه كما يصرح بذلك اضطر للعمل على نفسه بجهد كبير، ولوقت طويل، ليبدو على الأقل هادئاً وطبيعياً في التعامل مع الناس.

وبالمقابل، فإن الحديث معه سهل، ويغري محدّثيه الأقل شأناً بالصراحة!

بالمقابل، يقول عارفوه إنه رغم ما يبدو عليه للوهلة الأولى من صرامة وجدية بالغة، إلا أنه في الواقع يمكن دوماً المزاح معه. ولكن المزاح، نفسه، لا يخرجه عن المساحة الجدية المتعلقة بالعمل، ولا ينسيه العمل نفسه. بينما جديته هذه، تدفعه إلى مطالبة الآخرين بالالتزام الدقيق بالمواعيد. كان من عادته، على سبيل المثال، أن يطلب من سكرتيرته: «عاودي الاتصال بموسكو واحصلي على موعد دقيق للقاء، لكي لا أجلس في غرفة الانتظار، ولا يعلم إلا الله وحده كم ساعة سأضيّع»!

وكانت هذه الجدية، نفسها، تقوده هو نفسه إلى الاستغراق في العمل؛ وبالتالي، إلى التأخر عن مواعيده ولقاءاته، وما يزال يحصل معه ذلك إلى اليوم، حتى في لقاءاته الدولية، وزياراته الخارجية.

وعموماً، لا يتعلق الأمر بالنسبة له بالدقة في المواعيد، بل بالانتظار؛ لا يحب بوتين الذي لا يتعجّل أي أمر، في أي ظرف، أن ينتظر دون طائل، أو هدف. لا يحب انتظار الآخرين، ولا يقبل تأجيل عمل حان وقته بانتظار أن ينتهي من «واجب» رسمي، حتى لو انطوى ذلك على تعقيدات بروتوكولية.

ليست هذه مفارقة عارضة أن الرجل الذي لا يطيق أن يتركه الآخرون ينتظر، لا يجد ضيراً في فعل ذلك معهم طالما كان ثمة عمل يمكن أن يُنجزه. فالفارق بين بوتين وبوتين نفسه، في كل حالاته هو «مَهمّة». بمجرد أن تكون لديه مَهمّة حتى تتراجع صفاته الأخرى، الشخصية والاجتماعية، ويتحول إلى مهنة في جسد إنسان.

لقد كانت الحسابات في الفارق بين بوتين وبوتين تثير سؤالاً حول سرّ قوته، التي تظهر وتختفي في أوقات مضبوطة؛ ويذهب الكثيرون إلى تفسير ذلك بقدرة شخصية كبيرة على الخداع والمناورة. فيما يجزم آخرون أن ذلك عائد للتغيرات التي تمر بها علاقته بجهاز الـ«كي. جي. بي»، أو بالموقع الذي يحتله الجهاز في لحظة معينة.

ولا يجد كثيرون غضاضة من تفسير ذلك بالإحالة على تجربة رئيس الـ«كي. جي. بي» الأسطوري، يوري أندروبوف، الذي عايش شخصياً أحداث بودابست في أواسط الخمسينات من موقعه سفيراً للدولة السوفيتية هناك. ويستذكرون أن بوتين عايش مثل هذه التجربة في دريسدن الألمانية، وخبر شخصياً أن الأحداث المثيلة ليست كما تبدو صراع إرادات غير متكافئ بين دولة مسلحة وشعب أعزل؛ بل هي في العمق صراع حقيقي بين قوى متوازنة مادياً، غير مكتافئة أخلاقياً وفي الشكل.

من الناحية الأخلاقية، ليس بالضرورة أن يكون من يدفع الحشود ويستخدمها ممثلاً حقيقياً للشعب. بينما الخيار في استخدام الحشود والدفع بها في صراع ملتهب، أو لإلهاب صراع ما، هو خيار لا يقل جدلاً وإشكالية عن مواجهة هذه الحشود وتحييدها.

وفي الشكل، في الغالب تكون هناك دولة أخرى، بديلة، غير مكتملة، في أي صراع من هذا النوع. أي، أنه في النهاية صراع بين دولة ودولة. بين دولة موجودة وأخرى بديلة، تُطلّ برأسها، وتحاول فرض نفسها.

انطلاقاً من ذلك، يصل هؤلاء إلى أن بوتين الذي كان يدرك العمليات الجارية في بـلاده، مـرة باستخدام الحشود، وتاليـة باستخدام الأطر الدستورية كالانتخابات، وثالثة باستخدام المؤسسات، هو في العمق صراع متكافئ بين دولة ودولة، من الناحية الأخلاقية، وفي الشكل، وفي معادلات القوة. لذا، لم يكن ليعيش لحظة تردد واحدة طالما كانت لديه «مهمة» ينجزها.

ومن الملاحظ أن بوتين في رحلة رئاسته لروسيا، يدأب على التصرف على نحو يبدو وكأنه يرد على من كان في موقع المسؤولية في بلاده السوفيتية لدى لحظة انهيارها، وكأنما هو يريد أن يقول لهم: لو كنت مكانكم لفعلت كذا، ولما سمحت بكذا!

لذا، من الطبيعي أن لا يقر إلى اليوم بأن انهيار الاتحاد السوفيتي كان حتمياً، ويصر على أن أصحاب الأمر حينها لم يعرفوا ما عليهم فعله، ولا كانت لديهم إرادة هامة في هذا المجال.

اللغز الحادي عشر

أسرار الخسارة

حادث سير

لم يمنع الاستغراق بالعمل بوتين من إقامة علاقات اجتماعية مع موظفيه، على مختلف مراتبهم؛ بعض هذه العلاقات ستتطور في السياق المهني، مثل حالة ديمتري مدفيديف، وبعضها سيجد مكانه في إطار الحيثيات العائلية، مثل حالة سكرتيرته في مجلس المدينة، مارينا إينتالتسوفا، التي تعيدنا إلى لحظة عائلية، اتضح لاحقاً أنها هامة، في تفسير تقلبات حياة الرئيس الروسي.

لم يمر وقت طويل على عمل بوتين في مجلس المدينة، حتى أصبحت سكرتيرته جزءاً من العائلة. تزورها في بيتها، وترتبط بعلاقة جيدة مع زوجته، لودميلا ألكسندروفنا، وتتولى الاهتمام ببعض الشؤون التي يكلفها بها بوتين.

وحينما تعرّضت زوجته لحادث سير أصبحت أكثر قرباً منه.

كان ذلك في العام 1994، بينما كان بوتين مشغولاً في ذلك الوقت، بمحادثات مع تيد تيرنر وجين فوندا حول إجراء دورة ألعاب سانت بطرسبورغ للنوايا الحسنة. وكان يرافقهما في جميع المفاوضات، التي جرت ضمن جدول زمني ضيق للغاية.

تلقى حينها مكالمة طارئة من مكتبه، وأبلغته سكرتيرته مارينا إينتالتسوفا أن زوجته تعرضت لحادث سير. فسأل:

- أهناك شيء جدي؟

قالت:

- لا. لا شيء خطير، ولكن تحوطاً نُقلت بسيارة الإسعاف إلى المستشفى.

قال:

- سأحاول أن أهرب من المفاوضات، وسأكون هناك.

عندما وصل، تحدث مع رئيس الأطباء، فأكد له:

- لا تقلق. لا شيء خطير. سنضع بعض الضمادات، وكل شيء سيكون على ما يرام.

سأل:

- هل أنت متأكد؟

قال:

- تماماً.

فغادر من فوره ليواصل اجتماعاته.

لم يتأكد من وضعها الصحي بنفسه، ولم تتحرك عواطفه العائلية المعتادة، التي كانت تظهر بشكل اعتيادي، ليس فقط تجاه زوجته وطفلتيه، بل كذلك تجاه والديه؛ وكان يبدو أن هناك شيئاً واحداً يتحرك فيه ويحركه: الاستعجال!

في الواقع، كان الأمر يستوجب أكثر من المرور الخاطف بكثير!

من جهة، تبدو هذه لحظة جدّية تعكس ذهاب بوتين بعيداً في الاستغراق بعمله، ولكنها بدرجة أهم أول لحظة تعكس النهاية الموضوعية لزواجه، الذي يبدو أنه انتهى قبل وقت طويل من نهايته الرسمية. ويحرص بوتين، الذي كان مرشحاً للرئاسة عام 2000، على التوقف عند هذه اللحظة، وتبريرها، دون أن يدفعه أحد إلى ذلك، فيروي تفاصيل لم يطلبها أحد، ومن هذه التفاصيل حيثيات مكالمته مع سكرتيرته، بطريقة توحي بأنه تصرف بتلقائية، وتحت ضغط يوم عمله المزدحم.

غير أن الواقعة نفسها تحمل ما يكفي من مؤشرات الانفصال العاطفي.

وقع الحادث بينما كانت سيارة لودميلا ألكسندروفنا متوقفة، كما يجدر بها أن

تفعل، عند الإشارة المرورية؛ كانت اينتها الصغرى يكاترينا نائمة في المقعد الخلفي. ولدى إنارة الضوء الأخضر تحركت بالسيارة. وفجأة، اصطدمت بسيارتها من الجانب، بين البابين، إحدى السيارات المسرعة والقادمة من الشارع الواقع على التقاطع الأيمن. كانت تسير بسرعة ثمانين كيلو متر في الساعة، ما يؤشر على أن صاحبها كان يأمل تجاوز التقاطع قبل الضوء الأحمر. لم تر لودميلا ألكسندروفنا السيارة حينما تحركت على الضوء الأخضر، ولم يكن من الممكن أن تراها، فقد اندفعت العربة وقطعت الضوء الأحمر، متجاوزة السيارات الواقفة عند إشارة المرور واصطدمت بها.

لحسن الحظ أن الضربة جاءت من ذلك الطرف، وبالمفصل بين البابين، فلو جاءت بالباب الأمامي أو الخلفي، لكانت لقيت هي أو ابنتها حتفها، على نحو شبه مؤكد، ومع ذلك، فقدت الوعي بتأثير الضربة. كانت تحت تأثير صدمة الحادثة، فلم تعِ أنها كانت طرفاً في حادث، فأرادت أن تواصل طريقها، وحينها أدركت أنها لا تستطع أن تتحرك، وبدأت تستوعب ما جرى لها. كان ينتابها الألم وشعور قاس بالتعب والإنهاك، فأعطاها المسعفون حقنة منوم.

كانت خلال أسابيع قبل ذلك، لا تجد إلى النوم سبيلا.

كانت طفلتها بخير. أخبرتها بذلك امرأة متعاطفة من بين الأشخاص الذين جذبهم الحادث. كانت بقيت إلى جانبها طوال الوقت هناك، واعتنت بالطفلة. وكانت تلك المرأة هي من استدعى الإسعاف، فأعطتها رقم هاتف إيغور سيتشين، مساعد بوتين، لكي يأتي ليأخذ ابنتها الصغيرة، وكان يفترض أنه قريب، لأن الحادثة وقعت على بعد ثلاث دقائق من قصر سمولني، حيث مقر مجلس المدينة.

لم تعطها هاتف بوتين، بل هاتف مساعده، الذي بالمناسبة هو نفسه إيغور سيتشين، الذي يرأس اليوم شركة «روسنفط»، عملاق النفط الشهير، الذي يعدّ واحداً من أبرز عمالقة سوق الطاقة العالميين، ويعمل لحساب الكرملين.

هنا، تبدو حدود الزوجة واضحة مع زوجها؛ تتواصل معه من خلال مساعده، وحينما أرادت أن يتولى أحد العناية بابنتها، طلبت الاتصال بهذا المساعد، ليأتي، ويأخذ الطفلة، ويتدبر أمر العناية بها.

شخّص الأطباء لديها في موقع الحادث كسراً في العمود الفقري، فنقلوها الى المستشفى. أرادت أن تطلب من طاقم الإسعاف أن ينقلوها إلى الأكاديمية الطبية العسكرية، حيث الدكتور يوري ليونيدوفيتش شيفتشينكو، الذي تتردد العائلة عليه. ولكن انتابها الخجل، فأرسلوها إلى المستشفى المناوب. كان مستشفاً متخصصاً بحالات الطوارئ العادية. ولم يكن ذلك مناسباً لحالتها، كان يجب إجراء جراحة عاجلة لها، بينما لم يرد أطباء المستشفى إجراء عملية جراحية في العمود الفقري، كما لم يلاحظوا الكسر في قاعدة الجمجمة، الذي كانت أصيبت به.

ولم يكن الأمر سهلاً كذلك مع الطفلة، التي نقلت مباشرة إلى مقر عمل والدها في «سمولني». وفي غياب والدها أدرك العاملون أنه يجب عرض الطفلة على الطبيب، فقد كانت مذهولة ومليئة بالكدمات، وأيد هذا الرأي الطبيب المقيم في مقر البلدية الذي نصح بإرسالها لتلقّي العناية الطبية.

وهكذا، نُقلت إلى معهد طبّ الأطفال، وعُرضت على طبيب أعصاب الأطفال للتحقق من احتمالات وجود ارتجاج في الدماغ. فاستبقاها في المشفى.

وفي أول تدخل له في الأحداث، ويفترض أنه تم بعد وقت كاف ليوصف بالمتأخر، اتصل بوتين بمكتبه، وطلب الاتصال بالدكتور يوري شيفتشينكو في الأكاديمية الطبية العسكرية، ليتولى علاج زوجته، ونقلها إلى مشفاه.

ومما يجدر ذكره هنا، أن الدكتور شيفتشينكو أصبح، لاحقاً، وزيراً للصحة أثناء رئاسة بوتين الأولى!

تعذر الاتصال بالدكتور شيفتشينكو، ولم يُعثر عليه إلا في وقت متأخر جداً من

المساء؛ فأرسل على الفور جرّاحيه إلى المستشفى لكي يتفقدوا زوجة بوتين، ويشرفوا على نقلها إلى عيادته في الأكاديمية الطبية العسكرية.

وبالفعل وصل فريق الجرّاحين، في اللحظة المناسبة!

استلموا المريضة مباشرة من غرفة العمليات. لقد كان لديها كذلك تمزق في الأذن، وكان أطباء المستشفى قد قرّروا إجراء عملية خياطة للأذن، فأدخلوها هناك، ولسبب ما تركوها لوحدها لبعض الوقت. وهنا وصل الفريق الطبي التابع للأكاديمية الطبية العسكرية..

كانت الفوضى عارمة في المستشفى حينما وصل فريق الأكاديمية الطبية العسكرية؛ لم يكن أحد يعرف أي شيء عن أي شيء. وحينما سأل أعضاء الفريق الطبي عن حالة لودميلا ألكسندروفنا، قالوا لهم: «ليست بحاجة إلى أي شيء، لقد خضعت لجراحة للتو، وهي بخير». ولكنهم لم يستطيعوا إرشادهم إليها، إلى أن اتضح لاحقاً أنهم نسوها في غرفة العمليات، ولم يكونوا قد أجروا العملية بعد!

فنُقلت على الفور إلى مستشفى الأكاديمية الطبية العسكرية!

كانت لودميلا ألكسندروفنا تعيش مع الأطفال في بيت ريفي حكومي خارج المدينة، في ذلك الوقت، ولسبب ما كانت الطفلة الصغيرة كاتيا تشعر بالإعياء، لذا لم تذهب إلى المدرسة في ذلك اليوم. ووقع الحادث بينما كانت لودميلا الكسندروفنا تتجه برفقة الصغيرة إلى المدرسة لإعادة شقيقتها الأكبر ماريا إلى البيت.

تولى مكتب بوتين إحضار الصغيرة من المدرسة، وتقرير ما يجب القيام به مع الأطفال، بعدما بات من الواضح أن والدة الطفلتين لن تكون موجودة للعناية بهما، لذا اقترحت سكرتيرة بوتين، مارينا إينتالتسوفا، أن تأخذهما إلى أمها. وفي النهاية،اتُّفِق أن تصحبهما إلى البيت الريفي، وتبيت معهما هناك.

في المساء توجهت مارينا إينتالتسوفا مع الطفلتين إلى البيت الريفي، وكانت في طريقها تمر بجوار المستشفى حيث تستلقي والدة الطفلتين، وهناك رأت بوتين على وشك أن يستقل سيارته مغادراً.

كانوا قد أجروا للتو عملية جراحية للودميلا الكسندروفنا.

كان على بوتين نفسه المغادرة، فوعد أنه في حال تمكّن، سيأتي في وقت لاحق، مشيراً إلى أن ذلك غير محتمل، لأن لديه اجتماع في وقت متأخر من الليل. وفي تلك الليلة، وصل بالفعل متأخراً، في الثالثة صباحاً !

كان مجهداً وحسب. لم يترك حادث الأمس عليه أي أثر. ومن كان يتوقع أن يراه في غير مزاجه أو تائهاً لا يعرف ما يحمله الغد، كان حتماً سيمنى بخيبة أمل كبيرة. كان يبدو كرجل يفكر بالغد، لا بحادثة أو إنسان أو شيء محدد. كان يفكر بيومه كله، كيف سيبدأ، وكيف سيمر، وكيف سينقضي.

كانت الأمور بالنسبة له نقاط على جدول أعمال النهار، ليس أكثر!

لقد كان ذلك بوتين الجديد الذي انتقل للعمل في مجلس المدينة، وامتلك مساحة واسعة من القرار وهامش من المبادرة. رجل عملي لا يخرج من بيته إلا وفي رأسه خطة محكمة مرسومة مسبقاً. وأي حدث يطرأ، لن يثير اهتمامه، ولن يحرك عواطفه، ما لم يفرض عليه تغييراً في برنامجه وخطته..!

جاء في الثالثة صباحاً، وغادر في السابعة من ذات الصباح، بينما بقيت سكرتيرته مع ابنتيه إلى المساء، حيث وصلت جدتهما، والدة لودميلا ألكسندروفنا، من كالينينغراد. وقد كانت مارينا إينتالتسوفا بالاتفاق مع بوتين قد أرسلت لها برقية. وطلبت منها أن تأتي. وبالفعل بقيت مع الطفلتين إلى أن خرجت والدتهن من المستشفى بعد نحو شهرين.

وكان ما يزال هناك كسر في قاعدة الجمجمة، حينما خرجت من المستشفى. وهذا كان مقلقاً أكثر من أي شيء آخر. حتى أكثر بكثير من الشرخ في العمود

الفقري بينما الحادثة نفسها، كانت تجربة صعبة بالنسبة للمصابة.

كان ثمة إحساس أن التعامل مع حالتها بدأ بطريقة خاطئة، وأنه لا سبيل لتعديل هذا الخطأ، وسيظل بالتالي يفرض ظلاله على كل ما يتلوه من فحوصات وعلاج.

لقد أجروا لها عملية جراحية طارئة للعمود الفقري. ولكنها بقيت تشعر بشيء ما. فواصلت تقول للأطباء، بينما هي في العناية المركزة، بأن فكها يتحرك من تلقاء نفسه. فكانوا يضحكون منها إلى أن انتبه الجراح الذي أجرى لها العملية، فأخضعها للتصوير، حيث أظهرت الصورة كسراً في قاعدة الجمجمة. فأجروا لها عملية ثانية، وبدأوا العلاج.

لاحقاً، عرفت المرأة المذعورة أن الأطباء كانوا يحجمون عن إجراء العملية، لشكهم بإمكانية نجاحها. كانت احتمالية نجاحها متدنية تماماً، وتقريباً لم تكن هناك أي فرصة. ولكنها كانت محظوظة.

اقتضت العملية شق الرقبة من الجهتين: من الأمام والخلف؛ وقد أثر ذلك في المرأة التي كانت تتناقلها أيدي الأطباء وحيدة، وبدأت تنتابها حالات من البكاء. وحينما غادرت المستشفى، بقيت لأسبوعين تتحرك في الشقة زحفاً. ثم تدريجياً بدأت تستطيع أن تقوم ببعض الأشياء. وبعد بضعة أشهر ذهبت الأسرة بكاملها، إلى إسبانيا، لقضاء فترة نقاهة. ومع ذلك، لم تستطع استعادة نمط الحياة الطبيعي إلا بمرور سنتين أو ثلاث سنوات.

كانت تلك مجرد حياة طبيعية، ولكنها لم تكن حياتها هي!

لقد تغيرت علاقتها بالأشياء والناس، باتت تضيق بالحياة العامة، ولا تحتمل الظهورات الرسمية. ولاحقاً، بات ذلك الحال يتعمق معها أكثر فأكثر، بتناسب عكسي مع تقدم زوجها في مهنته، وزيادة ضغط الحياة العامة على الحياة الخاصة، وهو ما سيكون سبباً لبدء الزوجين حياة جديدة في ظروف انفصال،

وأحد أسباب الطلاق.

ولكن هذه الحادثة كانت تبني على ما قبلها..!

تفاصيل عائلية

في الواقع، لم يحظ الزوجان بوتين بحياة رومانسية سعيدة فعلاً سوى لعام واحد، هي السنة الأولى من الزواج، وقد مرّت سريعة. ولكن أثر هذا الطابع الرومانسي بقي لسنوات تالية، كحقيقة موجودة، ولكنه كان مغيباً واقعياً بفعل الحيثيات اليومية، التي وضعت كل من الزوجين في مسار مستقل ومختلف. وفي العموم وجدت الزوجة لودميلا نفسها متفرغة للحياة العائلية، بيما تفرغ الزوج لعمله، الذي بات يبدو أكثر فأكثر مجموعة من الفرص الواعدة، التي تستحق الملاحقة والتفرغ التام..

ولكن لم يكن لهذه «الفرص» أن تتوقف عن الظهور..

كانت الحياة وقتها متلاحقة الأحداث، خصوصاً بالنسبة لجهاز الـ«كي. جي. بي»، الذي عانى في الفترة التي التحق فيها بوتين بالعمل فيه من التضييق لصالح وزارة الداخلية. كان ذلك أواخر عهد بريجنيف، وفي تلك الفترة توفي ميخائيل سوسلوف، الذي كان يعتبر الرجل الثاني في الدولة، ما فتح صراعاً خفياً في الأروقة الحزبية العليا على موقعه كوريث محتمل لبريجنيف المريض.

وهنا، بدأ صراع الـ«كي. جي. بي» و«الداخلية» المُسَيطر عليه، يأخذ أوجهاً حاسمة!

لم يمر ذلك العام إلا وكان بريجنيف نفسه قد مات، وتولى القيادة من بعده يوروي أندروبوف، الذي يُعدّ لليوم الأب الروحي لجهاز الـ«كي. جي. بي»، الذي واجه حينها أولويات تتعلق بتصفية ذيول الصراع مع «الداخلية»، وتأمين وضعه من جديد.

ولكن الحياة العجولة لم تمهل أندروبوف طويلاً..!

توفي أندروبوف مطلع عام 1984، وكان قد قضى أكثر من مدّة حكمه مريضاً تحت العلاج. وتسلم الحكم بعده تشيرنينكو الذي استهل عهده بتأكيد مكانة ستالين وتكريم إنجازاته، بل وأعاد الاعتبار لرفيق ستالين الأخير فيتجسلاف مولوتوف الذي كان طرد من الحزب في عهد خروتشوف؛ ولكنه في الأساس حاول العودة بالبلاد إلى عهد بريجنيف.

وهذا كان يمثّل وضعاً مختلفاً تماماً لا يشبه خطط الـ«كي. جي. بي» في عهد أندروبوف!

لم يسعف الوقت تشيرنينكو، الذي توفي بمرور عام، لتنفيذ تصوراته؛ ولكن انتخابه كان اضطر الـ«كي. جي. بي» على إعادة الموضعة. في حين أن ظهور غورباتشوف على رأس الدولة والحزب، كان له مقتضيات جديدة مختلفة جذرياً.

عهد غورباتشوف نفسه، الذي امتد ابتداء من النصف الثاني للثمانينات وحتى بداية التسعينات، كان مليئاً بالتطورات المتلاحقة، والأحداث المتسارعة، والانهيارات المتتابعة..

لقد كانت الثمانينات فترة انقلابات كبرى غير مسبوقة في الحياة السوفيتية؛ وعملياً، فإن هذه الانقلابات كانت بمثابة هزات كبرى انعكست على جهاز الـ«كي. جي. بي»، وفرضت عليه تعديل أجندته مرّة بعد مرّة، والاندفاع باتجاه تجديد مراكزه القيادية، وتدوير كوادره، بسرعة غير معهودة..

وهذا فتح الطريق للمستجدين للتقدم بسرعة مشجعة!

لقد فتحت كل هذه التطورات الأفق المهني على اتساعه أمام الجيل الذي ينتسب إليه بوتين. وكان بوتين نفسه من النوع الذي لا يتأخر عن استغلال الفرص الواعدة، والاستغراق في ملاحقتها. وهنا يمكننا أن نلاحظ أن بوتين الذي ارتبط عاطفياً بالشابة القادمة من كالينينغراد، لوديميلا ألكسندروفنا، ليس

هو الرجل نفسه الذي تزوجها!

كان بوتين العاشق شاباً في وظيفة مؤمنة ومستقرة، توفر التقدم الوظيفي حسب تراتبية عسكرية!

وكان وقت زواجه (1983)، ضابطاً مجتهداً في الـ«كي. جي. بي» التي لا تبخل على كوادرها بالفرص والدفع بهم إلى الأمام، وتعطي كل واحد منهم بقدر ما يستطيع أن يأخذ.

وهو لا يبدو من النوع الذي يعاجل بوضع سقف لنفسه!

نتذكر أن بوتين ترك في هذه المرحلة زوجة شابة حامل في رعاية والديه في لينينغراد، وذهب للدراسة في موسكو. واقتصر حضوره على بعض الزيارات المتفرقة خلال العطل الأسبوعية، وذلك على مدار عام كامل.

ولاحقاً، ترك العائلة وتوجه إلى دريسدن، قبل أن تلحق به هي هناك.

وربما كان هذا الطابع الرومانسي للحياة الزوجية قد عاد للظهور في الفترة الأولى من إقامة العائلة في دريسدن، على الأقل بحكم البيئة الجديدة، والحياة المختلفة. ولكن من الواضح أن هذه المرحلة شهدت كذلك المزيد من الانشغال عن العائلة، بل وربما إهمالها لصالح الانشغال بالمستقبل المهني، لا سيما أن المهنة باتت تنطوي على مسؤوليات، بالإضافة إلى المهمات.

ويبدو أن هذا، وخلافاً لما قاله بوتين وزوجته في الأحاديث الشهيرة مع صحافيي «كوميرسانت» على أبواب الانتخابات الرئاسية الأولى، قد قاد إلى تدمير الحياة الأسرية على نحو تدريجي، وببطء سمح باستمرار هذه الحياة لوقت أطول مما تحتمل في الواقع.

لقد كان يريد من زوجته أن تقدّر نجاحاته وتتعاطف معه في الصعوبات، التي يواجهها. ولكنه بقي أصمّاً تماماً حيال محاولاتها فهم طبيعة عمله، وما الذي

يفعله في ساعات الدوام الرسمي.

وتروي لودميلا ألكسندروفنا أنها مرة لم تسيطر على فضولها، فسألته:

- فولوديا. ماذا فعلت اليوم في العمل؟

فجاءها جوابه صادماً، ومليئاً بالسخرية:

- قبل الغداء نعتقل الناس، وبعده نطلق سراحهم!

بمرور السنين، أصبح مفهوم «الحياة الأسرية» يخص الأطفال ولا يتعلق بالزوجين. وباتت الزوجة تعتقد أن زوجها يتعمد قضاء وقت طويل في «العمل»، وتتساءل إن كان عليها أن تقلق من وجود «عمل» غير رسمي في حياة زوجها ويتناقض مع الالتزامات الزوجية. وهل هذه المهنة الحساسة التي تفرض على الزوج أن يتكتم على عمله، أصبحت غطاءً لشيء آخر.

ليس من قبيل الصدفة، أن يروي أحد أصدقاء بوتين عنه أنه قال له في هذه الفترة:

- الإنسان الذي يعيش مع لودميلا أسبوعين، يستحق نصباً تذكارياً!

تغير الوضع بعد العودة من ألمانيا..!

كانت البلاد التي عادت إليها العائلة تنهار يوماً بعد يوم. وفي ذلك الوقت، كان بوتين قد فقد حماسه لمهنته، فيما لم تعد الـ«كي. جي. بي» مكان عمل واعداً؛ بل على العكس، أضحى الانتساب إلى الجهاز سبباً للإدانة، بينما لم يعد الجهاز نفسه قادراً على حماية منتسبيه.

وهنا، يحتاج بوتين إلى التعاطف الأسري، فسعى إليه!

لم يمض وقت طويل حتى بدأ بإعادة ترتيب أموره مع الـ«كي. جي. بي»، وبدأ العمل في جامعة سانت بطرسبورغ، ثم في مجلس المدينة، وكان العمل الأخير

واعداً بما يكفي، ليعود إلى نمط الاستغراق بالعمل، الذي يتعدى حدود الاجتهاد إلى مصاف فعل أي شيء، والاستعداد للتضحية بكل شيء، في سبيل تحويل يوم العمل إلى خطوات حاسمة في تحقيق طموحات كبيرة.

ومرة أخرى، يترك الأسرة لتعيش مع الشعور بغيابه!

هنا، يتدخل الحادث المروري، الذي تعرضت له الزوجة، ليفاقم الإحساس بهذا الغياب، الذي تحول إلى شعور بالتنكر للعائلة مع مرض الزوجة نتيجة لإصاباتها الشديدة في العمود الفقري وقاعدة الجمجمة، الذي استغرق علاجه سنوات عدة.

ويبدو أن طرفي هذا الزواج قد تحولا على نحو نهائي في هذه المرحلة للبحث عن أسباب استمرار علاقتهما في مصلحة الأطفال وعدم تعريض مهنة الزوج الواعدة للخطر. وهي مهنة كما اتضح لاحقاً فاجأت الجميع على نحو استثنائي! وأصبح بوتين يعمل، وفقط يعمل، ولا يهتم بما هو سوى ذلك!

لا يمكن هنا إغفال أمر آخر، ففي الوقت الذي قاد الحادث المروري ومضاعفاته الصحية، الفتاة الضاحكة من كالينينغراد إلى نوع هادئ جداً من الحياة، يقيم اعتباراً للأسرة على نحو حصري، بدا أن الزوج غير متفرغ للعائلة، وتحولت الأسرة إلى مجرد التزام ومسؤولية.

وفي الوقت الذي هيأت فيه ظروف عمل الزوج للعائلة البيت والإمكانيات المادية للاستمتاع بحياة عائلية هادئة، دخل الزوج في مهنة ونمط حياة مليء بالخطر والاحتمالات والصراعات.. وختم الأمر بأن توقف ببساطة عن الظهور في المنزل!

والأسوأ أن الزوجة التي اعتادت على مقتضيات مهنة زوجها السرية، وما تقتضيه من حياة مغلقة، وجدت نفسها فجأة أمام مهنة أخرى تقتضي حياة مغرقة في العلنية، والعيش تحت الأضواء الكاشفة.. لقد كان عليها أن تكون

السيدة الأولى للبلاد!

وهذه صفة رسمية مغرية تماماً، لكنها لم تكن متوافقة مع طموحات الزوجة تماماً، ولا تتناسب مع التحول الذي طرأ على شخصيتها بعد الحادث المروري الذي عصف بحياتها، ووضع زواجها تحت أضواء كشفت ما لم يكن مرئياً.

كان هذا آخر شيء تريده وتتمناه، لذا تجنبته. وبرغم هذا التدهور في الحياة الأسرية، إلا أن الزوجين احتفظا بعلاقة طيبة تشبه علاقة الأصدقاء المقرّبين، وكان بوتين يجد على نحو أو آخر طريقة لرعاية الأطفال والاهتمام بزوجته، فيصطحب أفراد الأسرة أحياناً لقضاء إجازة في دول البلطيق أو سويسرا أو فرنسا.

بدأ الزوجان بوتين منذ عام 2008 يظهران أقل فأقل معاً. وبالتزامن مع ذلك بدأت تروج في الأوساط العامة ووسائل الإعلام شائعات حول علاقة غرامية مع الرياضية الشهيرة أليونا كابايفا، وأن زوجته اعتكفت في أحد الأديرة. كانت هذه حكايات شاعت على نطاق واسع، ووجدت من يصدّقها. وفي الواقع، كانت لودميلا ألكسندروفنا بنت ديرها الخاص الذي كانت الراهبة الوحيدة فيه. بمعنى أنها بقيت علمانية، ولكنها توقفت تقريباً عن التواصل مع زوجها ومع العالم، واقتصرت علاقاتها على بناتها فقط.

بدا أن الطلاق هو الحل الطبيعي لمثل هذا الموقف وهذا الزواج الذي فقد معناه، وأنه الحل الذي سيضع الأمور في نصابها بالنسبة للطرفين. ولكن الانتخابات الرئاسية لولاية ثالثة كانت على الأبواب، لذلك، أُجِّل الطلاق، وظهر الزوجان بوتين معاً في الانتخابات في مركز الاقتراع. وكان هذا إقراراً صريحاً من الطرفين بأن المهنة هي قبل كل شيء!

أجريت الانتخابات بنجاح. ولكن كان من غير الوارد إتمام الطلاق فوراً. فقد كانت تجربة الرئيس الفرنسي ساركوزي ماثلة، حيث اشترط على زوجته أن يتم الطلاق بعد الانتخابات، واعتبر ذلك غشّاً للناخبين.

لذلك قرر بوتين على عدم تكرار أخطاء «الزملاء» وبدأ في التأجيل.

في البداية، طلب التأجيل إلى يوم السابع من أيار - يوم أداء اليمين كرئيس للبلاد. وبالرغم من أن زوجته لم تقف إلى جواره، وأخذت مكانها مع بقية الحضور في القاعة، إلا أن حضورها كان ضرورياً لرسم صورة طبيعية لحياة الرئيس الخاصة.

وأُجّل الطلاق لعام آخر، ينتهي في أيار 2013.

وأخيرا في حزيران أعلن عن انتهاء الزواج، الذي استمر من الناحية القانونية لما يقرب من ثلاثين عاماً. وبرر بوتين طلاقه، بأسباب ليس من بينها فقدان العواطف والمشاعر والاهتمام الشخصي، بل بالمهنة.

قال: «مهنتي مهنة عامة، عامة تماماً. لودميلا إنسان لا ينسجم مع الحياة العامة والأضواء». كما أكد: «إنه قرار مشترك، نحن نكاد لا نرى بعضنا بعضاً، ولكل واحد منا حياته الخاصة». وقالت زوجته إن هذا القرار كان صعباً عليها وإن «بوتين غارق في عمله تماماً»، مشيرة إلى أن الطلاق كان فعلاً «متحضراً» وأنهما «سيظلان قريبين دائماً».

ظهر الزوجان للمرة الأخيرة علناً في المسرح (البلشوي أشهر مسارح موسكو)، تماماً كما كانا التقيا للمرة الأولى في المسرح (مارينسكي أشهر مسارح لينينغراد). بما يثير انطباعاً بأنهما كان يريدان تعزيز الفكرة بأن قرارهما كان مدروساً بدقة وبالتراضي.

لحظات خطرة

لم يكن العام الأخير في عمل بوتين في قيادة المدينة سهلاً؛ فانشغاله وكثرة أعماله لم تعد كافية لاعطائه مظهر الرجل العملي، الذي يتعامل مع الواقع؛ كان ثمة شيء أقوى من كل الانشغالات يعطيه قسمات إنسان وحيد ومستريب، يشعر بنفسه محشوراً في صندوق واحد مع لحظة غدر متوقعة، وتمثل كخطر داهم يتهدد حياته نفسها..!

من المفهوم، أنه في ذلك الوقت كان ثمة غطاء ينكشف عنه؛ ومن الطبيعي أن يشعر أنه أعزل ووحيد أكثر مما كان. ولكن ذلك، لم يكن ليصل إلى حد الشعور بأنه مستهدف، وقاب قوسين من طيش القدر.

وكانت حاجته للحديث والإفصاح عن مخاوفه تشتد، ولكنه لم يكن بالرجل الذي يفضي إلى أحد. ولم يكن ذلك الإنسان الذي يعيش بين الناس مطمئناً على ثقته بهم، في حين أنه يعرف أن كلّ من حوله يمكن أن يكونوا متربصين به، أو معطيات واحداثيات تسهّل رصده والنيل منه؛ لذا، لم يكن من الغريب أن يلجأ إلى صديق..

ذات يوم، من ذلك العام، توجه برفقة سائقه، الذي قد يكون حارسه الشخصي كذلك، لزيارة صديقه القديم سيرغي رالدوغين في بيته الريفي، خارج المدينة. وميزة رالدوغين أنه موسيقي، وهو بالتالي بعيد عن الأجواء التي يتحسب من أهلها، ويحترس من منعطفاتها المفاجئة.

استقبله رالدوغين، ورحب به في زيارته غير المتوقعة. كان ظن أن لدى بوتين شيئاً ما يريد أن يتحدث بشأنه، ولكنه أمضى الليل لا يقول شيئاً يبرر الزيارة، بل على العكس بدا وكأنه يهرب بالحديث من شيء يشغله. ولما ذهبوا في النهاية للنوم، لاحظ رالدوغين أن بوتين يضع بندقية آلية قصيرة الماسورة بجانبه.

تساءل رالدوغين:

- على ما يبدو، ظهرت بعض المشاكل..؟

لم يجب بوتين.

فانتهره رالدوغين:

- فوفا[1]، ما الذي دهاك؟ أتعتقد أن السلاح ينقذك؟

فأجاب بوتين متباطئاً بنبرة من ليس لديه أي خيار آخر:

- لا.. لن ينقذني، ولكن الوضع أكثر طمأنينة حين يكون إلى جانبي.

كانت تلك نبرة حزينة مستكينة، لا تشبه الرجل، الذي لم يكن يخشى أن يأخذ أصعب وأخطر الأدوار على عاتقه، ويُشيع حوله موجة من التساؤلات حول مصدرقوته الخفي. كان شخصاً آخر تماماً، مستسلماً لفكرة ما سوداء في رأسه، يدرك أنه لا يستطيع أن يفعل معها شيئاً سوى أن ينتظر تحققها. وكان على ما يبدو يعيش شعور من وصل تلك اللحظة التي يحفّها الخطر، الذي يتأخر فقط لأنه يتمهل في اختيار الرصاصات المناسبة.

وعملياً، بدا بوتين وزيارته غير المتوقعة، حسب ظنون تلك الأيام، كما لو أنه لم يعد إلى البيت ولجأ إلى زيارة صديقه لأنه يتوجس من الولوج في مدخل العمارة. كانت حينها كل عمليات القتل تتم في مداخل البنايات: يعود المستهدف إلى شقته. يلج في مدخل البناية، فيخرج له قاتل مأجور من تحت ثنية السلم، ويطلق عليه النار من كاتم صوت..

ثم يضع رصاصة الأمان في رأس الضحية..!

في ذلك الوقت، كان نمط علاقات المافيا هو السائد، حيث يمكن أن تتحول دعوة عادية على فنجان قهوة إلى رحلة أبدية، وقت كان فيه حلّ أقل المشاكل

شأناً أرخص وأجدى باستخدام الرصاص منه بمحاولة اللجوء إلى التوافق والتفاهم. إلى درجة أن القتل المأجور تحول إلى فنون وعلوم، وسوق فيه ماركات وأسعار ومكاتب استئجار!

ومن بين كل اللحظات المحيّرة في حياة بوتين تبقى هذه الفترة، وما وراءها من مخاوف، وربما أخطار، غير مفسرة، لا يكشف صاحبها عن بواعثها الحقيقية.

عموماً، في هذا الجو المسموم، كانت قد بدأت حملة أناتولي سوبتشاك الانتخابية الثانية. وأحاطت بها من كل جانب رائحة الخذلان والعدائية، لا سيما من جهة موسكو، بينما عمل بوتين، وتحالفه مع سوبتشاك كان قد خلقا له الكثير من الأعداء الشرسين في سانت بطرسبورغ وفي موسكو.

كان يمكنه أن يعول على زملائه في الاستخبارات، لكن قاطرة الـ«كي. جي. بي» باتت تسير وحدها من دونه بعد تشرين الأول عام 1993. لم تعد تعول عليه، ولا على «ديمقراطيي» سانت بطرسبورغ، فقد وجدت طريقها إلى استعادة زمام الأمور عبر السيطرة على يلتسن، وكانت تفاضل على أحصنة أخرى من بين رجال حاشية الرئيس الهرم.

وكان الحصان الرابح حينها ضابط الـ«كي. جي. بي» المتقاعد ألكسندر كورجاكوف، قائد حماية يلتسن!

أما بوتين نفسه فكان يخوض معركة خاسرة، من كل النواحي؛ لقد كان واضحاً منذ البداية أن الانتخابات البلدية في عام 1996 سوف تكون صعبة. كان يشعر بذلك، وكان سوبتشاك يدرك ذلك أيضاً.

قال له سوبتشاك:

- هذه الانتخابات ستكون ثقيلة جداً!

هز بوتين رأسه موافقاً. ولكن اتفاقهما على تشخيص وضع الانتخابات لم

يقدهما إلى التوافق على طريقة خوضها. بل اتضح أن سوبتشاك كان يقصد بحديثه هو أن الحملة الانتخابية تحتاج إلى أسلوب آخر، وأشخاص جدد.

وعلى نحو ما، لم يكن بوتين جديداً، بل هو القديم الذي عليه أن يبتعد!

كان وجود بوتين في الحملة قد بات مكلفاً لصاحبها؛ وبلغت كلفة وجوده الباهظة تظهر جلية للعيان، فحين كان المنافس الآخر يطرح أفكاره حول التغيير، كان اسم بوتين يرد عنواناً شاملاً لكل تلك المنظومة التي يتوجب تغييرها.

التغيير.. إنه الشيء الذي لطالما استخدمه بوتين لصالحه، وها هو اليوم يتحول لكلمة قاتلة تستخدم ضده!

في عام 1992، أقنع بوتين العديد من النواب بالتغيير، وأن يتم تغيير وضع رئيس البلدية ليكون «عمدة» المدينة، وأن يكون اختياره عبر الانتخاب المباشر، تماماً مثلما يجري في موسكو، وكانت فكرته هذه ترمي لضمان الانتخابات التالية، من خلال إخراجها من يد النواب الكارهين لسوبتشاك وفريقه، ووضعِها في إرادة الشارع المحبّ لرئيس بلديته!

وأقنع سوبتشاك نفسه بالفكرة، رغم أنه لم يكن على يقين من أن هذا الاقتراح يمكن أن ينجح، بحكم أن لديه ما يكفي من العلاقات المعقدة مع الغالبية العظمى من النواب في مجلس المدينة، لكن بوتين كان يراهن على شعبية سوبتشاك الكبيرة جداً بين السكان.

وكان يدرك أن النواب يعرفون أنهم إذا صوّتوا على إدخال منصب «عمدة المدينة»، فإن الناس سينتخبون سوبتشاك تحديداً، وهذا ما لا يريدونه. لقد كانوا مرتاحين تماماً أنهم في وضع يسمح لهم دوماً بالإمساك بسوبتشاك من خلال حق حجب الثقة عنه.

تمكن بوتين من إقناع بعض النواب، ويقال إنه اشترى آخرين، وابتزّ غيرهم.

بالإضافة إلى ذلك، تمكن من حشد تأييد قادة الإدارات المحلية في الأحياء، الذين أثروا بدورهم على نوابهم، مستخدمين كافة الوسائل. وبالنتيجة، اعتُمد قرار إدخال منصب عمدة المدينة بفارق صوت واحد!

وأصبح سوبتشاك أول عمدة للمدينة منتخب شعبياً..!

بعد ذلك بأربع سنوات، في الوقت الذي كان من المفترض أن يتم جني ثمار هذه الحيلة، يكتشف بوتين أنها تحولت إلى أداة معاكسة لمرشحه؛ فالخصوم تعاملوا مع مصدر القوة الأساسي، وجردوا سوبتشاك منه: ثقة الناس!

وربما كان بوتين بالفعل إحدى نقاط ضعف الرجل، فهو منذ أن دخل مقر البلدية، حتى بدأت ملفات الفساد تلاحقه، ويثير اللغط بدوره الغامض في محطات هامة من الحياة العامة في المدينة وملفاتها، بدءاً من ملف التراخيص المشبوهة، والكازينوهات، والشركات الغامضة مثل «سباغ» إلى العلاقات والاتصالات بالمافيا المحلية والشائعات حول غسيل أموال تجار المخدرات الكولمبيين وغيرها من الملفات، التي كان يتهامس حولها مجتمع النخبة في المدينة الحرون!

لم يكن مهماً أن يكون لهذه الملفات أساس أم لا، ولكنها باتت ورقة قوية بيد الخصوم!

يدرك بوتين في خضم ذلك أن فريقه يحتاج ليتمكن من تحقيق الفوز إلى محترفين للعمل على الحملة الانتخابية، وليس إلى مفاوضين بارعين مع النواب. وهذه أشياء مختلفة تماماً، فلم يضيع الوقت ونصح سوبتشاك على الفور:

- أتعرف، الآن هناك وضع مختلف تماماً، هنا نحتاج إلى خبراء.

وافق سوبتشاك، ولكنه بعد ذلك قرر أنه سيقود الحملة الانتخابية بنفسه.

وبرأي بوتين فإن موقف سوبتشاك هذا يبدو غير مفهوم إذا ما نُظِر إليه باعتباره حالة عناد؛ لذا، فهو يفسره بدواع مالية، تتلخص بالكلفة الكبيرة التي تتطلبها الحملة الانتخابية، لا سيما إذا ما أوكلت إلى متخصصين ومحترفين.

ولكن أليس لدى أناتولي سوبتشاك المال اللازم؟

لا. لم يكن لدى سوبتشاك، بحسب بوتين، ذلك المال، وعلاوة على ذلك، فقد كانت أوضاعه المالية قد تضعضعت فعلاً جراء الملاحقة التي تعرض لها على مدار عام ونصف بزعم أنه اشترى شقة على حساب المدينة. أي باختصار كان من المفروغ منه أنه لم يكن لديه المال، وإلا لما كان شراء شقة لم يكن يزيد ثمنها بأسعار تلك الأيام عن ثلاثين ألف دولار ليثير كل تلك الشبهات حوله.

من يسمع هذا الكلام يعتقد أن الأمر يدور حول ناسك في مدينة فاضلة!

يتجاهل هذا الكلام عمداً وعن قصد حقائق أساسية حول تلك الأيام، التي كانت تعج بالفوضى والفساد العميم، وغياب المساءلة. والأهم، أنه يتناقض مع قدرات الرجلين الهائلة في إيجاد الممولين، وإدارة الصفقات وتوزيع المكاسب والتسهيلات، التي استخدماها طوال خمس سنوات لتوفير أموال طائلة موّلت مشاريع المدينة المفلسة، وأسندت برامجها الاجتماعية المتعثرة. ناهيك عن الشراكات والعلاقات مع شركات كبرى ارتبطت مصالحها بوجودهما في قيادة المدينة.

وماذا عن بوتين، الذي أثبت أن الأموال هي آخر ما يمكن أن يُعجزه؟!

من اللافت أن بوتين ترأس، قبل ذلك بأشهر قليلة، اللجنة التنظيمية لفرع الحزب الحاكم «بيتنا روسيا» في سانت بطرسبورغ، وفي المؤتمر التأسيسي للفرع انتُخِب رئيساً لمجلس قيادته. وفي المؤتمر التأسيسي للحزب نفسه الذي عقد في أيار عام 1995 في موسكو، انتخب عضواً في مجلس قيادة الحزب (مكون من 126 شخصاً).

وخلال صيف وخريف عام 1995 قاد حملة الحملة الانتخابية لحزب «بيتنا روسيا» في انتخابات مجلس الدوما في سانت بطرسبورغ. وخلال هذه الحملة الانتخابية، تمكن من جمع مليار ومائة مليون روبل لصالح حملة الحزب، وقدمت معظمها بنوك سانت بطرسبورغ؛ علماً أن الميزانية التي خصصها مركز الحزب في موسكو لحملته الانتخابية في سانت بطرسبورغ كانت فقط 15 مليون روبل!

إذن، القصة ليست قصة أموال، وتتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد!

ثمة شيء يمكن إيجاده في مساحة الخلاف الصامت والتباعد والتجافي، الذي لم ينشأ من حيثيات علاقة الرجلين ببعضهما بعضاً، ولكن من علاقة كل منهما بالقوى الأخرى، وتحديداً موسكو، وما يريده ويفكر فيه أهلها.

وموسكو باتت تضغط أكثر فأكثر للخلاص من أناتولي سوبتشاك.

موسكو تهاجم

في تلك الفترة، من أواسط التسعينات، كان السباق على «اختطاف» يلتسين، حامل سر الرئاسة، موضوع اهتمام كثير من الجهود الحثيثة، التي بذلتها مجموعات في الحكم وعالم الأعمال ومؤسسات الدولة؛ كان من الواضح منطقياً أن الرئيس الذي يستنفذ فرصه الدستورية في الترشح لرئاسة البلاد، ويشتد عليه الضعف والتداعي الجسدي والروحي، سيسلم السلطة في وقت غير بعيد، طوعاً أو اضطراراً.

وكان الجميع يريدون أن يكونوا في موقع «الوريث»، حين تحين تلك اللحظة!

كانت النخبة في موسكو قلقة من نفوذ سوبتشاك الذي يعتمد على قيادته لمدينة كبرى، تملك ثقلاً وازناً، وتتأثر أفكاره بخلفيته الأكاديمية كأستاذ جامعي للقانون، الأمر الذي وضع «ديمقراطيي» سانت بطرسبورغ وراء أفكار دولة القانون، بينما كان منافسوه في موسكو يعتمدون بدرجة أساسية على قربهم من رأس النظام الجديد، يلتسين؛ وكانت أفكارهم تتركز على تمكين اقتصاد السوق وإحلال قطاع الأعمال مكان القطاع العام في البيئة السياسية.

في الجانب الآخر، برزت اهتمامات الجيش بالسلطة بطريقة لا يمكن صرف النظر عنها، لا سيما مع اقتحام الجنرال الشهير ألكسندر ليبيد عالم السياسة وترشحه للانتخابات الرئاسية. وبذلك، فإن الصراع على السلطة بين مؤسسات القوة لم يعد مقصوراً على الـ«كي. جي. بي» وقوى وزارة الداخلية.

ذلك عنى بدرجة كبيرة اطلاق العنان للطموحات الخفية لتتصادم تحت السطح.

من جهته، كان مركز الـ«كي. جي. بي» في موسكو قد استعاد قيادته، واستقطب قيادات وكوادر من دائرة سانت بطرسبورغ للعمل فيه؛ وفي خضم الصراع الخفي بدا الجهاز مشغولاً بالرهانات الوازنة، وهي في تلك الفترة رهانات في

موسكو، وحول الرئيس، ومثّلها بدرجة كبيرة قائد حماية يلتسين، ألكسندر كورجاكوف، ورجل الجهاز المخضرم في السياسة، يفغيني بريماكوف.

في هذا السياق، بدت «خدمات» بوتين في السيطرة على قيادة المدينة مجرد خدمات «محلية»، غير ذات شأن، لا يمكنها أن تشغل حيزاً من الأهمية أمام ماراثون السباق للسيطرة على البلاد بأسرها.

كما بدا بقربه من سوبتشاك، يمثل لحظة محرجة!

والأهم، أن جهاز الـ«كي. جي. بي» لم يعد في هذه الظروف مضطراً للتحالف مع سوبتشاك، ولا إلى مساندته. وكان مستعداً عند الضرورة لإرضاء طالبي رأسه من رفاقه «الديمقراطيين» في موسكو. وبالأصل كان الجهاز سيكون سعيداً بفرصة تعميق الخلافات بين جناحي «الديمقراطيين» في العاصمتين، موسكو وسانت بطرسبورغ، إلى حدود ثأرية!

وبوتين لا يستطيع في نهاية النهايات أن يبقى بعيداً عن زملائه في الـ«كي. جي. بي»، وهو من دون شك سيلتحق بهم عاجلاً أم آجلاً، وإن بقي فهو سيكون بخدمتهم، ومعهم لا عليهم. وبالتالي، فإن المنطق كان يقود سوبتشاك إلى إبعاده عن دفة الحملة الانتخابية، إن لم يكن تحرصاً منه، فحرصاً عليه، بتجنيبه أن يكون في موقف يعرضه للابتزاز عبر تخييره بين دعمه له أو ولائه لزملائه.

ويبدو أن سوبتشاك كان لاحظ أن بوتين اندفع قبل أشهر في دعم حملة حزب السلطة في موسكو، وأفرد لها جزءاً ثميناً من وقته واهتمامه. وهذا لا يمكن إلا أن يعني أن يسعى إلى توثيق علاقته بزملائه عبر دعم مشاريعهم. وبالأصل، عدم السماح للمساحة بينه وبينهم أن تتسع إلى حدود التباعد والقطيعة.

وفي خضم الحملة الانتخابية في سانت بطرسبورغ انضم بوتين لـ«الحركة الشعبية لدعم الرئيس - فرع سانت بطرسبورغ»، التي اندمجت فيها المنظمات

التي تدعو لإعادة انتخاب يلتسين لفترة رئاسة جديدة.

لم يمر ذلك دون لحظات إزعاج بالنسبة لحملة سوبتشاك؛ فقد أرسل زعيم حركة «يابلوكا» سانت بطرسبورغ، ايغور رتيميوف شكوى إلى النيابة العامة في سانت بطرسبورغ، يقول فيها أن مشاركة بوتين في هذه الحركة ينتهك قانون «الضمانات الأساسية للحقوق الانتخابية لمواطني الاتحاد الروسي»، ويخرق بوجه خاص، تلك التقييدات التي يستهدف بها القانون «عرقلة إمكانية استخدام موظفي القطاع العام وضعهم الرسمي في فائدة مرشحين محددين».

وعلى نحو ما بدا مكتب المدعي العام مقيد اليدين في الشكوى ضد بوتين، ولم يتخذ الإجراءات اللازمة، وتقبّل بكل بساطة موقف المدعى عليه الذي لم يزد عن إنه قال أنه لم ينضم لـ«الحركة الشعبية لدعم الرئيس» بصفته النائب الأول لرئيس بلدية سانت بطرسبورغ، ولكن بصفته رئيس المنظمة المحلية لحزب «بيتنا روسيا».

كان هذا تهاون أشّر على أن بوتين ما يزال يتمتع بالحماية!

وبطبيعة الحال، تكثر التأويلات في مثل هذا الجو، فنشأت في معسكر سوبتشاك أسئلة جدية حول علاقة بوتين بكل الملفات التي استخدمتها الـ«كي. جي. بي» ضد صاحب الحملة، ومنها مثلاً ملف الشقة التي اتهم بشرائها بالمال العام. وإضافة إلى ذلك، بدأت موجة من التشكيك بنوايا بوتين الحقيقية حينما سعى لتقديم الانتخابات البلدية في لينينغراد من شهر مايو إلى مارس، معتمداً أساليب فجة أغضبت الناخبين من سوبتشاك.

يواجه بوتين هذه الأجواء بمحاولة إظهار ولائه، فيعرض جهوده أكثر من مرة على سوبتشاك، فيرفض الأخير. ولكنه لا ييأس، فيقود حملة مسعورة ضد المرشح الآخر المدعوم من موسكو، وهو بالمناسبة زميله في قيادة المدينة نائباً لعمدتها، فلا يدفع ذلك سوبتشاك للاطمئنان إليه. ويعلن أنه سيترك العمل في قيادة المدينة إن خسر سوبتشاك الانتخابات، فلا يستحق على ذلك سوى

إيماءة شكر متكلفة.

هل كان بذلك بوتين يغامر بخسارة زملائه؟

كان يمكن أن يكون الأمر كذلك لو جاءت جهوده بنتيجة. وفي الواقع، كان يمكن لمن كانوا في فريق سوبتشاك يحاولون الإضرار ببوتين عبر تحييده، الإضرار به فعلاً لو أتاحوا له المجال للعمل في الحملة الانتخابية. لكنهم لم يفهموا ذلك، وكان هو قد أدرك أنه كلما ألح عليهم، أظهروا مزيداً من الرفض له، وأكدوا على الفجوة التي تفصل بينهم وبينه..

وكان هذا أكثر من مناسب بالنسبة للرجل، الذي بدأ يعد لخطوته التالية!

في الجهة الأخرى، كان المرشح المنافس، فلاديمير ياكوفليف، قد بدأ يحصل على الأموال من موسكو. وكان مدعوماً من قبل نفس الجهات والأشخاص الذين نظموا الحملات ضد سوبتشاك؛ وكان في صدارة هؤلاء قائد حرس الرئيس ألكسندر كورجاكوف ونائب رئيس الوزراء أوليغ سوسكوفيتس.

لم يكن هذا التحالف المضاد لسوبتشاك دون برنامج، ولم تكن وراثة يلتسين غائبة عن اعتباراته؛ فقد كان الدفع بنائب رئيس الوزراء أوليغ سوسكوفيتس، جزءاً من خطة إعداده لخلافة يلتسين. وكان هذا التحالف قد ضمن بواسطة قائد حرس الرئيس ألكسندر كورجاكوف انضمام مؤسسات إنفاذ القانون إليهما..

والأهم، أنه كان من بين هذه المؤسسات جهاز الـ«كي. جي. بي»، الذي عُيِّن أبرز حلفاء كورجاكوف على رأسه!

قبل نحو عام ونصف قبل الانتخابات جاءت لجنة معينة من رؤساء الإدارات الأمنية الثلاث: «في. إس. بي» ووزارة الداخلية والإدعاء العام. وجلبت معها العديد من الملفات الجنائية. طلبوا سوبتشاك شاهداً في اثنين منها. وخلال الحملة الانتخابية أرسل بوتين استفساراً إلى النائب العام إن كان لسوبتشاك

علاقة بهذه الملفات الجنائية أم لا. فجاء الرد مستعجلاً على نحو مريب في نفس اليوم: نعم، له علاقة باثنتين من القضايا الجنائية. وبالطبع، لم يكتبوا في الرد أنه مجرد شاهد في هاتين القضيتين.

وخلال الحملة الانتخابية ألقت طائرة هيلوكوبتر آلاف النسخ من هذا الرد فوق المدينة!

لم يكن مفهوماً ما الذي جرى بالضبط؛ هل كانت هذه مجرد خطوة بريئة من بوتين استُغلّت على هذا النحو الفادح، أم تدبير واع في سياق من التنسيق مع زملائه، في الطرف الآخر. غير أن الأمر، على الحالين، له استحقاقاته. وهكذا، قرّر سوبتشاك، أن يقود حملته الانتخابية بنفسه. ثم انضمت إليه زوجته لودميلا ناروسوفا. ثم لم يلبث أن أعلن أنها ستقود المقر الانتخابي. وهنا برز بوتين وألكسي كودرين، الذي كان أيضاً نائباً لسوبتشاك، محاولين إقناعه وإقناعها بالعدول عن ذلك، مؤكدين أن هذا لن يعجب العاملين في المقر الانتخابي، ولن يقبلوا الانصياع لإدارتها.

وإلى أن تقرر من سيقود الحملة، كان قد ضاع الكثير من الوقت.

وقبل الجولة الأولى من الانتخابات عرض بوتين وألكسي كودرين على سوبتشاك، مجدداً، أن ينضمّا للحملة. ولكنه أصرّ على إبعاد بوتين، وطلب منه أن يواصل الاهتمام بشؤون المدينة، قائلاً إن من الضروري أن يهتم شخص ما بالأنشطة الاقتصادية للمدينة التي جاوز عدد سكانها ذلك الحين خمسة ملايين نسمة.

ومرة أخرى، في آخر لحظة، بين الجولتين الأولى والثانية، حاول بوتين وكودرين الانضمام إلى الحملة الانتخابية. ولكن بلا فائدة. وخسر سوبتشاك الانتخابات.

بعد الهزيمة في الانتخابات جلس بوتين لبعض الوقت بمكتبه في سمولني. في

ذلك الوقت كانت تجري الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية، وكان بوتين قد نشط في مكتب حملة يلتسين في سانت بطرسبورغ. فلم يتعجل العمدة الجديد للمدينة فلاديمير ياكوفليف إلى طرده من منصبه، ولكن بمجرد أن انتهت الانتخابات الرئاسية، حتى طلبوا منه وبطريقة فجة إخلاء المكتب.

وكان بحلول ذلك الوقت قد رفض العرض الذي قدمه له ياكوفليف، عبر وسطاء، بالاحتفاظ بموقعه نائباً أول لعمدة المدينة؛ إلا أنه كان يعرف أن الانتخابات جاءت بأسوأ أعدائه. والأسوأ، أن العرض كان يعني أنه يقبل بأن خيار جهاز الـ«كي. جي. بي» تحييده، ووضع رهاناته على ياكوفليف، هو خيار صحيح، أو على الأقل مقبول بالنسبة له.

فكر أنه من المستحيل أن يعمل مع ياكوفليف، وهذا ما طلب نقله له؛ وفي روايات شائعة، يتردد أن بوتين أجاب على هذا العرض غامزاً من قناة العمدة الجديد، قائلاً: «أفضّل أن أشنق لأمانتي، من أن أُكافأ على خيانتي».

كان يتوجب عليه أن يفعل ذلك، لا سيما وأنه كان صاحب المبادرة الذي يقف وراء ذلك الإعلان الذي أصدره موظفو البلدية خلال الحملة الانتخابية، الذي أكدوا فيه أنهم سيغادرون مع سوبتشاك في حال هزيمته. وإن كان الإعلان نفسه قد أطلق لغايات محددة، تأكيد ولائه لسوبتشاك في ظرف حرج، ولتحفيز العاملين في إدارته وجعلهم يدركون أن خسارته الانتخابات هي خسارة لهم جميعاً.

وكان بوتين قد تعرض لياكوفليف خلال الحملة الانتخابية عدة مرات. وفي واحدة من المقابلات التلفزيونية وصفه بـ«يهوذا». بطريقة أو بأخرى وصل إلى هذه المفردة، وأطلقها عليه. وفي الواقع لم يكن لدى بوتين أسباب قليلة ليعمل لسانه في ياكوفليف؛ فقد كان هذا، مثله تماماً، نائباً أول لسوبتشاك، وكان الرجلان يتقاسمان اقتصاد المدينة بالتساوي..

- ياكوفليف يسيطر على الاقتصاد السوفيتي الممثل بالمؤسسات الصناعية

والخدمية المتعلقة بالبنية التحتية والإسكان والطبابة والتعليم وغيرها مما يشابهها.

- وبوتين يسيطر على الاقتصاد الجديد الرأسمالي الممثّل بالبنوك والمناطق الحرة وقطاع التجارة الخارجية والاستثمارات الأجنبية وإعادة هيكلة الاقتصاد.

ومن هذه التجربة، يخلص بوتين إلى درس ثمين لم ينسه في مسيرته اللاحقة؛ بينما كان هو منشغل بقطاع المال والاستثمار، كان زميله يقبض على القطاع الحقيقي من الاقتصاد بشقيه الانتاجي والخدمي. وأدرك أن الفكرة التي راجت حينها حول الاقتصاد «الحديث» و«العصري» المتركز على أدوات اقتصاد السوق، مقابل الاقتصاد السوفيتي التقليدي، هي فكرة خادعة.

ومهما يكن من أمر، فإن العلاقات مع ياكوفليف كانت بلغت من السوء أن الشائعات انتشرت أن بوتين وسوبتشاك يعدّان لاغتيال المرشح المنافس، لدرجة أن الأخير سأل بوتين صراحة حينما صادفه في مقر يلتسين الانتخابي في سانت بطرسبورغ:

- أصحيح ما سمعته؟ يقولون إنك وسوبتشاك مشغولان بالإعداد لاغتيالي؟

فنظر إليه بوتين، وقال بحدة، لم تخل من ازدراء:

- من تحسب نفسك؟ أقترح عليك أن تنظر في المرآة لتتأكد أن من هم مثلك لا يثيرون اهتمام أحد!

على الرغم من ذلك، استدعى بوتين في فترة رئاسته الأولى ياكوفليف، الذي كان يقضي فترته الثانية على رأس مجلس مدينة سانت بطرسبورغ، إلى موسكو في العام 2003 وعينه نائباً لرئيس الوزراء. ثم ممثلاً خاصاً للرئيس، ثم وزيراً للتنمية المحلية حتى عام 2007.

انتقل بوتين بعد خسارة الانتخابات إلى البيت الريفي، الذي كان بناه خلال بضع سنوات. وبدأ يعيش مع عائلته هناك، ولبث ينتظر. كان ثمة أمل أن يستدعيه أحد ما؛ إذ أنه، كما قال له أناتولي سوبتشاك، «مطلوب ومرغوب من الجميع»، وأن أحداً ما بالتأكيد سوف يدعوه للعمل معه. بل أن سوبتشاك الذي خرج من التجربة بشعور من الامتنان لبوتين، وشيء من تبكيت الضمير، قال له ذات مرة بثقة أن جماعة موسكو سيعينونه سفيراً.

- لقد تحدثت مع الوزير. ستكون سفيراً.

كان يقصد بريماكوف، وزير الخارجية حينها.

بطبيعة الحال، كان بوتين يشك في أنهم يمكن أن يعينوه سفيراً في مكان ما. لكنه لم يكن يستطيع أن يقول لسوبتشاك بأن هذا محض هراء. وأنهما الاثنان، لن يحظيا بأي سفارة أبداً!

وهذا ما حدث.

اللغز الثاني عشر

الأسرار المسكوبيّة

الدولة والجسد

بينما كان بوتين منغمساً في شؤونه اللينينغرادية في سانت بطرسبورغ، كانت موسكو تعيش دواماتها الخاصة، التي ستتعقد قريباً، ولكنها في تعقيدها تصبح مهيأة أكثر لاستقبال الوافد الجديد، وإفساح المجال له في مشهدها السياسي.

في ذلك الوقت، بدأت دورة جديدة من الأحداث، والأزمات، والتعقيدات!

تحديداً، في نهاية عام 1995، أصيب بوريس يلتسين بنوبة قلبية حادة. كانت هذه، في الواقع، أول أزمة قلبية في سلسلة من الأزمات الصحية التي ستضاف إلى أزمات سياسية واجتماعية تهز البلاد، ويحمل الرئيس المتداعي وزرها، ومسؤولية مواجهتها.

وقد بات واضحاً أن الحياة السياسية في موسكو تعيش سباقاً متوتراً بين سيناريوهين، لا ثالث لهما:

- أن ينهار جسد الرئيس، فتتحرر الدولة منه، وتجد البلاد فرصتها في التعافي.

- أو أن تنفجر أزمات الدولة، فتقصي الرئيس وتتجاوز سياساته.

لم يول يلتسين أزمته الصحية الاهتمام اللازم؛ لذا لم يكن من الغريب أن يرسل جسده، إنذاراً ثانياً بعد وقت قصير. وهكذا بعد الأزمة القلبية الثانية في العام التالي، بدا واضحاً أن العارض الصحي يمثل قلقاً جدياً، وأن «الجسد» على شفا انهيار؛ فنشأت فكرة «خلافة يلتسين»، وأصبحت هاجساً سياسياً رئيساً في أوساط المعارضة، كما في معسكر الرئيس نفسه.

كانت ما تزال أمام الرئيس، وقتها، فرصة دستورية بالترشح لولاية ثانية.

وفي الأثناء، كان التلازم بين حالة الرئيس الصحية ووضع البلاد وأزمات نظامها السياسي يتزايد بتسارع؛ ففي نهاية ديسمبر 1995، تلقى النظام هزيمة

شديدة في انتخابات مجلس الدوما، ونالت كتلة الأحزاب اليسارية، ومعظمها من الشيوعيين، أكثر من أربعين في المئة من المقاعد في المجلس الجديد، أي حوالي مئتي صوت، بينما بالكاد حظي حزب السلطة بقيادة رئيس الوزراء فيكتور تشيرنوميردين («بيتنا روسيا») على عشرة في المئة، فيما كان المأزق في الشيشان يزداد تفاقماً.

في هذا الوقت، كان الجميع يترقبون قراراً رئيسياً هاماً، هو هل سيترشح الرئيس المتداعي لفترة ثانية في انتخابات العام التالي (1996) أم لا. وكان ثمة أمل كبير في أن لا يترشح. ليس فقط لأن صحته باتت على المحك، وشعبيته منهارة، بل وكذلك لأن قسماً كبيراً مؤثراً ممن يحيطون به باتوا يفكرون بأن من الأسلم تجديد هيمنتهم على النظام عبر تقديم شخصية جديدة لرئاسة البلاد، بأسرع وقت.

في تلك الفترة الحرجة، بات الرئيس المتداعي نفسه، يشكو من أنه توقف «عن الشعور بدعم من الذين بدأت حياتي السياسية معهم. أولئك الذين خضت معهم الانتخابات النيابية الأولى ثم الرئاسية. وبدا لي أن الإنتليجنتسيا، والسياسيين الديمقراطيين والصحافيين، وكل حلفائي، وداعميّ الدائمين، قد ابتعدوا عني».

في نهاية عام 1995، بدأت حاشية الرئيس التي كان يقودها ألكسندر كورجاكوف، قائد قوة الحماية الرئاسية، تروج لفكرة أنه ينبغي أن لا يخلف فيكتور تشيرنوميردين، الذي خسر انتخابات الدوما، يلتسين في رئاسة الدولة. وراح كورجاكوف نفسه يدفع بإلحاح في اتجاه تقديم صديقه الموثوق أوليغ سوسكوفيتس، النائب الأول لرئيس الوزراء.

وفي المحصلة، بات الرئيس ينظر إلى قائد حمايته الشخصية، نظرته إلى انقلابي خائن؛ ويصف موقفه من قائد حمايته في كتاب مذكراته الأخير «الماراثون الرئاسي»، فيقول:

«كان مسار الأحداث واضحاً؛ على خلفية الصراع مع الانفصاليين الشيشان،

وتنامي موجة «التهديد الشيوعي»، يأتي فريق شبه عسكري من جنرالات ما بعد الاتحاد السوفيتي إلى السلطة: رئيس جهاز الأمن، الكسندر كورجاكوف، مدير «في. إس.بي» ميخائيل بارسوكوف، اللذين يدعمان النائب الأول لرئيس الوزراء أوليغ سوسكوفيتس».

أي، انقلاب عسكري يأتي بجنرالات سوفييت متقاعدين إلى السلطة!

وكانت هذه الفكرة ضربة قاصمة للرئيس. لقد عنى ذلك بالنسبة له، بشكل مباشر، وبدرجة أساسية، أن قوة أساسية يعتمد عليها، وتضم أشخاصاً في حاشيته هم الأقرب إليه، كفّت عن الولاء له، وبدأت تتبنى خططاً بشأن إخراجه من المشهد بتنظيم عملية تقديم «وريث سياسي» يخلفه في الرئاسة؛ إنهم ببساطة يحيلونه إلى «التقاعد»، تحايلاً، وليس بإرادته.

لذا كان محتماً أن يعيد الرئيس الحرون حساباته، فيقرّر خلط أوراق مقربيه الذين رأى أنهم خانوه، فيواصل الحياة السياسية على غير ما تفترض حساباتهم، ويخوض السباق الرئاسي، ويفوز به، ثم سيكون بوسعه تنظيم حاشيته، وترتيب الوراثة الرئاسية، بنفسه.

وهذه في الواقع خطوة حفظت الرئاسة، وأجّلت سؤال الوراثة، لفائدة بوتين المنشغل بهمومه اللينينغرادية.

في أوائل كانون الثاني ، أعلن يلتسين قراره بخوض الانتخابات. ولكن كانت ما تزال تواجهه معضلة أساسية تتعلق بشعبيته المنهارة، لذلك، اضطر إلى البحث عن حلفاء في النخبة الروسية الجديدة.

وعلى نحو يعزز هذا الاتجاه، التقى بقادة أكبر المجموعات المصرفية والإعلامية في البلاد. وبكلمات أدق بأبرز ممثلي الأوليغارشية الجديدة، وعملياً ما يمكن تسميته «مجلس حرب الأوليغارش» كاملاً: غوسينسكي، خودوركوفسكي، بوتانين، بيروزوفسكي، فريدمان وغيرهم، وكانوا حينها ما

يزالون يلعبون دوراً بارزاً في توجيه النخبة السياسية في الحكم.

كان القادة الأوليغارش واضحين ومباشرين، وابتدأوا الحديث مع يلتسين قائلين:

- «بوريس نيكولايفيتش، ما يحدث في مقر حملتك الانتخابية وفي محيطكم، هو فشل تام. وهذا الوضع أجبر بعض رجال الأعمال على التوصل لاتفاق مع الشيوعيين، والبعض الآخر بدأ بحزم حقائبه؛ أما نحن فليس لدينا مجال للتفاوض مع أحد. إذا تسلّم الشيوعيون الحكم فسيعلقونا على الأعمدة، وإذا لم نعالج هذا الوضع في حملتكم الانتخابية الآن، فإن ذلك في غضون شهر سيكون أمراً فات أوانه».

لم يكن اللقاء سهلاً على يلتسين، الذي اعتاد أن يكون مسيطراً، وفي موقع قوة يتيح له فرض ما يريد. ولكن، ها هو في هذا اللقاء في أمس الحاجة إلى هؤلاء، يحاول أن يبدو حصاناً رابحاً أمامهم، بينما هم تحت وطأة الشعور بالخطر الداهم، تخلوا عن كل دواعي الكياسة في التعامل معه، ويؤكدون بإلحاح مزعج على شرح موقفه الذي لا يُحسد عليه.

بالنتيجة، فرض هؤلاء شروطهم على الحملة الانتخابية: التزموا، وألزموا يلتسين، باستخدام كامل مواردهم: المعلوماتية، والصلات الإقليمية، والمالية. ولكن الأهم من ذلك، عينوا رجالهم في مهمات محددة في إدارة حملته الانتخابية. وفرضوا ما سمي حينها بـ«المجموعة التحليليّة»، التي ضمّت نخبة من العاملين لديهم، ومن خلال هذه المجموعة مارسوا سيطرة إضافية.

وممثلو الأوليغارش، جميعاً، كانوا يلتقون على ضرورة مشاركة أناتولي تشوبايس بالحملة الانتخابية!

كان يلتسين قد قطع مع تشوبايس بشكل حاد قبل نحو شهرين من ذلك، وبالنتيجة خرج الأخير من الحكومة في سياق حيثيات صاخبة؛ كان قد نشب

خلاف بينه وبين مجموعة كورجاكوف وسوسكوفيتس، وحينها وجد الرئيس أن من الأسهل التخلص منه؛ وها هو الآن مضطر نزولاً عند مطالب الأوليغارش إلى الاستعانة بعراب الخصخصة، الذي كان قد طرده من الحكومة.

وهكذا، عُيّن تشوبايس رئيساً لـ«المجموعة التحليلية».

شبح ثلاث وتسعين

خطـوات يلتسـين التكتيكيـة كـانت فـي ظرفـه ذاك أكبـر بكثـير مـن طابعهـا التكتيكي؛ فقد اضطرته للرضوح لهيمنة الأوليغارش، والأسوأ من ذلك وضعته على طريق الارتهان المباشر لسياسيين ودول خارجية، إذ إن أموال الأوليغارش الطائلة التي ضُخّت في الحملة الانتخابية فتحت شهيّة النهب لدى مقربيه، فلم تكفهم هـذه الأمـوال، فاضـطر لقبول نصف مليار دولار نقداً دفعتها الولايات المتحدة دعماً لحملته، ومليار دولار آخر، نقداً، من الملياردير الإيطالي سلفيو بيرلسكوني، الذي كان حينها رئيساً للحكومة الإيطالية.

على أي حال، هذه الخطوات كان لها أثر آخر؛ إذ أن ترشح يلتسين للرئاسة، أجل عملياً موضـوع البحـث عـن وريـث لـه بضعة سنوات إضافية، كانت ضرورية ليدخل بوتين المشهد السياسي في موسكو.

ومن جهة أخرى، يبدو أن تغير موقف يلتسين من كورجاكوف وسوسكوفيتس أوجد مكاناً شاغراً في الإدارة الرئاسية لرجل استخبارات سابق، يملأ الفراغ الحاصل. إضافة إلى أن ذلك، ربما أعوز ممثلي الـ«كي.جي.بي» في السياسة الروسية إلى تعزيز تواجدهم، بعد خروج كورجاكوف وبارسوكوف من المشهد، ما دعاهم لاحقاً إلى استدعاء بوتين إلى موسكو.

ما يؤشّر على ذلك، هو أن انتقال بوتين إلى موسكو لم يبد بحال من الأحوال خدمة شخصية. ولو كانت كذلك، لكان أُكتُفي بترتيب وضع ما له في مدينته الأم، سـانت بطرسـبورغ. وكـان بمقـدوره هـو نفسـه تـرتيب مثـل هـذا الوضـع؛ ويستطيع من يتتبع تلك المرحلة من سيرة بوتين أن الفرصة التي كان ينتظرها هي في موسكو تحديداً. وكل الجهود التي بذلت من قبل زملائه كانت تتركز في هذا الاتجاه.

وليس هذا فقط، كان الأمر يدور منذ البداية حول فرصة في الإدارة الرئاسية،

بالذات. وليس أي فرصة. بل فرصة قرب الرئيس نفسه. وتقديماً لذلك، أدمِج بوتين بالحملة الرئاسية للرئيس في سانت بطرسبورغ، وتكليفه بقيادتها.

ومن اللافت أن بوتين الذي قاد حملة الرئيس الانتخابية في مدينته الأم، حقق نجاحاً كبيراً، وغير مسبوق، بتمويلها، مستعيناً بعلاقاته في قطاع المال والأعمال. أي، لم يكن عاجزاً في كل الأحوال عن إيجاد وضعٍ لائق جداً لنفسه، في ذلك القطاع المغري، الذي يتهافت زملاؤه على أي فرصة تلوح لهم فيه.

ومن المتوقع أن النجاحات التي كان يحققها بوتين في مهمته بالحملة الانتخابية كانت تضعه في مقدمة المشهد، فأمور الحملة في موسكو لم تكن مبشّرة كما كان الحال في سانت بطرسبورغ، التي نشط فيها بوتين.

ورغم ذلك، شهدت تلك الفترة تطورات كان من شأنها أن تغلق الباب أمام بوتين تماماً، وتحرف «الحظ» عن طريقه؛ ففي ذلك الحين، وجهت المعارضة ضربة قوية ليلتسين بتمرير قرار من خلال مجلس الدوما بإلغاء اتفاقية بيلوفيجسكويه عام 1991، التي أنهت وجود الاتحاد السوفيتي. كما رفعت راية الدعوة لمحاكمة أولئك الذين شاركوا في توقيع هذه الاتفاقية.

وهذا أثار مخاوف شديدة لدى يلتسين، وأفقده أعصابه، وراح يفكر جدياً باتخاذ «خطوات حاسمة وقوية». وكان ذلك يعني طي صفحة الانتخابات، واتخاذ قرارات طارئة واستثنائية.

وهكذا كان..!

طلب من عاملي الإدارة الرئاسية إعداد «الوثائق اللازمة»؛ التي تتضمن إعداد الوثائق تحضير عدة مراسيم انقلابية، منها: حظر الحزب الشيوعي الروسي ومنع نشاطه، وحل مجلس الدوما، وتأجيل الانتخابات الرئاسية.

وفي الثالث والعشرين من آذار، عقد يلتسين اجتماعاً مغلقاً مع أركان الحكومة والإدارة، حضره رئيس الوزراء فيكتور تشيرنوميردين ونائب رئيس الوزراء

أوليغ سوسكوفيتس والوزراء الأمنيين، ورئيس الإدارة الرئاسية حينها نيكولاي يغوروف، وأطلع المجتمعين على الوضع، وما قرّره بشأنه، وطلب رأيهم.

صمت المجتمعون، وقد اعتراهم الذهول لما سمعوه من الرئيس، ولكن فجأة، لم يحتمل وزير الداخلية، أناتولي كوليكوف، وارتفع صوته معارضاً بشدّة، وبلا تحفُّظ، الإجراءات التي أعدها الرئيس لمواجهة الموقف.

قال:

- الحزب الشيوعي يسيطر على المجالس التشريعية المحلية في نصف أقاليم روسيا. إنه ببساطة يستطيع إخراج الناس في أي مكان إلى الشوارع، وفي هذا الوضع لا أستطيع أن أضمن عناصر أمن الداخلية. ماذا سنفعل إذا وقف جزء من قوات الشرطة مع الرئيس، والقسم الآخر ضدّه؟.. هل نقاتلهم؟ إنها إذن حرب أهلية!

موقف وزير الداخلية مدّ رئيس الوزراء تشيرنوميردين بالقوة ليعبّر عن موقفه، فقال إنه لا يفهم سبب الحاجة لمثل هذه الإجراءات الراديكالية، التي ليس فيها خطوط للرجعة، ودعا الرئيس إلى إعادة التفكير بما عزم عليه.

ومع ذلك، لسبب ما دعم بقية المشاركين فكرة تأجيل الانتخابات. غير أنه لم يكن بوسع يلتسين أن يتجاهل الكلام الذي لامس مخاوف واقعية يشعر بها جيداً. وعلى وجه الخصوص موقف وزير الداخلية ورئيس الوزراء، ففكر بشراء الوقت.

قال:

- حسناً. الأمر مفهوم. «الأغلبية مع». اذهبوا. انتهى الاجتماع، سأفكر بالأمر.

وفي الحقيقة لم يكن «الأغلبية مع»، فالمؤثرون في فريق يلتسين «كانوا بقوة ضد»؛ لذا، تدخلت، تاتيانا، ابنة الرئيس، وأقنعته أنه بحاجة إلى سماع رأي

أناتولي تشوبايس تحديداً.

كان تشوبايس جاهزاً للموقف، يعتريه القلق إزاء قدرته على التأثير بموقف الرئيس الحرون، فإن لم يؤثر به، فإن الأمر يكون خرج عن السيطرة.

قال تشوبايس:

- بوريس نيكولايفيتش، هذا ليس العام ثلاثة وتسعين. الفرق في اللحظة الراهنة هو أن من يخرج أولاً عن الإطار الدستوري سيحترق، ومع ذلك، من حيث الجوهر، في العام ثلاثة وتسعين كانوا هم أول من خرج عن الإطار الدستوري.

وأمام لا مبالاة الرئيس بكلامه، لم يجد تشوبايس بدأ من استخدام لغة حادة، فقال:

- إنها فكرة مجنونة.. أن تحاول منازلة الشيوعيين بمثل هذه الطريقة، الأيديولوجيا الشيوعية ما تزال تعشعش في عقول الناس، ولن تستطيع بالمرسوم الرئاسي تركيب رؤوس جديدة للشعب.

وفي النهاية، وجد نفسه يصرخ في وجه الرئيس، الذي كان بدوره قد استبد به الغضب وراح يرغي ويزبد:

- لا يمكنك فعل ذلك، لا يمكنك إلغاء الانتخابات..!

وبعد ساعة من الحديث والصراخ، أعلن يلتسين موافقته على إلغاء قراره، الذي كان سيقود إلى مواجهة من نوع تلك التي حصلت في العام ثلاث وتسعين حينما قصف يلتسين مجلس النواب بالدبابات، مع فارق أن الأمر كان سيكون في الشوارع هذه المرة، إلى جانب أن الغلبة ليست فقط غير مضمونة، ولكنها في حكم المؤكد لن تكون إلى جانب الرئيس وفريقه.

لذا، ليس غريباً أن يلتسين يعبّر في مذكراته عن امتنانه لتشوبايس الذي دفعه

ليعدل عن ذلك القرار. كما ليس من الغريب أن ابنة يلتسين، تاتيانا داتشينكو، ما تزال تستذكر هذا اليوم باعتباره ذكرى تجنب كارثة محققة، تستحق التنويه سنوياً، كما عبرت مؤخراً على موقعها الالكتروني الذي تخصصه لاستذكار أحداث سنوات التسعينات.

بنتيجة ذلك، عادت الحملة الانتخابية لتكون من اختصاص «المجموعة التحليلية»، التي ترأسها تشوبايس، تحديداً، وأضحت المركز الرئيسي، والحصري، لجميع القرارات السياسية. وكما يقول يلتسين «أصبحت المهمة بعد الفوز بالانتخابات هي ضمان بقاء السلطة بعيداً عن يد الشيوعيين، وبالتالي كان علينا تهيئة رئيس جديد».

باختصار، أضحت «تهيئة رئيس جديد» هي مهمة تشوبايس ومشغّليه!

وهذا شيء لم يكن من الوارد أن يعجب قائد الحماية الرئاسية، ألكسندر كورجاكوف، الذي فقد فرصه في السيطرة على ملف الوراثة السياسية، فسارع إلى ترتيب كمين لمجموعة تشوبايس؛ وهو ما عرف لاحقاً بقضية «كرتونة الأموال»؛ ففي عشية الجولة الثانية من الانتخابات، اعتقل رجال كورجاكوف من جهاز الحماية الرئاسي عند مدخل مقر الحكومة، اثنين من أعضاء الحملة الانتخابية، وبحوزتهما «كرتونة» مملوءة بما يعادل نصف مليار دولار أميركي تماماً، وكانا ينويان نقلها إلى جهة غير معلومة. بينما الأموال نفسها، التي اتضح لاحقاً أنها «مساعدة» أمريكية لحملة يلتسين الانتخابية، لم يكن معروفاً لها مصدر شرعي.

وهذا كان كافياً لرجال كورجاكوف للتصرف، فهذه قضية جنائية!

وكان اعتقاد كورجاكوف أن الرئيس المنكب على الكحول غائب البال عما يجري، وغير متورط بما يقترفه فريق «المجموعة التحليلية». وبحسابه إنه في حالة تورط الرئيس فإن كشف الواقعة سيحرجه، ويدفعه إلى التضحية بـ«المجموعة التحليلية»، والتخلي عن خدماتها؛ ولكن ما حدث عكس ذلك.

في الصباح التالي للحادثة، استقبل يلتسين كلّاً من كورجاكوف وبارسوكوف رئيس الـ«في. إس. بي»، وأبلغهم بقراره: عليهما الاثنان، وسوسكوفيتس تقديم استقالاتهم.

وكان هذا انتصاراً لـ«المجموعة التحليلية»، التي ترأسها تشوبايس، ورعاتها، الذين قرروا أن المهمة الأساسية المقبلة هي «ضمان بقاء السلطة بعيداً عن أيد الشيوعيين، وبالتالي ضرورة تهيئة رئيس جديد».

وشكل هذا، من جهة أخرى، خلفية مناسبة لظهور بوتين في المشهد السياسي في موسكو.

إطفاء الحرائق

الحرائق السياسية التي اشتعلت في موسكو، كان لها رديفها الموضوعي على المستوى الشخصي بالنسبة لبوتين، الذي عنت له خسارة سوبتشاك للانتخابات، عملياً، انتهاء مهنته في سانت بطرسبورغ، على الأقل لسنوات أربعة مقبلة. وهذه ليست مهلة قصيرة لرب عائلة؛ وقبل ذلك، كانت مهنته في مجلس المدينة محطة هامة وواعدة تؤهله لقفزة ما، أو على الأقل لفرصة جديدة. ولكن باتت هذه الفرصة المفترضة هي مجرد احتمال يستوجب الانتظار.

من جهة ثانية، كانت التطورات التي حدثت في الأثناء، وعاكست بوتين أثناء وجوده إلى جانب سوبتشاك، يمكنها أن تفيده في ظروف حتمت عليه أن يعود إلى مساحة الانتظار متحرراً من الالتزام تجاه الرجل الذي قضى إلى جانبه خمس سنوات كاملة.

تمثل ذلك الظرف، باستعادة الـ«كي. جي. بي» لدورها الوازن في الدولة!

بالمقابل، كان هذا الظرف محكوماً كذلك بالقدرة على الانتظار، والصمود دون دخل وقتاً يمكن له أن يقصر أو يطول إلى سنوات، دون ضمانة محددة، أو أمل واضح. في حين كان التعويل على الانتظار في تلك السنوات العجولة، التي تتداعى فيها الأحداث يوماً بعد يوم، وتنتج التطورات فيه كل شهر واقعاً جديداً له ناسه الخاصين، يمكن أن يتحول إلى حكم أبدي، ينتهي بتلاشي كل فرصة، وأي أمل.

في الآن، لم يكن الواقع يعفيه من مواجهة استحقاقات ثقيلة..

لقد عنى خروجه من الوظيفة، كذلك، تسليم البيت الريفي الحكومي الذي كان يشغله مع عائلته، وأن ينتظر بعيداً، فانتقل بعائلته مباشرة بعد الانتخابات، إلى الضواحي، إلى منزل بناه خلال ست سنوات، ويبعد تقريباً مائة كيلومتر عن سانت بطرسبورغ.

كان منزلاً من الطوب، ولكنه مغلف بالخشب من الداخل.

عاشت العائلة هناك لمدة ستة أسابيع، أمضتها في تجهيز وتأثيث البيت، وتهيئته. ولم تكد تنتهي من ذلك، حتى احترق البيت في غمضة عين، بالكامل، لم يكن ذلك مجرد حادث، بل انهياراً كاملاً لكل مقدراتها، وخسارة لكل ما حققته طوال مرحلة عمل بوتين في مجلس المدينة.

كان ذلك صيفاً، في يوم استقبلت فيه العائلة سكرتيرة بوتين، مارينا اينتالتسوفا، وزوجها وابنتها!

وصل الضيوف بعد الظهر. وكانوا عازمين على المغادرة في نفس اليوم، ولكن بوتين وزوجته ألحا عليهما في البقاء. كانا بحاجة إلى استبقائهما، ضيوفاً عليهما في البيت الجديد، الذي لم يشهدا فيه بعد لحظة عائلية، وانقضى وقتهما فيه على العمل عليه وتهيئته..

ولتشجيع الضيفان على البقاء بدأ بوتين يسخن الساونا.

تالياً، ذهب بوتين وزوج سكرتيرته إلى الساونا، الواقعة في المنزل نفسه بالطابق الأول. بعد الاستحمام، اتجها إلى النهر، وسبحا لبعض الوقت، ثم قفلا عائدين إلى المنزل، واستقرا في غرفة الراحة. ولم يمض وقت طويل حتى سمعا بعض الطقطقة المريبة، ثم اشتما رائحة الدخان.

وفجأة كان المنزل يشتعل بالنيران!

كان حريقاً من النوع الذي تنبئ بدايته بنهايته المحتومة؛ كان واضحاً أنه أسرع من أي جهد ممكن لإخماده، وأخطر من أن يحاول المرء محاصرته. لقد ابتدأ قوياً في أماكن ليست في متناول اليد، ويرسل ألسنة لهبه لتشعل الأركان، حتى لم يعد له مصدر واضح، فبدا كأن البيت اشتعل كله، دفعة واحدة. وفي الواقع، كانت اشتعلت الساونا، ومنها انتشرت النيران وأطلقت ألسنتها تلتهم المنزل.

كان وقت تدارك الأمر قد فات فعلاً، فانطلق بوتين يصرخ مناديا الجميع ليهربوا من المنزل. كانت ابنته الصغرى كاتيا في المطبخ تتناول طعامها. سمعت صرخته المرعبة، واستجابت على الفور دون أن تدرك ما الذي يحصل. أما بوتين نفسه، فقد هرع إلى الطابق الثاني حيث يفترض أن تكون بقية العائلة وضيوفها.

هناك كانت ابنته ماشا ومارينا إينتالتسوفا قد خلدن إلى أسرّتهن. أما ابنة سكرتيرته وزوجته لودميلا ألكسندروفنا، فقد كن كذلك في الطابق الأول، لذا كان من السهل إخراجهن على الفور.

لم تكن النيران قد انتشرت بعد، ولكن الدخان انتشر في المكان، وأصبحت الرؤية معدومة، ولكن بوتين تمكن من العثور على ابنته ماشا أولاً، فأخرجها إلى الشرفة، ثم نزع الشراشف من السرير، وربطها بإحكام، وأنزلها رغماً عنها إلى الأرض، فتلقّوها في الأسفل. ثم عاد يبحث عن مارينا إينتالتسوفا، إلى أن وجدها فأخرجها بنفس الطريقة.

وهنا، تذكر أنه كان قد وضع في إحدى الغرف حقيبة «دبلوماسية» فيها كل ماله، وكل مدخراته العائلية، التي كان يعتمد عليها في الظرف المهني العصيب الذي كان يعيشه وقتها. فعاد للبحث عنها، وسط النيران والدخان والغازات المتطايرة، ولكنه لم يعثر عليها، وحينما بدأ يشعر بأنه سيفقد الوعي، عاد إلى الشرفة وقفز مستعيناً بحبل الشراشف ذاته.

وحينما قفز، تذكر تفصيلاً صغيراً: لقد كان قبل أن يبدأ الحريق في غرفة الراحة الملحقة بالساونا، يستر نفسه بفوطة، ويبدو أنها سقطت عنه بينما كان يحاول إنقاذ النسوة، وها هو يقفز بين أفراد عائلته وضيوفها، دون أن ينتبه، عارياً تماماً، وكما ولدته أمه!

ولم يكن ذلك أمراً ملفتاً حقاً، ففي إثره انفجرت النيران.

احترق المنزل بالكامل، وأتى الحريق على كل شيء كان فيه، ما عدا البشر. على أن القول إن كل الناجين من الحريق سلموا منه لن يكون صائباً بحال من الأحوال؛ فقد كان تأثير الحريق على العائلة أسوأ من الحريق نفسه. وزيادة على ذلك، كانت العائلة قد جمعت في البيت كل ما تملك، ليحترق في لحظة واحدة..!

وبالنسبة لبوتين بدا أن هذا الحريق ليس الأول الذي يمر به وعائلته فيه ذلك العام.

تمثل الحريق الأول في الحادثة التي حطمت حياة زوجته لودميلا ألكسندروفنا، وغيرت طباعها، وحولتها إلى إنسان آخر تماماً، يهرب من الحياة العامة والاختلاط بالآخرين، إلى درجة اهتزت معها الأسس الراسخة المستقرة لعلاقة الزوجين.

الحريق الثاني، كان بظهور نتائج اصطفاف الأجهزة الأمنية إلى جانب يلتسين خلال تمرد 1993، ذلك الاصطفاف الذي قاد إلى وضع بدا فيه هو نفسه يجاهد بالحبو على ضفة النهر، بينما كان اعتاد السباحة في المجرى نفسه، وأن تحمله مياه النهر في وجهتها.

الحريق الثالث، خسارة الانتخابات في سانت بطرسبورغ، التي كشفت أنه بعيد أكثر مما يتصور عن مجرى النهر، وبالتالي، فإن آماله بالقفز إلى المجرى ثانية، قد لا تكون ممكنة التحقق.

الحريق الرابع، هو حريق المنزل، وخسارته لكل الظروف التي أعدّها لتمكنه من تحمل فترة الانتظار المتوقعة، في تلك المرحلة الصعبة، التي كانت قد بدأت للتو!

بمواجهة هذا الحريق الرابع، بات بوتين أكثر ضعفاً من أن يخلد إلى الانتظار. وتحولت خياراته المحدودة إلى فرص عديمة الرجاء في جولة من «الروليت»،

المليئة بالاحتمالات التي تهدده بالخروج نهائياً من اللعبة، خاسراً كل شيء.

وتحمل البقاء في هذا الموقف، الذي يصفه بوتين بـ«الصعب»، أمر يثير الاستغراب..

أولاً؛ لأن بوتين خلال عمله في مجلس المدينة، كان يسيطر عملياً على قطاع اقتصادي هام ممثل بالبنوك والمناطق الحرة وقطاع التجارة الخارجية والاستثمارات الأجنبية، وهذا يعني على الأقل أنه يستطيع ضمان نفسه ببساطة في القطاع الخاص، فلماذا الإصرار رغم صعوبة وضعه على انتظار «فرصة ما»، متجاهلاً الفرص المغرية المتوفرة.

ثانياً؛ لم يظهر مع بوتين حينها، ولا في حياته، قدر كاف من المال يتناسب مع ما أثير حوله من ملفات فساد تفترض أنه تورط بشراكات وحصص ومعاملات تجارية، وخلافه؛ خصوصاً أنه من غير المرجح أن تكون تلك «الحقيبة الدبلوماسية» قد حوت من المال ما يزيد على قيمة البيت الريفي المحترق، الذي لا يتطلب بناؤه كلفة كبيرة في مطلع التسعينات.

وعملياً، يمكن التسليم بأن تلك «المدخرات» والبيت نفسه وُفِّرا بأنواع من العوائد «غير المشروعة المباحة» في ظروف ذلك الوقت، إلا أنهما لا يرقيان إلى مستوى ملفات الفساد التي راج حديث حول ضلوعه فيها، ولكنهما يفسران لماذا كان دخله الأكبر يأتي من الـ«كي. جي. بي»، لا من عمله في مجلس المدينة.

وهنا، يبرز سؤال بشأن ما أثير حول بوتين من ملفات فساد: أين عوائدها المالية التي كان لا بد أن يلجأ إليها في مثل هذا الظرف، وأين شبكة العلاقات والمؤسسات التي يفترض أنها كانت تدار بواسطته، لتعينه وتحتضنه في محنته..!؟

أم هل كانت هذه مجرد ملفات «مهنية»، وجزءاً من «عهدة» الوظيفة..!؟

موسكو تنادي

كان من المتوقع أن يدفع بوتين ثمن وجوده جانب سوبتشاك، الذي كان، بشخصه وشخصيته، إشكالياً، ويمثّل مشكلة!

كان سوبتشاك إنساناً عاطفياً، مندفعاً، كثير الارتجال، واثقاً بكفاءة عقله، وسلامة أفكاره. وهذا كله، كان يقوده غالباً، لأن يكون في الجهة غير المناسبة.

ومن جهة ثانية، كان يحبّ دائماً أن يكون في مركز الاهتمام، ومحط انتباه الآخرين، وأن يتحدث عنه الناس، أياً كانوا، ولأي سبب كان. وببساطة، لم يكن يهتم بالاهتمام نفسه، ولكنه لا يعبأ بنوعه؛ وبالنسبة له الأمر سيّان سواء أكانوا يشتمونه أو يمدحونه؛ وهذا ما كان يغريه غالباً بإطلاق تصريحات حادّة، بلا حساب.. وكان يكتسب العداوات كذلك بلا حساب!

وكان بوتين يكتسبها معه، بالتوازي والتساوي، ولا يهمّ هنا، أن انضمامه إلى سوبتشاك لم يكن قراراً شخصياً؛ فقد كان عليه أن يدرك في لحظة ما أن الضوء الأخضر الذي تلقّاه كان قد انطفأ، وحلّ محله ضوء أحمر يومض محذراً بسرعة!

وكان البقاء في سانت بطرسبورغ، بحد ذاته، قد أضحى موقفاً، موقف له ثمنه الباهظ، إذ أن ثمة شيء ما كان يتشكل في موسكو، ويُعرض عليه خياران: إما أن يكون هناك، في موسكو ومعها، أو أن يخرج من الحياة العامة منبوذاً تماماً. ولم يكن ذلك مجرد خيار شخصي يفكر ويقرر فيه، بل سؤالاً يجب أن يقدِّم عليه إجابة عملية واضحة!

أن يكون هناك، ذلك على الأقل يعني أن لا مشكلة لديه مع موسكو، وأنه لا يعاديها، ولا يراهن على معارضتها. بينما البقاء في سانت بطرسبورغ، يؤشّر على عكس ذلك.

وموسكو، التي لا تصدِّق الدموع، لا ترحم!

كان هذا السؤال قد أصبح ملحاً، إلى درجة لا يمكن معها لبوتين أن لا يلاحظ أن الناس من حوله في سانت بطرسبورغ، وزملاءه السابقين في الـ«كي. جي. بي»، كـانوا يقـدّمون واحــداً بعـد الآخـر إجاباتـهم الواضـحة على هـذا السـؤال.. ويتسرّبون إلى موسكو، واحداً في إثر الآخر، يوماً بعد يوم!

وفي الواقع، لم يكن بوتين عاجزاً عن الإجابة على هذا السؤال، أو غير راغب في تقديم تلك الإجابة الواضحة الصريحة عليه، ولكنه كان يعجز تحت ضغط الحرائق عن الالتفات إليه.

وفـي الـواقع، أيضـاً، لـم يكـن لـديه شـيء سـوى ذلك، يؤخّره عن إعطاء تلك الإجابة!

نعـم، كـانت علاقتـه بموسـكو تحتكـم للمـوقف التقليـدي، الـذي يحتفـظ بـه اللينينغراديون وأهالي سانت بطرسبورغ تجاه العاصمة، الواقعة على ملتقى تيارات هوائية جارفة، فلا تستقر على حال، ولا تستسلم لمزاج بعينه، وتبدو دنيوية تماماً، مستغرقة بالمعاني المادية النفعية!

ولكن، بالمقابل، سيكتشف بوتين لاحقاً أن موسكو بالذات تحيي فيه صفات ونزعات قوية في شخصيته، كانت سانت بطرسبورغ، على الدوام، وفي كل حالاتها تحد منها، وتحجّمها؛ وهي القوة، والحزم، والإرادة المستقلة المفردة، وعدم التردد في استخدام السلطة! وأنها، من حيث لا يدري، المكان الذي يجد فيه نفسه!

ومع ذلك، اضطر بوتين للانتظار بضعة أشهر بعد خسارة الانتخابات في سانت بطرسبورغ. كان ما يزال بلا عمل، فكان لا بد من إعطاء إجابة على السؤال، ففعل. ولكن لم تأت ثمار ذلك بالسرعة المتوقعة، وبقيت العلاقة مع موسكو غير مفهومة: مرة يقولون أنهم يريدونه في مكان ما، ومرة ينسونه.

ولم تعد الأمور إلى وجهتها دون تدخل أطراف صديقة وزميلة!

عل إثر تلك التدخلات تلقى بوتين دعوة للالتحاق بالإدارة الرئاسية في موسكو. كان عرّاب تلك الدعوة هو مدير مكتب الرئيس بافل بورودين، الذي لم تكن علاقة بوتين به تتعدى بضعة لقاءات خاطفة، لم يكن من المأمول أن تؤسس لشيء، أو يُبنى عليها أمل ما، ما يثير سؤالاً حول ما الذي ألزم مدير مكتب الرئيس باللينينغرادي المجهول بوتين!؟

كان بورودين قد تحدث آنذاك عن بوتين مع رئيس الإدارة الرئاسية، نيكولاي إيغوروف. فدعاه هذا إلى موسكو وعرض عليه أن يصبح نائبه. ووضع أمامه مشروع المرسوم الرئاسي بتعيينه وأخبره أنه سيوقّعه في الأسبوع التالي من يلتسين، ثم يباشر العمل.

وافق بوتين على الفور، وسأل:

- حسناً، ماذا سأفعل؟

قال:

- عد إلى سانت بطرسبورغ، وسوف نقوم بالاتصال بك.

وعاد إلى سانت بطرسبورغ، وبعد يومين فقط أو ثلاثة تمت إقالة إيغوروف من منصبه، وعين يلتسين مكان رئيس الإدارة الرئاسية المُقال أناتولي تشوبايس. وكان أول ما فعله تشوبايس هو إلغاء تلك الوظيفة التي كان عرضها سلفه على بوتين، ولذلك لم يذهب إلى موسكو.

مرّ بعض الوقت. وشُكّلت حكومة تشيرنوميردين الجديدة، وكان نائبه الأول أليكسي بولشاكوف، وهو من سانت بطرسبورغ، وهنا تتضح الأمور، فقد تبين لاحقاً أن بولشاكوف كان قد قال لبورودين خلال حضورهما حفل استقبال:

- ما الذي دهاك؟ وعدت الرجل بوظيفة، ثم تركته ينتظر، إنه يجلس بلا عمل.

بدا الاستياء على وجه بورودين، وقال:

- لم أكن أنا من نسيه.. صديقك تشوبايس هو من أفسد الأمر.

فقال بولشاكوف:

- حسناً إذن، خذه للعمل معك.

فقال بورودين إنه يعتقد أن بوتين لن يقبل العمل معه لأنه تعود على نوع آخر من الأعمال.

فأصر بولشاكوف:

- إذن، فكر بشيء ما.

وافترقا على هذا. وعد بورودين أن يفكر بشيء لبوتين، وبالفعل فكر.

ذات يـوم، تلقى بوتين اتصالاً من زميله السابق في بلدية لينينغراد، ألكسي كودرين. كان في ذلك الوقت رئيس مديرية الرقابة في مكتب الرئيس. وأسمعه كلمات قليلة، ولكنها حاسمة:

- تعال إلى موسكو، لنرى ما يمكننا فعله. الوظيفة الأولى ألغوها، ولكن هذا ليس كل شيء.

طار بوتين إلى موسكو. والتقى كودرين. وتحدّث هو بدوره مع تشوبايس، الذي عرض عليه، قبل مغادرته في اجازة، رئاسة مكتب العلاقات العامة في الرئاسة. لم تكن هذه الوظيفة تروق لبوتين. ولكن ليس بوسعه أن يرفض، فالأمور أكثر حساسية من التعامل مع الأمر باعتباره مجرد عرض عمل، فوافق.

كان على بوتين أن يعود إلى سانت بطرسبورغ، ابتداء، قبل أن يباشر العمل، فركب مع كودرين في سيارته وتوجها إلى المطار.

في الطريق قال له كودرين:

- اسمع! دعنا نهنئ بولشاكوف، إنه بلدياتنا، من سانت بطرسبورغ، وأصبح

النائب الأول لرئيس الوزراء.

لم يكن لدى بوتين سوى الموافقة على هذا العرض؛ فاتصلا مباشرة من السيارة ببولشاكوف. فأوصلوهم به، وكان كودرين بوصفه رئيس إدارة الرقابة بمكتب الرئيس، موصول مع جميع الأرقام الأولى في السلطة.

هنأ كودرين بولشاكوف بمنصبه الجديد، وقال له:

- هذا فلاديمير بوتين معي هنا يهنئك بالموقع الجديد.

طلب بولشاكوف على الفور الحديث إلى بوتين، وبادره على الفور:

- أين أنت؟

أجابه متردداً:

- في السيارة مع ألكسي، وأتجه إلى المطار لأعود إلى سانت بطرسبورغ.

سأله بولشاكوف متعجلاً:

- وأين كنت؟

قال:

- في الكرملين. لقد حلّوا مسألة توظيفي. سأكون رئيس قسم العلاقات العامة.

قال بولشاكوف بغير ما رضى:

- اتصل بي بعد ثلاثين دقيقة.

وأنهى المكالمة.

كانت السيارة تقترب من المطار، بينما موعد الطائرة يقترب، ولكن كان عليه الانتظار. وبعد مرور الوقت، حاول الاتصال ببولشاكوف، لكن ذلك كان متعذراً.

وفقط في اللحظة الأخيرة، وبينما كان يهمّ بالتوجه إلى مدخل الرحلة، قرّر كودرين أن يحاول مرة أخيرة، فتمكنا من الوصول لبولشاكوف، الذي قال له:

- مهلاً! لا تسافر! هل يمكنك البقاء؟ إذاً، اذهب غداً إلى بورودين.

لم يكن يدرك ما كان يحدث، ولكنه بقي.

كان بوتين قد عرف ألكسي بولشاكوف خلال عمله في سانت بطرسبورغ. كان نائباً أول للجنة التنفيذية لمجلس مدينة لينينغراد. لم تكن علاقاته مع سوبتشاك على ما يرام، فعمل الأخير على إخراجه من عمله. ولم يكن ليخطر على بال أحد أنه بعد بعض الوقت سيصعد من جديد، ويحتلّ منصباً بهذه الأهمية في موسكو.

في الصباح ذهب بوتين إلى بورودين، فعرض عليه وظيفة نائب له.

حدث هذا في شهر آب عام 1996، فبدأ بوتين العمل في موسكو بوظيفة نائب مدير مكتب الرئيس. أشرف على القسم القانوني والممتلكات الروسية في الخارج، التي يبلغ عددها أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة موقع تتوزع على مئة وعشرين بلداً، وتتكون في غالبيتها من المباني والمرافق العامة التي تخدم البعثات الدبلوماسية في الخارج، إلى جانب ممتلكات الكنيسة الروسية في فلسطين، وحصص في ما يزيد عن سبعين شركة أجنبية.

حكم الأقاليم

في موسكو، بات بوتين يترقّى ويتقدم مرّة كل عام، وأحياناً مرتين وثلاث مرات في العام الواحد؛ وعنى هذا ببساطة أنه وجد مكانه أخيراً بين مجموعات دوائر الحكم في موسكو. وهو ما يؤكد أن الأيدي الصديقة التي انتشلته من مأزقه في سانت بطرسبورغ أدت دورها في رعايته.

وفي الواقع، لم تكن الأمور سلسة تماماً، أو دائماً!

كانت هناك لحظة قرّر فيها بوتين مغادرة الإدارة الرئاسية. حدث ذلك في الوقت الذي كان يعمل فيه بمديرية الرقابة بالرئاسة. لم تكن هذه الوظيفة، واعدة، رغم أهميتها. بل على العكس، كانت تبدو كمنفى، ومكاناً للعزل والتجميد. ولحسن حظه، فإنه عُيِّن، في ذلك الوقت الذي كان يفكر فيه بترك العمل، نائباً أول لرئيس الإدارة الرئاسية لشؤون الأقاليم.

في هذا المنصب يستعيد بوتين معنوياته وهمته العالية..

على الفور بدأ الاتصالات مع حكام المناطق والأقاليم، مراجعاً لهم في شؤون مناطقهم، ومتابعاً لالتزاماتهم، ومتقصياً واقع مجتمعاتهم المحلية؛ فتحولت إدارة شؤون الأقاليم في الرئاسة إلى مقر قيادة مباشر يدير الشؤون المحلية.

وبالنسبة لحكّام المقاطعات، الذين أعطاهم إهمال موسكو لمناطقهم الفرصة في انتزاع استقلالية نسبية، وندّية في التعامل مع السلطات الفيدرالية في المركز، إلى جانب بعض السلطات السيادية مثل إقامة العلاقات التجارية المستقلة مع الدول الخارجية، جاء ظهور بوتين بأسلوبه الذي يتميز بالمتابعة الحثيثة، والإصرار على فهم أدق التفاصيل، مربكاً، وسيراً في اتجاه معاكس للواقع الدستوري الذي كان فُرِض في سياق سعي «ديمقراطيي» موسكو للتخلص من نظام الإدارة المركزي، الذي اعتبروه نظاماً سوفيتياً عتيقاً، لا يتماشى مع «عصرهم».

وفي الواقع، كلما كان بوتين ينجح في فرض صلاحيات منصبه على حكام الأقاليم، كلما نجح في إعادة بسط سلطة موسكو على الأراضي الروسية؛ وهذا في ذلك الوقت عنى شيئاً بالغ الأهمية: ضمان نفاذ القوانين والقرارات التي تقرها موسكو على كامل الأراضي الروسية؛ وتالياً، إعادة الأمور إلى نصابها السليم في العلاقة بين المركز والأقاليم.

في أواسط التسعينات، أدّت الاستقلالية النسبية للأقاليم إلى نشوء نوع من المعارضة الخطرة على وحدة الأراضي الروسية؛ فقد تحوّل حكام الأقاليم إلى نوع من المعارضة السياسية القائمة على استخدام السلطات الإدارية في المواجهة مع المركز في موسكو، ما أوجد بيئة صالحة لنمو الحركات الانفصالية. بينما جاء بوتين بأسلوبه «السوفيتي» الخاص في الإدارة، ليضع من جديد رفض وتجاهل حكام الأقاليم لسلطة موسكو في خانة التقاعس عن أداء الواجبات والعصيان.

وهنا، لعبت خبرات بوتين السابقة في التعامل مع الحكام المحليين دوراً حاسماً في نجاحه؛ كان يعرف كيف يتعامل مع قادة الأقاليم؛ فتفاهم مع من أمكن التفاهم معه من أصحاب المواطنة الحقيقية، أو المطالب التنموية والاجتماعية المتعلقة بالإجحاف الذي تتعرض له أقاليمهم، واستقطب من كان يمكن استقطابه. ومن لم يتسن استقطابه عُرِّض لضغط لا يحتمل، أو جعله يختار بين الانصياع ورفع الحماية عنه.

لم يكن هذا العمل ممتعاً بالنسبة لبوتين فقط، ولكنه كان يوفّر الخبرات اللازمة لتثبيت نفسه في الإدارة، وبناء النفوذ اللازم ليستعيد أهميته كرجل تتوافر لديه المعرفة والخبرة والقدرة على حل المعضلات والمشاكل المستعصية. وتتيح له كذلك، أن يعود ليكون حصاناً رابحاً، قادراً على ملء أي مكان. والأهم، أنه كان يمثل فرصة في اثبات جدارته بالانتقال في الإدارة الرئاسية من درجة موظف إلى.. سياسي.

وكان هذا المنصب مهماً للغاية، رغم أن شاغليه السابقين لم ينتبهوا لأهميته، ولم يستطيعوا التعامل مع استحقاقاته، ولم يجيدوا استثمار ممكناته الواعدة؛ إذ أن العمل مع قادة الأقاليم والمناطق والتعامل بقضاياها ومشاكلها، كان في تلك الفترة من أهم الأنشطة في البلاد، وأكثرها تأثيراً على مستقبل سياسيي موسكو؛ ليس فقط لحجم وأهمية تلك الأقاليم والمناطق من الناحية الاقتصادية، ولكن أيضاً لأن هيئات الحكم المحلي باتت تؤثر على نحو قوي في الاصطفافات السياسية في العاصمة.

كانت سلطات الحكم المحلي تمثّل العمود الفقري للسلطة، وكان مكسوراً، وكل فقرة فيه تعمل وحدها. ما مثّل بالنسبة لبوتين في الفترة المحدودة التي مكث فيها في هذا المنصب فرصة ذهبية ليدرك أهمية هذا الوضع في تحديد مصير أي طموح سياسي.

ولم يتأخر في العمل على ذلك!

أمضى الأشهر القليلة التي قضاها في هذا الموقع، يبحث عن القواسم المشتركة مع الأقاليم، ونقاط التأثير الفعالة عليها وعلى قادتها. وكانت تساعده في ذلك الرغبة والإرادة، وخبرة عمل جيدة جداً بالمعنى الإداري والاقتصادي في سانت بطرسبورغ.

وعملياً، في ذلك الوقت بالذات، وفي تلك الوظيفة تحديداً، بنى بوتين شبكة علاقات واسعة مع الحكّام الإداريين في أرجاء أقاليم روسيا الواسعة. وكانت هذه العلاقات معزّزة بمعرفة دقيقة وتفصيلية بالمشاكل التي تعانيها المناطق والأقاليم، وبالأهمية التي كانت للأقاليم الروسية بالمشهد السياسي في موسكو، وبكثرة مشاكلها المستعصية والمزعجة، وبالقوة التي يمتلكها قادة الأقاليم مجتمعين. بات اسم بوتين «المجهول» يتردد في الإدارة الرئاسية كقطب حيوي غريب، ومدهش في بسط سلطته ونفوذه في تلك المساحة المستعصية، التي اعتاد سياسيو موسكو التعامل معها بالاسترضاء

والاستجداء.

لقد تحول إلى ما يشبه الحاكم العام للأقاليم الروسية!

في تلك الأيام، ظهرت أهمية أسلوب بوتين في إدارة موقعه في الإدارة الرئاسية لشؤون الأقاليم في الأزمة التي نشبت بين الحكومة وعمال المناجم، الذين أضربوا مطالبين بصرف رواتبهم وإعادة بناء مؤسساتهم وإبقاء المناجم القديمة دون إغلاق. في ذلك الموقف، الذي استحال إلى برميل من البارود يهدد بانفجار اجتماعي شامل، تحول بوتين في نظر رؤسائه إلى طاقة فعالة واعدة. وهذا لفت الانتباه إليه على مستوى كل المنهمكين بمعالجة الأزمة، وصولاً إلى الرئيس نفسه.

وكان هذا يعني أنه سيستقر في منصبه لفترة أطول، ولكنه اضطر لمغادرته أسرع مما هو متوقع!

تم تعيينه مديراً لجهاز الأمن الفيدرالي «في. إس. بي» (الـ«كي. جي. بي» سابقاً). وحسب ما يقول بوتين، فإن ذلك لم يكن بإرادته، حتى أنهم لم يستمزجوه، ولم يسألوه إن كان يقبل أم لا، لا صراحة ولا حتى تلميحاً.

وقّع الرئيس المرسوم وتم إعلانه وانتهى..!

بوابة مناسبة

بعد عامين من الانتخابات الرئاسية، عزل يلتسين رئيس الوزراء فيكتور تشيرنوميردين من منصبه، وكانت هذه مفاجأة معتادة في أسلوب إدارته للدولة، إلا أن الخطوة نفسها مثّلت منعطفاً خطراً على زعامته ونظامه ككل؛ فمعها دخلت روسيا دوامة الأزمات المالية والسياسية الحادة.

يقول يلتسين في كتابه «الماراثون الرئاسي»: «في ربيع العام 1998، اتخذت القرار النهائي: على رأس الحكومة يجب أن يكون هناك شخص آخر. وأن الساعة حلت لإقالة فيكتور ستيبانوفيتش تشيرنوميردين».

ويواصل: «ميزة تشرنوميردين الرئيسية هي قدرته الفريدة على التوصل إلى حلول وسط، قدرته على التوفيق بين الجميع. والحل الوسط الرئيسي، الذي مكن تشيرنوميردين من البقاء في منصبه كل هذه السنوات، هو ذلك الحل الوسط بين اقتصاد السوق ونظام الإدارة السوفيتي».

ولا ينتهي حديث يلتسين دون الإشارة إلى الأسباب الحقيقية التي تقف وراء هذه الخطوة، فيقول: «هناك سب[illegible]ر، سياسي بحت: لن يتمكن تشيرنوميردين من السيطرة على البلاد بعد مغادرتي في العام ألفين. لهذا، هناك حاجة إلى رجل أقوى وأصغر سناً، وهذا هو الاعتبار الرئيسي».

وإذا كانت تنقص هذه الصراحة بعض التفاصيل، فإن يلتسين لن يبخل بها، ويوردها بطريقته الخاصة.

يقول في كتابه «الماراثون الرئاسي»: «في الأشهر الأخيرة من العام 1997، أصبحت علاقات تشوبايس مع وزير الداخلية أناتولي كوليكوف صعبة بشكل خاص. كان الأخير عدواً نشطاً للخصخصة، بل والاقتصاد الليبرالي بأكمله، تحدث أكثر من مرة في اجتماعات الحكومة! لم ينتقد فقط الإصلاحات الاقتصادية، ولكن أيضاً وجه اتهامات مفتوحة: سياسة الإصلاحيين الشباب

تعزز نهب البلاد، وتقود إلى انهيارها، وتحول الشعب إلى فئتين: متسولين ومجرمين. وكان تشوبايس يردّ عليه بنفس الحدة».

ويضيف:

«وفي مرحلة ما، أدركت أنه يجب إنهاء هذا التصعيد المتزايد. وزير الداخلية لم يناسبني على الإطلاق في دور المنقذ الرئيسي للاقتصاد. من ناحية أخرى، يبدو أن تشوبايس ارتخى تدريجياً. وهو رغم أنه ما يزال منظر الإصلاحات الأول، ولكنه لم يستطع أن يكون محركاً لها. وكنت بحاجة إلى «محرك». لذلك نضجت الفكرة: بإقالة حكومة تشيرنوميردين، أتخلص معه من نائبيه معاً: تشوبايس وكوليكوف».

عملياً، كان يلتسين ينقلب على الاستقرار الحكومي، أما السبب المباشر فكان في الحقيقة هو محاولة التحرر من التزامات الحملة الانتخابية، واستعادة ملف التوريث، وإعداد خليفة له إلى يده؛ فقد كان هذا الملف، قد تحول أثناء الانتخابات إلى ملف عام يديره تشوبايس، الذي على ما يبدو وجد طريقه للتفاهم مع رئيس الوزراء بهذا الشأن.

لهذا، يتخلص من «تشيرنوميردين، ومعه من نائبيه معاً: تشوبايس وكوليكوف»!

ويصل يلتسين في روايته إلى يوم السبت، الحادي والعشرين من آذار، حينما جاءه رئيس الوزراء فيكتور تشيرنوميردين لمناقشة بعض الملفات الحكومية، وعلى رأسها الأجور المتأخرة والصعوبات الناجمة عن تنفيذ الميزانية. فيخوضان في حديث «صعب»، يشير إليه بـ«المحادثة غير العادية ولا السعيدة».

في تلك المحادثة، ينتشل يلتسين نفسه من التفاصيل التي أغرقه بها رئيس الوزراء، ليقول له:

- فيكتور ستيبانوفيتش، أنا غير راض عن عملك.

- بأي معنى، بوريس نيكولايفيتش؟

سأل رئيس الوزراء، الإداري القديم والخبير، موجهاً إلى يلتسين نظرة ثابتة بانتظار توضيح. ولمّا لم يأت مثل هذا التوضيح، جمع أوراقه وقال:

- سأفكر بذلك، بوريس نيكولايفيتش.

وخرج متثاقلاً.

لا يغفل يلتسين ذكر الأسباب الشخصية المحدّدة، وإن كان يوردها من باب النفي، فيقول: «لقد كتب الكثير عن الغيرة التي يفترض أنها تزداد لديّ تجاه تشيرنوميردين، الذي يبدو أنه يلقى ترحيباً حاراً جداً في الولايات المتحدة كرئيس مستقبلي. في الواقع، كل شيء كان عكس ذلك تماماً؛ إذ كنت أعتقد حقاً أن تشيرنوميردين يمكن أن يصبح الرئيس في المستقبل، وأنه قادر على إجراء إصلاحات مؤلمة وغير شعبية في المجال الاجتماعي، وتحقيق انفراجة اقتصادية، وكان يسرني أن أساعده في ذلك. لكني رأيت أن تشيرنومردين لن يفوز بالانتخابات».

مرة أخرى، ملف «الوريث الرئاسي» في صلب وجوهر الخطوة!

يكشف يلتسين كذلك إنه كان يستعد لإقالة تشيرنوميردين «تدريجياً، بعناية»، منذ وقت. ومن المرجح أن ذلك بدأ بعد الانتخابات الرئاسية الثانية، وقبل عام على الأقل من حدوث الإقالة. وهذا يؤكد أن خطوات يلتسين خلال كل تلك الفترة تركزت على استعادة ملف «التوريث الرئاسي»، ما يعني عملياً أنه لم يكن قد استسلم نهائياً لفكرة مغادرة الحياة السياسية، بدليل كل هذه المناورات، الكبيرة والصغيرة على حد سواء.

لذلك، بالذات، كان عقل يلتسين متركزاً على فكرة أساسية هي أن «رئيس الوزراء الجديد يجب أن يكون، كما يقولون، تكنوقراط. وهكذا، توصلت لاختيار

سيرغي كيريينكو».

كان يلتسين يعتقد أنه مع رئيس وزراء تكنوقراط، سيخرج من دوامة السياسيين، الذين استقر عقلهم ووجدانهم على ضرورة انسحابه من الحياة السياسية، ويركزون جهودهم على تهيئة الظروف أمام هذا السيناريو.

ويغدق يلتسين الثناء على سيرغي كيريينكو، الذي كان عمل لعدة أشهر نائباً أول لوزير مجمع الوقود والطاقة، قبل أن يُعيّن وزيراً. ويقول: «في الحديث معه أعجبني أسلوب تفكيره السلس، الصارم، المتسق تماماً. إنه صاحب عقل عنيد جداً وعملي، عيون يقظة وراء النظارات المستديرة.. هذا جيل آخر من المديرين العظام، مسؤول شاب».

ومن اللافت، أن هذه الصفات كلها ستخون رئيس الوزراء الشاب بعد أشهر قليلة، وسيتضح أنها ليست حاضرة لديه بالقدر الذي يستدعي كل هذا الثناء. بل على العكس من ذلك، بدا في اللحظة الأكثر حراجة مجرد موظف صاحب شخصية ضعيفة، لا حول له ولا قوة. وأكثر من ذلك، ثمة انطباع قوي أن ضعفه وعقلية الموظف لديه هي ما قاد إلى كارثة انهيار الروبل في عهده.

هل كان يلتسين لا يحسن تقييم الأشخاص، أم أنه كان وحسب، يروّج لخياره بما ليس فيه؟!

من المؤكد أن ما كان يلفت نظر يلتسين في شخصية سيرغي كيريينكو، وما دعاه إلى اختياره لرئاسة الحكومة هي ميزات أخرى لا علاقة لها بكل ما ذكره من صفات غير موجودة؛ ليس أسلوب التفكير السلس والصارم، المتسق تماماً، ولا العقل العنيد والعملي. ولكن لأن «ميزته الرئيسية أنه خال تماماً من الارتباطات بأي مجموعة سياسية أو مالية».

أي، كان يريد رجله الخاص. لذا، يقول إنه بنتيجة إدراكه لميزة كيريينكو الرئيسية، هذه، أيقن أنه لم يعد لديه سبب للتردد، ويقول بنشوة من حقق نصراً:

«لم يعد لدي الحق في الانتظار. لذا، كل خصومي الحاليين، بدءاً من الشيوعيين وليس انتهاء بالأوليغارش، لن يتوقعوا مثل هذه الخطوة باختياري كيريينكو، أن أعطي فرصة أخرى بالقيادة للصف الثاني من الفريق الشاب، وفي نفس الوقت أعزّزه وأقويه، إذ جنباً إلى جنب مع كيريينكو سيأتي أشخاص جدد شباب بكل تأكيد».

بهروب يلتسين إلى الأمام نحو تجديد فريقه عبر حكومة شباب وأشخاص جدد، يكون قد فتح البوابة المناسبة لعبور بوتين، من مجتمع الوظيفة إلى عالم السياسة!

في نفس المساء الذي التقى يلتسين فيه بتشيرنوميردين، طلب من أركان إدارته إعداد وثائق إقالة الحكومة.

بحلول يوم الاثنين الثالث والعشرين من آذار، الساعة السابعة صباحاً، دخل سيرغي كيريينكو مكتب الرئيس في الكرملين، وأبلغه يلتسين اختياره له لرئاسة الحكومة، ولم يكن أمام الوزير الشاب ما يقوله، واكتفى لدى سؤاله عن موقفه من هذا التعيين أن قال:

- أنا أوافق، إذا كنتم تريدون يا بوريس نيكولايفيتش.

في الساعة الثامنة، وصل رئيس الوزراء فيكتور تشيرنوميردين، الذي كان حُدّد موعد مسبق له، وأُبلغ بإقالته، ولم يناسبه القرار على نحو بالغ. كان قد قال للرئيس خلال لقائهما قبل يومين أنه سيفكر، وها هو يلتسين الذي أوحى إليه أن الأمر ليس مستعجلاً، يقيله.

يختصر يلتسين الحديث حول ردة فعل تشيرنوميردين لدى تلقيه خبر إقالته بالقول إنه «تلقى خبر إقالته على نحو صعب. اضطرب تماماً»، ويشرح كثيراً أن رئيس الوزراء المقال كان رجلاً مخضرماً، وسياسياً من وزن ثقيل، وصاحب شخصية قوية، وبالطبع من المعروف عنه جرأة لسانه.

لذا، فإن الحديث الذي يدور حول هذا اللقاء ويوصف بالصعب، يجد مكانه في حقيقة أن رئيس الوزراء المقال، كان أنقذ يلتسين مرات متتالية، ولعب دوراً أساسياً في إسناده ودعمه منذ عام 1993، وكان من المتوقع، وربما المتفق عليه، أن تؤول إليه الرئاسة.

لم يجد يلتسين في ذلك اللقاء ما يقوله سوى التكرار:

- يلزمنا جيل آخر، فيكتور ستيبانوفيتش! جيل جديد!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل راح يلتسين يحاول إقناع رئيس وزرائه المقال بأنه لم يعدل عن ترشيحه للرئاسة في الانتخابات المقبلة، واندفع يؤكد له كذباً:

- ما يزال هناك وقت على الانتخابات الرئاسية، فيكتور ستيبانوفيتش، ولكنه ليس طويلاً بما يكفي لتؤجل الاستعداد لها، عليك أن تركز على هذا!

ولا يجد يلتسين غضاضة في أن يروي هذه الحادثة التي تتضمن واقعة كذب صريح اقترفه، بل أنه يختتم سرده لهذه الواقعة، بقوله: «فيكتور ستيبانوفيتش وفيّ ومحترم ونزيه وذكي. ولكن لا، لن يكون رئيس روسيا في العام ألفين!».

الطريف أن يلتسين في هذا الفصل من كتابه كان كالعادة يحاول أن يبدو «شريفاً وصادقاً»!

تعيين مفاجئ

كانت الخطوات المفاجئة هي التكتيك الذي يلجأ إليه الرئيس يلتسين لمواجهة الأزمات الداخلية. وفي العام 1998، كانت أوساط الحكم قلقة من العوارض الصحية التي عاودت الظهور على الرئيس، بينما انكبابه المهلك على تعاطي الكحول كان يفقده ناصية الإدراك السليم؛ لذا، عاودت الظهور بقوة فكرة تنحي الرئيس طوعاً لصالح خليفة يتم تجهيزه مسبقاً. وقد كانت الظروف الكارثية التي تعيشها البلاد والأزمات المتفاقمة وسلوك الرئيس، مقابل الأغلبية الساحقة في مجلس الدوما، يشجعان المعارضة على طرح قرار بحجب الثقة عن الرئيس وعزله.

وبهذا، فإن إقالة تشيرنوميردين، البديل الجاهز، الذي تموضع بين فريقي المعارضة والحكم، لعقد صفقته الخاصة مع من ينجح منهما في فرض إرادته، كانت خياراً لا بدّ منه للرئيس الذي يحاول معاندة الواقع السياسي، ومحاولات إخراجه من المعادلة.

وكان يدرك أنه وبهذه الإقالة: يكون قد قطع الطريق على أوساط الحكم، الذين شجعهم وجود تشيرنوميردن، كبديل جاهز، على التفكير بدفعه للتنحي قبل انقضاء مدته، ويكسب وقتاً أمام المعارضة التي ستتريث إلى حين أن تعقد صفقتها مع رئيس الوزراء الجديد، في حال كان صالحاً لمثل هذه الصفقة.

وبهذا، جاء تعيين كيريينكو، الشاب، مصمماً على وجه التحديد لـ«يفاجئ» كل من يفكر بإخراجه من المشهد. أما «شباب» رئيس الوزراء الجديد، فقد كان ضمانة تعني بُعده عن أحابيل الكواليس السياسية؛ وهذا النوع من «الشباب» بات عاملاً مطلوباً في أكثر من موقع، ووجّه اهتمام يلتسين نحو فئة معينة من المسؤولين والموظفين..

ولم يَطلُ الوقت، حتى وصل هذا الاهتمام إلى بوتين نفسه!

كان بوتين، حينها، يجلس في مكتبه يزاول عمله الاعتيادي مع المناطق، وكان يتضمن الكثير من الاتصالات مع الحكّام المحليين. رنّ الهاتف على مكتبه. أجاب الاتصال، وإذ به اتصال من الإدارة الرئاسية، يسألونه:

- أيمكنك الذهاب الى المطار لاستقبال كيرييينكو؟

كان رئيس الوزراء كيرييينكو، قادماً حينها من اجتماع مع الرئيس يلتسين الذي كان يقضي عطلته في منطقة كاريليا الواقعة على الحدود مع فنلندا.

بدا السؤال مثيراً للاستغراب، ولكنه أجاب بـ«نعم»، ولم يسأل عن السبب الذي يدعوهم إلى تكليفه بهذه المهمة التي يقوم بها غيره في العادة. وبدا أن ثمة خطأ ما، أول الأمر، ولكنه أدرك أن لا مجال لخطأ هنا. ولكن هناك أمراً ما.

ذهب إلى المطار، ووصل كيرييينكو، فبادره على الفور:

- فولوديا، مرحباً، تهانيّ!

ولم ينتظر حتى أضاف:

- لقد وقع الرئيس على المرسوم.

- أي مرسوم؟

- لقد عُيِّنت مديراً لـ«في. إس. بي»!

لم يتردد بوتين بتولي المهمة، بالطبع، ولكنه أفضى لاحقاً بأن هذه الترقية لم تَرُقه، ولم تعجبه. بل وقال إنها آخر ما كان يتمناه ويرجوه.

ومبدئياً، يمكن كذلك أن نعزو ذلك إلى إغراءات العمل المدني في الرئاسة، الذي كان يعد بآفاق جيدة ومستقرة. بينما كان العمل في جهاز الأمن الفيدرالي يمثل عودة غير حرّة إلى «الجندية»، تنتهي على الأغلب بإقالة تعيده إلى البيت، ليكون مجرّد اسم شهير آخر يبحث عن عمل لدى أحد الأوليغارش.

وهناك، كانت معضلات أخرى..

من جهة، كان بوتين خرج من الـ«كي. جي. بي» برتبة مقدم، وهي رتبة أدنى كثيراً من الرتبة التي يتطلبها موقعه الجديد في رئاسة الجهاز، بينما ترفيعه على نحو طارئ إلى رتبة مناسبة لموقعه، سيضعه في موقف لا يحسد عليه، ويجعل منه مسؤولاً مطعوناً بأهليته من قبل زملائه، والمؤسسة التي يديرها نفسها.

ولكنه وجد حلاً لهذه المعضلة.. رفض الترفيع والرتبة العسكرية، وأقنع الرئيس أن يتم اعتباره أول مدير مدني لجهاز الاستخبارات الفيدرالي. وكانت كلمة السّر السحرية في إقناع يلتسين بذلك هي الإشارة إلى أن هذا إجراء معمول به في «الديمقراطيات الغربية»، ويمكن التباهي به.

هذا الإجراء أتاح لبوتين التعامل دون تحرُّج مع استياء بعض ضباط الجهاز، الأقدم والأعلى رتبة، من تعيينه رئيساً لهم. وبصفته مديراً مدنياً للجهاز، غير خاضع لاعتبارات الأقدمية والتراتبية العسكرية، قام بإحالة من يلزم من هؤلاء على التقاعد، وأقصى بعضهم الآخر إلى مواقع أخرى، بعيداً عن مركز قيادته، أو هكذا بدا أنه فعل..

ومن جهة ثانية، كان من مسؤوليات جهاز «في. إس. بي» مكافحة التجسس الاقتصادي، وكذلك محاربة الفساد في السلطة والجريمة المنظمة؛ وهذه المهمّات كانت المنطقة الأكثر التباساً في عمل الجهاز، فقد مثلتا بوابةً للتّورط الحتمي في اللعبة السياسية والارتباط مع أوساط المافيا وقوى «البزنس الأسود»؛ علماً أن السلطة كانت مخترقة من قبل رموز الجريمة المنظمة وعالمها.

ما الذي لم يعجب بوتين في ذلك؟

هنا، بالذات، كانت تجربة العمل في مجلس مدينة سانت بطرسبورغ حاضرة

بقوة. تلك التجربة التي انتهت به وحيداً يواجه سمعة ملطخة بملفات فساد خطرة، لا تزال عناوينها تلاحقه إلى اليوم.

ولم يكن من يخوض هذه التجربة مرة، ويخرج منها، ليرغب في الدخول إليها ثانية.

وسياسياً، كان الموقع في الـ«في. إس. بي» سيضعه في مواجهة الجميع أو التورط بالعمل لحساب جهة ضد البقية؛ وهذا، في الحالتين، يعني نهاية خدمته، التي لن تنتظر خاتمة طبيعية. سيكون في وضع يحتاج فيه إلى حماية أحد ما، أو توسل رضا آخر. وباختصار، فإن رحلته إلى موسكو بكل آفاقها السياسية تكون انتهت أسرع وبأقل كثيراً من المتوقع.

ويتحدث بوتين كذلك كثيراً عن الطابع المفاجئ لقرار تعيينه مديراً لـ«في. إس. بي»؛ ولكن مجمل أحاديثه تشير إلى غير ذلك. وعلى الأقل، تؤكد أنه لم يكن قراراً مفاجئاً تماماً، وغير متوقع؛ فقد كان سبق أن تحدث مع زوجته حول هذا «الاحتمال» قبل فترة من تحققه، وقال إنه لن يقبل به على أي حال. كان حينها يتحدث عن عمله، فقال إن المكان الذي لا يرغب العمل فيه هو بالتأكيد الـ«في. إس. بي».

لماذا تحدث بوتين عن هذا الاحتمال بالذات..؟

هناك رواية تفسر ذلك بدور مفترض قام به بوتين في تدبير مقتل الجنرال المعارض ليف روخلين، الذي كان يشتبه بأنه كان يعدّ لانقلاب على نظام يلتسين. وأنه في تلك الليلة التي قتل فيها الجنرال المغدور بالذات، أُوقظ مدير الـ«في. إس. بي» نيكولاي كوفاليوف من نومه، وأُلزم بتسليم ملفاته لبوتين.

كان ذلك قبل نحو شهر من تعيين بوتين رسمياً مديراً للجهاز الأمني. أما الدافع إلى هذه الخطوة، فيفترض أنها الرغبة بالسيطرة على أي تداعيات محتملة يمكن أن تنجم عن الجريمة، التي يبدو أنها لم تتم بالصورة المتوقعة.

وهنا، يبدو أن حديث بوتين مع زوجته حول احتمال تعيينه في الـ«في. إس. بي»، قد جاء في سياق تعليقه على توليه الإشراف آنذاك على هذا الجهاز بشكل غير رسمي، وبدون تعيين.

تدور الوقائع في النصف الثاني من عام 1998، الذي ارتفع فيه منسوب السخط على نظام يلتسين، وبلغت فيه احتجاجات عمال المناجم وسط موسكو ذروتها. وتحديداً في صباح الثالث من تموز من ذلك العام، إذ عُثر على الجنرال ليف ياكوفليفيتش روخلين قتيلاً في سريره، ببيته الريفي في ضواحي موسكو.

لم يكن دون أساس الافتراض بأن الرجل تعرض لعملية تصفية جسدية لأسباب سياسية؛ فقد كان الجنرال المغدور، صاحب الشعبية بين الجنود وضباط الجيش العاملين والمتقاعدين، معارضاً شرساً للسلطة القائمة. وكانت قبيل مقتله (في شهر أيار) قد دارت حوله الإشاعات بأنه يعدّ لانقلاب على يلتسين..

وكان الرجل نفسه قد أعلن أنه تلقى إخطاراً بأن السلطة تعدّ لاغتياله، وأن الأمر سيتم بأسلوب ملتوٍ: حادث سير، أو خلال مشكلة مفتعلة، مع أشخاص سكارى..

في ذلك الوقت الذي سبق مقتله، نشط الجنرال القتيل سياسياً، وكان يعتبر واحداً من أكثر زعماء المعارضة نشاطاً وراديكالية، وكان يُخشى جانبه على نحو خاص لشعبيته الكبيرة في الجيش.

كان روخلين رجلاً خطراً بالنسبة للسلطات وتحديداً للرئيس الذي كان في أصعب أوضاعه؛ لقد نشط يتحدث عن ضرورة تغييرات راديكالية فورية في روسيا؛ وكان كلمّا أطلق تصريحاً شدّ الكرملين على أسنانه غيظاً أكثر؛ وقد بلغ الأمر بيلتسين نفسه أن خرج يتوعد الجنرال المعارض علناً وبغيظ واضح: «سنسحق روخلين!».

العبارة التي رددها يلتسين أمام كاميرات التلفزة لم تتوخ الاختباء وراء مجاز سياسي، بل جاءت بمفرداتها ونبرتها لتشير إلى مضمون جسدي وشخصي

صريح. لذا، أضحت فوراً حديث الناس، واستقبلت من قبل الرأي العام كتهديد مباشر..

ولم تأت عبارة يلتسين مصادفة؛ لقد كان تحالف الجنرال روخلين مع العمال المضربين يقلقه بشدة، وكان يقلقه على وجه الخصوص أن الجنرال لا يتحدث عن مجرد انقلاب، بل عن تدخل الجيش لمساندة انتفاضة شعبية، تقوم بها جموع تحاصر الكرملين والمواقع الحكومية الحيوية.

قبل هذا الوعيد، حاول يلتسين استقطاب روخلين، وعرض عليه من خلال رئيس الإدارة الرئاسية فالنتين يوماشوف منصب نائب وزير الدفاع، «أو أي منصب آخر ما عدا منصب وزير الدفاع»، إلا أن الجنرال المعارض رد بأقذع طريقة.

وكان ذلك إشارة كافية بالنسبة ليلتسين وحاشيته أن التعامل مع الجنرال يتطلب أسلوباً آخر، يأخذ بعين الاعتبار حراجة الظروف، ومقدار العزم والتصميم الذي يتصف بهما الجنرال.

لاحقاً، ظهر اتهام بوتين بتدبير مقتل الجنرال لحساب يلتسين، فقد أدلى ميخائيل بولتارانين، نائب رئيس الوزراء مطلع التسعينات، في مقابلة مع صحيفة «كومسومولسكايا برافدا» بأقوال مثيرة: «أنا أعرف من قتل روخلين».

وفي عام 2010 كرر ميخائيل بولتارانين أقواله وسمى المشاركين في قتل الجنرال المتمرد، وقال في مؤتمر صحافي:

«لم أستطيع أن أقول بشكل مباشر بأن بوتين نظّم عملية قتل روخلين. لأنهم سيرفعون على الفور دعوى ويطالبونني بتقديم الدليل. ومع ذلك، فإن المجموعة الكاملة من الأحداث والوقائع المحيطة بهذه الجريمة تؤكد أن ما أقوله ليس مجرد «حدس» أو «فرضية» متعسفة. أعرف بدقة أنه شارك باتخاذ قرار قتل الجنرال، أربعة أشخاص جلسوا في بيت يلتسين الريفي، وناقشوا

الأمر في ما بينهم، وهؤلاء هم: يلتسين، فولوشين، يوماشوف، ودياتشينكو. في البداية كانوا يريدون تكليف سافستيانوف رئيس جهاز الأمن الفيدرالي في موسكو، ولكنهم سرعان ما تراجعوا عن ذلك حينما تذكروا ضابط الاستخبارات صاحب العينين الباردتين مثل «عيون السمك» والقادر على كل شيء»..

وأكد بولتارانين في مؤتمره الصحفي:

«ليس من قبيل المصادفة أنه على الفور تقريباً بعد مقتل الجنرال روخلين، أُوقِظ رئيس جهاز الأمن الفيدرالي كوفاليوف من نومه في الليل، على عجل، ليسلّم صلاحياته إلى بوتين المعاد تعيينه في الجهاز من جديد بمرسوم رئاسي. الأمر يتعلق بوكالة الاستخبارات الأكثر نفوذاً في العالم! فلقاء أي خدمات أعطيت له؟ وهل هذا كلّه مجرد صدفة؟ لقد قتل الجنرال روخلين في 3 تموز 1998، وفي 25 تموز عُيّن المجهول بوتين رسمياً مديراً للجهاز».

هل كان لبوتين يد في مقتل الجنرال..؟

من المؤكد أن تلك الفترة من عمر روسيا كانت تشهد صراعاً حاداً على السلطة. لم يكن ذلك مجرد صراع عادي، ولكنه صراع كسر عظم تداخلت فيه أنشطة قوى محلية وخارجية؛ وعملياً كان ثمة تنافس على روسيا نفسها وما يجب أن تكون عليه، في ما يمكن أن يكون أشد حلقات الحرب الباردة عدوانية.

هنا، كانت أجهزة المخابرات من كل نوع تنشط بأقصى طاقتها.

وكانت كثير من القوى المكّونة للمشهد السياسي، أو من تلك المتحكمة فيه، اعتادت «حلّ» المعضلات عبر القتلة المأجورين، ومن خلال التصفية الجسدية في قضايا هي أقل خطورة من ذلك بكثير. بينما كان يلتسين يرى أن قطع «العقدة» أسهل من محاولة حلها. وكان في ذلك محقاً. لم تكن كثير من المعضلات قابلة للحل بما يناسبه سوى عبر هذا الأسلوب.

ولكن.. لو كان لبوتين يد، لكان فعلاً عُيِّن على رأس جهاز الـ«في.إس. بي» قبل

وقت من الجريمة. أما القول إنه تسلم الجهاز على نحو غير رسمي قبل الجريمة بنحو شهر، للإشراف عليه، فليس من سند يؤكد ذلك.

ومن الملاحظ أن اتهام بوتين، لا سيما الأكثر جدية الذي رفعه ميخائيل بولتارانين، تأخر إلى المرحلة التي ظهر فيها بوتين وريثاً ليلتسين، وتزامن مع بدء الحملات الدعائية المضادة، بوصفه مرشحاً مقبلاً للرئاسة.

من جهة أخرى، كان وراء تقدم بوتين وتعيينه على رأس جهاز الـ«في.إس. بي» قائمة من الأسباب الموضوعية، القوية. لذا، فالقول أنه دُفع به إلى هذا الموقع، ليؤدي هذه «المهمة»، أو مكافأة على قيامه بها، لا يستقيم مع الأحداث.

الأحداث والوقائع الفاعلة في ذلك الوقت تشير إلى خيارات أخرى أسهل لإقصاء الجنرال المغضوب عليه كانت متاحة للرئيس، المستفيد والمتهم الحقيقي بالجريمة الذي لا يُرِد اسمه في السياق؛ فترك الأمر لأذرع الجريمة، وتحريك الأوليغارش للتصرف بإيحاء منه، وبعيداً عنه، هو الأقرب إلى أسلوب يلتسين، وأكثر انسجاماً مع الواقع في تلك المرحلة.

والأمر لا يتعلق فقط ببوتين نفسه، بل بالـ«في. إس. بي»، الذي كان في وضع يصعب فيه على الرئيس توجيهه هذه الوجهة، على الأقل لأن رئيسه وقت الجريمة (كوفاليوف) لم يكن موضع ثقة يلتسين، بينما لم يكن بوتين، الحديث التعيين على رأس الـ«في. إس. بي»، بمناسب لإدارة الجهاز وتوجيهه هذه الوجهة.

اللغز الثالث عشر

أسرار الجهاز

قواعد ذهبية

سرعان ما أحاطت الشكوك بأهلية الحكومة التي جاء بوتين في كنفها مديراً لجهاز الـ«في. إس. بي». ولم يمر وقت طويل حتى صدقت هذه الشكوك بأقسى صورة، وعلى نحو لم تشهده روسيا من قبل: أزمة مالية حادة، وانهيار كارثي لسعر صرف الروبل، أتى على مدخرات المواطنين، و«أكل» مداخيلهم.

من جهة، كان هنا بوتين الغامض، و«الشاب» المجهول، الذي جاء إلى موقعه في الـ«في. إس. بي» في كنف هذه الحكومة في ظروف غير مفهومة، معرضاً للظهور باعتباره جزءاً من أسباب مشكلة لا علاقة له بها.

ومن جهة أخرى، كان يتوجب إقالة الحكومة، ما عنى أن على بوتين أن يواجه حكومة أخرى، قد ترى أنه يجب أن يكون مشمولاً بالعقاب!

وبالفعل كانت هناك مخاطر مُحدقة؛ فحاشية الرئيس كانت تحاول استعادة رئيس الوزراء السابق فيكتور تشيرنوميردين، بثقله، وبدرجة أساسية باعتباره مرشحاً لخلافة يلتسين. إلا أن مجلس الدوما حال دون اللجوء إلى هذا الخيار، ورفضه تكراراً، ما أوصل البلاد إلى حافة أزمة دستورية.

وكان من الواضح أن المرشح الوحيد الذي يمكن أن يجتاز عقبة مجلس الدوما، ليس شخصاً آخر سوى يفغيني بريماكوف.

وهكذا، جاء بريماكوف رئيساً للوزراء، وكان رجلاً من جيل آخر. ليس من جيل آخر فقط، بل من ذلك الجيل الذي يوصف بجيل الستينات السوفيتي. ذلك الجيل الذي يعتقد أنه لم ينل فرصته في الحكم والإدارة، وأن لديه رؤية تستحق التجريب والترحيب.

كان بريماكوف كذلك محسوباً على عالم رجال الاستخبارات، بحكم علاقته القديمة بالـ«كي. جي. بي»، ورئاسته للاستخبارات الخارجية مطلع التسعينات.

وتحديداً على تلك الفئة التي توصف بـ«الآباء الروحيين» للجهاز.

وكان بوتين من جيل السبعينات. أي، من الجيل السوفيتي الأخير، الذي تقدم في مراتب السلطة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وكذلك كان سيرغي كيريينكو، رئيس الحكومة المقال. ومن المنطقي أن تغيب العلاقة النّدية بين أبناء الجيل الواحد، مع وصول بريماكوف إلى رئاسة الحكومة، ناهيك عن أن فشل كيريينكو يعطي مبرراً إضافياً للقادم الجديد لممارسة أبويته «الروحية» على مدير الـ«في. إس. بي».

وهذا كله حدث في وقت حسّاس بالنسبة لبوتين!

في ذلك الوقت، كان لدى بوتين مهمة أولى، تتعلق بترتيب «بيته الداخلي». وهذه مهمة فيها الكثير من الحساسيات والمحاذير الكفيلة بإصابة كل من يحاول التعامل معها بشلل في الإرادة؛ ولكن مدير جهاز الـ«في. إس. بي» الجديد انكب يؤديها، دون أن يفقد إحساسه واهتمامه بالمهمات الرئيسية والحيوية الأخرى المناطة بالجهاز، في ذلك الظرف الدقيق.

كان لديه في ذلك الوقت، غير ذلك، العديد من المهمات..

لم تعد مكافحة الجاسوسّية، والتجسّس الاقتصادي ومكافحته، في تلك المرحلة، المهمة المتفردة الوحيدة التي يواجهها الجهاز؛ فقد كانت محاربة الفساد في السلطة والجريمة المنظمة شديدتا التأثير على استقرار الأوضاع الاجتماعية والسياسية في البلاد. وعملياً، كانت أزمة إضراب عمال المناجم قد تفاقمت وباتت تشلّ البلاد، فيما شكل ذلك ظرفاً سياسياً متوتراً، اتجهت فيه القوى السياسية بكل أطيافها إلى التصعيد البالغ.

وفي خضم هذا كله، كان لدى النخبة السياسية تصورها المشوّه، حول دور جهاز الـ«في. إس. بي»، وتنتظر منه أن يعمل لحسابها تحديداً، وأن يتحرك بأوامرها المباشرة، ضد خصومها الذين تحددهم هي وفق تصورها الخاص.

هنا، برزت شخصية بوتين كرجل استخبارات، وظهرت أهمية أن تكون خصائص العالم المهني الذي قضى حياته فيه موجودة في شخصيته كصفات أصيلة؛ وعلى رأس هذه الصفات: مهارات التواصل، والقدرة على استخلاص المعلومات وكتمانها وإدارتها، وعدم الاستسلام للفوضى السائدة التي أوجدت ولاءات متعددة ومؤقتة، وتحديد ولاء شرعي ودائم.

بدأ بتطبيق القاعدة البديهية الأولى، التي تقول بأن من حق جهاز الاستخبارات أن يجمع معلومات عن كل الجهات في الدولة لحسابه حصراً، ولعلمه الخاص، طالما كان يقيد نفسه بقانون مقرّ من جهات دستورية، وبما يكفل قدرته على درء الأخطار التي تواجه الدولة. ولكن ليس من حق هذا الجهاز العمل لحساب جهة في الدولة ضد أخرى، بما في ذلك جمع معلومات عن جهة وتمريرها إلى غيرها من أجهزة الدولة في سياق تنافس أو صراع ما.

وفي هذا السياق، كان على دراية ومعرفة بكل النوازع والدوافع التي تحرّك النخبة السياسية التي ترى أنها مخوّلة بإعطائه تعليمات وتوجيهات في شؤون تتعلق بصلب عمله؛ هذا المستوى من الاطلاع يعطى جهاز الـ«في. إس. بي»، وبوتين على وجه الخصوص، دوراً مميزاً في تجاوز أزمات خطرة مثل أزمة إضراب عمال المناجم، وتجنب الحلول الارتجالية، التي كان من شأنها أن تأتي بنتائج كارثية.

وفي وقتها النتائج الكارثية كانت تعني انقساماً كبيراً في المجتمع والدولة، يؤدي إلى تمرّد في الجيش والقوى الأمنية، وإشعال فتيل حرب أهلية في البلاد، التي كان يديرها «سياسيون» متطفلون على الدولة والإدارة الحكومية.

في الشأن الحساس المتعلق بـ«ترتيب البيت الداخلي»، اتبع بوتين القاعدة الذهبية التي تقول إن أي إجراءات تمسّ التراتبيّة القيادية، وتغيّر في جسمها، تعزّز بالضرورة سلطة من يتخذها؛ ولهذا، فإن هذا النوع من الإجراءات يجب أن يكون في شِقّيه، المتعلقين بإبعاد قيادات واستقدام أخرى مكانها، مسبباً

هنا، برزت شخصية بوتين كرجل استخبارات، وظهرت أهمية أن تكون خصائص العالم المهني الذي قضى حياته فيه موجودة في شخصيته كصفات أصيلة؛ وعلى رأس هذه الصفات: مهارات التواصل، والقدرة على استخلاص المعلومات وكتمانها وإدارتها، وعدم الاستسلام للفوضى السائدة التي أوجدت ولاءات متعددة ومؤقتة، وتحديد ولاء شرعي ودائم.

بدأ بتطبيق القاعدة البديهية الأولى، التي تقول بأن من حق جهاز الاستخبارات أن يجمع معلومات عن كل الجهات في الدولة لحسابه حصراً، ولعلمه الخاص، طالما كان يقيد نفسه بقانون مقرّ من جهات دستورية، وبما يكفل قدرته على درء الأخطار التي تواجه الدولة. ولكن ليس من حق هذا الجهاز العمل لحساب جهة في الدولة ضد أخرى، بما في ذلك جمع معلومات عن جهة وتمريرها إلى غيرها من أجهزة الدولة في سياق تنافس أو صراع ما.

وفي هذا السياق، كان على دراية ومعرفة بكل النوازع والدوافع التي تحرّك النخبة السياسية التي ترى أنها مخوّلة بإعطائه تعليمات وتوجيهات في شؤون تتعلق بصلب عمله؛ هذا المستوى من الاطلاع يعطى جهاز الـ«في. إس. بي»، وبوتين على وجه الخصوص، دوراً مميزاً في تجاوز أزمات خطرة مثل أزمة إضراب عمال المناجم، وتجنب الحلول الارتجالية، التي كان من شأنها أن تأتي بنتائج كارثية.

وفي وقتها النتائج الكارثية كانت تعني انقساماً كبيراً في المجتمع والدولة، يؤدي إلى تمرّد في الجيش والقوى الأمنية، وإشعال فتيل حرب أهلية في البلاد، التي كان يديرها «سياسيون» متطفلون على الدولة والإدارة الحكومية.

في الشأن الحساس المتعلق بـ«ترتيب البيت الداخلي»، اتبع بوتين القاعدة الذهبية التي تقول إن أي إجراءات تمسّ التراتبيّة القيادية، وتغيّر في جسمها، تعزّز بالضرورة سلطة من يتخذها؛ ولهذا، فإن هذا النوع من الإجراءات يجب أن يكون في شِقّيه، المتعلقين بإبعاد قيادات واستقدام أخرى مكانها، مسبباً

بأسباب مهنية واضحة ومقنعة بوعودها ونتائجها، ضمن تصور شامل لعمل الجهاز، موضوع مسبقاً، ومبني على مبادئ محدّدة، بما يضمن عدم الانتقائية على أساس فائدة مدير الجهاز وتعزيز سلطته.

وهنا، استخدم بوتين رغبة النخبة في إعطائه الفرصة في إعادة تنظيم الجهاز، فطبق هذا الأسلوب الذي جنّبه الحرج أمام زملائه ورؤسائه السابقين، وحصّنه ضد اعتراضات غيرهم؛ فأجرى إعادة التنظيم بتطبيق هذه القاعدة.

في الظاهر، كان سهلاً اتهامه بأنه تخلص من قيادات أساسيّة في الجهاز، واستبدلهم بزملائه وأصدقائه اللينينغراديين؛ ولكنه باقصاء قيادات رئيسية من مركز الـ«في. إس. بي» تمكّن من تحصين الجهاز ضد النخبة السياسية في موسكو؛ لقد كان عملياً أبعد بالإقالة أو بالنقل إلى إدارات إقليمية قيادات أصبحت تحت سيطرة هذا الطرف أو ذاك من الدولة أو تورطت بعلاقات معهم، وأتى بآخرين لا صلات خاصة تربطهم بمجتمع موسكو السياسي، وهذه عملية أقل ما يمكن أن تسمى به هو استعادة المهنية!

ومن جانب آخر، فإن القيادات التي حُرّكت من المركز، عادت لتزاول عملها بمهنية وقد تحررت من ارتباط المهنية؛ ولهذا، لم يكن غريباً أن إدارات الـ«في. إس. بي» في المقاطعات والأقاليم شهدت تطوراً ملحوظاً، وباتت تقدم عملاً يعتد به. والمفارقة، أن هذا العمل «الذي يعتد به» كان له تأثير سياسي هام، وأثر مصيري في تاريخ روسيا الحديث، ويذكّر بخبرة بوتين في العمل مع الأقاليم.

لقد جاءت القوة التي اكتسبتها إدارات الجهاز في الأقاليم على حساب سلطة الحكام المحليين، وأدت إلى إضعافهم أمام المركز. أي معاكسة لسياسات «ديمقراطيي» روسيا الليبراليين، الذين كانوا يرون أن العلة الروسية هي في النظام المركزي، الذي اعتبروه من مخلفات العهد السوفيتي، وشرعوا بالتأسيس لنظام لا مركزي، هدّد في المحصلة وحدة الأراضي الروسية.

وتعززت قوة بوتين بتعيينه عضواً في مجلس الأمن القومي. زاد هذا التعيين من إمكانيته مراقبة الجيش، ووضعه في دائرة «قواعده الذهبية». وبحكم موقعه في الـ«في. إس. بي»، وعمله السابق في إدارة الرئاسة، تمكن من ممارسة تأثيره الناعم على أركان إدارة الكرملين، دون أن يثير عليه أحداً. لا سيما أنه كان من جهة يحرص على إظهار قناعته بمنصبه كمحطة أخيرة نهائية لطموحاته، ومن جهة أخرى حاول دائماً البرهنة على نزاهته وحرص على تجنب مدّ يده إلى نهر المال الذي كان يجري أمام عينيه.

ومع ذلك، لم يكن بمنأى عن محاولات الطعن به، لكن التزامه بـ«قواعده الذهبية» كان ينقذه!

وفي هذا، تروي تاتيانا داتشينكو، ابنة يلتسين، حادثة هامة تعدُّ مثالاً على ذلك، حيث تستذكر أنه بعد وقت قصير من نيل يفغيني بريماكوف الثقة من مجلس الدوما رئيساً للحكومة، تعقّدت العلاقة بينه وبين بوتين، وبدأ على الفور يعمل على صرفه من منصبه في إدارة جهاز الـ«في. إس. بي».

بدأت القصة حينما استدعى بريماكوف إليه بوتين، بوصفه مدير جهاز الـ«في. إس. بي»؛ بدا اللقاء في أول الأمر عادياً، ودار الحديث متنوعاً عن الوضع في البلاد، ومناقشة جوانب بعينها. تماماً، كما هو متوقع لأي حديث عادي يمكن أن يدور بين رئيس الوزراء ومدير الجهاز الأمني الأول في البلاد. ولكن في نهاية الحديث طلب بريماكوف، فجأة، تنظيم عملية تنصت على هاتف زعيم حزب «يابلوكو» غريغوري يافلينسكي.

بوغت بوتين بالطلب بشدة. وقال:

- هذا غير ممكن. يافلينسكي رئيس كتلة برلمانية كبيرة في مجلس الدوما، وزعيم سياسي، وإقحام الـ«في. إس. بي» في عملية تنصّت سياسية أمر غير صائب، والأهم من ذلك هذا شيء غير قانوني.

ويبدو أن بريماكوف ذكّر بوتين أن من يطلب ذلك هو رئيس الوزراء، فأجابه بوتين:

- لا يهم من يطلب ذلك، رئيس الوزراء أو حتى الرئيس نفسه، يبقى هذا غير قانوني. وأنا لن أخرق القانون. ولكني جاهز لترك منصبي وتقديم استقالتي، إن كان أحد ما يرى أن موقفي هذا غير صائب.

لم تكن هذه بالمواجهة المستحبة بالنسبة لبوتين؛ إذ أن بريماكوف ليس فقط رئيس الحكومة، وأبرز «أبناء الدولة»، ولكنه كذلك أحد أبرز الأسماء الكبيرة في الـ«كي. جي. بي»، ومدير سابق لجهاز الـ«في. إس. بي» نفسه. وهو علاوة على ذلك سياسي صاحب نفوذ، وله كلمة مسموعة، إن ليس في السلطة، ففي خارجها.

لقد كان بريماكوف يمثل جيل الآباء الروحيين للجهاز، الذين لا يمكن العمل على غير رضاهم!

لذا، بعد هذا الحديث توجه بوتين إلى رئيس الإدارة الرئاسية، فالنتين يوماشوف، وأبلغه بما حصل. ثم في لقائه الدوري مع الرئيس قدّم ليلتسين إيجازاً حول الواقعة، وكرّر موقفه بأن التنصت على يافلينسكي غير جائز، وأنه مستعد للاستقالة إذا كان هناك من يرى أن موقفه هذا غير صحيح. فأجاز يلتسين موقفه، وأقرّ تصرّفه. وتوقف كثيراً يفكر برئيس جهاز الأمن الفيدرالي الذي يعاند رئيس الحكومة المخضرم والقوي.

وبدا أن الموقف انتهى عند هذا الحد، لكن بريماكوف لم ينس الأمر، انتظر مرور بعض الوقت، ثم وضع في اجتماع له مع يلتسين موضوع إقالة بوتين من رئاسة جهاز الـ«في. إس. بي» على جدول أعمال الاجتماع كمطلب عاجل وملح.

استمع يلتسين بريماكوف باهتمام، لكنه قال له إنه تعجبه الطريقة التي يدير بها بوتين عمله، وأن التغييرات التي يجريها في الجهاز هي شأنه الخاص

بوصفه مدير الـ«في. إس. بي»، وهو أدرى بمن يستعين وماذا يحتاج.

كان يلتسين مرتاحاً لاكتشافه أن بوتين يعمل مستقلاً عن بريماكوف ويزعجه إلى هذا الحد، الذي يدفعه إلى الشكوى.

في الواقع، كان بوتين يدرك أن هجوم يفغيني بريماكوف عليه يعني أن الآباء الروحيين للجهاز خارجه، وهم مجموعة من الضباط القدامى النافذين، والصف المخملي الأول في إدارة الـ«في. إس. بي» يشعرون بالقلق، ولا يفهمون التغيير المفاجئ في المنصب القيادي الأول، إضافة إلى الطريقة المريبة التي عُومِل بها المدير السابق للجهاز لدى صرفه من منصبه.

ومن جهة أخرى، كان بوتين يدرك أن تحفظات بريماكوف هي مجرد شكل المشكلة الظاهر معه. أما الجوهر الحقيقي وراء ذلك الهجوم فأسبابه أخرى تماماً، لا تتعلق به وبأدائه المهني تحديداً، ولكن لها صلة بالاصطفافات السياسية حينها، وعلى وجه الخصوص تلك المتعلقة بوراثة يلتسين، وتحديداً، لها علاقة بحسابات الثنائي المكون من عمدة مدينة موسكو يوري لوجكوف وبريماكوف نفسه، اللذين كانا يشكلان تحالفاً يستند على مقدّرات موسكو التي تشكل دولة حقيقيّة، توازي في حجمها بعض الدول الأوروبية المعتبرة، من حيث أجهزتها وإداراتها واقتصادها. وبمقدور من يسيطر عليها أن يسيطر على «مساحة» حاسمة وغير قليلة من الشارع الانتخابي عبر استقطاب قادة الأقاليم. في حين أن بوتين كان يتوفر على مَلَكة وخبرة التعامل مع قادة الأقاليم واستقطابهم، وهو ما شكل ازعاجاً في وقت حرج.

والأمر كذلك أن سلف بوتين في قيادة جهاز الـ«في. إس. بي»، نيكولاي كوفاليوف كان حليفاً مباشراً لهذا الثنائي القوي، وهذه الحقيقة بالذات تجيب على السؤال لماذا وجد يلتسين من الضرورة بمكان تغيير قيادة الجهاز.

العامل الآخر الحاضر في هذه الخطوة كان أكثر إلحاحاً؛ لقد كان كوفاليوف يعمل بدأب على توجيه الجهاز باتجاه السيطرة على الاحتمالات السياسية بما

يتعلق بمرحلة ما بعد يلتسين، لا بل كان يحاول أن يمتلك هو وجهازه القرار في تحديد موعد بدء هذه المرحلة. وكان قد وضع لنفسه هدفاً سياسياً محدداً: الاستيلاء على السلطة، كما كان قد حاول قبله ألكسندر كورجاكوف، ولكن مع فارق أنه لم يكن يريد السلطة لنفسه، ولكن لمعارضي يلتسين. ولهذه الغاية، حاول السيطرة على الهياكل الاقتصادية الرئيسية في البلاد بمساعدة أكبر إدارتين اقتصاديتين في الـ«في. إس. بي»: إدارة مكافحة التجسس الاقتصادي، وإدارة دعم مكافحة الاستخبارات للمؤسسات الاستراتيجية.

وكان هذا هو السبب الرئيس المباشر فى إقالة كوفاليوف بطريقة «انقلابية» طارئة، وإخضاع الجهاز لعملية إعادة هيكلة نفّذها بوتين.

لقد اعتبرت الدائرة المقربة من يلتسين، أو «العائلة»، إن بوتين بسيرته المهنية في درسدن بألمانيا الديمقراطية، وفي سانت بطرسبورغ في بداية التسعينات، صاحب ذكريات أليمة تجعله مليئاً بالغضب على القيادة التقليدية في الجهاز، وهو بالتالي سيمحض ولاءه للكرملين، وليس للجهاز نفسه.

وكان هناك ثمة أمر آخر..

كانت «العائلة» تشعر بالاستيا[illegible]خطر من حقيقة أن عمدة موسكو وحاكم سانت بطرسبورغ باتا يمتلكان سلطة غير مسبوقة على قادة الـ«في. إس. بي» الإقليميين، في مدينتيهما. وبعبارة أخرى، كانت إداراتا الـ«في. إس. بي» في موسكو وسانت بطرسبورغ اللتين يفترض أن يتبعا لإدارة الـ«في. إس. بي» المركزية في موسكو، تتبعان عملياً عمدتي المدينتين. وقد تم ذلك تحت ضغط الاعتبارات الاقتصادية.

في ذلك الوقت، دخلت هاتان الإدارتان في علاقات تجارية مباشرة مع مسؤولي مدينتيهما، وكانتا توفران لهم قائمة من الخدمات مقابل المال، مثل الحماية الشخصية، وحماية الأعمال التجارية، وما إلى ذلك. ومن المفهوم أن الأمر تطور إلى ما هو أكثر من ذلك، فالمصالح الصغيرة غالباً ما تقود إلى

تحالفات كبيرة. وهذا ما حصل فعلاً، إذ امتزجت المصالح التجارية بالتحالفات السياسية. إلى درجة أنه كان لمدير دائرة الـ«في. إس. بي» الإقليمية في موسكو، لدى تعيين بوتين، من النفوذ السياسي والقوة الناجمة عن خدماته لمجلس المدينة ما يفوق نفوذ وصلاحيات رئيسه بوتين.

وكانت هذه حيثيات أساسية وحاسمة!

فيديو فضائحي

لم يكن سلف بوتين في إدارة الـ«في. إس. بي»، نيكولاي كوفاليوف، مقلقاً بهذه الحيثيات فقط؛ بل وكذلك باعتباره حلقة أساسية في سلسلة مقلقة من قادة مؤسسات القوّة، الذين دخلوا على خط المعارضة من بوابة معاداة النظام وتجريمه.

كان هناك كوفاليوف نفسه في الـ«في. إس. بي»، ووزير الداخلية في عهد تشيرنوميردين، أناتولي كوليكوف، وجنرالات الجيش الذين اقتحموا السياسة، والنائب العام سكوراتوف.

لقد كان يلتسين تمكن من عقد صفقة من الجنرال ألكسندر ليبيد، وارتاح من الجنرال ليف روخلين بمقتله الغامض، وتخلّص من كوليكوف بإقالة حكومة تشيرنوميردين، وأبعد كوفاليوف بالإقالة، وبقي سكوراتوف..

ويقال إن التخلص من النائب العام، بالذات، الذي كان لبوتين دور فيه، لعب دوراً في وصوله إلى الرئاسة؛ كان النائب العام قد بدأ بفتح ملفات فساد حساسة تطال أركان «العائلة» والرئيس، وتهدد بإدانتهم بالإثراء غير المشروع وعدد آخر من التهم المندرجة تحت بند الفساد وخرق القوانين العامة، ما يسهل في النهاية جهود المعارضة الساعية إلى محاكمة الرئيس بتهم الخيانة العظمى.

لم يكن النائب العام نفسه خالياً من شبهات فساد. ولكن. وهذا بالذات كان يشجعه على تقديم أوراق اعتماده للمعارضة، التي بدت قادمة إلى السلطة لا محالة. وشجعه على ذلك أن يلتسين، بوصفه رئيس الدولة، لم يكن مخولاً بصلاحية عزله، فالنائب العام يُرشّح من الرئيس، ولكنه يعين ويُقال من مجلس الاتحاد، لهذا تحصّن الرجل بمنصبه، وبدأ حربه المعلنة على جماعة الرئيس الأقربين.

واجتمعت في خطوته هذه مؤثرات كثيرة، منها ولاءه العميق لقائد الحماية

الرئاسية السابق ألكسندر كورجاكوف، وتعاطفه السياسي مع الشيوعيين، والتشجيع الذي حظي به من يفغيني بريماكوف، رئيس الوزراء آنذاك، الذي كان يحتفظ على نحو طبيعي ومحق بموقف متحفظ للغاية من يلتسين وحاشيته.

وكان للمسألة شق خارجي، فإحدى القضايا الرئيسية التي فتحها النائب العام، كانت تتعلق بعطاء ترميم مبنى الكرملين المحال على شركة «ماتبيكس» السويسرية، الذي اكتشف فيه المحققون الروس، ونظراؤهم السويسريون، جملة من التجاوزات الخطيرة، بما في ذلك حسابات ودائع بملايين الدولارات باسم رئيس الإدارة بافل بورودين وابنته وصهره. وبهذا، هزت تحقيقات سكوراتوف على نحو فعلي «عرش» يلتسين المكين وهددته بالمعنى الحقيقي للكلمة.

وباتت عبارة «حجب الثقة عن الرئيس» العبارة الأكثر تداولاً في مجلس الدوما.

وفي خضم هذه الأزمة، وفي لحظة حرجة من عمر هذه القضية، عُيّن بوتين على رأس الـ«في. إس. بي»، ثم لم تلبث أن اندلعت فضيحة مرتبة طالت النائب العام نفسه، إذ بثت محطات التلفزة الرسمية شريط فيديو معيب يظهر فيه «رجل يشبه النائب العام سكوراتوف» عارياً في الفراش مع فتاتي هوى.

وتحول الأمر إلى قضية تشغل الرأي العام، وعنواناً لصراع سياسي مرير بين الرئاسة ومجلس الاتحاد، استمر لعدة أشهر طويلة. واتضح في الأثناء الكثير من خفايا هذه القضية التي اشتهرت بعنوان «رجل يشبه النائب العام سكوراتوف»، ومن ذلك:

أن القضية بدأت قبل بث الفيديو بأكثر من شهر، وأن الرئاسة حاولت الضغط على النائب العام باستخدام الفيديو بُغية حمله على تقديم استقالته، ولكنه بعد دعم المعارضة له مجلس رفض الاتحاد الإذعان.

أن المصدر الأول لفيديو «رجل يشبه النائب العام سكوراتوف» كان جهاز الـ«في.

إس. بي»، الذي قال مديره بوتين أن الجهاز حصل عليه من «أشخاص خاضعين للتحقيق في قضايا جنائية» يديرها مكتب النائب العام؛ ولكن هؤلاء الأشخاص بقوا غير معروفين رسمياً، حتى اليوم.

وقيل إن «رجال» بوتين هم من استأجروا ودفعوا أجرة الشقة التي قبل سكوراتوف «الضيافة الفاضحة» فيها، وأنهم هم من صوروا الفيديو.

وقيل كذلك أن الفيديو قُدِّم إلى رئيس القناة التلفزيونية الأولى، ميخائيل شفيدكوف شخصياً، من قبل «رجل يشبه تماماً مدير الـ«في. إس. بي» بوتين».

ولم يتم إثبات هوية سكوراتوف وعلاقته بـ«رجل يشبه النائب العام سكوراتوف» قانوناً. ومع ذلك، اضطر سكوراتوف في النهاية للاستقالة.

وتكتسب هذه الواقعة أهمية خاصة لسببين:

الأول، تلك المنازلة السياسية الحادة والمريرة بين الرئاسة والمعارضة في مجلس الاتحاد، التي كشفت عن موقف يلتسين ومجموعته الضعيف للغاية في ذلك الوقت. وأن أقصى طموحاتهم كان يتمحور حول تسليم السلطة مع ضمانات تحميهم، وحصانة تعفيهم من الملاحقة القانونية، وأن جهودهم كانت مركزة على البحث عن جهة أو شخص يوفر لهم ذلك.

الثاني، أن يلتسين في روايته لأحداث هذه الواقعة «الملحمية»، يجد فيها مناسبة ليتذكر بتعاطف الموقف الصعب الذي وجد نفسه فيه أناتولي سوبتشاك، عمدة سانت بطرسبورغ السابق، بعد خسارته الانتخابات، والدور الذي لعبه بوتين في مساعدته وإنقاذه من الملاحقة القانونية.

وفي الواقع، فإن هذه اللحظة من سيرة بوتين لعبت على نحو ما، وبشكل خاص، دوراً هاماً في اختياره لوراثة يلتسين، ويبدو هذا واضحاً من الطريقة التي يسرد بها يلتسين الواقعة، ويلقي فيها باللائمة على سكوراتوف الذي، بحسبه، تحامل على الرجل المريض سوبتشاك، ولاحقه تعسفاً.

ويصل يلتسين إلى الحديث عن دور بوتين في القضية:

«في خريف العام 1998 بعد استجواب تال، دهمت نوبة قلبية سوبتشاك، فنُقل إلى المستشفى. هنا، تدخل في الوضع مع سوبتشاك رئيس الـ«في. إس. بي».

«كان بوتين يفهم أفضل من أي شخص آخر الظلم الذي يتعرض له رئيسه السابق ومعلمه السياسي. توجه على الفور إلى سانت بطرسبرج. والتقى مع الفريق الطبي، وتحديداً مع الدكتور شيفتشينكو وقال إنه يحاول نقل سوبتشاك المريض للعلاج في الخارج. وبفضل موسم العطلات في شهر تشرين الثاني كان الوضع في المدينة هادئ. وباستخدام علاقاته في سانت بطرسبورغ، اتفق بوتين مع شركة طيران خاصة فنقل سوبتشاك إلى فنلندا، ومن هناك انتقل إلى باريس»..

«كانوا يتعقبون سوبتشاك، وفرضوا تعليمات بعدم السماح له بمغادرة المدينة. ولكن من الواضح أنهم لم يراقبوه جيداً جداً، واعتقدوا، أنه لا أحد يستطيع أن يساعد السجين المريض. ولكن كان هناك شخص فعلها. وفي وقت لاحق، حينما علمت بما فعل بوتين، شعرت بإحساس من الاحترام العميق والامتنان لهذا الرجل».

انتهى الاقتباس.

من الواضح إن تعاطف يلتسين مع حالة سوبتشاك كانت مليئة بالرسائل تجاه بوتين عبر التأسي على «رئيسه السابق ومعلمه السياسي»، الذي عانى الأمرّين من أشخاص، أراد يلتسين التذكير بأنه يعاني منهم هو نفسه. والمقصود بالطبع: سكوراتوف وكورجاكوف.

وهذا بدوره، يوضح كذلك أحد أسباب دفع ببوتين إلى الـ«في. إس. بي»، فهو ليس صاحب ثأر مع سكوراتوف فقط بما يتعلق بدور كورجاكوف في الانتخابات، بل أن مشكلته مع النائب العام قائمة، ولا تزال حيّة، بملاحقة

سوبتشاك.

ويلفت النظر هنا، إشارات يلتسين المتكررة إلى وفاء بوتين وحزمه في الالتزام بتعهداته، وذكره واقعة مساعدته لسوبتشاك، أكثر من مرة، يؤشر بوضوح إلى أن هذه الخصال أهّلت صاحبها ليكون موثوقاً به كمانح للضمانات التي تعفي الرئيس المتنحي من الملاحقة القضائية.

وهنا، يمكن القول إن هذه المعطيات تلقي ظلالاً من الشكّ حول ربط تعيين بوتين في الـ«في. إس. بي» بتورطه المفترض بتنظيم جريمة قتل الجنرال المغدور ليف روخلين. على الأقل لأن هذا التقدم الذي ناله بوتين بتعيينه على رأس هذا الجهاز لم يكن بعيداً عن الأسباب الموضوعية التي تبرره.

اللغز الرابع عشر

أسرار الاختيار

تفاصيل بريماكوفية

جاء ترشيح يفغيني بريماكوف لرئاسة الحكومة عبر اقتراح قدّمه غريغوري يافلينسكي. وكان هذا، بحد ذاته، مؤشراً كافياً على خطورة الأوضاع في البلاد، إذ لم يكن من الممكن أن يرشح أحد أبرز رموز الليبراليين الاقتصاديين شخصية محافظة، ذات ثقل سياسي ارتبطت سمعتها بالعهد السوفيتي، في تعارض حاد مع الاقتراحات الغربية، لو لم تكن البلاد على حافة الانفجار.

وقد ثبت فعلاً أن هذا الترشيح ناجع، إذ كانت أولى إنجازات بريماكوف هي تهدئة الأوضاع في البلاد، ونزع فتيل الأزمة بين أركان السلطة، وتمكن بشخصيته التوافقية، وسياسته التوفيقية، ضمان الحد الأدنى من مصالح مختلف الأطراف، لا سيما مجلس الدوما ويلتسين. ولكن هذه السياسة، كانت تقتضي الحد من سلطة مراكز القوى غير الشرعية، ما اعتبر تالياً حرباً على «العائلة» وحاشية الرئيس، وخطيئة لا تغتفر تستوجب الإقالة.

وفي الواقع، بدأ يلتسين منذ اللحظة الأولى لتعيين بريماكوف تجهيز مبرّرات التخلص من رئيس وزرائه؛ فهو على أي حال رئيس وزراء فرضته الضرورة، وضغط الظرف الذي كان يديره الخصوم، وليس الخيار الحر.

وكان مفهوماً أن يلتسين ليس لديه متسع كبير من الوقت ليمنحه لبريماكوف، الذي كان عليه أن يتنحى متى ما ظهرت شخصية المرشح «المناسب» لخوض الانتخابات الرئاسية المقبلة.

يقول يلتسين: «في الواقع، كان يفغيني بريماكوف يساعدني راغبةً أم راهبةً في التوصل إلى الهدف السياسي الرئيسي: إيصال البلد بهدوء إلى عام ألفين، إذ ستجري وقائع الانتخابات الرئاسية، وكنت أظن أننا سنجد سياسياً قوياً وشاباً ننقل إليه الإرث السياسي».

هنا، تظهر حيثيات أخرى، تجعل من يلتسين يستعجل الخلاص من بريماكوف،

ففرص رئيس الوزراء بالترشح للرئاسة بدأت تنمو على نحو ملحوظ. وربما لم يكن التطيّر من هذه الفرص الداهمة، مقصوراً على يلتسين وحده، فملف الوريث الرئاسي أكبر من أن يكون شأناً روسياً داخلياً، ولا تستطيع الدوائر الأجنبية في موسكو الاحتفاظ بهدوئها إزاءه، وبريماكوف مرفوض من هذه الدوائر. لذا، بدأت الصحافة الموالية للرئيس تكتب بإلحاح عن هذا الخيار، باعتباره خياراً ماثلاً وداهماً ويمثل لحظة «انتقام الشيوعيين»، وعودة إلى النموذج السوفيتي.

وأبدى يلتسين مخاوف واضحة إزاء هذا الاحتمال، بل بدأ نقاشاً في الإدارة الرئاسية حول سؤال محدد: «هل سيترشح بريماكوف في الانتخابات الرئاسية؟». والخلاصة التي وصل إليها يلتسين، هي: «نعم، يستطيع بريماكوف أن يفعل ذلك». ولا يخفي يلتسين مشاعره إزاء هذه النتيجة فيقول:

«وهنا، بدأت أشعر بخطورة الوضع. أدركت أن بريماكوف القريب، بالمفهوم الإنساني، يمثل موضوعياً، البديل السياسي الصعب، غير المرغوب، لكل نهجي وسياساتي وخطّتي لتطور البلاد».

وبهذا، فإن بريماكوف، بالنسبة ليلتسين، كفّ عن أن يكون رئيس وزرائه، وتحول إلى منافس له، منافس في تحديد مستقبل الرئاسة، واختيار رئيس للبلاد، وهذا شيء لم يكن مقبولاً بحال من الأحوال، على الأقل لأن «الرئاسة» هي ورقة بيد الرئيس للمقايضة، والتفاوض على حصانته. وهكذا وصل يلتسين لقراره بإقالة رئيس الوزراء.

تصرف بريماكوف باتزان؛ بدءاً من استقباله بكرامة لقرار إقالته، الذي جاء غادراً، وصولاً إلى تعمّده تجنب اللجوء إلى مجلسي الدوما والاتحاد، اللذين كانا يتجهان إلى أزمة مع الرئيس. وعملياً فإن رئيس الوزراء المقال، الذي تحاشى أن يكون عنوان أزمة سياسية، سهّل الأمور على الرئيس.

ومع ذلك، كان يلتسين يواجه تحدي تقديم مرشح مقبول لرئاسة الوزراء، فيما

كانت قائمة الخيارات أمامه محدودة لا تزيد عن أربعة، من بينهم وزير الخارجية إيغور ايفانوف، ووزير السكك الحديدية نيكولاي أكسينينكو..

وكان هذان المرشحان ظاهران يُتداول ترشيحهما في الصحافة؛ ولكن استراتيجية يلتسين المعتادة بالتعامل مع مجلس الدوما المعادي، كانت تعتمد أسلوب التلويح بمرشحين مفترضين، يخوض بهم أزمة الترشيح، ثم يفاجئ المجلس بمرشح آخر حقيقي، وهو في تلك اللحظة، كان يحتفظ بترشيحين آخرين للحظة الأخيرة: ستيباشين وبوتين.

وهنا يكون بوتين قد أصبح في أفق الرئيس، خياراً حقيقياً!

ويسجّل يلتسين هنا حيرة بين المرشحين؛ أي، بين وزير الداخلية ومدير الـ«في. إس. بي»، وهما كلاهما نشأا في سانت بطرسبورغ، وعملا مع عمدتها أناتولي سوبتشاك. والاثنان من جيل جديد من السياسيين، ولكن بينهما فارق كبير في السمات الشخصية!

يصف يلتسين ستيباشين بأنه «لين جداً، لديه ميل إلى الإيماءات المسرحية، ولا يبعث على الثقة بقدرته الذهاب إلى النهاية إن وُضِع على طريق ما، ولكنه عند اللزوم قادر على إظهار إرادة قوية، وعزيمة كبيرة، وهو أمر ضروري في الصراع السياسي. وهي صفات من دونها لا يمكن تخيله رئيساً لروسيا». أما بوتين، فهو «على العكس من ذلك، صاحب إرادة وعزيمة».

ومن هذه اللحظة يكون ستيباشين مرشحاً مرحلياً مؤقتاً، ليشغل الوقت الذي يتطلبه المرشح الحقيقي للرئاسة: بوتين.

كان يلتسين، وفق ما يقول، يشعر بأن خروج بوتين إلى حلبة الصراع السياسي، من موقع رئيس الوزراء، ما يزال سابقاً لأوانه. وكان مقتنعاً أنه يجب أن يظهر في وقت لاحق.

كانت الخطة أن يمنح بوتين وقتاً إضافياً ليتردد اسمه بما يكفي، لكي لا يعود

اسماً غريباً، ولا مرشحاً مستهجناً.

يقول يلتسين:

«كان هذا وضعاً صعباً للغاية. من المبكر للغاية تقديم بوتين، في حين يعني أن ثمة وقت يجب إشغاله بشخص ما، لمجرد إعماء الأعين. ولا شيء يمكن القيام به، هنا. ستيباشين مناسب لهذا الدور، وهذا على أي حال يمنحه فرصة لإثبات جدارته. أما بوتين، فسيبقى اسماً مخفياً على كل حال، إلى أن تتضح الصورة. وعملياً، لم يكن أحد يعلم عن هذا الخيار، بما في ذلك بوتين نفسه».

وفي المفاضلة بين بوتين وستيباشين، يتحسب يلتسين لبريماكوف.

«إن بوتين وبريماكوف، وكلاهما ضابط مخابرات سابق، لهما في الوجدان الشعبي الصورة ذاتها، ما يجعلهما يتزاحمان هناك داخل إطار هذه الصورة. غير أن اسم بوتين بالنسبة لبريماكوف شيء منفر للغاية. وقد يكون رد فعل بريماكوف شديداً على تعيينه، ما قد يدفعه إلى قيادة هجوم مضاد في ذلك الوقت الذي يتم فيه الإعداد للتصويت على إجراءات عزل الرئيس».

والخلاصة: «هذا يعطي أفضلية لستيباشين، بعلاقته الودية مع بريماكوف».

وكان لدى يلتسين ما يريحه؛ فقد كان بوتين يبلي بلاء حسناً في إدارة الـ«في. إس. بي»، ونجح في خلق مساحات للاحتكاك مع المجتمع السياسي، تمكن من خلالها تقديم نفسه بقدر مناسب للمجتمع، بحيث أضحى على الأقل مدير الـ«في. إس. بي»، لا مجرد بوتين المجهول.

وهذا كله لم يلغ الحقيقة التي تقلق يلتسين؛ كان وقته ينفد، ولم يعد لديه متسع فيه سوى برهة لتثبيت وريث له، لذا، كان من المحتّم أن ينقلب على ستيباشين بأسرع مما يمكن أن يتصور أحد..

لم تكن قد مضت سوى شهور ثلاثة على تعيين ستيباشين، بينما عمله كان في

بداياته، ولم يكن قد فعل شيئاً أو حدث شيء يدعو لإقالته، ولكنه فعل، أقاله، وعيّن بوتين رئيساً للوزراء خلفاً له.

دائرة القرار

بعد وقت قصير من تعيين بوتين نائباً أول لمدير الإدارة الرئاسية، يوماشوف، لفت الأخير انتباه يلتسين إلى الوافد الجديد، واقترح عليه أن يوليه ملاحظته ومتابعته. ومن المفترض أن هذا الطلب كان له تأثير على يلتسين، وإن كان من غير الوارد أنه كان له أثر فوري..

سبب لفت الانتباه ليس معروف الهدف والغايات، ولكنه مفهوم بالنظر إلى ظروف تلك الأيام، التي كانت تشهد تغييرات متتابعة في الفريق الرئاسي، وبالتالي يمكن أن يكون ذلك جاء بالحاجة إلى تغيير ما في مكان ما. ومن المعروف أن يلتسين عين بوتين بعد وقت قصير من ذلك على رأس الـ«في. إس. بي».

ويبدو أن يلتسين تابع بوتين، وفي خاطره هاجس البحث عن مرشح مناسب يرثه؛ غير أنه من المؤكد أنه بات ينظر إليه بعين هذا الاحتمال بعد الاضطرابات الاجتماعية العاصفة في صيف عام 1998، خصوصاً بعد أزمة «عمال المناجم» الذين عطّلوا السكك الحديدية التي تصل الأنحاء الروسية بعضها ببعض، مطالبين بالاستجابة لمطالبهم، وعلى رأسها دفع أجورهم.

وهنا، لا بد من تذكر أن بوتين كان في تلك الفترة في وضع يستطيع أن يدعم فيه ترشيح سيرغي ستيباشين لتولي وزارة العدل. ومن تكون لديه مثل هذه القدرة، هو بالتأكيد ليس شخصاً مغموراً في وسطه، وبيئة عمله، بل على العكس من ذلك، صاحب نفوذ وتأثير. ومن غير الممكن أن يكون هناك شخص صاحب نفوذ وتأثير في فريق الرئيس، لا يعرفه الرئيس نفسه، أو لا يتواصل معه مباشرة!

وفي تموز عام 1998، قام يلتسين، بناء على توصية من يوماشوف ورئيس الوزراء آنذاك كيريينكو، بتعيين بوتين مديراً لـ«في. إس. بي»؛ فكما يقول

المطّلعون على كواليس تلك الأيام، فإن سلف بوتين في المنصب، نيكولاي كوفاليوف، لم يبد في أفضل أحواله بالتعامل مع أعمال الشغب التي قام بها عمال المناجم، بينما تصرف بوتين على نحو منطقي وبعقل بارد، وطرح أفكاراً معقولة، أظهرت عند تنفيذها فعاليتها.

وهنا، يجب القول، ليس جميع من عملوا في ذلك الوقت جنباً إلى جنب مع بوتين، قدّروا دوره، أو ارتاحوا لتدخّله. وعلى رأس هؤلاء، بوريس نيمتسوف، النائب الأول لرئيس الحكومة، الملقب بـ«ولي العهد» والطامح إلى خلافة يلتسين؛ ما يدعو إلى الانتباه إلى أن بوتين استفاد كذلك من صراع داخل إدارة يلتسين، حول وراثة الرئيس، فوجد من بين أركان الإدارة من يدفعون به تعطيلاً لحظوظ بعض زملائهم.

لذا، فلا غرابة أن يستذكر نيمتسوف بوتين على نحو خاص، فيقول:

«أتذكّر موقفاً هزني من الأعماق. عام 1998، كان عمال المناجم مضربين في جميع أنحاء البلد. ويعتصمون أمام مقر الحكومة بموسكو، مثيرين الصخب بالدق على أواني الطبخ التي أحضروها معهم. لقد عطلوا البلاد بأكملها: السكك الحديدية عبر سيبيريا، والسكك الحديدية الشمالية، والطريق القوقازي.. حينها انشلت حركة السكك الحديدية في جميع أنحاء روسيا».

«وبصفتي نائباً لرئيس الوزراء، ترأست اللجنة المعنية بتسوية الوضع، طلبت عقد اجتماع طارئ، دعوت إليه جميع ممثلي مؤسسات ووزراء القوة. جاء الجميع، باستثناء مدير الـ«في. إس. بي» فلاديمير بوتين.. لقد اتصل بوتين وقال إنه لا يستطيع الحضور لأن كلبه مريض. صدمت تماماً، ولوقت لم أتمكن من استعادة هدوئي. بدا لي سلوك مدير الـ«في. إس. بي» سخيفاً للغاية وغير حكيم وغير مسؤول، ولم أُصدّق ما يحدث. أنا لا أتذكر ما هي المصطلحات التي استخدمتها في الحديث مع بوتين، ولكنها بالتأكيد لم تكن مؤدبة».

هنا، في الرواية التي يوردها نيمتسوف في كتابه «اعترافات متمرد»، لا يبدو

بوتـين، مـدير الـ«في. إس. بي»، الذي يتذرّع بمرض كلبه ليعتذر عن حضور اجتماع هام للجنة معنية بتسوية وضع طارئ يمسُّ الأمن القومي للبلاد، رجلاً ساذجاً، ولا بسيطاً، ويبدو مرتاحاً لدرجة أنه يسخر من مسؤولين حكوميين يناصبونه الكراهية، على نحو مفتوح وصريح.

ومن الواضح أن قوته، مهما بلغت لم تكن لتتيح له أن يأتي بكل هذه السخرية الصريحة في ذلك الظرف الطارئ الذي كانت تعيشه البلاد، ويُقلق الرئيس على نحو استثنائي، لو لم يكن مدعوماً من الرئيس نفسه، ويرتّب معه خطواته.

في الواقع، كان يلتسين يحب أن يكلف أحداً ما بمهمة ما، بينما يفتح خطوطاً أخرى للتعاطي مع نفس «المهمة» عبر أشخاص آخرين على نحو سري. وهذه الحادثة التي يوردها نيمتسوف باستهجان حول كلب مدير الـ«في. إس. بي»، الذي يمنع مرضه صاحبه من حضور اجتماع دولة طارئ بالغ الأهمية، لا يمكن فهمه إلا على هذا النحو: إن بوتين وقتها، كان يعمل مع يلتسين مباشرة على معالجة قضية عمال المناجم المضربين.

وهذا يعني أنه كان في داخل عقل الرئيس، ويحيط به، ويتواصل معه!

لن ننسى هنا، أن بوتين قادم من أوساط «ديمقراطيي لينينغراد» الأوروبيي التوجـه، بينمـا نيمتسـوف يمثـل «ديمقـراطيي موسكو» أصحاب الميـول الأمريكيـة. وهذا كـان واحداً من عناوين الصراع الدائر في النخبة الروسية الجديدة في ذلك الوقت.

كان نيمتسوف حينها قد بدأ يفقد «حب» يلتسين، لذا من المرجح أن الصفات واللحظات التي تفوق بها بوتين على نيمتسوف، أو على الأقل ساواه وعادله فيـها، لعبت دوراً فـي النظـر إليه وريثاً، لا سيما أن منصب مدير جهاز الأمن الفيدرالي جعله أقرب الى مكتب الرئيس، وبات يلتقي على نحو منتظم برئيس الوزراء، والرئيس نفسه مرة في الأسبوع على الأقل.

ويذكر العديد من الشهود أن التواصل بين الرجلين كان جيداً، والحوار بينهما كان يتم على نحو مريح بالنسبة للرئيس؛ كان بوتين في أسئلته وأجوبته يعطي دائماً انطباعاً لطيفاً، ويبدي اهتماماً بروتوكولياً دقيقاً بحديث محاوره الذي يحب أن يراه ويتعامل معه الآخرون على أساس الطريقة التي يرى نفسه فيها، كما امتاز بوتين بقدرته على وضع أفكاره واستفساراته في قالب واضح وسلس، يمتاز بدقة تضفي الأهمية على ما يقول أو على الإجابات التي ينتظرها. وهذا شيء لم يكن من الممكن إلا أن يعجب يلتسين.

بدأت المرحلة الثانية من الاتصالات الحثيثة بين يلتسين وبوتين في آذار عام 1999، بشأن أزمة النائب العام يوري سكوراتوف، في مراحلها المختلفة. وشارك مع رئيس الوزراء يفغيني بريماكوف، ورئيس الإدارة يوماشوف، في الاجتماعات التي عقدها يلتسين بشأن هذا الموضوع.

وفي هذه المرحلة، يمكن ملاحظة أن يلتسين بات يميز بوضوح بوتين من بين المسؤولين الآخرين، إلى درجة توحي بأن التواصل الحثيث تحول إلى علاقة مباشرة، لا تمرُّ بأحد. ولم يقتصر الأمر على وتيرة اجتماعاتهما فقط، فقد جاء تعيين بوتين في ذلك الوقت سكرتيراً لمجلس الأمن القومي ممثلاً لجهاز الأمن الفيدرالي بوابة عبور لإدخاله في دائرة المشورة التي كان يلتسين يلجأ إليها لدى اتخاذه القرارات العديدة.

هذه الدائرة الضيقة، التي ضمّت بالإضافة إلى بوتين، مدير الإدارة الرئاسية فولوشين، وابنة الرئيس تانيا داياتشينكو، ومديري الإدارة السابقين ياماشوف وتشوبايس، لم تكن هيئة أو هيكلاً رئاسياً رسمياً، وبالتالي فإن الانضمام إليها يكون فقط برغبة ورضى الرئيس ومحيطيه.

في آذار ونيسان عام 1999، وصل يلتسين، على الأغلب، إلى قراره جعل بوتين خليفة له، وهذا يعني أن اتخاذ هذا القرار، استغرق نحو تسعة أشهر منذ أن لفت يوماشوف انتباه يلتسين إليه. وهذه فترة تفكير طويلة نسبياً، وشهدت

الكثير من التقلّبات والتبدّلات في البلاد، على المستوى العام وعلى صعيد الإدارة الرئاسية وتشكيل الحكومة وفي العلاقة مع المؤسسات التشريعية.

وبالتالي، من غير الجائز، مع ذلك، القول إن يلتسين اتخذ قراره بشأن بوتين على الفور، وبصورة لا رجعة فيها، ولم يعاين خيارات أخرى؛ إذ تؤكد الشواهد، بما في ذلك مذكرات يلتسين نفسه، أنه منذ شتاء 1999، عاش الرئيس حالة مستمرة من الموازنة بين شخصيتي بوتين وستيباشين، وكان عملياً يتحدث مع الأول، ثم ينعطف إلى الثاني ويبدأ ذات الحديث معه. واستمر الأمر كذلك حتى بعد أن تولى ستيباشين رئاسة الوزراء. أي، في الوقت الذي كان الجميع يعتقدون أن خلافة يلتسين محصورة بين ستيباشين وأكسينينكو، كان الرئيس قد وطّن نفسه على خيار بوتين.

وعلى أي حال، كان بوتين خلال كل تلك المراحل صاحب مزايا لا شك فيها في نظر يلتسين.

كان يجذبه فيه على نحو رئيس أنه ببساطة قوي كشخصية، وأنه قوي في الدفاع عن أفكاره، وموقفه، ويتمسك به حتى النهاية؛ وكانت تعجبه فيه تقنيته في النقاش، إذ أنه اعتاد في حالة فشله بإقناع محاوره، أن يقترح العودة إلى نقطة البداية، بداية الخلاف ومناقشة كل شيء من جديد.

وباختصار، كان يجذب يلتسين بإعطائه انطباعاً عن نفسه يتفق مع مفهوم يلتسين لـ«الرجل»، أي ذلك النموذج الذي يقدم يلتسين نفسه على صورته. وهذا النموذج لم يكن فقط محبباً لدى الرئيس المتداعي، ولكن كان يلزمه هذا النوع من «الرجال» القادرين على الالتزام بما يتعهدون به، ولديهم الجرأة على الدخول في صفقات غير منظورة، ويصعب الدفاع عنها.

وهذا ما لم يكن لدى ستيباشين شيء منه.

وقد كانت هناك لدى يلتسين صفقة عاجلة لا تنتظر بينما لم يتبق لديه سوى

القليل من الوقت؛ لم يعد بإمكانه البقاء في السلطة، بينما خصومه يتجمعون على أهبة الانقضاض عليه، وعلى رأس جدول أولوياتهم محاكمته والتعزير به، وكان بإمكان من هو في منصب رئيس الوزراء لدى انتهاء ولايته، يمكنه أن يخلفه على نحو مؤكد؛ لذا ما ضير أن يأتي برئيس قادر على ضمان حمايته من المصير الذي يُعدّه له خصومه؟

هنا، كان بوتين لا ينتظر أن يختار له الآخرون ما يكون، بل يتخذ قراره في ضوء المتاح، ويسعى أن تكون الفرص من نصيبه هو، ولم تكن الرئاسة بالفرصة القليلة، وإن كان من المرجح أن بوتين لم يدرك حتى ذلك الحين أنها فرصة متاحة له. وعلى الأغلب كان يبذل جهداً ليؤمّن لنفسه شيئاً ما أقل من ذلك بكثير، ولكن الجهد الكبير الذي بذله، أهّله لما هو أكبر بكثير.

أو بالأحرى، أهّله جهده الكبير للمنصب الأكبر والأهم في البلاد!

أفق الرئيس

يقدم يلتسين في كتاب مذكراته «الماراثون الرئاسي»، إجابته الخاصة حول السؤال الذي يشغل الجميع: كيف ظهر ترشيح بوتين في أفق الرئيس؟ ولكن هذه الإجابة لا تبدو محدّدة، إلى تلك الدرجة التي يمكن فيها اختزالها بجملة واحدة. وهذا يعني أن الرئيس المتنحي، صاحب القرار في اختيار خليفته، هو بدرجة ما مثل كثيرين من المهتمين، يبحث عن إجابة، لا يملكها تماماً، ولكن يملكها تقديرياً.

يقول يلتسين إنه بدأ في فترة رئاسته الثانية يلتقي، بترتيب من تشوبايس ويوماشوف وفولوشين، مع نواب رؤساء الإدارات في الإدارة الرئاسية على نحو أسبوعي. ولا يذكر سبب ذلك، وإن كان من المتوقع أن السبب المباشر هو الرغبة في تجديد الفريق الرئاسي، وانتقاء رجال للرئاسة في مجلس الوزراء وإدارات الدولة التي يملك الرئيس صلاحية تعيين قياداتها.

وفي إشارة إلى بوتين يقول:

«لاحظت بوتين عندما ترأس لرقابة الرئيسي في الإدارة، ثم أصبح نائباً ليوماشوف (للعمل الإقليمي)، وأحياناً كان بوتين يتأخر مناوباً، وبهذا كان علينا أن نلتقي في كثير من الأحيان. وكانت تقارير بوتين نموذجاً للوضوح، وكان خلافاً لبقية نواب رؤساء الإدارة يتحاشى قدر استطاعه، ولم يكن يسعى، لعرض وجهة نظره حول العالم وروسيا. وكان في تلك اللقاءات، يستبعد أي عنصر شخصي. وربما كان هذا هو السبب في أنني أردت أن أتحدث معه! لقد كانت تذهلني ردة فعل بوتين السريعة مثل البرق. في بعض الأحيان، كانت أسئلتي، حتى الأكثر تعقيداً، تجعل الناس يحمرّون ويضطربون. بوتين كان يجيب بهدوء وحيادية، وكان هناك شعور بأن هذا الشاب، قياساً لمعاييري، مستعد تماما لكل شيء في الحياة، وسوف يجيب على أي تحدٍّ بشكل واضح ومحدد».

في هذه الإشارة هنالك ثلاثة أشياء: الأولى، أن بوتين كان متوافراً في ظرف تواصل منفرد مع الرئيس، وأمام نظره، في بعض الأوقات، وهو ما يشير إليه بالمناوبات. والثاني، أنه كان يتحاشى فرض نفسه، أو إزعاج الرئيس بفرض شخصيته عليه، وهو ما يشير إليه بعدم السعي إلى «عرض وجهة نظره حول العالم وروسيا». أي، ببساطة لم يندفع إلى شرح نفسه، واحتفظ بشخصيته غامضة، وترك نفسه يصبح لغزاً يسعى الرئيس إلى فهمه. والثالثة، ردة الفعل السريعة والهدوء والحيادية، وهو ما يعني ببساطة الكفاءة والنزاهة.

ويفترض أن تجذب هذه الصفات نحو شخصية بوتين، ولكنها على العكس من ذلك تنفّره منه، فاختلافه لم يبد مريحاً، ولا يشي بأنه يمكن أن يكون جزءاً منسجماً في مجموعة. ويقول يلتسين:

«في البداية، حتى أنه أزعجتني شخصيته، ولكن بعد ذلك أدركت: هذه هي شخصيته».

وسيبقى الرئيس على موقفه هذا إلى أن يستجد جديد. وفي هذا الجديد، تبرز أهمية صفات بوتين، والحاجة إليها. والأهم من ذلك أن صاحبها يقدّمها في سياق الأحداث بوصفها صفات صديقة، ومطلوبة، ورأس مال مهم.

ويكتب يلتسين حول ذلك الظرف المستجد:

«في صيف عام 1998، كنا تقريبا نواجه «حرب السكك الحديدية». في حينها قطع عمال المناجم خطوط السكك الحديدية، ما أدى إلى عزل مركز سيبيريا وجنوب روسيا عن المركز. لقد كان هذا وضعا كارثياً، وجلب هذا كل يوم ملايين الخسائر التي أصابت أشد الناس فقراً: المتقاعدين وموظفي الدولة، ولكن الأهم أن ذلك خلق تهديداً حقيقياً بنشوء اضطرابات سياسية واسعة النطاق، على مستوى عموم روسيا. حينها التقيت مع نيكولاي كوفاليوف، مدير الـ«في. إس. بي». وجدته تقريباً في حالة من الذعر. ومن المحادثة معه أدركت

أن الوضع جديد بالنسبة له. ورداً على سؤالي حول كيفية التعامل مع هذا الوضع، قال إنه لا يعرف. يمكن أن أفهمه: ليست الإضرابات من اختصاص إدارته، ولكن مع ذلك كان هناك تهديد لأمن البلاد موجود بشكل واضح. الصراع السياسي شيء، وتقطيع شرايين المواصلات والنقل في البلاد شيء آخر تماماً».

ويواصل يلتسين:

«كوفاليوف، إداري أمني، ومهني جيد، كان يكنّ في نفسه نفوراً كبيراً من قطاع الأعمال، وممثليه. ولم يكن من الممكن أن يفعل شيئاً إزاء ذلك، لم يكن يحب أصحاب الثروات الهائلة، وتدريجياً تحوّلت إدارته للبحث عن أعداء جدد: كان يبحث عن مستمسكات على البنوك التجارية، على رجال الأعمال، جماعات وافراداً. لم أكن قد نسيت أن محققي الـ«في. إس. بي» شاركوا بنشاط في اختراع «قضية سوبتشاك » في عام 1996. وكان كل هذا خطأً سياسياً واحداً».

حينما ظهرت «قضية سوبتشاك»، عمدة سانت بطرسبورغ السابق، كان يترأس الـ«في. إس. بي» الجنرال بارسوكوف، الذي يدين بالولاء لقائد حماية الرئيس، ألكسندر كورجاكوف، الذي كان حينها الأقرب إلى يلتسين. ما جعل من الضروري ملاحظة أن يلتسين الذي استمال بوتين خلال قضية النائب العام بإظهار التعاطف مع رئيسه السابق سوبتشاك، والزعم بأن سكوراتوف هو من كان وراء ملاحقة عمدة سانت بطرسبورغ السابق، يعود هنا، خلال مواجهته أزمة إضراب عمال المناجم إلى استمالة بوتين بزعم أن كوفاليوف، مدير الـ«في. إس. بي»، هو من كان يقف وراء تلك القضية.

اللحظة المهمة التالية أن هذا الموقف دفع يلتسين إلى التفكير:

«هكذا، في صيف عام 1998، وجدتني أفكّر: من الذي يمكن وضعه بدلاً من كوفاليوف؟ وجاء الجواب على الفور: بوتين! أولاً، عمل بوتين لسنوات عديدة في الأجهزة. ثانياً، مرّ بتجربة إدارية ضخمة. ولكن الشيء الرئيسي، أنني كلما

عرفتـه أكثـر، أصبحت مقتنعـاً: هـذا الرجـل يجمـع صفاتـه بين الالتزام الكبير بالـديمقراطية، وإصـلاحات السـوق ومواصـفات رجـل الدولة الوطني الصلب. وأُبلغ بوتين بتعيينه في وقت تسليمه المرسوم بذلك».

ويصـف يلتسـين بإعجاب عمـل بوتـين في الـ«في. إس. بي»، ومـا اتخذه من إجراءات لدى تسلمه منصبه، فيقول:

«قام بوتين بإعادة تنظيم الـ«إف. إس. بي» بكفاءة عالية. لقد تصرف بشكل إنساني مع كوفاليوف، ولم يمنعه من حل بعض مشاكله اليوميـة. كانت تلك أشياء صغيرة، ولكنها في البيئة العسكرية مهمة جداً. لقد شكل قائمة جديدة للموظفين، وشمل المجلس الجديد، بالإضافة إلى النواب، رؤساء الـ«إف. إس. بي» في موسكو ولينينغراد. وعلى الرغم من أن عددا كبيراً من الموظفين كان يتعين إخراجهم في وقت لاحق، إلا إن عملية إعادة التنظيم جرت بسلاسة، وأود أن أقـول، باحترافيـة. الـهيكل الجـديد لـ«إف. إس. بي» الذي أعاد بناءه بوتين تبين أنه يعمل بكفاءة، رغم أنه تولى منصبه في وقت صعب للغاية، بل في وقت متفجر».

ويمضي يلتسين في الإطراء على بوتين:

«ولكن الأهم من ذلك أن بوتين اتخذ موقفا سياسياً ثابتاً جداً، والمماحكات المستمرة من قبل رئيس الوزراء، الذي أراد إدراج الـ«إف. إس. بي» في دائرة نفوذه، لم تخرج بوتين عن طوره. لم يسمح بوتين بأن يُستخدم في الألعاب السياسية. وفي هذا الصدد، كان قانونه الأخلاقي قوياً لدرجة أنني دهشت. في مجموعات السلطة المليئة بالإشاعات والثرثرة، كان من الصعب جداً حتى على شخص أكثر خبرة أن لا يخلط، ولكن بوتين كان دائماً يحكم المعيار الوحيد الواضـح لأخلاقيـة هـذا أو ذاك الفعـل. والانضـباطيّة الأخلاقيـة لـهذا أو ذاك الشخص. كان دائماً على استعداد لمغادرة منصبه الرفيع، ولكن أن لا يفعل ما كان مخالفاً لمفاهيمه حول الشرف».

فضائل بوتين التي يوردها يلتسين تتجاوز عدم سماحه باستخدامه في «الألعاب السياسية»، إلى ما سوى ذلك، فهو «لم يكن على عجلة من أمره بشأن اقتحام السياسة الكبيرة. لكنه كان يستشعر الخطر بحساسية ووضوح أكثر من غيره، وكان دائماً يحذرني ويلفت انتباهي».

وتحضر يلتسين، لمرة تالية، حادثة انتصار بوتين لرئيسه السابق، أناتولي سوبتشاك، الذي تكالب عليه أعداؤه في الإدارة الرئاسية، وأقاموا ضده الدعاوى القضائية، والملاحقات القانونية؛ ويستذكر قيام بوتين بتهريب سوبتشاك خارج البلاد، وتبدو في عينه فضيلة كبيرة، تفوق ما عداها، وتنمّ عن وفاء وإخلاص باتا يلفتانه على نحو خاص.

يكتب يلتسين:

«عندما علمت كيف أقدم بوتين على تهريب سوبتشاك إلى خارج البلاد، كانت لدي ردة فعل صعبة. لم يخاطر بوتين بنفسه فقط. بل وأثارت هذه الفعلة لدي احتراماً إنسانياً عميقاً إزاءه. وحينما أدركت ضرورة استقالة بريماكوف، رحت أتأمل بألم: من سيدعمني؟ من يقف حقاً ورائي؟ وعند نقطة ما، أدركت: إنه بوتين».

يستخدم يلتسين هنا، تعبير: «ردة فعل صعبة»، لتجنب الإشارة إلى الغضب الذي اعتراه حينها إزاء الخطوة التي أقدم عليها بوتين، ولا تتناسب مع تعاطفه بأثر رجعي مع سوبتشاك.

وعلى أي حال، من الواضح أن خطوة بوتين هذه كانت في أفق الرئيس، وبأثر رجعي بدت تنم عن خصال حميدة، وقيم إنسانية مطلوبة، ويحتاجها هو نفسه، بينما يدرك الوقت عهد رئاسته، ويصبح هاجسه العثور على صاحب وفاء، يلتزم بحمايته، متى ما فقد صلاحياته الرئاسيّة.

ومن الملفت كذلك، إشارته إلى اعتماده على دعم بوتين، بشأن إقالة بريماكوف.

وهذا مفهوم، فجهاز الـ«في. إس. بي»، بإدارة بوتين، كان المؤسسة الوحيدة التي يضمن ولاءها لدى قيامه بصرف رئيس الوزراء ذي الشعبية الكبيرة، في الشارع، وبين القوى السياسية، وفي أروقة مؤسسات الدولة.

من الطريف أن يفغيني بريماكوف يكتب في مذكراته، «لقاءات على مفترق الطرق»، حول سلوك بوتين معه بعد إقالته، فيقول:

«أُحبّ بوتين كإنسان. كان لطفاً كبيراً منه أنه اتصل بي بعد إقالتي من منصب رئيس الوزراء واقترح عليّ اللقاء مع قيادة الـ«في. إس. بي». عندما قلت إنني جاهز للحضور في الوقت الذي يراه مناسباً، اعترض وقال إن الجميع في مجلس قيادة الجهاز يودون أن يأتوا بأنفسهم إليّ، لزيارتي. وبالفعل، عقد لقاء غير رسمي في بيتي الريفي، تخللته كلمات دافئة بحقي. وكانت هذه خطوة ليست بالسهلة، وأعتقد أن بوتين لم ينسق تفاصيلها مع أي شخص».

ويضيف بريماكوف:

«وبصفته رئيساً للحكومة، قبل بوتين الدعوة وحضر عيد ميلادي السبعين، الذي احتفلت به مع أصدقائي بعد إقالتي في واحد من مطاعم موسكو المتواضعة. جاء، وهو يعرف تماماً أنني، بطبيعة الحال، لم أدع أي شخص من الدائرة المقربة للرئيس يلتسين، الذي لم يكن قد أعلن عن نيته الرحيل بعد. ولم يأت فقط، بل قال كلمات لطيفة عني».

قرار بالتغيير

في صباح الرابع من آب، وكان يوم أربعاء، التقى يلتسين رئيس إدارته ألكسندر ستاليفيتش فولوشين. كان يرغب في التشاور معه، حول موعد اتخاذ قرار بشأن رئيس الوزراء الجديد؛ في أيلول أم تشرين الأول أم الآن، في آب.

هذه المعلومة التي يؤكدها يلتسين في مذكراته، تؤكد بوضوح أن خيار تعيين ستيباشين كان مؤقتاً. وحاجته لـ«خيار مؤقت» تعني على أقل تقدير أنه لم يكن قد حسم أمره إلى ذلك الحين بشأن المستقبل: إن كان سيتنحى قبل الموعد أم لا، وهل سيلجأ إلى إجراءات طارئة تتيح له البقاء مدة أطول من الفترة الدستورية، أو إن كان حدّد خليفته.

وليس من السهولة بمكان الجزم إن كان يلتسين احتاج هذه المهلة ليحسم أمره بينه وبين نفسه، أو انتظاراً لاختمار ظروف ما، أم ترقباً للتفاهم مع بعض الجهات، أو الأشخاص، أو مع شخص بعينه، حول هوية الرئيس المقبل.

وعلى العموم، من المؤكد هنا، أن يلتسين كان يواجه إغراءً كبيراً في التفاهم مع جهات، أو أشخاص، أو مع شخص بعينه، حول ذلك، للتأكد من حصوله على ضمانات شأن منحه الحصانة ضد الملاحقة القانونية، هو وأفراد عائلته وحاشيته.

يقول يلتسين: «في الخريف، من الممكن تماماً إيجاد أسباب للإقالة، ولكن لم يكن من الضروري إيجاد أسباب منطقية لإقالة الحكومة. ويمكن ببساطة ذكر السبب الحقيقي: رئيس الحكومة سيرغي ستيباشين ليس من تلك النوعية من السياسيين التي يمكن أن تظهر شخصيتها القيادية في الانتخابات البرلمانية والرئاسية المقبلة».

ويخلص إلى النتيجة التالية: «نعم، الآن سوف تبدو الاستقالة غير منطقية تماماً. حسناً، لا حاجة إلى البحث عن أسباب منطقية لها، وربما من الضروري

تسمية السبب الحقيقي للاستقالة: «بوتين! بوتين هو الشخص الذي أربط به آمالي الرئيسية. هو الشخص الذي أعتقد أنه يمكنني أن أُسلِّمه البلاد واثقاً بقدرته».

وليس هذا فقط، بل يبدو أن الرئيس المتداعي يشعر بالحماس الكبير، إزاء هذه الخطوة التي تمنحه إحساساً بأنه ما يزال قادراً على مفاجأة المجتمع السياسي بخطوات غير متوقعة؛ فلطالما كان مثل هذا النوع من الخطوات يُشعره بأنه حرّ وكلّي القدرة. فيقول:

«آب هو عز ذروة الصيف. سيكون تعيين بوتين مثل الرعد في السماء الصافية. كل شيء سيصبح على الفور أكثر سخونة. ولكن بعد بضعة أسابيع صادمة، ستهدأ الأمور وسيكون لدى بوتين الوقت الكافي للعمل».

بعد هذه التداعيات التي تلخص حوار يلتسين مع رئيس إدارته ألكسندر فولوشين، يطلب من سكرتيره أن يحدد موعدين لاجتماعين منفصلين في اليوم التالي، دون أن يحدّد مع من. ويطلب من فولوشين إعداد الوثائق اللازمة: مرسومي إقالة ستيباشين وتعيين بوتين.

ومن اللافت أن يلتسين يتجنب ذكر حيثيات لقائه مع رئيس إدارته، كما دأب على فعل ذلك في مذكراته مع لقاءات مشابهة أوردها بتفاصيلها المملة. ويحتال على ذلك باستبدال الحوار الذي جرى في الواقع بإيراد ما بدا أنه تداعياته الخاصة. ولذا، هناك أساس لاعتبار هذه التداعيات ملخصاً للحديث الذي دار في ذلك اللقاء. ويضاف إلى ذلك، أن الظروف المحيطة بذلك اللقاء، وحيثيات اللقاء نفسه، تشي بأن رئيس الإدارة جاء إلى رئيسه في هذا اللقاء بعد لقاء آخر حول ذات الشأن مع جهات، أو أشخاص، أو مع شخص بعينه.

ويمكن القول بنفس الدرجة، إن خلفيات هذا اللقاء بقيت مكتومة، بالذات لأنها أثمرت فعلاً عن اتفاق وجد طريقه إلى التنفيذ. وبالتالي، فعلى الأغلب أن رئيس الإدارة جاء إلى اللقاء من مهمة تواصل بموجبها مع الجهات، أو الأشخاص،

الذين كانوا يقدّمون ترشيح بوتين، أو مع بوتين نفسه.

ويمكن هنا، على سبيل الافتراض، محاولة ترجمة تداعيات يلتسين في ذلك اللقاء إلى حوار بينه وبين رئيس إدارته:

من المفترض أن يكون رئيس الإدارة أبلغ يلتسين موافقة الطرف الآخر على إعطاء الضمانات القانونية بتوفير الحصانة له ولعائلته ولحاشيته، وأن الكرة أصبحت في مرماه.

- حسناً، ألكسندر ستاليفيتش. متى نباشر ذلك؟ في أيلول أم تشرين الأول أم الآن، في آب.

- الآن، بوريس نيكولايفيتش.

في هذا الفارق بين المواعيد تختلف مصالح طرفين: الرئيس الذي ينوي التنحي، والطرف الذي يستعد لخلافته. الأول، يرى أن من المنطقي، وهو محق، أن يتم التنفيذ في شهر تشرين الأول. أي قبيل بدء الحملة الانتخابية للرئاسة. حينها، سيكون الإعلان المفاجئ عن رئيس وزراء جديد، وإعلانه خليفةً سياسياً، بداية كبيرة لحملة انتخابية مظفّرة، لا تترك بوقعها الشديد أي فرصة للمنافسين، ما يضمن إنفاذ الاتفاق بتمامه: التنحّي ووصول الرئيس المناسب للسلطة. ناهيك عن أن ذلك يعفيه من حرج الإقالة المبكرة جداً لستيباشين.

وبالمقابل، فإن الطرف الآخر معني بالبدء بتنفيذ الاتفاق فوراً، تجنباً لمفاجآت غير مستحبّة، كأن يغير الرئيس رأيه في لحظة ما، تحت وطأة هواجسه، أو نزعته المعروفة إلى القيام بخطوات مفاجئة تقلب المشهد رأساً على عقب، أو اضطراره إلى ذلك تحت وطأة مستجدات مفاجئة، أو تأثير آخرين.

ويفترض أن يلتسين حاول إرجاء موعد التنفيذ إلى تشرين الأول، لذا قال:

- ولماذا ليس في الخريف. في الخريف، من الممكن تماماً إيجاد أسباب لاقالة

ستيباشين.

- بوريس نيكولايفيتش، لستَ مضطراً لاختلاق أسباب لإقالة الحكومة، يمكنك ببساطة ذكر الحقيقة: رئيس الحكومة سيرغي ستيباشين ليس من تلك النوعية من السياسيين التي يمكن أن تظهر شخصيتها القيادية في الانتخابات البرلمانية والرئاسية المقبلة.

ويمكن تخيل أن يلتسين وافق بعد لأي:

- حسناً.

ويجب التذكير أن هذا ليس مجرد سيناريو افتراضي، بل سيناريو محتمل يستدعي الوقائع والظروف التي كانت تحكم أحداث تلك الأيام. ونعرف من هذه الوقائع، التي يقرها يلتسين نفسه، أن إقالة ستيباشين وتعيين بوتين كان مدار بحث منذ بداية آب على الأقل. وأن رئيس إدارته ألكسندر فولوشين كان يعلم ذلك. ما يدعو إلى التساؤل: من أيضاً كان يعلم بذلك؟

من المعروف، أن بوتين شخصياً، وهو حينها مدير جهاز الـ«في. إس. بي»، كانت لديه الصلات المناسبة، والأشخاص الذين يدينون له بالولاء في الإدارة الرئاسية، إضافة إلى أن جهازه كان يمتلك مثل هذه القنوات، كما أن لديه ما يكفي من «الإجراءات المناسبة» ليكون على علم بما يجري في الرئاسة وفي المساحة المحيطة بالرئيس، وربما بما يفكر به الرئيس نفسه.

وفي الإدارة الرئاسية، بين أركانها ومسؤوليها وموظفيها، كانت هناك شبكات تواصل قائمة على خارطة معقدة من المصالح والمطامح والولاءات، بحيث كان أركان الإدارة الرئيسيين يلتقون من وراء ظهر الرئيس، ودون علمه، ليتداولوا في بعض قراراته بينما هي قيد الإعداد. وبالتالي، فإن من الأرجح أن قائمة محددة من الأشخاص في الإدارة الرئاسية كانوا على علم بقرار يلتسين، سواء مباشرة منه، أو من خلال التواصل بين بعضهم البعض.

في الواقع، كانت صحة يلتسين في العام الأخير لحكمه متدهورة على نحو خاص ودائم، ولم تكن تسمح له بمزاولة مهامه، وكان يفهم أنه سيكون من الضروري تعيين رئيس للوزراء جديد، يصبح رئيساً للبلاد من بعده.

وكان يفهم أن ليس أمامه وقتاً كثيراً. وكان عقله يقوده إلى آخرين لكن كان يصعب فرضهم على مجلس الدوما، فاتجه إلى التفكير بتعيين شخص جديد تماماً، فكان أن وقع اختياره على بوتين. لذا، كان كل المهتمين بوراثة يلتسين هادئين تماماً لاعتقادهم أن بوتين رئيس الوزراء المجهول ليس لديه التأييد ومراكز القوى التي تدعم إمكانية وراثته ليلتسين.

حرب التفضيلات واللعب على تقديم المرشحين لوراثة يلتسين كانت بدأت في أوساط النخبة بعد فترة وجيزة من انتخابات الرئاسة عام 1996. وكان المرشحون أشخاصاً متنوّعين تماماً.

ودون قصد لعب مجلس الدوما دوراً مهماً..

لم يسمح بتمرير ترشيح إيغور غيدار الليبرالي «المتوحش» لرئاسة الوزراء، ولا أعطى فرصة لـ«الاصلاحي» فيكتور تشيرنوميردين، وتسبب بالتخلص من يفغيني بريماكوف، ولم يساعد على إبقاء سيرغي ستيباشين في منصبه؛ فكان كما لو أنه أسهم في توجيه بوريس يلتسين الباحث عن وريث إلى اختيار فلاديمير بوتين، دون سواه.

وأخيرا، كانت الحرب على وراثة يلتسين هي الوتر الأخير في صراع الأجيال: فقد مثّل تحالف لوجكوف بريماكوف جيل الستينات، الذين حاولوا دون جدوى الحفاظ على قمة السلطة. بينما مثل بوتين وفريقه جيل السبعينات، الذين نشأوا في فترة الركود، ورسخت لديهم منذ وقت طويل فكرة استبدال «الحرس القديم»، وتنحيته عن قيادة البلاد.

كان، جيل الستينات، هم أنفسهم، جيل يلتسين. ولم يكن السعداء بتنحي

يلتسين، بعد طول تمنّي، ليصوتوا لأشخاص يمثلون ذلك الجيل، الذي استنفد يلتسين جميع فرصه الممكنة وكل تأييد له.

وكان هذا الجيل، قد تلقّى ضربة قاصمة لأهليته نتيجة عملية البيريسترويكا بآثارها الكارثية المدمّرة، ثم بمحاولته المأساوية في تدارك نفسه بتمرد عام 1991، ثم محاولته الكارثية مع يلتسين بـ«الإصلاحات» الليبرالية واقتصاد السوق في التسعينات. ولم يكن أمامه سوى الانسحاب من المشهد، وإفساح المجال أمام جيل جديد.

ومن اللافت أن يفغيني بريماكوف يفسّر ظهور ترشيح بوتين بطريقة مغايرة نسبياً، ويستبعد أن يكون بوتين كان مرشحاً قبل إقالة حكومة ستيباشين، حيث يقول في مذكراته:

«لا أعتقد أن فكرة ترشيح بوتين للرئاسة كانت موجودة في ظل تعيين ستيباشين خلفاً لي، في رئاسة الوزراء، كما يرد في مذكرات يلتسين. وأنا أعلم أن فكرة ترشيح ستيباشين لمنصب رئيس الدولة،كانت فكرة سياسيين ورجال أعمال مؤثرين، يتصدرهم تشوبايس ومجموعته».

بينما يفسر، من جهة ثانية بوتين بالصراع بين أركان «العائلة» والحاشية المقربين:

«ربما ظهر اسم بوتين كبديل بين أولئك الموجودين في دائرة يلتسين الضيقة، الذين كانوا يخشون اتساع نفوذ تشوبايس، وربما لهذا رغبوا في إشراك مدير الـ«في. إس. بي» الموثوق لدى «العائلة» باعتباره أحد أكثر المسؤولين اطلاعاً في الدولة. وفي الوقت نفسه، كانوا على ثقة أن بوتين هو من يمكن أن يضمن سلامة «العائلة».

عرض عمل

الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، الخامس من آب، التقى يلتسين بوتين؛ كان من عادة يلتسين الاستيقاظ باكراً، وأن يكون في هذا الوقت متأجج العواطف، يتدفق بالحيوية، مليئاً بالطاقة، والرغبة بالعمل، التي تتراجع في العادة ساعات النهار، لا سيما إذا تضمن يومه اجتماعات ولقاءات رسمية. وهذا مفهوم بالنسبة لإنسان لديه ذلك النمط من الارتباط بالكحول.

وبحسب الرواية التي يوردها كل من الرجلين، يلتسين وبوتين، فإن اللقاء بدأ بحديث عام، شرح خلاله يلتسين الأوضاع العامة كما يراها، مشيراً إلى الصراع الشرس في مجتمع النخبة السياسية في موسكو، ثم تعرض بشكل أساسي إلى الحملة الانتخابية، وفرص الحفاظ على الوضع في البلاد تحت السيطرة. وفي هذا المجال جرى تناول الوضع شمال القوقاز بحيثياته المقلقة. وكذلك الصعوبات التي تواجه الحكومة في الحفاظ على مستوى التضخم.

من هذا الحديث، انتقل يلتسين إلى البند الأساسي في اللقاء، فقال:

- لقد اتخذت قراراً، فلاديمير فلاديميروفيتش، وأنا أعرض عليكم منصب رئيس الوزراء.

وبحسب يلتسين، فإن بوتين حدق فيه، وبقي صامتاً.

- ولكن هذا ليس كل شيء..

وواصل يلتسين:

- أنتم تتفهمون لماذا لا بد لي من التخلي عن سلفكم. أنا أعلم أن ستيباشين هو صديقك، و«بلدياتك» أيضاً، ولكن الآن عليك أن تفكر في شيء آخر: يجب أن تحرص دائماً على اتخاذ الموقف الصحيح تماماً، وبقناعة تامة، وبهذه الطريقة فقط سوف تحظى بالشعبية في المجتمع، وتتمكن من تحقيق نتيجة جيدة في

الانتخابات البرلمانية.

من الملفت أن يلتسين أشار إلى أن ستيباشين هو «بلديات» بوتين، وأن هذا يعني له شيئاً؛ وهذا يؤشر على أن الرئيس كان وضع مرشحه منذ وقت مبكر تحت منظار مراقبته. وكما سيتضح لاحقاً أن وفاء بوتين لرئيسه السابق في مجلس مدينة سانت بطرسبورغ، أناتولي سوبتشاك، هو نقطة لعبت دوراً هاماً في ميل يلتسين إلى ترشيحه.

- على من نراهن في الانتخابات؟

سأل بوتين، فقال يلتسين:

- لا أعرف.

من جهة أخرى، من الملفت أن بوتين في أول كلمات لفظها، كان يسأل عن هوية المرشح المقبل في الانتخابات الرئاسية. أي، إن كان ترؤسه للحكومة يعني أنه المرشح الرسمي للرئاسة. ومن الملفت كذلك أن يلتسين تجنب أن يعطي إجابة واضحة، بكلمات صريحة. وواصل الحديث بكلمات تشير إلى أنه يعول على ترشيحه. وهذا يتنافى مع فرضية أن هناك اتفاق مسبق بين الرجلين على الضمانات القانونية حول الحصانة القضائية.

قال يلتسين موضحاً ترتيبات خوض الانتخابات:

- سنبني حزباً جديداً، ولكني، أنا الذي أكثر من أي شخص آخر في التاريخ تعارك مع البرلمان، أعرف كم أنت بحاجة إلى دعم قوي في مجلس الدوما. ولكن أهم شيء هي قدراتك السياسية، شخصيتك، لا داع إلى إنشائها بشكل مصطنع، ولكن بنفس الوقت لا يجوز كذلك أن تنسى هذه المشكلة.

استغرق بوتين في التفكير لبرهة، وقال:

- لا أحب الحملات الانتخابية.

واعترف:

- لا أعرف كيف أفعل ذلك، ولا أحب أن أفعل.

- ليس عليك أن تتعامل معها. أهم شيء هو إرادتك، وثقتك بنفسك، أفعالك، كل شيء يعتمد على ذلك. السلطة السياسية إما تأتي أو لا تأتي، هل أنت مستعد؟

قال بوتين بصوت خافت:

- سأعمل حيث تعينني.

وهنا، سأل يلتسين بنبرة عالية:

- وماذا عن أعلى منصب في البلاد؟

تردد بوتين بالإجابة. وفي التعليق على ذلك يقول يلتسين: «شعرت أنه للمرة الأولى أدرك فعلاً عما يدور الحديث». أما بوتين، الذي كان ما يزال أسير تردده، فقد قال:

- لا أعرف، بوريس نيكولايفيتش، لا أعتقد أنني مستعد لذلك.

قال يلتسين:

- فكر في الأمر. أنا أثق بك.

ومن الواضح أن هذه لحظة لم تجر كما أراد لها يلتسين أن تكون، ولا سارت بالطريقة التي تخيّلها، فهو بعد سرده لهذا الحوار يتحول إلى وصف الجو الذي خيم على اللقاء بعد ذلك، فيقول: «خيم صمت متوتر في المكتب. كل صوت صغير بات مسموعاً بشكل واضح جداً. خصوصاً عقارب الساعة».

ويختتم بملاحظة مفاجئة:

- «بوتين لديه عيون مثيرة جداً للاهتمام، يبدو أنها تقول أكثر من كلماته».

في نفس اليوم، الخامس من آب، دعا يلتسين رئيس إدارته ألكسندر فولوشين ورئيس الحكومة سيرغي ستيباشين إلى مكتبه. ولم يكن موضوع اللقاء بحاجة لكثير من التخمين. وكان اللقاء بالتالي صعباً على رئيس الحكومة، الذي شعر أنه مجرد ورقة في ترتيبات تتخطاه، وتتجاوز على صلاحياته، وتنتقص منه؛ وبذا كان قلقاً.

لم تكذّب ظنونه، فقد ابتدره يلتسين قائلاً:

- سيرغي فاديموفيتش، قرّرت اليوم أن أقيلكم، وسوف أرشّح للدوما فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين رئيساً للوزراء. ولكن الآن، أطلب منكم أن تصادقوا على مرسوم تعيين بوتين كنائب أول لرئيس مجلس الوزراء.

قال ستيباشين بصعوبة:

- بوريس نيكولايفيتش. هذا القرار.. سابق لأوانه.

ولم يلبث أن أضاف:

- أعتقد أن هذا خطأ.

تدخل فولوشين:

- سيرغى فاديموفيتش! ولكن الرئيس اتخذ قراره بالفعل!

فقال ستيباشين:

- بوريس نيكولايفيتش، أرجوكم جداً.. فلنتحدث على انفراد.

أومأ يلتسين برأسه، فخرج رئيس إدارته، وتركه وحده مع رئيس الحكومة. وما أن خلى رئيس الوزراء بالرئيس حتى بدأ يتحدث.. تحدث لوقت طويل. وكانت الفكرة الرئيسية، التي يلحّ عليها هي: «كنت دائماً معك ولم أخنك أبداً»، فيما

أشار إلى أحداث تمرّد مطلع التسعينات وأحداث سنة 1993 والكثير غيرها من الأحداث. ووعد بتصحيح كل أخطائه، والبدء فوراً فى تشكيل حزب جديد.

ويقول يلتسين عن هذه المحادثة: «أدركت أنها بلا معنى؛ لم يكن بإمكاني أن أقاطع ستيباشين بأي شكل من الأشكال. كان على حق في كل شيء: إنه وفيّ، صادق. لم يخني أبداً، ولا يوجد سبب لإقالته، باستثناء سبب واحد، هو الأكثر أهمية: إنه الشخص الخطأ. إننا نحتاج في الصراع الحالي شخصاً آخر!».

وليتخلّص من هذه المحادثة، قال بهدوء:

- حسناً، اذهب، سوف أفكر في ذلك.

وفور خروجه، استدعى رئيس الإدارة، فولوشين، وابتدره بغضب:

- لماذا تبطئ، أحضر لي المراسيم، أنت تعرف قراري.

أحضر فولشين المراسيم، وتهيأ يلتسين لتوقيعها، ولكنه تريث في الأثناء، وقال:

- أخبر ستيباشين عن إقالته بنفسك. أنا لن أستقبله مرة أخرى.

لم يجادل فولوشين طويلاً، ولكنه وضع ملاحظة:

- بوريس نيكولايفيتش، ربما تفكر حتى يوم الاثنين.. أنت تعرف أفضل مني، فقط الرئيس يمكن أن يتحدث إلى رئيس الوزراء حول إقالته.

في اليوم نفسه، تلقى يلتسين اتصالاً من تشوبايس، وبإلحاح شديد طلب لقاءه، فأدرك أن ستيباشين لجأ إلى تشوبايس. لذا، عزم على إقالة ستيباشين، بصرف النظر عن أي شيء، ولهذا حدد موعداً لتشوبايس في التاسعة والربع من صباح اليوم التالي، على أن يلتقي قبل ذلك، في تمام الثامنة، مع ستيباشين.

كان تشوبايس على قناعة أن يلتسين اتخذ قراراً خاطئاً، ستكون له عواقب

كارثية، لا يمكن السماح بتمريره؛ لذا، انخرط على الفور في مقاومة هذا القرار، فبعد اتصاله بيلتسين، وجه جهوده إلى محاولة التأثير على بوتين.

التقى تشوبايس مع بوتين، وحذّره مما وصفه بالضربات الرهيبة التي تنتظره في السياسة العامة. والحجة الرئيسية هي أن بوتين لم يَخبَر ظروف العمل في العلن أبداً، ولا يعرف كيف هو، ومن الأفضل أن يرفض المنصب الآن، بدلاً من أن يرجئه إلى وقت لاحق في ظروف قاهرة.

وختم تحذيراته الكثيرة، ناصحاً:

- فلاديمير فلاديميروفيتش، من الأفضل أن ترفض المنصب الآن، اعتذر عن هذا التكليف!

فقال له بوتين:

- اعذرني. هذا قرار الرئيس، ولا بد لي من تنفيذه. ولو كنت أنت في مكاني لكنت فعلت نفس الشيء.

حينها قرر تشوبايس التصرف من خلال أركان الإدارة الرئاسية.

وكما يذكر كتاب «عهد يلتسين»، الذي يتضمن شهادات عدد من أركان إدارة الرئيس الأسبق، فإن تشوبايس التقى في اليوم نفسه، رئيس الإدارة الرئاسية فولوشين ويوماشوف على نحو عاجل في بيت رئيس الإدارة، الذي أكد لهما أن ستيباشين سيُقال، وسيتعيّن بوتين مكانه. وزاد هذا من سخط وانفعال تشوبايس المعارض لتعيين بوتين رئيساً للوزراء، وكذلك إعلانه باعتباره الرئيس المقبل. وكانت وجهة نظره: «بوتين، بطبيعة الحال، ممتاز كرئيس، ولا بأس به. ولكننا لسنا قادرين على ضمان فوزه في الانتخابات، ونحن ببساطة لا نملك فرصة في ذلك: فهو رجل «كي. جي. بي» سابق، وهو شخصية غير معروفة، والجميع سيعتقدون أن يلتسين أصابه الجنون».

ويتذكر فالنتين يوماشوف، الحديث ذلك اليوم مع تشوبايس، فيقول «لقد تشاجرنا معه في هذا الموضوع، ووصل الأمر إلى حد الصراخ».

كان تشوبايس، الرقم الصعب في النخبة الروسية آنذاك، يعارض بشدّة اللجوء إلى بوتين، وقال رافضاً:

- كيف يمكن إقالة ستيباشين، الذي يكتسب تقديراً متزايداً بين الناس، ويكسب أرضية قوية في مجلس الدوما ومجلس الاتحاد!

وزاد:

- بالإضافة إلى ذلك، هذه الطريقة في التعامل مع ستيباشين هي محض حقارة مثيرة للاشمئزاز. تعيينه اليوم ثم إقالته في اليوم التالي دون سبب. ثم أن هذه التغييرات المتكررة لرؤساء الحكومة كارثية بالنسبة للعمل الحكومي.

وقدم تشوبايس حجة أخرى:

- طالما ما يزال ستيباشين رئيس للوزراء، ومرشحاً للرئاسة، فإن ذلك يقيّد بريماكوف. بريماكوف وستيباشين أصدقاء، وسوف يكون من الصعب على يفغيني مكسيموفيتش أن يتخذ موقفاً ضد سيرغي فاديموفيتش، أو يتعرض له. ولكن إذا ذهب ستيباشين، فإن بريماكوف سيصبح ديكاً مطلق الحرية.

كان تشوبايس متأكداً تماماً من أن عمدة موسكو الطامح الجامح إلى الرئاسة يوري لوجكوف وبريماكوف سوف يوحّدان جهودهما في الاندفاع إلى قمة السلطة، وهذا شيء يصعب على الكرملين وقفه أو مواجهته، لا سيما بشخصية غامضة مثل بوتين.

ردّاً على هذه الحجج قال فولوشين:

- ستيباشين ضعيف، وائتمانه على البلاد خطوة غير مسؤولة.

فقال تشوبايس مكرراً فكرته الأساسية:

- بعد إقالة بريماكوف التي جاءت عكس توقعات المجتمع، فإن إقالة ستيباشين غير المبررة ستبدو إشارة على التفكّك الكامل للكرملين. الجميع سيعتقدون أن الرئيس أصابه الجنون. وسيكون هذا بمثابة إشارة لجميع الأطراف ببدء هجوم للإطاحة بالرئيس: مجلس الدوما، مجلس الاتحاد، قطاعات العمل والنقابات، والخصوم السياسيون.

وهنا، قال فولوشين لتشوبايس:

- حسناً، إذا أمكن إقناع الرئيس أن يتراجع عن إقالة ستيباشين، فإنني سأطلب منه إعفائي من رئاسة الإدارة الرئاسية، وسأقترح عليه تعيينك في رئاستها مرة أخرى، وحينها يمكنك تولي حل الموضوع بالتفاهم مباشرة معه.

وهنا، يتضح موضوع الخلاف مع تشوبايس بدقة، فالحديث لم يكن يدور بالطبع حول إقالة ستيباشين ولا رئاسة بوتين للحكومة، ولكن في اختيار بوتين خليفة ليلتسين في الرئاسة.

ووافق تشوبايس على اقتراح فولوشين.

نقل فولوشين ما دار في الاجتماع إلى يلتسين. وكما وعد، تحدث حول الاستقالة من منصبه لتعيين تشوبايس رئيساً للإدارة الرئاسية، باعتباره أقرب الناس إلى ستيباشين، وذلك لحين إجراء انتخابات رئاسية جديدة.

استمع يلتسين إلى فولوشين، ولم يقل شيئاً، ولكنه أبدى تصميماً على إقالة ستيباشين. ولذلك، لم يكن أمام تشوبايس أي فرصة في تغيير قرار يلتسين، رغم أنه اصطحب معه إلى الاجتماع اثنين من أشهر الأوليغارشيين، وهما ميخائيل فريدمان ورومان أبراموفيتش، الذين كان يعتمد على دعمهما في النقاش، على ما يبدو.

ولكن موعده كان في الساعة التاسعة، بينما الأمور كانت انتهت قد قبل ذلك؛

ففي الساعة الثامنة من ذلك الصباح، التقى يلتسين كل من: فلاديمير بوتين، ونائب رئيس الحكومة نيكولاي أكسينينكو، ورئيس الحكومة ستيباشين، ورئيس الإدارة الرئاسية فولوشين.

تبادل يلتسين التحية مع ستيباشين:

- سيرغي فاديموفيتش، لقد وقّعت مرسوماً حول تعيين بوتين رئيساً للوزراء وإقالتكم.

قال ستيباشين:

- لن أصادق على هذا المرسوم.

تدخل أكسينينكو:

- يكفي، سيرغي فاديموفيتش، يكفي!

قاطع بوتين أكسينينكو:

- نيكولاي يميليانوفيتش، الوضع صعب على الرجل. دعنا لا نثقل عليه.

وهنا، قال ستيباشين:

- حسنا، سأوقّع، احتراماً لك، بوريس نيكولايفيتش.

ويقال إن بوتين كان يرغب في ترؤس واحدة من الشركات الحكومية الكبيرة، مثل شركة منظومة الطاقة الروسية الموحدة، أو «غازبروم»، أو السكك الحديدية الروسية، بحيث يعمل بسلام مع الرئيس المقبل ستيباشين، دون تحمل أعباء مسؤولية سياسية يومية..

وعندما أصبح رئيسا للوزراء، من جديد انتابته رغبة تعطيل المشروع، بقضاء الستة أشهر المتبقية على الانتخابات في منصب رئيس الوزراء، وعدم الترشح لرئاسة الجمهورية.

ويرد بوتين على سؤال زميل سابق له في المدرسة إن كان من الضروري أن يصبح رئيساً، فقال:

- لم يكن من الممكن أن أرفض.

الوريث الصامت

من اللافت أن يلتسين كان قد وصل إلى قرار بنقل سلطاته لفلاديمير بوتين قبل أوائل أيار من عام 1999. أي، قبل تكليف ستيباشين بوقت كاف. وكانت الطريقة الدستورية الوحيدة لفعل ذلك، هي أن يكون بوتين رئيساً للحكومة في لحظة تقديم رئيس الدولة لاستقالته.

في الوقت نفسه، كان سؤال «التوريث» ملحاً، ولا يقبل التأجيل؛ فالرئيس يلتسين كان على وشك إنهاء فترته الثانية ولم يكن يحق له الترشح لفترة ثالثة.

وبصرف النظر عن التكهنات العامة التي شاعت في ذلك الوقت وكانت تجزم بأن يلتسين سيلجأ إلى تعديل الدستور، ليحظى بإمكانية الترشح لفترة تالية، إلا أن الدائرة القريبة من الرئيس كانت تعرف أن ذلك مستبعد تماماً لأنه غير ممكن لأسباب تتعلق بالوضع العام وبيلتسين نفسه.

لم يكن لدى الرئيس حينها التأييد الكافي الذي يجعله قادراً على التمديد من خلال تعديل الدستور، أو بأي وسيلة أخرى، لا داخل مراتب السلطة ولا في الشارع، بينما الوضع السياسي في البلاد شديد التوتر، وموجه بالكامل ضد الرئيس.

وكان الرئيس نفسه، من جهة أخرى، قد أصابه الوهن والتعب، ولم يعد قادراً ولا راغباً في مواصلة الحكم. وكان كل ما يشغله هو تأمين وضع يضمن فيه الحصانة لنفسه ولعائلته.

وكانت الانتخابات الرئاسية تحل في ربيع العام التالي. لذا، كان منصب رئيس الحكومة قد اكتسب أهمية خاصة، لأنه كان معلوماً أن من يكون في هذا المنصب سيكون رئيساً بالوكالة..

ثم، سيكون بحكم الضرورة الرئيس القادم لروسيا!

بمعنى، يمكن الركون إلى مصداقية الأحاديث عن معركة كسر عظم خلال فترة رئاسة ستيباشين للحكومة، بين الأجهزة وأجنحة السلطة، التي رأى بعضها أن الأضمن اللجوء إلى «شخصية محترفة، ولكن ضعيفة»..

وهذا ما كان يبدو عليه بوتين للكثيرين حينها!

ومن جهته، لم يندهش بوتين على نحو خاص حينما عرض عليه يلتسين رئاسة الوزراء. كان يدرك ما يجري على الأغلب، هذا ما لا تقوله، ولكن تشي به الحيثيات التي رواها هو، وكرّرتها السير الذاتية المرضي عنها التي كتبت عنه، واستندت إلى مقابلات معه.

في واحدة من تلك المقابلات يذكر بوتين بعبارة صريحة إنه «كان من الواضح له أن الأمور تذهب في ذلك الاتجاه»، ثم يستدرك على نحو فجائي: «لا أقصد تعييني في المنصب، بل أعني إقالة ستيباشين».

ويقول إن يلتسين لم يسأله ما إذا كان يوافق أم لا على ترشيحه لرئاسة الوزراء. قال فقط إنه اتخذ قراراً بما يتعلق بإقالة ستيباشين، ولم يستخدم معه في حديثه كلمة «خليفة». ولكنه كان يتحدث حول «رئيس وزراء مع مستقبل واعد»، معتبراً أنه إذا سارت الأمور بشكل جيد، فإنه من الممكن النظر في المستقبل.

ويقر بوتين، بأن ستيباشين لم يفعل، عملياً، أي شيء يمكن أن يُقال بسببه. وهو ما يعني: أي شيء يحرمه من فرصته بالرئاسة الأولى. ويقول: «ولكن حسابات الرئيس كانت مختلفة. لم يكن منطلقه، على الأغلب، يتعلق بتلك الأشهر الثلاثة من عمل ستيباشين»..

ومن المهم للغاية فهم تلك الحسابات المختلفة، التي دعت يلتسين أن يستبعد ستيباشين، ويعتمد بوتين، بعدما كان استبعده؛ فهي بكل تأكيد ليست حسابات

سهلة، ولا مجرد نتيجة لخاطر جاءه في الليل قبل أن ينام!

في الأخبار التي تناقلتها وكالات الأنباء العالمية حول إقالة سيرغي ستيباشين، وتعليقاتها حول هذا الحدث «المفاجئ»، نقع على عدد غير قليل من الحيثيات التي تحيط بكواليس تلك الأيام وتلقي الضوء عليها.

في أول مجموعة من الحيثيات نلاحظ أن أمرين يسيطران على اهتمام النخبة الحاكمة، هما إيجاد بديل مقبول منها ليلتسين، ويمكنه توفير حصانة قضائية لأعضائها ضد أي ملاحقات قانونية. وإغلاق القضايا القانونية التي بدأت النيابة العامة بفتحها بالعلاقة مع ملفات فساد معروفة.

في المجموعة الثانية من الحيثيات يتضح أن الإطراء الذي حظي به ستيباشين خلال زيارته إلى الولايات المتحدة أثار استياء يلتسين، وأزعجه كثيراً، وجعله يشعر أن «منزلته» الأمريكية موضع منافسة.

في المجموعة الثالثة من الحيثيات نلاحظ أن يلتسين و«العائلة» أغلقا نهائياً الباب أمام اختيار رئيس وزراء، وبالتالي وريث، من المرشحين تقليدياً لهذا المنصب من «رجال الدولة»، القادمين من الجهاز الحكومي المدني. واتجه اهتمامهم إلى اختيار شخصية ذات صلة بالـ«في. إس. بي»؛ وابتدأوا ببريماكوف ثم ستيباشين وصولاً إلى بوتين.

في المجموعة الرابعة من الحيثيات يتضح أن بريماكوف استبعد بسبب استقلاليته المعززة بحجمه السياسي التي بدا واضحاً أنها تجعله أقوى من الرضوخ لوعوده والتزاماته، أما ستيباشين فقد اتضح أنه أضعف من أن يحمي أي التزام يقدّمه. وعلى خلافهما، جاءت صفات بوتين لتعزز حظوظه.

باختصار، كان يلتسين و«العائلة» قد توصلا إلى أن جهاز الـ«في. إس. بي» هو الجهة التي يجب التفاهم معها، بشأن وراثة يلتسين، والضمانات اللازمة للقبول بإخلاء المشهد السياسي طوعاً. ولكن كان يجب، لإتمام ذلك، امتلاك أدوات

سيطرة على الجهاز، وهذا بدا ممكناً من خلال وضع رجل الإدارة الرئاسية، بوتين، على رأس الـ«في. إس. بي».

بعد تعيين بوتين رئيساً للوزراء، وخلال كلمته المتلفزة، تحدث يلتسين عنه بصفته رئيساً مستقبلياً محتملاً للبلاد، ولفظ هذه الكلمات بنبرة مشدّدة وصوت عال تردد في أرجاء روسيا. ولاحقاً حينما انهمرت على بوتين الأسئلة بعد هذا الحديث مباشرة، قال عبارة شهيرة:

- طالما شاء الرئيس، سأفعل!

ربما بدا ذلك كلاماً لا يعكس الثقة بالنفس، ولكنه مناسب لزمان يمكن فيه لصاحب الوعد أن يتراجع عن وعده، ولمهلة تكفي للخصوم تغيير المعادلة!

أصبح بوتين رئيسا للوزراء، وبعد وقت قصير توفي والده!

كان بوتين قبل ذلك يأتي من موسكو في نهاية كل أسبوع لزيارته، وكان في هذا الوقت مشغولاً جداً، ولكنه مع ذلك كان يظهر في سانت بطرسبورغ مرة واحدة في الأسبوع، ولو لنصف يوم. وكان يخشى كثيراً أن لا يجد الوقت لوداع والده.

وقبل وفاة والده بساعة كان يتحدث معه هاتفياً!

كانت لحظة حزينة، ولكنها كذلك كانت خاتمة قلق ينخر بالنفس: كان يشعر بأنه قريب من والده كثيراً حينما كان في سانت بطرسبورغ، حتى وهو منشغل عنه، ولكن منذ أن استقرت نفسه في موسكو بات يشعر بنفسه بعيداً عنه، حتى وهو معه.

كان قد تأسس شرخ واقعي يفهمه الأب العامل والجندي والفدائي ويؤمن أن الحياة الخاصة تُبنى بالعمل لا بإدارة المؤسسات والسلطة على الناس، ويدركه الابن الذي تتحقق كل نوازعه بالقبض على السلطة، وإدارتها، والتحكم بالناس..

حينما رأى بوتين الأب، العجوز السوفيتي والجندي الفدائي والعامل الشيوعي البسيط، ابنه المسؤول في الإدارة الرئاسية يزوره محاطاً بالحراس الشخصيين وأفراد الأمن المرتبكين، تنهد وقال:

- ياللهول، لقد أصبح ابني قيصراً!

وقال إنه لا يعرف بعد مَن عليه أن يوجب الآخر: الابن أباه؟ أم الأب ابنه القيصر؟ لم تخطئ كلماته هدفها، وستصيب بوتين في الصميم. لم يكن أباً جاهلاً، على أي حال، وكان يعرف في أي مياه يسبح ابنه.

لذا، شعر بوتين بوفاة أبيه أنه أصبح خفيفاً كريشة، وحراً كطائر!

لكن الخفة والحريّة ليستا ضمانة، فموسكو رغم إعلان يلتسين أنه يرى في بوتين خليفة له، لم تهدأ، بل على العكس ازدادت المناورات، وأقسى المناورات هي مناورات اللحظة الأخيرة. وكان عليه أن يواجه أسوأ ما في جعبة موسكو من أحابيل..!

بدأت موسكو تقول: الأمر مجرد خدعة، وبوتين أداة!

وأشاعت موسكو بيقين أن يلتسين يستخدم بوتين لكسب الوقت وصرف الأنظار عن ترتيبات أخرى تجري في الخفاء. لدرجة أن رئيس مجلس الدوما، الشيوعي غينادي سيليزنيف، جاء يقول لبوتين مشفقاً عليه: «لماذا يفعلون ذلك بك. لقد وضعوك على الصليب؟!».

لقد اعتقد الجميع أنها نهاية بوتين، بينما بوتين نفسه لم يكن بوسعه أن يستبعد ذلك!

تحريك الوضع

قبل يومين من تسلم بوتين رئاسة الوزراء نظّم المسلحون المتطرفون في الشيشان هجوماً على داغستان؛ كان هجوماً خاطفاً، مستفزاً بدمويته التي طالت سكان محليين. وبدا منذ اللحظة الأولى أن دوافع الهجوم موجودة في كواليس موسكو المتناحرة، لا في الشيشان التي كانت تحت سيطرة مسلحين محليين وأجانب متطرفين.

ووجد بوتين نفسه أمام التحدي الصعب..!

ولم يكن من مناص، فقد قرّر لنفسه أن مهنته ستنتهي على الأغلب في هذا المنصب. وطالما بات على يقين أن مهنته ستنتهي، تبقى له شيء واحد يفعله، لأجل المستقبل، ولكي يدافع عن نفسه في وجه اتهامات ستنهال عليه بالفشل، إذ قرّر أن يتصدى للمهمة التي فرضها عليه الواقع، وتتلخص في تسوية الوضع في شمال القوقاز.

ولم يكن حينها واضحاً كيف ستنتهي الأمور. ولكن كان من الواضح، بالنسبة له، ولغيره، أن ذلك الوضع، مثل كل الحيثيات الأخرى التي تتعلق بالحركة الانفصالية في الشيشان هي أمر ميئوس منه، وأسوأ ما يمكن أن يربط به السياسي مصيره..

لم يكن ذلك امتحاناً، بل حكماً بالفشل!

وبالنسبة له فإن أول ما فكّر فيه هو أن ذلك الحدث المباغت، الذي مثل تهديداً خطيراً لفرصته السانحة، وضع أمامه فجأة ذلك الملف الذي لم يكن يوماً راضياً عن طريقة موسكو في معالجته.

وقرّر لنفسه أنه يجب أن يكون مستعداً للمغامرة بكل شيء في سبيل تسوية الوضع في شمال القوقاز. وهو على العموم، وفي كل الأحوال، لا يملك شيئاً

مؤكداً، فالفرصه السياسية التي تلوح أمامه بالتقدم في مراتب السلطة في موسكو قد لا تتحقق، ولكن من المؤكد أن لديه فرصة كاملة لتجريب الأسلوب الذي يعتقد بصحته في معالجة الأزمة؛ فاعتبر معالجة ذلك الوضع أولوية..

وليحدث ما يحدث..

كان يكفيه لفعل ذلك المتوسط العادي لعمر الحكومات الروسية، الذي لم يكن يزيد على أشهر معدودة، وبعدها فليقيلوه!

وبالمقابل، كان يعرف بالضبط وبدقة أن كل ما أنجِز في السنوات الأخيرة، في مجال الحفاظ على الدولة، في شمال القوقاز، «هو مجرد تكتيكات لتحقيق أهداف سياسيّي موسكو الأنانية، وعمل هواة». وأنه قادر على القيام بعمل حقيقي يغيّر المعادلة.

وحينها، كانت الأمور تدار بطريقة غير مسؤولة؛ فوفق ما يقول بوتين «من جهة يستعدون المجتمع على الجيش، إلى درجة أن يخجل الجندي من جنديته، وبعد أن يقنعوا الجندي بأنه مجرد قاتل، يرسلونه للقتال. هكذا كان الحال بعد انهيار الاتحاد السوفيتي».

وبالمحصلة، طرح بوتين سؤاله الأخطر: «في نهاية النهايات، ما جوهر ما كان يحدث في شمال القوقاز والشيشان؟».

ويجيب عليه: «كان ذلك ببساطة استمراراً لانهيار الاتحاد السوفيتي. ومن الواضح أيضاً أنه يتوجب إيقاف ذلك دفعة واحدة. نعم، لبعض الوقت كنت آمل أنه مع النمو الاقتصادي وتطوير المؤسسات الديمقراطية، سيتباطأ العملية من أسفل. ولكن الحياة والممارسة أظهرت أن هذا لا يحدث».

وبالنتيجة يتوصل بوتين إلى الحقائق الجذرية:

- «ما يحدث ليس قضية داخلية، حتى وإن كان المحركون محليين!».

- «ما يحدث هو عبث واسع النطاق بالحقائق الجيوسياسية التي تتأسس عليها الدولة. محاولة لخلخلتها، وتغييرها».

لذا كان قراره المباشر إزاء الهجوم على داغستان، كالتالي: «إذا لم يُوضع حد لذلك، فإن روسيا دولةً، في شكلها الحالي، لن تعود قائمة».

وبما يتعلق بمستقبله المهني والسياسي وصل إلى قناعة بأن مهمته الأساسية في وقف انهيار البلاد هي بحد ذاتها مكسب يفوق، في أهميته، الحيثيات الجانبية المتعلقة باحتفاظه برئاسة الحكومة، وبالتالي، الحفاظ على فرصته بتولي رئاسة روسيا نفسها.

وفي موازنة سريعة يصل إلى أن وقف انهيار البلاد هو، بحد ذاته، إنجاز تاريخي، يحظى العديد من الرؤساء بفترات رئاسية عديدة، ولا تتسنى لهم الفرصة لتحقيق إنجاز مثله.

ويصل إلى قناعة مفادها أن المفاضلة بين فرصه السياسية وهذا الإنجاز، واضحة، ولا موجب للحيرة فيها!

عندما أعلنه يلتسين خليفة له اعتبر الجميع أن هذه هي بداية النهاية بالنسبة له. أما هو فحاول أن يكون هادئاً تماماً، وعملياً، لم ينشغل بالأمر، فقد أدرك أن الأمور لم تعد معلقة بمزاج شخص هو الرئيس، بل بكيفيّة تصوّره هو، رئيس الوزراء، لهذه المهمة التي فرضها الواقع عليه. وكانت هذه المهمة مناسبة له تماماً، لدرجة أن خصومه انقلبوا يقولون إن هجوم المسلحين على داغستان صُمّم خصيصاً لتثبيته في السلطة!

عموماً، حدد لنفسه أولوياته: يحتاج وقتاً قصيراً لتوحيد جهود القوات المسلحة ووزارة الداخلية والـ«في. إس. بي»، ليحصل على دعم المجتمع. ولم يكن يُشغله سوى الخشية من أن لا يكفيه الوقت المتبقي له في الحكومة.

للوهلة الأولى، كان اتخاذ القرارات ببدء حملة عسكرية في داغستان، ثم في

الشيشان، أمراً لا يتخيله أحد. لم يكن أحد يتصور أن بوسع رئيس الوزراء الشاب الجديد اتخاذ مثل هذا القرار، أو أن يلتسين يمكن أن يسمح له باتخاذه. لا سيما وأن أصداء فشل أول عملية عسكرية في الشيشان تعيقه، وتجعله يتردّد ويفكّر ألف مرة.

ولكن اتضح أن رئيس الوزراء الجديد، في شخص بوتين، ليس لديه أي استعداد لانتهاج أسلوب آخر للتعامل مع الموقف. وعلى غير توقع دعمه يلتسين، وأظهر تأييده له تماماً، وبدا على نحو ما أنه يثق به، إلى حدّ أنه تجنّب التدخل بعمله. واكتفى بالمراقبة، بينما كان رئيس الوزراء يقود الحملة ويقدم له بشكل دوري التقارير حول سير العملية.

ويقول يلتسين مستذكراً أن رئيس الوزراء الجديد، بوتين، قرر بنفسه تنفيذ مهمة وحيدة خلال شهرين أو ثلاثة، وهي: إنقاذ وحدة البلاد. وكان يدرك أن الحالة في الشيشان ستنتشر في كل القوقاز، ومن ثم سيتمكن الانفصاليون، وبمساندة من الخارج، البدء بعملية فصل الأقاليم الأخرى عن روسيا. وكان انفجار الانفصالية ينذر بتفكُّك البلد نهائياً الى عدة أجزاء وتطور النزاع الديني والإثني في كل الأراضي الروسية، وبكارثة إنسانية تفوق ما حصل في يوغسلافيا.

ويستذكر يلتسين:

«راجعني بوتين وطلب مني تفويضه بصلاحيات مطلقة لأجل قيادة عملية حربية والتنسيق بين هياكل مؤسسات القوة كافة. أيّدته بلا تردد، فاستطاع أمام عيني تغيير طبيعة عمل مؤسسات القوة بشكل جذري في غضون أسابيع معدودة».

كانت مسؤولية تلك الحملة العسكرية تقع على عاتق بوتين، ولم يتردد في حملها. وكان كل المعنيين تقريباً يشكّكون بعقلانيتها، وبجدواها، ويتنصلون منها، بانتظار أن يتكسّبوا من وراء فشلها، أما بوتين، فاندفع إلى القيام بمهمته

التي اختارها..

كان يجتمع مع قيادات الصف الأول في وزارة الدفاع، وهيئة الأركان العامة، ووزارة الداخلية، يومياً. وأحياناً مرتين في اليوم، في الصباح والمساء، إلى درجة أن البعض راح يقول بأن الأمور باتت تدار بأسلوب التحكم اليدوي المباشر، كما عُزّز التعاون والتنسيق بين مؤسسات القوة. وأول شيء قام بالتغلب عليه هو تفكك الإدارات. ذلك الوضع الذي لا يستطيع فيه الجيش أن يفهم ماذا يفعل قادته في وزارة الدفاع، وهؤلاء لا يستطيعون فهم ما يفعل زملاؤهم في وزارة الداخلية، ولماذا يفعلون ما يفعلونه، في حين يغرق جهاز الأمن الفيدرالي في انتقاد الجميع دون أن يتحمل مسؤولية إزاء أي شيء. وكان يتوجب حل هذه المعضلة، وجعل الجميع في هذه المؤسسات يتصرفون بوصفهم فريقاً واحداً، ونجح في ذلك.

وكان شعاره:

- إذا لم نوقف المتطرفين، فإننا سنجد أنفسنا نواجه يوغوسلافيا ثانية في روسيا!

لم تكن القضية بالنسبة له في انفصال الشيشان، بل كانت في التهديد الذي يخيّم على البلاد. فلم يأبه بالانتقادات القاسية التي انتشرت في طول روسيا وعرضها، وأصبحت الموضوع المفضل للسياسيين في المعارضة وأروقة السلطة. وكان يؤكد أن المسألة الشيشانية لا تتمثل في استقلال الشيشان، بل في المسعى لإيجاد قاعدة ومنصّة لإطلاق مزيد من الهجمات على روسيا!

ويمضي بوتين في تخيّل ما سيحدث لو تركت الأمور على عواهنها، وتم وأُصغي إلى الأصوات التي عارضت المعالجة العسكرية للأزمة، ويصل إلى استنتاجات محددة:

أولاً: «ستنتقل الحرب إلى داخل روسيا وأعماقها».

ثـانياً: «سيقود غرق البلاد الروسية الشاسعة في فوضى داخلية إلى خلخلة الواقع الجيوسياسي، بما يهزّ العالم القديم بمجمله».

ثـالثاً: «سـتجتاح أوروبـا أكبـر موجـة هجـرة لاجـئين عرفـها التـاريخ. فكم من اللاجئين سوف تحتمل أوروبا وأمريكا؟ ذلك سيكون بالتأكيد كارثة كونية».

رابعاً: «سيتطور الأمر إلى وضع لم تكن فيه أي قوة عسكرية لتكون قادرة على وقف تفكّك البلاد».

خامساً: «كـانت البـلاد سـتصل إلـى مرحلـة إعـلان التعبئـة العامـة واسـتدعاء الاحتياط وإرسالهم للقتال، ما يعني الدخول في حرب على نطاق واسع بالمعنى الفعلي للكلمة».

سـادساً: «لن ينتهي الأمر فقط بالاضطرار للموافقة على تقسيم البلاد، حيث سيتحول الكثيرون من قادة المناطق والأطراف الساخطين على السياسات الحكومية إلى قادة انفصاليين. بل ستسير الأمور على هذا المنوال إلى أن تكف روسيا عن الوجود في النهاية».

ويستنتج بعد مقارنة المدى الذي يمكن أن تبلغه المأساة الإنسانية في حال تُركت الأمور على عواهنها، مع الوضع الناشئ عن الحملة العسكرية، أنه كان يجدر بالفعل العمل بالطريقة التي عمل بها، وربما بقسوة أشد.

كان ذاع، مرّة أخرى، في العاصمة الروسية، رأي يقول أن التفجيرات التي طالت مبان سكنية في موسكو ومدن أخرى، جاءت في وقتها المناسب لتخدم جهود بوتين على نحو مثالي. ثم تطور هذا الرأي ليقول إن هذه التفجيرات لم تكن محض مصادفة، ولكنها تناسبت مع الحاجة إلى تبرير العملية العسكرية في الشيشان، وصولاً إلى القول بأنها نُظّمت عن طريق الـ«في. إس. بي»!

وكان ذلك إشارة إلى أنه يواجه حرباً سياسية داخلية!

وكانت هذه حرباً شرسة ضروس، يخوضها الفرقاء الداخليون دون التفات للكارثة المحدقة، بل إن كثير من هذه الأطراف كانت على هذا النحو أو ذلك مشاركة في اللعبة، أو تصب الزيت على النار بهدف حرق يديّ رئيس الوزراء الجديد؛ غير أن بوتين الذي كان يفهم ما يجري، لم يلتفت إلى ذلك كله، وانصرف بكل طاقته وجهده يواجه الأزمة، وقد حدد هدفه ولخصه بفكرة واحدة: الهزيمة النهائية للمتمردين.

وكان يعرف ما يجب القيام به لمعالجة الأزمة في بيئتها الشيشانية.

في البداية، يجب إنهاء العملية العسكرية بنجاح، وهذا يعني تحطيم مجموعات المسلحين. وبموازاة ذلك، العمل على تعزيز دور مؤسسات إنفاذ القانون واستعادة سيطرة الحكومة، والاهتمام بحل المشاكل الاجتماعية المتراكمة، وتحديداً المدارس والمستشفيات، والبدء بإيجاد فرص العمل. ثم إجراء انتخابات، وتنفيذ عملية ترميم سياسي، مثل إجراء انتخابات فرعية لمجلس الدوما في الشيشان، بحيث يكون للجمهورية نوابها في المجلس.

وبتطور الأمور، يمكن إدخال الحكم الرئاسي المباشر، لمدة كافية سنة أو سنتين. وخلال هذا الوقت يتوجب بالكامل إحياء وتعزيز جميع أجهزة الحكم والإدارة ثم الانتقال إلى غير ذلك من الإجراءات السياسية: انتخابات السلطات المحلية، ورئاسة الجمهورية. وإعداد التسهيلات اللازمة والأشخاص الذين يمكنهم العمل في إدارة المؤسسات.

ولكن الضمانة الأساسية، والقاعدة التي بدون توافرها لا يمكن التفكير بالحل، هي تدمير المسلحين أياً كانوا.

أما الآخرون بصرف النظر عن مواقفهم وانحيازاتهم، فمن الممكن التعامل معهم، والحديث معهم حول المستقبل، والسماح لهم بالمشاركة في اختيار رئيس الجمهورية الذي يرتضونه. ويمكن حتى القبول بتوقيع اتفاق معهم..

ولكن لن يتم ذلك، بأي حال من الأحوال، في ظل وجود المسلحين!

كان التأكيد، قولاً وفعلاً، على هذه المعادلة، قد أرسل إشارة قوية إلى المواطنين أن رئيس الوزراء الجديد لم يذهب إلى الشيشان في «تجارة سياسية» لتعزيز فرَصِه في موسكو، ولكن للحفاظ على الدولة.

وبالنتيجة، بدا المجتمع يرى في بوتين قائده المستقبلي، لا سيّما بعد أن عادت الأوضاع في داغستان الى مجراها الطبيعيِ. وحينما لعلعت التفجيرات المرعبة في موسكو ومدن روسية أخرى، برز بوتين لمواجهة الموقف، وتحمُّل مسؤوليته، ولم يختبىء وراء الأعذار التي اعتاد الآخرون اللجوء إليها، فاستطاع بأسلوبه وإدارته للأزمة أن يبعث الأمل والشعور بالأمان والطمأنينة في مواطنيه، وبالنتيجة حقق نصراً مضاعفاً في عدة معارك معاً؛ منها ما كان دائراً فعلاً، مثل الحملة العسكرية، ومنها ما كان يجري ضمناً، مثل موقف الشعب منه، والحرب السياسية في موسكو.

وانتصر، حينها، كذلك، في حروب لم تكن قد بدأت بعد، وأهمها الانتخابات الرئاسية!

وبرغم ذلك، كانت الحملة العسكرية في الشيشان وقوداً يغذي معارك سياسيّي موسكو ضد بوتين، ومصدراً لضغوطات خارجية شديدة على يلتسين تستهدف رئيس الوزراء «العنيف»، و«غير الديمقراطي».

نهاية مفتوحة



كل ما يشاء الرئيس

في الوقت الذي كان فيه بوتين يعتقد أنه سيدفع ثمن الحرب الشيشانية من مستقبله السياسي، أصبح رئيساً بالوكالة، وربما يكون ساعد في ذلك أنه لم يرهن سلوكه بفكرة وراثة الرئاسة.

عندما قال له يلتسين إنه ينوي ترك الرئاسة في وقت مبكر، لم يحاول ثنيه عن ذلك، ولم يتعجب، ويغرق في شكره، ويؤكد أنه سيكون على قدر الثقة التي منحنه إيّاها.

كان أول رد فعل له هو: «أنا لست مستعداً لهذا بعد»..!

يقول، إنه عندما عيّنه رئيساً للوزراء، اعتبر ذلك أمراً مهماً، وتشريفاً كبيراً. ووجده تطوراً مثيراً. كان متوسط عمر الحكومات حينها قصيراً جداً، أي أنه، توقّعَ أن يمضي في ذلك المنصب مدة عام في أفضل الأحوال، وكان هذا أمر جيداً بالنسبة له. كان لديه ما يفعله، ويريد أن يفعله، ومهلة عام كافية لإظهار أن بوسعه أن يفعل شيئاً في وقف انهيار روسيا، سيكون بوسعه حينئذ أن يفاخر بعمله، وأن يفرض تجربته على الساحة السياسية!

قبل أسبوعين أو ثلاثة من العام الجديد دعاه يلتسين إلى مكتبه وقال إنه قرر ترك منصبه. وبالتالي، فإنه بحكم كونه رئيساً للوزراء سيصبح رئيسا للبلاد بالوكالة. ونظر في وجه، وانتظر ماذا سيقول.

بقي بوتين الجالس ينظر إلى رئيسه، صامتاً!

راح يلتسين يتحدث بمزيد من التفصيل، تحدث عن تجربته مع السياسة والرئاسة، وبدأ كمتقاعد قديم يتذكر الأيام الخوالي؛ تثير بعض الذكريات انفعاله فيبتسم بينما يشد قبضـ[illegible]رتفع صوته، ثم يخبو عند الوصول للحديث عن أخرى، فيبدو مرهقاً يجاهد لإنهاء الكلمات التي بدأ بقولها.

وأنهى يقول، إنه يريد أن يعلن استقالته قبل الموعد.

قال بوتين:

- أتعرف، بوريس نيكولايفتش، لنكن صادقين، لا أعرف إذا ما كنت مستعداً لهذا، وإذا ما كنت أريد ذلك أم لا، فهذا قرار صعب بما يكفي.

تلك طريقة بوتين المعهودة، في التماسك أمام الإغراء. رجل الاستخبارات القديم لا يقبل بالمعلومات المجانية، ويتشكّك بالأشخاص الذين يبادرون بالانضمام إليه من تلقاء أنفسهم، ولا يطمئن للأشياء التي تحصل «لوحدها»..

كان من الواضح أن يلتسين ليس مرتاحاً لردة فعله. كان ينتظر بعض الامتنان؛ لقد قضى وقتاً يرتّب لخروجه من الرئاسة، واختار موعداً يرضي أناه المتضخمة، لقد قرر أن يغادر مع القرن العشرين!

رتب لذلك، وبعد المفاضلة بين بوتين وستيباشين، قرّر أنه يطمئن إلى ستيباشين أكثر، فكلّفه بتشكيل الحكومة في الصيف لكي يأخذ وقته في استلام الأمور، ووضع يده على السلطات. ولكن زوبعة داخلية اضطرته للعودة ليختار بوتين، فأقال ستيباشين، وجاء ببوتين رئيساً للحكومة، وأعلن على الملأ أنه يريده خليفة له.

وها هو «الخليفة» يلعب دور الزاهد في السلطة!

ولكن لم يكن أمامه سوى قبول اللعبة بالشروط المفروضة عليه: سيزهد بوتين بالسلطة، بينما سيلعب هو دور طالب الخدمة الممتن؛ إذ لا وقت كاف لتدبير خيار آخر، إضافة إلى أن ذلك غير ممكن، فإرادته تقابلها إرادات، وإرادة المنسحبين أضعف من إرادة المتشبثين بالسلطة.

لم يكن من خيار سوى استخدام الأبوية.

قال يلتسين:

- أنا نفسي، عندما جئت إلى هنا، كانت لدي أيضاً خطط أخرى، ولكن الحياة سارت بهذا الاتجاه. لم أكن أريد ذلك، ولكني وجدت نفسي فيما بعد أقاتل من أجل الرئاسة. وأعتقد أن الأمر كذلك بالنسبة لك، الحياة تدفع بهذا الاتجاه، وسيتوجب عليك اتخاذ قرار.

لبث يلتسين لحظة صامتاً، ولكن كان من الواضح أن بوتين الذي يصر على لعب دور المنصت المطيع، الغافل عن أهمية ما يُعرض عليه، لا ينوي قول شيء في التعليق على تلك الكلمات، التي قالها الرئيس الذي يحاول أن يجعل من مناسبته الحزينة شيئاً مفرحاً، ولو لغيره، فقال كأنما يقرّر عن بوتين:

- إن بلدنا ضخمة جداً، ولكن مع ذلك سوف تنجح!

لم تبدر عن بوتين أي بادرة انفعال، وبقي يتصرف كشخص غارق في تفكير جدي عميق بمهمة مُجهِدة، وكإنسان يواجه عرضاً مقلقاً. وعملياً، لم يترك سعادته تظهر على وجهه وتزاحم اللحظة الحزينة الجاثمة على المحادثة، وعلى صدر محدثه، الذي يعرف أنه كان طوال الوقت يبحث عن مخرج آمن، ولم يتح له أن يختاره على هواه.

وهمس بنبرة حزينة:

- بوريس نيكولايفيتش؟ لم أتعامل بجدية مع تسميتك لي «خليفة» لك!

وكان يلتسين سيجد في هذه العبارة عزاء كبيراً لو استطاع تصديقها، ولكنه لم يكن يستطيع ذلك، فعاد يسأل:

- نعم أم لا؟

لم يجب بوتين. لبث صامتاً. لم يكن صمته يعني الرفض، ولكنه لم يكن قبولاً صريحاً بعد، رغم أنه عنى الموافقة، فانطلق يلتسين يتحدث عن بعض الحيثيات اليومية في حياته وعمله. كان يبدو بنبرته الشاكية، رجلاً وحيداً

يستأنس بسماع صوته. لم يكن مهماً ماذا يقول. المهم أن يتحدث، ويسمع صوته بينما يخرج.

انتهت الأحاديث الجانبية، وخبت رغبته في سماع صوته. وكان عليه أن يغادر. فنظر في عيني بوتين وبنبرة من يسأل ليتأكد مما فهم، قال:

- أنت لم تجب على سؤالي.

كان يطالبه بالإجابة النهائية، فنظر إليه بوتين وقد أدرك أن اللحظة حانت، فطرح يلتسين السؤال بصيغته الواضحة:

- إذن، أتريد أن تكون رئيساً، أم لا؟

والطريف، الذي ربما ليس دون معنى ومغزى، أن بوتين يروي في كل أحاديثه المصورة أو المقروءة كل تفاصيل هذا اللقاء، ويقفز عن كلمة «نعم»، التي يفترض أنه قالها في الختام..

إنه لا يذكرها أبداً، يقفز عنها، ويحذفها في مونتاج سريع!

لم يحدّد يلتسين موعداً لهذا التنحي، وبقي الأمر باعتباره خاطراً طرأ على بال الرئيس، ليس مشروطاً بالتحقق القريب. وبالأصل، كان بوتين يتوقع أن يتلقى اشعاراً ما في وقت مناسب، في حال قرّر الرئيس تنفيذ رغبته التي أسرَّ بها إليه، ولكن ذلك لم يحدث.

في الثامن والعشرون من كانون الأول 1999، سجل فريق القناة التلفزيونية الأولى التهنئة الرئاسية الاعتيادية للشعب بمناسبة السنة الجديدة في الكرملين. كان هذا تسجيلاً روتينياً، يتكرّر من عام لعام، ولكن هذه المرّة، تفاجأ الفريق التلفزيوني بالرئيس يلغي التسجيل ويطلب إعادته في اليوم الأخير من العام.

قال بغير رضى:

- نبرتي جاءت جافة، والنص نفسه لم يعجبني. يجب أن نعيد كتابته.

استدارت الوجوه نحو الرئيس بادي الانزعاج، يعلوها الاندهاش من موقفه غير المتوقع.

- لماذا، بوريس نيكولايفيتش؟

- يجب إعادة العمل على النص، أُعطيكم ثلاثة أيام. سوف نصور التهنئة في 31 كانون الأول.

ظهر الارتباك على الطاقم التلفزيوني:

- بوريس نيكولاييفيتش، لماذا في الحادي والثلاثين؟ إذاً، متى يمكننا أن نجري المونتاج؟! إذا كانت لديكم بعض الملاحظات، يمكننا الآن..

- أكرّر مرّة أخرى؛ سوف نصور التهنئة في الحادي والثلاثين.

وخرج.

لم يدرك أحد أن الأمر هذه المرّة لا يتعلق بواحدة جديدة من نزوات الرئيس، بل بواحد من أهم قراراته الرئاسية. ومع ذلك، فإن قناعتهم التي ذهبت إلى تفسير الأمر بميل الرئيس المعتاد إلى الارتجال والخطوات المفاجئة، لم يكن بعيداً عن الحقيقة؛ فقد خطر للرئيس أن هذا التسجيل الروتيني، الذي يتكرّر عاماً بعد عام على نفس المنوال، مناسب تماماً لإلقاء قنبلته الأخيرة: **إعلان تنحّيه عن رئاسة البلاد.**

ولتحتفظ هذه القنبلة بوقعها يجب ابقاء مضمونها طي الكتمان التام!

عاد إلى مقرّه في ضاحية «غوركي»، واستدعى رئيس الإدارة الرئاسية الكسندر فولوشين والرئيس الأسبق للإدارة، المقرب منه، فالنتين يوماشيف، وقال لهما:

- ألكسندر ستاليفيتش، فالنتين بوريسوفيتش، استمعا إليّ بعناية. أريد أن

أبلغكما بقراري. في الحادي والثلاثين من كانون الأول، سأستقيل.

نظر إليه فولوشين بعينين جمدتا في محجريهما. كما تجمد يوماشيف أيضاً بلا حراك، في انتظار ما سيقول بعد.

- من الضروري إعداد المراسيم اللازمة وخطاب التنحي.

كان فولوشين ما يزال يحدّق بالرئيس بذهول.

- ألكسندر ستاليفيتش، حسناً.. الرئيس يعلن لك أنه يتنحى، وأنت لا تبدي أي ردّة فعل. في النهاية هل فهمت ما قلت؟

انتفض فولوشين:

- بوريس نيكولايفيتش، فهمت، بالطبع. وبطبيعة الحال، من موقعي كرئيس للإدارة، ربما يكون عليّ أن أحاول ثنيك عن ذلك، ولكني لن أفعل. القرار صحيح، وقوي جداً.

من جهته، قال يوماشيف وقد لَفَته التوقيت الذي اختاره الرئيس، فردد قائلاً باستحسان:

- قرن جديد! رئيس جديد!

وضع الثلاثة خطة عمل إرشادية ليوم إعلان الاستقالة في الحادي والثلاثين من كانون الأول؛ إعداد المراسيم والوثائق القانونية، وفي أي لحظة سيُصوّر الخطاب، في أي لحظة ستُوقّع المراسيم، وإرسال رسائل إلى مجلس الدوما ومجلس الاتحاد. ومع من الضروري أن يجتمع الرئيس، ومع من يجب أن يتحدث هاتفياً.

في المساء دعا يلتسين ابنته، تانيا، وأبلغها أنه سيعلن استقالته عشية العام الجديد تماماً؛ ومثلها مثل أركان الإدارة الرئاسية وجدت ذلك قراراً «رائعاً».

وفي صباح التاسع والعشرين من كانون الأول. استُدعي بوتين إلى الكرملين، حيث أبلغه الرئيس بقراره، ووضعه بصورة كيف يجب أن تتم الأمور، وبأي تسلسل؛ البث التلفزيوني، ثم توقيع المراسيم، ونقل الحقيبة النووية، ثم الاجتماعات مع مؤسسات إنفاذ القانون، وما إلى ذلك.

في الحادي والثلاثين من كانون الأول كانت الأمور معدّة؛ وصل بوتين في الساعة التاسعة والنصف، وبحضوره وقع الرئيس المراسيم اللازمة. ثم سُجّلت التهنئة الرئاسية بالعام الجديد من الفريق التلفزيوني الخاص بالكرملين، وحملت هذه المرّة ما هو أكثر من التهنئة التقليدية بالعام الجديد: الرئيس يتنحى.

وعلى الفور، أُرسِل التسجيل بيد يوماشيف، وتحت حراسة أمنية مشدّدة، إلى القناة التلفزيونية الأولى. وكُلّف يوماشيف أن يتأكد بنفسه من بثه في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً بالضبط.

كان ثمة لقاء مع البطريرك الكسي الثاني.

دخل البطريرك مكتب يلتسين متثاقلاً. وحينما أبلغه الرئيس بقراره، صمت لبرهة ينظر في وجه محدثه، ثم قال بسكينة وارتياح:

- قرار رجولي.

قال البطريرك مستخدماً تعبيراً بعيداً عن اللغة الكنسية. ثم منح الرئيس المتنحي ووريثه بركاته، وتمنى لهما التوفيق وغادر.

وتالياً، سُلّمت الحقيبة النووية. ثم حضر الرئيس المتنحي اجتماعاً أخيراً مع وزراء القوة، ثم حظي بحفل وداع رسمي.

وفي حوالي الساعة الواحدة غادر الرئيس المتنحي، الكرملين.

وهكذا انتهت السيرة السياسية للرئيس المتنحي، الذي يبدو أن الجميع، بما في

ذلك رأس الكنيسة الروسية، كانوا مرتاحين لتنحيه وخروجه من المشهد السياسي. وبدأت حكاية فلاديمير بوتين، الذي دخل المشهد تحيط به الأسئلة حول هويته وشخصيته، ومن أين وكيف جاء إلى ذلك المشهد الروسي العصيب، بينما تتوالى اليوم سيرته السياسية يرصدها الإعلام، بأقلامه وعدساته، لحظة بلحظة.

في ذلك اليوم المشهود، أصيبت عائلة بوتين، التي لم تكن تعرف شيئاً عما يجري، بالذهول حينما علمت أن ربها أصبح رئيساً بالوكالة. لم تُصدّق ابنتا بوتين أن والدهما بات سيد البلاد. لقد تلقتا الخبر من والدتهما، فاعتقدتا أنها تمزح. ثم فطنتا إلى أن ليس من طبع والدتهما المزاح في مثل هذه المواضيع.

بعد ذلك بدأ جرس الهاتف يرنّ باستمرار، كان الجميع يتصلون مهنئين.

في منتصف الليل جلست العائلة تشاهد التلفزيون، ورأت ربها يهنئ الشعب بالعام الجديد، بصفته رئيس البلاد بالوكالة. وكانتا بعد سماعهما الخبر قد شاهدتا بوريس يلتسين يوجه كلمته الأخيرة التي أذيعت لأول مرة في الثانية عشرة ظهر اليوم الأخير من القرن العشرين. ولكن رؤية والدهما يهنئ الشعب بدلاً من الرئيس في منتصف تلك الليلة، كان شيئاً مختلفاً، جعلهما تستوعبان الخبر بكل أبعاده!

علمت زوجة بوتين، لودميلا ألكسندروفنا، باستقالة يلتسين، في الثانية عشرة والنصف ظهراً. اتصلت بها صديقة وعرفت منها.

وتقول لودميلا ألكسندروفنا أنها بكت طوال اليوم، لأنها أدركت أن حياتها الشخصية وخصوصيتها العائلية انتهت هناك. أو هي على الأقل ستنتهي بعد ثلاثة أشهر مع حلول الانتخابات الرئاسية..

وفي أحسن الأحوال، لمدة أربع سنو

أما بوتين نفسه، فشعر بالرضا حينما ذهب للعمل في اليوم التالي رئيساً

بالوكالة. كان شعوراً يوصف بكلمات أفضل من تلك التي يعرفها، إذ، حسبما يقول، لا شعور أفضل من ذلك الذي يتأتّى من الوضع الذي يعرف فيه الإنسان أنه سيتخذ القرارات بنفسه، من إدراك أنه أصبح المرجع الأخير، وأنّ كلّ شيء بات يعتمد عليه، وأنه ذلك الشخص الذي يحمل المسؤولية على عاتقه.

ما يشبه الخاتمة

ما يشبه الخاتمة

خطة أندروبوف

بالنسبة للكثيرين يمثل وصول فلاديمير بوتين إلى رئاسة روسيا عملية استيلاء منظمة من قبل الـ«كي. جي. بي» على السلطة في البلاد؛ وهذا الاعتقاد يعود إلى فرضية تستند على معطيات محدّدة، وروايات متعددة، تشير إلى دور غامض لـ«كي. جي. بي» في الأحداث العاصفة التي شهدتها روسيا منذ مطلع الثمانينات؛ وهي كلها أحداث تحيل إلى المدير الأسطوري للجهاز الأمني، يوري أندروبوف، في سياق تُعارف عليه باسم «خطة أندروبوف»..

ما هي هذه الخطة..؟

هناك نظرية شائعة، يوردها الكاتب ديميتري كارتسوف في مقالة شهيرة بعنوان «خطة أندروبوف» نشرت عام 2014، تقول إن الأمين العام كان يحمل في جعبته خطة إصلاح شاملة وجذرية للدولة السوفيتية؛ وأن نسخة مشوهة من هذه الخطة، التي لم يمهل القدر صاحبها، نُفِّذت لاحقاً على يد آخرين أقل خبرة وذكاء تحت عنوان «البيريسترويكا».

وتجزم هذه النظرية أن الأمر لا يقتصر على مثل هذه الخطة الاستراتيجية، بل طُوّرت، في عهد أندروبوف إلى جانب ذلك، خطة طوارئ موازية، في أعماق الـ«كي. جي. بي»، لمواجهة أي تطورات طارئة يمكن أن تقود إلى تغيير هوية النظام، أو انتقال السلطة إلى قوىً غير شرعية..

وتقوم خطة تأمين السلطة هذه، على عملية إعادة توزيع الملكية، بما يضمن سيطرة ضباط الـ«كي. جي. بي» على اقتصاد البلاد بأكمله، في هيئة «أوليغارش»، بما يضمن لهم الأمساك بزمام الأمور، وتحويل مجرى الأحداث، واستعادة السلطة.

وفي الواقع، يجد الكثير من ضباط الـ«كي. جي. بي» السابقين متعة في الحديث عما يسمى «خطة أندروبوف». متعة تعكس على نحو خاص اعتزازهم

بعقل قائدهم السابق، الذي يُعدّ احترامه وتقديره معياراً للولاء، ومقياساً للالتزام.

ويُنقل الكاتب ديميتري كارتسوف في مقاله عن واحد من هؤلاء الضباط، هو غينادي غودكوف، النائب السابق في مجلس الدوما، الذي يؤكد أن خطة تغيير لإصلاح الإدارة والنظام السوفيتي كانت جاهزة، بالفعل، لدى يوري أندروبوف منذ أواسط الستينات، وعملياً منذ الإطاحة بخروتشوف. ولكن في ذلك الوقت، كانت هذه الخطة تبدو راديكالية للغاية، فلم تحظ بالقبول، وبدلاً منها اختيرت خطة ألكسي كوسيغين اللينة، والمرنة.

ويعتقد غودكوف أن رئيسه السابق لم يصرف الطرف عن خطته، ودأب على تطويرها وتعديلها طوال العشرين عاماً، التي تفصل بين ظهورها بصيغتها الأولى أواسط الستينات واستلام أندربوف الحكم، في النصف الأول من الثمانينات.

وبالطبع، هناك العديد من «الأساطير» المتداولة حول هذه الخطة المفترضة للإصلاح الجذري للنظام السوفيتي، غير أن كثيراً مما هو متداول لا صلة له بالواقع، ويلبي حاجات تتعلق بمصالح معينة، لا علاقة لها بالخطة، ولا بأهدافها، ولا واضعيها. فيما الخطة نفسها، مثل أي شيء يتعلق بالنظام وآلياته الداخلية، محاطة بالسرّيّة القصوى.

ويُلفت من يؤكدون وجود مثل هذه الخطة إلى أن هذه السرّيّة لم ترفع لليوم. أما من كانوا، بطريقة ما، على دراية تفصيلية بهذه الخطة، فيلزمون الصمت، وينفون علمهم بوجودها. ما يعني شيئاً واحداً: أنها لم تفقد علاقتها بالواقع، وأنها تمس التطورات التي شهدها الاتحاد السوفيتي في المرحلة الحرجة الأخيرة من وجوده، وتحديداً تمرد آب من عام 1991، الذي قادته الـ«كي. جي. بي»، وما يسمى بـ«عملية الوريث» التي يفترض أنها جاءت بفلاديمير بوتين رئيساً لروسيا، الذي جرى تأمينه فوراً بمفاتيح السيطرة على البلاد، ومن ذلك

تمكينه من الإمساك بالقسم الحرج المخفي من ثروات الدولة السوفيتية السابقة.

وهؤلاء من جهة أخرى لا يستغربون أن السرّيّة لم تنجح في إبقاء الخطة طي الكتمان، ولم تمنع ظهور خطوطها العامة على الملأ. والسبب أن أشخاصاً وجهات عديدة، كان لهم دور محدداً في هذه الخطة، تحدثوا عن أدوارهم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، معتقدين أن ما يكشفونه كان مجرد برنامج حكومي عادي. ولم يدر بخُلدهم أن ما كانوا يضطلعون به هي أدوار في خطة شاملة، يرعاها جهاز الـ«كي. جي. بي»، ويديرها بإشراف يوري أندروبوف الذي أصبح أميناً عاماً يقود الدولة والحزب.

وعلى سبيل المثال، من كبار المسؤولين الذين عملوا مباشرة مع الأمين العام يوري أندروبوف، هناك القطب الصناعي السوفيتي الشهير، أركادي فولسكي، عضو اللجنة المركزية للحزب في الثمانينات، الذي تحدث عن بعض تفاصيل الخطة الكبيرة الشاملة، في جزئها الإصلاحي.

يؤكد فولسكي: «كان لدى أندروبوف تصور ذهني راسخ لعناصر خطة للقضاء على الأساس القومي الذي يقوم عليه الاتحاد السوفييتي».

ويوضح فولسكي في حديث صحافي أُجري معه قبل وقت قصير من وفاته: «لقد أُخمدت الفتنة العرقية في الاتحاد السوفيتي، ولم تكن تظهر كما هو عليه الحال اليوم، لكن كانت ثمة قناعة أنها موجودة دائماً في العمق».

ما الذي كان يقلق الأمين العام أندروبوف، على وجه الخصوص؟

كان الأمين العام، القادم من الـ«كي. جي. بي»، أكثر المسؤولين السوفيت اطلاعاً على يوميات الدولة، ومواكبة لحيثيات العمليات الجارية في المجتمع أولاً بأول، منذ قائد الدولة السوفيتية ستالين، وكان يقلقه أن الهيكل الإداري للدولة يقوم على أساس التوزُّع العرقي بدرجة أساسية، وأن هذا التوزع يجسد

خريطة تطور التنمية في الأجزاء السوفيتية. وبالتالي، كانت ثمة مناطق مقفلة على أغلبية من عرقية معينة، تعيش وضعاً تنموياً محدداً؛ ما يجعل من السهولة بمكان، أن تكتسي أي شكوى «تنموية» طابع المظلمة القومية.

يؤكد فولسكي ذلك، ويقول: «ذات يوم قال لي الأمين العام: دعنا نضع حداً للانقسام الوطني في البلاد، تصوَّر أفكاراً حول إعادة تنظيم الاتحاد السوفيتي على أساس ولايات مبنية على عدد السكان، والجدوى الإنتاجية، وبحيث يتم إضفاء صورة الأمة المتشكلة باستقلالية. ارسم خريطة جديدة لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية».

ويقول فولسكي: «أعددت خمسة عشر خياراً مقترحاً! ولم يحظ أي واحد منها برضا الأمين العام».

من الواضح، أن أي إصلاح جذري لا يمكن التوصل إليه دون مقاومة حادة من فئات النخبة النومينكلاتورية[2] الحزبية القديمة. ويمكن أن يكون رد فعل السكان غير متوقع. وكان هذا أيضاً يقلق الأمين العام.

وفقاً للبعض، كان جزء آخر من خطة أندروبوف يقضي باقامة ديكتاتورية استبدادية لبضع سنوات، تكون بمثابة حالة طوارئ مشددة، أراد الأمين العام توجيهها في المقام الأول ضد النومينكلاتورا الحزبية، التي اعتبرها المصدر الرئيسي لحالة الفساد والبيروقراطية التي أصابت دولة الاتحاد في مقتل.

وتشمل هذه «الديكتاتورية» المقترحة حظر عمل جميع الأحزاب في البلد. والـ«جميع» تعني في ظروف بلد الحزب الواحد، حل هذا الحزب الواحد الوحيد: الحزب الشيوعي السوفيتي. والسبب بسيط ومفهوم، الحزب انحط ولم يعد قوة طليعية في المجتمع.

وهذا الإجراء، يذكّر بخطط ستالين لإصلاح النظام السياسي، عبر إلغاء المادة السادسة من الدستور السوفيتي ذائعة الصيت، التي تنص على حصرية الدور

القيادي للحزب؛ لذا، فإن أفكار الأمين العام كانت تتجه نحو إعادة هيكلة مؤسسات الدولة، وبنائها على أساس ديمقراطي يعتمد التمثيل والإنتاجية، في سياق جريء وصفه بـ«الستالينية بوجه إنساني».

وبحسب المقتنعين بوجود «الخطة»، فإن تشديد النظام السياسي لم تكن الغاية منه التخلص فقط النومينكلاتورية الحزبية، بل كان ذلك شرط ضروري لإجراء إصلاحات اقتصادية واسعة النطاق، تقود إلى ذلك المسار الذي أراد أندروبوف توجيه البلاد إليه. وهذا المسار ليس خيالياً، بل أضحى خياراً مجرباً ومعروفاً، ويسمى اليوم: الطريق الصيني.

ويؤكد هؤلاء أن الفكرة العامة للإصلاح كانت تتلخص في ما يلي: لا ينبغي أن تبدأ في وقت واحد، ولا على الفور في جميع أنحاء البلاد. كانت الفكرة تدور تقريبياً حول إنشاء عشر مناطق اقتصادية تجريبية نموذجية، يُطبّق فيها التحول الاقتصادي. أي، ليس وفق معادلة «نظامان في دولة واحدة»، التي طُبّقت في الصين بعد الاندماج مع هونغ كونغ، بل «دولة واحدة مع عشرات من النظم والنظم الفرعية».

وبهذا الأسلوب يمكن اصطياد عصفورين بحجر واحد: من جهة، على أساس هذا النوع من التنافس الاشتراكي بين أقاليم الدولة يمكن فتح المجال لبروز أفضل مشروع تحديث، ومن جهة أخرى القضاء على آفة البلاد المستحكمة: الفارق والتفاوت الهائل في التنمية بين الأقاليم. ولكن من الواضح أنه في تلك الأماكن، التي كانت ستبقى تحت النظام القديم، ستنمو تدريجياً، ولكن بتسارع خطر، حالة واسعة من الاستياء، ما يتطلب سيطرة مشددة.

ومع ذلك، لتنفيذ أي إصلاحات اقتصادية ستكون هناك حاجة ماسة لمختصين مهنيين، على دراية تقنية ممتازة بتخصصاتهم. في المرحلة المبكرة يمكن أن يقوم بهذا الدور حتى الاختصاصيون الأكثر ارتباطاً بالمفاهيم التقليدية السائدة من بين البيروقراطيين الحزبيين، ولكن المراهنة الاستراتيجية على

هؤلاء هي أمر محفوف بالمخاطر؛ فآفة «النومينكلاتورا» كانت حادة وجدية جداً.

لذا، كان أندروبوف يبحث عن أشخاص جدد يمكنهم مناقشة القضايا الاقتصادية متحررين من النموذج الجامد للاقتصاد الاشتراكي المعمول به في الدولة السوفيتية، وتشجيعهم على تطوير أفكار تساعد على إعادة الهيكلة. ويجزم البعض أنه وجد هؤلاء الأشخاص. ولكن أسماءهم لم تظهر إلا بعد مرور عشر سنوات: كثير من أعضاء فريق أندروبوف انضموا في التسعينات إلى حكومة ييغور غايدار «الاصلاحية»، إضافة إلى ييغور غايدار نفسه.

ويحدد المقتنعون بـ«خطة أندروبوف» أن الأمين العام كان يدرك أنه ليس هنالك علم اقتصاد خاصاً في ظل عمليات التبادل التجاري، وفي ظرف الدولة العظمى التي تحتفظ بعلاقات متنوعة وواسعة مع العالم، وكان يفهم ذلك جيداً، ويعرف أنه لأجل القيام بإجراء إصلاحات يجب خلق إصلاحيين، والأهم من ذلك، منح هؤلاء فرصة التعرف على الاتجاهات الرائدة في علوم الاقتصاد في العالم، وهو ما يعني عملياً الاتجاهات الغربية في علوم الاقتصاد، وبهذا بالذات يفسر المقتنعون بوجود هذه «الخطة»، ذلك الموقف الليّن والمرن من قبل «الأجهزة» إزاء ييغور غايدار صاحب النزعة الانتقادية للواقع السوفييتي، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لأول حكومة ليبرالية في روسيا.

ويقول الجنرال السابق في الـ«كي. جي. بي» أليكسي كونداؤوروف، الذي أضحى لاحقاً المحلل الرئيسي لشركة «يوكوس» النفطية: «احكموا بأنفسكم: في تلك الأيام كان يمكن أن يُعتقل المرء لقراءة سولجينتسين الذي يتحدث عن وقائع تعود إلى أربعين عاماً إلى الوراء، ولكن مناقشة مشروعات إصلاح النظام، أي، في الواقع، تفكيك النظام السوفيتي، كانت تجري في بعض المؤسسات الأكاديمية بصوت عال. أهذه مجرد صدفة؟».

ويستذكر الكاتب ديميتري كارتسوف في مقاله، أن ييغور غايدار نفسه تحدث

كثيراً عن ذلك، وقال إنه وأقرانه، ناقشوا التغييرات وإعادة الهيكلة واسعة النطاق منذ مطلع الثمانينات. وحدث هذا في معهد الاتحاد السوفيتي لبحوث ودراسات الأنظمة، الذي تأسس عام 1976، وكان يتبع لجنة مجلس الوزراء المعنية بتطوير العلوم والتكنولوجيا، وينضوي تحت جناح أكاديمية العلوم السوفيتية. وكان الهدف من تلك «النقاشات» إجراء دراسة شاملة للمشاكل العلمية والتقنية والاجتماعية والاقتصادية، ذات الأهمية بالنسبة للاقتصاد الوطني.

ويُذكّر كارتسوف في مقاله، أن هذا المعهد كان يعتبر فرعاً سوفيتياً للمعهد الدولي لتحليل النظم التطبيقية، الذي تأسس في فيينا بمبادرة سوفيتية أميركية، ويتبع لـ«نادي روما»؛ وقد أُسندت إليه مهام الدعم العلمي والمنهجي للمشاركة السوفيتية في أنشطة المعهد الأم. ووفقا للفكرة، كان مخططاً للمعهد أن يصبح «معمل فكر» سوفيتي، على نحو يماثل دور «مؤسسة راند». لذا، في هذا المعهد، لم يكن هناك حدود لما يمكن مناقشته، ولم يخضع تقريباً لأي رقابة أيديولوجية. ولكن عمله، كان موضع رعاية الـ«كي. جي. بي».

ويقول ييغور غايدار الذي عمل في المعهد منذ أوائل الثمانينات: «تم إشراك المعهد بقوة في عملية وضع حلول وخطط في مجال استراتيجيات السياسة الاقتصادية، بما في ذلك وضع برامج طويلة الأجل للتنمية في الاتحاد السوفيتي. وحظي المعهد بحرية غير عادية في مناقشة المشاكل الاقتصادية، التي يصعب تصور مناقشتها في كلية الاقتصاد بجامعة موسكو. وفي أماكن أخرى، كان يمكن أن يتم طرد أهم الأساتذة من عمله على الفور بسبب ما تتناوله الندوات العلمية التي كانت تجري هناك».

ومع ذلك، لم يكن الأمر متعلقاً بتدريب الكوادر، بقدر ما كان إطاراً لدراسة المواد العلمية «الغربية» ذات العلاقة، عن الأطر المحلّية المتأثرة بالأطر الأيدولوجية بالفهم الذي تفرضه «اسوميكلاتورا» المحلية.

وفي المحصلة، فإن مناقشة قضايا الإصلاح الحساسة كانت تجري تحت سيطرة وإدارة الـ«كي. جي. بي»، أو على الأقل برعاية من هذا الجهاز، وبالنظر لحجم الخطط الطموحة التي كان يتبناها أندروبوف، فإنه من غير المرجّح أن يكون كل ذلك مجرد مصادفة، أو حادثاً عرضياً.

من الملفت أن الأسماء التي بدأت حياتها في ذلك المعهد، صعدت مع البريسترويكا، وقادت مرحلة ما بعد الاتحاد السوفيتي؛ ومن هؤلاء بيوتر آفين، الذي أصبح وزيرا للعلاقات الاقتصادية الخارجية في حكومة غايدار، وغايدار نفسه، وتشوبايس، والأوليغارش الشهير بوريس بيريزوفسكي، وألكسندر جوكوف نائب رئيس الوزراء في حكومة فرادكوف في بداية الألفية الثانية. وستانيسلاف شاتالين مستشار غورباتشوف للشؤون الاقتصادية، وأحد واضعي برنامج الـ«الخمسمئة يوم» الشهير، في أواخر الثمانينات.

من جهته، يعترض مساعد أندروبوف السابق في الـ«كي. جي. بي»، ورئيس الجهاز لاحقاً، وعضو محاولة الانقلاب على غورباتشوف، فلاديمير كروتشكوف، على اعتبار الإصلاحيين الشباب عملاء لجهاز الـ«كي. جي. بي»، ويقول: «دعونا لا نستخدم كلمة مجنّدين: الأمر لا علاقة له بهذا القاموس، ولا ما كان يجري جرى في هذا السياق. الاقتصاديون قاموا بواجبهم، في مؤسساتهم، حتى إنني لست متأكداً أن كل وزراء المستقبل هؤلاء، كانوا يدركون في بداية الثمانينات أن جهاز الـ«كي. جي. بي» كان مهتماً ويتابع عملهم. وأعرف من بعض الزملاء الذين عملوا مباشرة معهم، أن بعضهم لم يدرك أنه وعمله على اتصال وثيق مع ضباط الجهاز. عموماً، كانوا مجرد شباب في العشرينات من أعمارهم. فتية أذكياء، تعطيهم عملاً، فينصرفون إليه بسعادة، ولا يسألون، ولا يخطر ببالهم ما يستوجب السؤال».

كيف نشأ هذا الرهان على مثل هذا المشروع البديل الذي قاد إلى الوصفات الليبرالية؟ من الصعب التفكير في شيء أكثر راديكالية من تدمير النظام السوفيتي، تعليقاً على ذلك يقول كروتشكوف:

«في منتصف الثمانينات كان هذا الاتجاه الأكثر «عصرية» و«حداثة» في الاقتصاد. تذكروا: التاتشرية، الريغانية. بطبيعة الحال، كانت هناك الاشتراكية السويدية، ولكن نحن لم نكن نريد أن نكون السويد.. وهذا، بطبيعة الحال، فشل تاريخي كبير، بالتأكد. لكنني لا أعتقد أنه كان هناك مخرج آخر. «الفتية» كانوا شغوفين بالليبرالية الجديدة، ولم يكن من الممكن أن يقول أحد: «دعكم من هذا، اهتموا بشيء آخر. لقد كانوا تجربة، وكان يجب تركها أن تمضي بشكل طبيعي في المختبر»، إضافة إلى أن هذا يتعارض مع جوهر فكرة أندروبوف، الموجهة ضد الدوغمائية الحزبية في الاقتصاد السياسي. وعلاوة على ذلك، كانت نمور شرق آسيا قد بدأت بالظهور، أما الصين فقد بدأت في نفس الوقت تقريباً معنا، وإمكانية رأسمالية الدولة لم تكن واردة على البال. الأهم من ذلك، كان إنشاء عدة مناطق، بأنظمة اقتصادية مختلفة، يمكن أن يشكل وسادة أمان في حال انتهت واحدة من هذه التجارب على نحو غير جيد. في هذه الحالة من الممكن التوقف ببساطة عن التجربة السيئة، وتعميم التجربة الناجحة».

الإشارة إلى منتصف الثمانينات و«التاتشرية» و«الريغانية»، تفيد بأنه بُدِء بتنفيذ الخطة بعد وفاة أندروبوف وتولي غورباتشوف الحكم، لإحالة مهمة يضعها الكاتب ديميتري كارتسوف في مقاله فيشير إلى أن هذا التفكير، قاد الجناح الأكاديمي الليبرالي، الذي كان يتابعه جهاز الـ«كي. جي. بي»، إلى خلاصاته الواضحة التي نشرت أجزاء منها ربيع عام 1990، في مقالة «ملاحظات تحليلية حول مفهوم التحوّل إلى اقتصاد السوق في الاتحاد السوفيتي»، التي أعدتها مجموعة من الاقتصاديين برئاسة اناتولي تشوبايس، الشاب المجهول وقتها.

وترد في هذه المقالة أفكار صادمة:

«مقاومة الجماهير الواسعة للإصلاح مرتبطة بضرورة تنفيذ تلك الاصلاحات من خلال إجراءات قاسية لا تحظى بالشعبية وتتطلب دفع تكاليف لا يمكن

تجنُّبها، تشمل ليس فقط انخفاضاً كبيراً في مستويات المعيشة، ولكن أيضاً ارتفاعاً حاداً لتكاليفها. والأهم من ذلك، إباحة التمايز الاجتماعي والاقتصادي، وتشريع المضاربة بمستوياتها وكذلك ما ينجم عنها من «إثراء غير مشروع» لأفراد وشرائح اجتماعية، وغسيل أموال اقتصاد الظل».

ويوصى مؤلفو المقالة من أجل مواجهة نزعة معاداة الإصلاح بما يلي: «حل النقابات في حال معارضتها لسياسات الحكومة» و«وضع قانون طوارئ ضد الإضرابات»، و«فرض السيطرة على جميع وسائل الإعلام»، و«تدابير قمع مباشر ضد النشطاء الحزبيين».

ومن المحتمل جداً أنه كان مخططاً أن تُسند إلى مجموعة «غايدار - تشوبايس» إعادة هيكلة واحدة من المناطق الاقتصادية التجريبية المفترضة، ولكن من المؤكد أنه لم يكن من الوارد تعميم هذه التجربة في كل الأحوال على كامل البلاد، أو أن تتبنّى الدولة أفكار هذه المجموعة سياسة اقتصادية رسمية.

لم يطل عهد يوري أندروبوف بما يكفي لوضع الخطة موضع التنفيذ، وعهد تشيرنينكو الذي تلاه كان قصيراً وصاحبه لا يستمرئ مثل هذه المناورات، ثم جاء غورباتشوف، فاستثمر الأفكار المختبرية لـ«العلماء الشباب» في البريسترويكا؛ فأخذت الفكرة الليبرالية زخماً وقوة دفع، موجهة منذ البداية «النومينكلاتورا» الحزبية، نفسها، التي كانت قدمت لها خدماتها الجليلة، وبالنتيجة انهار الاتحاد السوفيتي.

ومع ذلك، يمكن لأندروبوف، اليوم، بعد نحو أربعين عاماً من وصوله إلى السلطة، أن يشهق باعجاب بينما هو يرى عناصر جهازه الأمني متغلغلين في قيادة أغلب مؤسسات وهيئات وإدارات الاقتصاد الروسي، إلى درجة أنه يتشكل انطباع بأن هؤلاء الناس ذوي البزات أقاموا نظام «رأسمالية وطنية»، أو بالأحرى رأسمالية الـ«كي. جي. بي»، بما ينسجم مع خطته.

ولكن مع تدقيق بسيط: بما ينسجم مع الجانب المتعلق بالطوارئ من خطته..

خطة الطوارئ

كانت هناك إلى جانب خطة الإصلاح الشاملة والجذرية للدولة السوفيتية، خطة طوارئ موازية لتأمين السلطة، وتتحسب وفق النظرية الشائعة حول «خطة أندروبوف»، لانهيار النظام بفعل الاختناقات الطبيعية التي يعيشها، أو حتى بفعل خطة الإصلاح نفسها، وتركّز على مواجهة مثل هذه التطورات الطارئة التي يمكن أن تقود إلى تغيير هُوية النظام، أو نقل السلطة فيه إلى قوى غير شرعية..

الفكرة الأساسية تقوم على إيجاد آلية للإمساك بجذر السلطة الأساسي المتمثل بثروة البلاد ومؤسساتها الاقتصادية، من خلال عملية إعادة توزيع الملكية، بما يضمن سيطرة ضباط الـ«كي. جي. بي» على اقتصاد البلاد بأكمله، في هيئة «أوليغارش»، قادرين على إدارة زمام الأمور، وتحويل مجرى الأحداث إلى الوجهة المناسبة، التي تتيح استعادة السلطة.

من الواضح، أن صاحب الخطة المفترضة كان يضع في حسابه أن الأمور يمكن أن تخرج عن السيطرة، ويفترض به أن يفعل ذلك، لا سيما أنه في عمره المتقدم، وصحته الضعيفة، لم يكن ليستطيع أن يكون متفائلاً بقدرته على تنفيذ خطته في حياته.

وهو يعرف أن لا سند له في خطته سوى الجهاز الذي أداره لفترة طويلة، وتعرف عنه انضباطيته واحتفاظه بجسمه بعيداً عن الفساد وأمراض «النومينكلاتورية» الحزبية والجهاز البيروقراطي الحكومي: هذا الجهاز هو الـ«كي.جي. بي».

ويعرف كذلك أن إصلاحاً جذرياً كالذي يسعى إليه لا يمكن التوصل إليه دون مقاومة حادة من فئات النخبة «النومينكلاتورية» القديمة، ناهيك عن ردة فعل السكان غير المتوقعة.

وبالأصل، كانت الخطوط العامة لخطة الطوارئ موجودة في جوهر الخطة الأصلية، خطة الإصلاح الجذري عبر عشر مناطق اقتصادية تجريبية، كان من الواضح أن من بينها واحدة على الأقل ستكون من نصيب «الفتيان» الشغوفين بالليبرالية الجديدة، وأفكارها، فيما هناك مناطق أخرى من نصيب آخرين من ممثلي التوجهات الأقل تطرفاً، الذي يمثّلون «الحل الوسط بين اقتصاد السوق ونظام الإدارة السوفيتية»، على حد الوصف الذي يستخدمه يلتسين بالإشارة إلى رئيس وزرائه تشيرنوميرين.

وعموماً، في هذه المناطق، التي سيتم فيها تطبيق نموذج اقتصادي مغاير، لم يكن وارداً السماح للأجانب بالدخول والاستثمار فيها. لذا، كان ثمة سؤال حول الرأسمال الأولي، الذي سيخوض التجربة، ويطبق أفكارها. وبالتحديد، كان يلزم أشخاص بعقل يفكر خارج صندوق التفكير التقليدي الذي تدور فيه أفكار الإدارة السوفيتية. وإن أُوجِد هؤلاء الأشخاص، فإنهم سيكونون بحاجة إلى رأسمال أولي يبدأون به رحلتهم في عالم الاقتصاد التجريبي.. الهجين.

بطبيعة الحال، لم يكن بدّاً من أن تقوم الدولة نفسها بتعيين هؤلاء، الذين سيبنون رأسمالهم الأولي من خلال الأملاك التي يتم تحريرها من ملكية الدولة لصالحهم. وبحسب الخطة، فإنه في المرحلة التجريبية لم يكن من الضروري أن يكون هؤلاء من عناصر الجهاز، ولكن كان عليهم، بطبيعة الحال، العمل تحت إدارة الـ«كي. جي. بي».

ويقال إنه جُهِّز أشخاص لذلك بالفعل..

وربما، يفسر هذا ظهور مفاجئ لأصحاب أعمال أثرياء فجأة في مرحلة مبكرة من بدء عملية البريسترويكا، ولعل من اللافت أن أول وأبرز هؤلاء بوريس بيروزوفسكي، الذي هو واحد من تلك المجموعة التي رُعيت من الـ«كي. جي. بي» في معهد الاتحاد السوفيتي لبحوث ودراسات الأنظمة، وفلاديمير غوسينسكي الذي بدأ صعوده عندما كان واحداً من مخرجي حفلي افتتاح

واختتام أولمبياد موسكو، الذي كان مسرحاً للعملية الشهيرة، «أولمبياد 80»، التي صممها أندروبوف لاستيعاب كوادر جديدة في مجالات مختلفة، وفي جزئها الاستخباراتي كان بوتين نفسه جزءاً من الكوادر الاستخباراتية الجديدة التي جرى اختبارها في تلك العملية.

ومن اللافت، أن عام 2005 شهد ظهور أول جزء من كتاب متعدد الأجزاء بعنوان «مشروع روسيا»، لمؤلف مجهول، يتحدث عن قائمة طويلة من المواضيع ذات العلاقة بتاريخ روسيا القريب وخياراتها الراهنة والمستقبلية، في المجالات الروحية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

بداية، ظهر الجزء الأول من الكتاب في طبعة خاصة محدودة، أُرسلت من قبل مجهول عن طريق البريد السريع إلى مؤسسات السلطة الرئيسية في روسيا: «في. إس. بي»، ووزارة الداخلية، والإدارة الرئاسية، والنيابة العامة، ومجلس الدوما، ووزارة الخارجية. وسرعان ما أدرجت الإدارة الرئاسية الكتاب في قائمة المطبوعات الموصى بها للقراءة للموظفين العموميين، فضلاً عن الشخصيات العامة والسياسيّة.

وفي هذا الكتاب، الذي يتردد أن أحد مؤلفيه ضابط سابق في الـ«كي. جي. بي» يتحدث المؤلف المجهول عن خفايا «الرأسمال الأولي»، ويصف استخدامه كأداة وقائية من قبل الـ«كي. جي. بي» لتأمين السلطة.

يرد في الكتاب: «عندما انهيار الاتحاد السوفيتي، ظهرت حاجة ماسة إلى إيجاد نظام مراقبة للسيطرة على مخزون المواد الخام الضخم والموارد الاستراتيجية. والهدف هو منع هذه الموارد من العمل تحت أي ظرف من الظروف في خدمة أي قطاع سياسي غير خاضع للسيطرة. الفعالية وضعت في المرتبة الثانية. أما الشرط الرئيسي فكان إمكانية السيطرة. لذا، تقرّر تمرير هذه الأصول المملوكة للدولة إلى الأفراد. ولكن ليس أي أفراد، بل إلى أفراد انتُقوا بدقة».

ويمكن هنا، أن يكون لافتاً على نحو خاص تذكر أن ملفات الفساد، التي اتُّهم بها بوتين لدى عمله في مجلس مدينة سانت بطرسبورغ، كانت تتعلق في جزء رئيس منها بـ«مخزون المواد الخام الضخم والموارد الاستراتيجية»..!

ويوحي المؤلف المجهول بفكرة أن هذا النقل تم وفق استراتيجية سيطرة أشرفت عليها الـ«كي. جي. بي»، ضمن تقنية خلق أوليغارش مسيّرين و«ممسوكين». وربما لذلك، تم «التعامل» مع أولئك الأوليغارش الذين حاولوا في التسعينات أن يتصرفوا باستقلالية وجرى تحييدهم وحتى تصفيتهم جسدياً في بعض الأحيان، بينما الأوليغارش الحاليين فيبدون مثل مدراء تنفيذيين مُسيطر عليهم من مالكين فعليين في الظل.

في سياق مشابه، يوجه رئيس التحرير العلمي لمجلة «إيكسبيرت» الكسندر بريفالوف، خلال تحليله للحكم في القضية الأولى الشهيرة ضد شركة «يوكوس»، الانتباه إلى حقيقة أن كلا من جانبي الادعاء والدفاع تجاهلا في واقع الأمر حقيقة أن المستفيد الأول الرئيسي من أنشطة شركة النفط، أي المالك النهائي، هو شركة مسجلة في إحدى مناطق الأوف شور ((of sure. هي شركة «جامبليك». والأكثر إثارة للاهتمام هو أنه قد سُجّلت في الثامن من تشرين الثاني 1984، أي، في الموعد المفترض لبدء تنفيذ «الخطة».

ومن ذلك ينطلق ديميتري كارتسوف في مقاله، إلى تأكيد تلك الفرضية التي تقول إنه منذ الثمانينات، أدرك بعض الموظفين الكبار، ومعظمهم من الـ«كي. جي. بي»، إمكانية انهيار النظام السوفيتي، فاعتنوا بأن يبقى جانب من عائدات التصدير السوفيتي في حسابات ظل أجنبية. ويمكن أن يكون قد أُسست لهذه الغاية شبكة من الشركات الـ«أوف شور»، لتكون مثل صناديق لحفظ المال المتراكم.

وبالطبع، تراكمت الأموال لسنوات، وبالتالي فإن هذه العشرات من مليارات الدولارات تحوّلت في النهاية إلى رأسمال أولي، مول البداية الرأسمالية

للاقتصاد الروسي الجديد. ولهذا، فإنه ليس من المستغرب أنه يقف وراء تأسيس هذه البداية موظفون سابقون في الأجهزة. وفي هذا النموذج، فإن الأوليغارش هم ببساطة مجرد «مشغِّلين» للأموال، وأشخاص سُمِح لهم بإدارة ممتلكات اكتسبوها بأموال «آخرين».

ومن المثير للاهتمام، أن آثار شركات مثل «جامبليك» التي سُجّلت قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، يمكن مصادفتها في الكثير من الشركات المثيلة في مجال الأعمال التجارية وغيرها من الأنشطة الرئيسية لرجال الأعمال الروس.

على سبيل المثال، أُسِّست شركة «سيبير للطاقة» المملوكة لرجل الأعمال المعروف شالفا تشيغيرينسكي في عام 1996 على أساس الشركة اللندنية «بينتيكس للطاقة» المؤسسة في العام 1981 بهدف «تشجيع الاستثمار في الاتحاد السوفيتي».

على أي حال، في مطلع التسعينات وحتى منتصف العقد كان تحت سيطرة الموظفين السابقين في الـ«كي. جي. بي» المباشرة وغير المباشرة كمية هائلة من الموارد المالية. لماذا لم يستخدموها، إذا كان معبودهم أندروبوف، أوصاهم بالاستيلاء الفوري على السلطة؟

ربما في هذا السياق، بالذات، يمكن فهم تمرد عام واحد وتسعين الذي قادته الـ«كي. جي. بي». وبهذا، فإن السؤال يكون حول لماذا لجأ الجهاز إلى التشارك مع البيروقراطية الحزبية في حركته، أو بالأحرى محاولته لاستلام السلطة، تلك!؟

يتبين، حسب ديميتري كارتسوف، أن خلفاء أندروبوف ذهبوا في وقت مبكر من التسعينات إلى تسوية تكتيكية مؤقتة مع البيروقراطية الحزبية، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع مجتمع الجنرالات [illegible] وافق على منحها حصة من الملكية الجديدة، وتقريباً كل السلطة السيـ[illegible] مقابل تعيين فريق من «الأوليغارش» المرتبطين بهم، وأن يحتلوا هم أنفسهم الأماكن المناسبة. هذا هو السبب في أن

خطة تشوبايس الأصلية الحاسمة في موقفها من القضاء التام على «النومينكلاتورا»، عُدِّلت مراراً حتى لم يعد بالإمكان في نهاية المطاف التعرّف عليها.

ومع ذلك، كانت هذه التسوية حلاً مؤقتاً؛ ففي منتصف التسعينات ظهر الكسندر كورجاكوف، القادم من الدائرة التاسعة في الـ«كي. جي. بي» المعنية بحماية المواقع والشخصيات الحكومية، وسجل محاولة طموحة لفرض السيطرة الكاملة على مجرى الأمور في «البزنس» وقطاع الأعمال الروسي، مخلاً بذلك بالتوازن الدقيق الذي قامت عليه السلطة آنذاك.

ومحاولة كورجاكوف لم تأت بعيدة عن مفردات ومفاهيم وأدوات الـ«كي. جي. بي». وحاول على وجه التحديد استخدام بوابة «المادة التاسعة».

هذا التعبير، «المادة التاسعة»، في «الدارجة» الخاصة بالـ«كي. جي. بي»، يحمل إشارة إلى المال المخصص للعمليات الخاصة، التي يمنع منعاً باتاً، ويحظر تماماً، إدراجها ضمن أي تقرير إداري أو محاسبي، ذلك للتأكد من عدم إمكانية تعقّب تلك العمليات أو المشاركين بها. وهذا ما حاول فعله كورجاكوف قائد قوة حماية يلتسين، الذي كان كذلك من فريق حماية يوري أندروبوف. لقد حاول إدخال «المادة التاسعة» في الحياة اليومية لقطاع الأعمال وعالم «البزنس» الروسي.

فشلت خطة كورجاكوف، ولعبت دورها في ذلك آنذاك شخصية الرئيس، الذي لم يستطع أن يغفر لحارسه محاولته تقديم مرشح شاب له في انتخابات الرئاسة لعام 1996، إضافة إلى طباع كورجاكوف التي تتحكم بها نزعات شخصية مندفعة، ولهذا وجد نفسه وحيداً في محاولته: لم يسانده الليبراليون في الحكومة، ولا الزملاء السابقين في الـ«كي. جي. بي»، الذين رأوا فيه إنساناً طموحاً إلى درجة مزعجة، خصوصاً بالنسبة لأمور لا يجوز فيها العمل على عجل، تحت ضغط الطموحات المتقدة.

وبعد تحييد كورجكوف، ظهر في المشهد كوفاليوف من موقعه على رأس جهاز «في. إس. بي». لقد كان قد وضع لنفسه هدفاً سياسياً محدداً: الاستيلاء على السلطة، كما كان قد حاول قبله قائد حماية يلتسين السابق ألكسندر كورجاكوف، وبأسلوب أكثر هدوءاً، ومع فارق أن كوفاليوف لم يكن يريد السلطة لنفسه، ولكن لمعارضي يلتسين. ولهذه الغاية، حاول كوفاليوف السيطرة على الهياكل الاقتصادية الرئيسية في البلاد بمساعدة أكبر إدارتين اقتصاديتين في الـ«في. إس. بي»: إدارة مكافحة التجسّس الاقتصادي، وإدارة دعم مكافحة الاستخبارات للمؤسسات الاستراتيجية.

وكان هذا هو السبب الرئيس المباشر فى إقالة كوفاليوف بطريقة «انقلابية» طارئة، وإخضاع الجهاز إلى عملية إعادة هيكلة نفّذها بوتين.

ومن اللافت، أن ما واجهه وفشل في التعامل معه ألكسندر كورجاكوف، وأخفق في تنفيذه كوفاليوف، واجهه وتعامل معه بعد أكثر من ثلاث سنوات، بوتين والفريق المحيط به. بحلول عام 1999، كانت «النومينكلاتورا» الحزبية السابقة نفسها، التي استلمت السلطة والملكية الجديدة، قد أوصلت نفسها إلى حالة، لا مخرج لها منها، إلا باللجوء إلى الـ«كي. جي. بي».

وبالنسبة لجهاز الـ«كي. جي. بي» كجهة، كان الوضع في نهاية عام 1999 رابحاً على الجهتين، فالخيارات كانت محصورة بين بوتين وبريماكوف الذي هو أول مدير للمخابرات الخارجية الروسية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. ويمكن القول في هذا الشأن إن شباب الـ«كي. جي. بي» بوتين كسب الرهان ضد خبرتها بريماكوف. غير أن الأمر لم يخرج عن الجهاز في كل الأحوال.

لذا، ليس مصافة أن ينتشر انطباع أن اختيار وريث رئاسي كان عملية داخلية في الـ«كي. جي. بي»، رغم التقلبات السياسية في المشهد، التي تصدّرتها قوى أو أشخاص في مواقع المسؤولية، على رأسهم، ومن بينهم، رئيس البلاد آنذاك، بوريس يلتسين. فهؤلاء كلهم على الأغلب مجرد صدى وظلال لما كان يحدث

في داخل الجهاز نفسه.

عملياً، كانت عملية تغلغل الـ«كي. جي.بي» المفترضة في الكرملين قد تمت بنجاح، هذا على الأقل ما أبلغ به بوتين زملاءه بكلمته خلال احتفالهم بيوم الـ«كي. جي. بي» السنوي، في العشرين من كانون الأول 1999، حيث قال حرفياً: «أود أن أبلغكم بأن مجموعة ضُبّاط الـ«في. إس. بي»، التي أوكلت إليها مهمة العمل السري في الحكومة، أدت المرحلة الأولى من مهمتها بنجاح»، وما يزال صدى التصفيق المدوي، الذي تبع هذه العبارات يتردد إلى اليوم!

وهنا، يمكن تذكّر أن أول أعمال بوتين حين أصبح رئيساً للوزراء هو زيارة ضريح أندروبوف، وما كان ذلك مستساغاً أو مقبولاً من النخبة الحاكمة التي يفترض أنها استقبلته وعينته في منصبه. ولدى خوضه انتخابات رئاسته الأولى سجّلت حملته ميلاً واضحاً لتشجيع تشبيهه بأندروبوف، والتذكير بأنه يمت له بصلات مهنية.

ومع ذلك، لا بد من مخالفة هذه النظرية الشائعة على الأقل لأن أندروبوف كان فعلاً صاحب مشروع إصلاحي، ولكن مشروعه لم يكن مجهولاً ولا غامضاً، ناهيك عن أن يكون سرّياً.

من المعروف أن أندروبوف كلّف في مستهل تولّيه الأمانة العامة ميخائيل غورباتشوف ونيكولاي ريجكوف، رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي لاحقاً، البدء في إعداد خطة للإصلاح الاقتصادي، كما أنشأ في اللجنة المركزية إدارة اقتصادية خاصة، كان يرأسها مباشرة ريجكوف. كما كان استقطب لتطوير سياسة الحزب والدولة أهم العلماء البارزين والأكاديميين اللامعين في زمانه.

ويقول ريجكوف: «برأيي بدأت البريسترويكا عام 1983حينما كلّف أندروبوف مجموعة من العاملين في اللجنة المركزية، أنا وغورباتشوف من بينهم، بإعداد مقترحات لأسس الإصلاح الاقتصادي».

وفي ذات السياق يؤكد القيادي الشيوعي أناتولي لوكيانوف: «قبل عامين من الإعلان عن البريسترويكا، توصّل أندروبوف إلى استنتاج مفاده أن من الضروري وضع برنامج لإعادة هيكلة الصناعة، ومن ثم بيروسترويكا شاملة للاقتصاد الوطني بأكمله. وجلب لهذا العمل غورباتشوف، وريجكوف، ودولغيخ.. إلى جانب عدد هام من الأعلام البارزين في العلوم والصناعة».

ويجدر ذكر أن أندروبوف نشر مقالة في العدد الثالث (1983) من مجلة «الشيوعي» بعنوان: «مذهب كارل ماركس وبعض أسئلة البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي»، التي حدّدت رؤيته لتطوير التنمية الاشتراكية والمُلكية العامة. وشكّل حجر الزاوية في هذه المادة الوضع الاقتصادي والترشيد في استخدام المواد الخام، والموارد المالية، وقوة العمل.

وبالفعل، ركّز أندروبوف في خطاباته على «التجربة» في الجانب الإصلاحي، مؤكداً «إننا نضطر في بعض الأحيان إلى العمل، إذا جاز التعبير، تجريبياً، بطريقة ارتجالية جداً، بأسلوب التجربة والخطأ». إلا أن عهده شهد إنشاء لجنة خاصة لتوجيه «التجربة الاقتصادية». كما أن تلك «التجربة الاقتصادية» طُبِّقت بالفعل في العديد من الوزارات في الجمهوريات. وكان جوهر هذه «التجربة الاقتصادية»، هو توسيع حقوق الجمعيات العمالية فعلياً في مجال التخطيط والعمالة والأجور، فضلاً عن القرارات المتعلقة بتجديد المعدات التقنية اللازمة للعمل وغير ذلك.

ولا يمكن إغفال أن توجهات أندروبوف الإصلاحية تمت ترجمتها بإجراءات اجتماعية واقتصادية أساسية في ذلك الوقت، منها اعتماد «قانون الجمعيات العمالية»، الذي يسمح لأعضاء جمعيات العمل بالمشاركة في مناقشة الخطط والاتفاقات الجماعية وتحديد مبادئ إنفاق أموال العمل في المؤسسات.

وفي سياق مشابه، تُبنِّي قرار حول «إجراءات إضافية لتوسيع حقوق الجمعيات الصناعية فى التخطيط والأنشطة الاقتصادية وتعزيز مسؤولياتها

عن نتائج العمل» الذي وسع حقوق قادة الأعمال في إنفاق الأموال، وزاد من ربط الأجور بحجم الإنتاج.

وبمعنى أساسي، فإنه لدى تأمل برنامج أندروبوف الإصلاحي من خلال مراجعة الإجراءات والتشريعات التي تمت وصدرت في عهده، ودفع بها هو شخصياً، نتيقن على نحو لا يقبل الشّك أن برنامجه لم يكن يتقاطع في شيء مع الوصفة الليبرالية المعروفة في الثمانينات، ولا تلك التي ظهرت في روسيا أوائل التسعينات.

من جانب آخر، تركزت اهتمامات أندروبوف في نفس الوقت، على تشديد الإجراءات «الرّامية إلى تعزيز مكافحة الأنشطة المناهضة للدولة»، ولم يبنِ استراتيجيته على هدم الدولة بغية إعادة هيكليتها، كما يؤكد أنصار «خطة أندروبوف».

على أي حال، من المستبعد أن تكون إجراءات أندروبوف هي ما أدّى إلى انهيار الدولة السوفيتية، لا قصداً ولا سهواً. غير أن من المؤكد أن أفكاره التي تلقفها غورباتشوف، وادّعاها لنفسه، ووظّفها لصنع صورته، تُرِكت تعمل دون توجيه، انقلبت على جوهرها.

وعلى سبيل المثال، تحدث أندروبوف كثيراً، وبشكل خاص، عن توسيع الديمقراطية الاشتراكية و«الشفافية»، أو ما عرف بالـ«غلاسنوست». وهي المفردة التي أخذت طريقها إلى الشهرة العالمية على يد غورباتشوف المحب للكلام، الذي ردّدها مراراً وتكراراً دون أن يحدّد لها معنىً عملياً واضحاً، وتركها تتحول على يد الإعلام الغربي على وجه الخصوص إلى مصطلح ليبرالي، سرعان ما تبناه هو؛ فسجّل بذلك نسب المعنى إلى نفسه بعدما كان نسب المفردة نفسها. وهكذا فعل مع بقية الأفكار الاصلاحية في المجالات الأخرى، لا سيما الاقتصادية منها.

جدول المحتويات

نهاية مفتوحة

ما يشبه الخاتمة